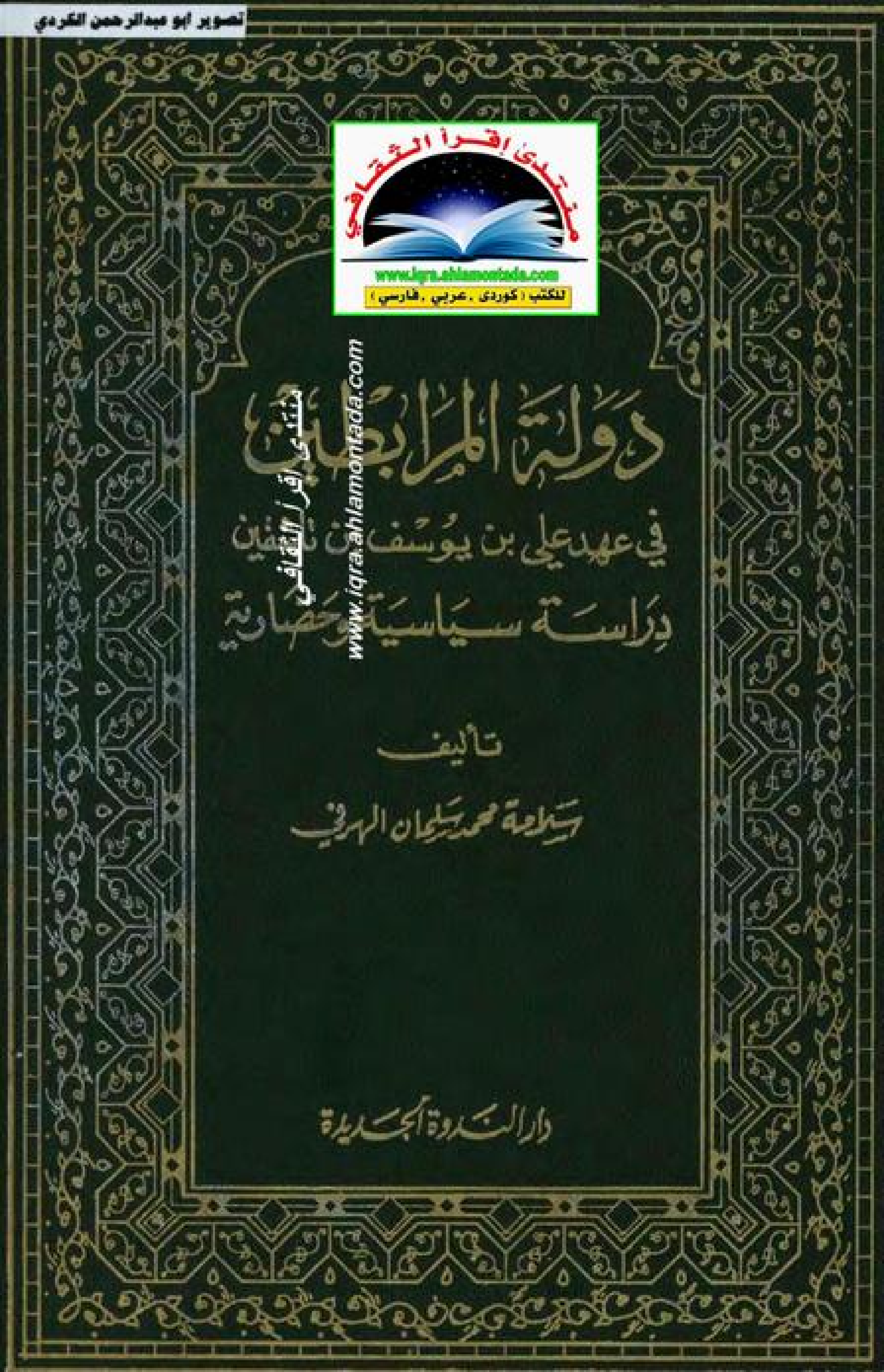

تصوير ابو عبدالرحمن الكردي
منتدى إقرأ الثقافي
www.iqra.ahlamontada.com
للكتب (كوردى ، عربي ، فارسي)
دولة المرابطين
في عهد علي بن يوسف بن تاشفين
دراسة سياسية وحضارية
تأليف
سلامة محمد سلمان الهرفي
دار الندوة الجديدة

دولة المرابطين

في عهد علي بن يوسف بن تاشفين

دراسة سياسية وحضارية

تأليف

سلامة محمد سلمان الهرفي

١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

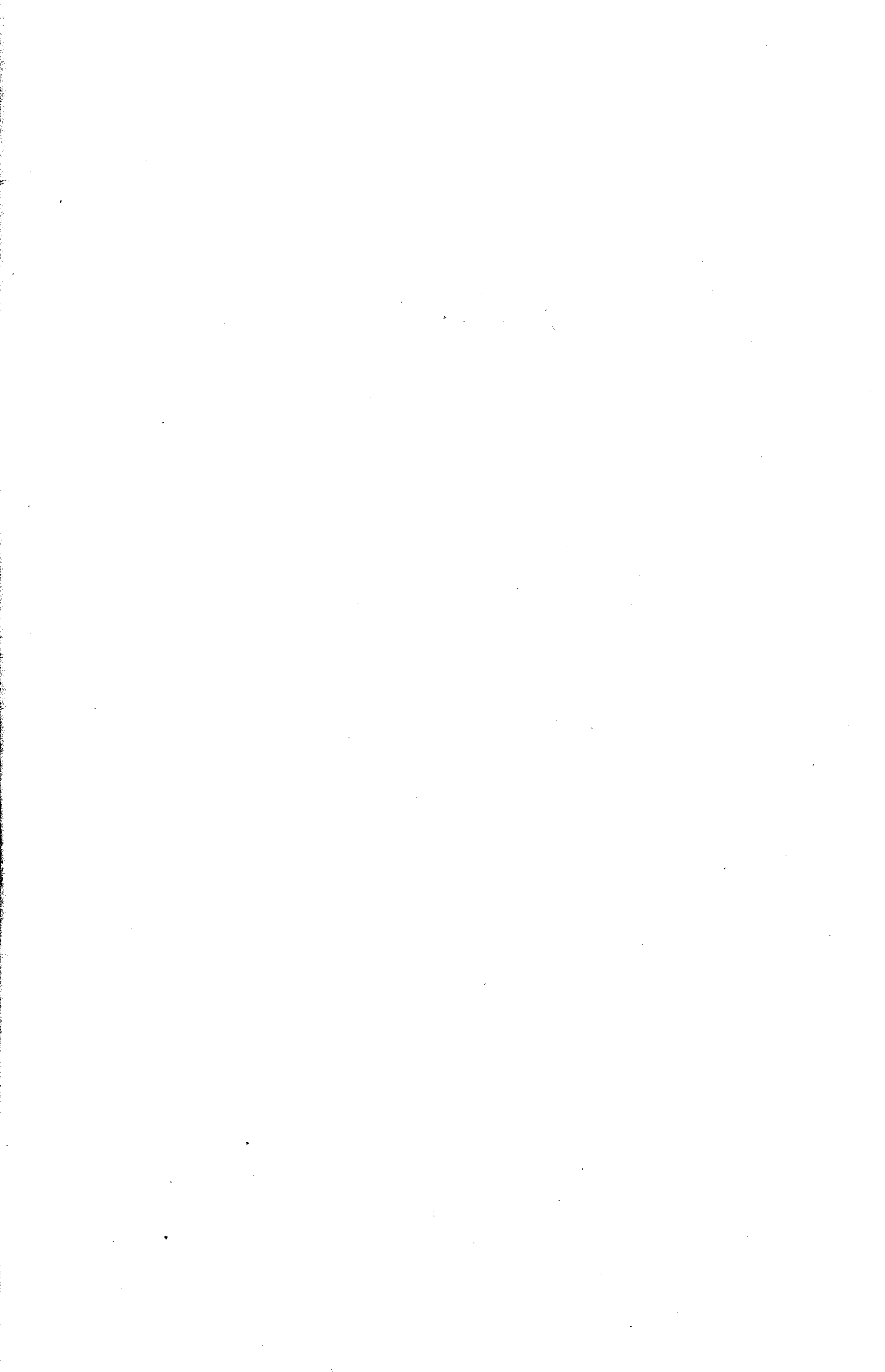
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

صدق الله العظيم

سورة آل عمران ، آية ٢٠٠ .

الرموز

مج	=	مجلد
ع	=	عدد
ق	=	قسم
د . ت	=	دون تاريخ طباعة



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي علم الإنسان ما لم يعلم ، والصلاة والسلام على أشرف خلق الله محمد بن عبد الله بعثه بالحق ليخرج الناس من الظلمات الى النور وبعد : ـ

ان علم التاريخ من أجلّ العلوم قدراً ، وكفاه شرفاً ان الله جل جلاله ضمن كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بأخبار الأمم الماضية والقرون الخالية فقال جل وعلا : ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيكَ من أنباءِ مَا قَد سَبقَ . . . . ﴾[1] وقال : ﴿ ذَلكَ من أَنباءِ القرَىٰ نَقُصُّه عَليكَ منها قائمٌ وحصيدٌ ﴾[2] .

فالقرآن الكريم يدعونا الى تأمل تاريخ الأمم السابقة لنأخذ العبرة من ماضيها ، وحتى نتعرف على عوامل سقوطها ونتجنبه ، وعوامل نهوضها ونأخذ به ، وقد بين رب العزة أن الحضارة الحقيقية هي تلك الحضارة القائمة على مفهوم لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وأن الحضارات القائمة على الإلحاد ، وإن بدت براقة لا محالة ساقطة لانحرافها عن خط الإيمان ، الذي ترتب عليه انتشار الظلم والفساد ، قال تعالى : ﴿ وَتِلكَ القُرىٰ أهلكنَاهُم لَما ظَلَموا

(١) طه ، آية ٩٩ .

(٢) هود ، آية ١٠٠ .

وَجَعَلنَا لِمَهلِكِهم مَوعِداً ﴾[1] وقال: ﴿ وإذَا أَردنَا أن نُهلِكَ قريةً أَمرنَا مُترفِيهَا فَفَسقُوا فِيهَا فَحَق عَليهَا القَولُ فَدَمرنَها تدميراً ﴾[2] الى غير ذلك من الآيات .

والتاريخ الإسلامي ما زالت فيه صفحات كثيرة مطوية لم يسلط عليها الضوء ، وهناك صفحات أخرى تعرضت للتشويه من قبل بعض الأيدي المسخرة للعبث في تاريخ هذه الأمة ، ومن هذه الصفحات المطوية ، والتي تعرضت للبتر والتشويه تاريخ دولة المرابطين بشكل عام ، وعهد علي بن يوسف بن تاشفين بشكل خاص .

فتاريخ دولة المرابطين تعرض لهجمة شرسة من قبل أعداء الأمة الإسلامية وبشكل خاص من قبل بعض المستشرقين ، لأنه عز على هذه العقول المتعصبة أن ترى دولة قوية تدك قلاع الكفر في اسبانيا في الوقت الذي نجح فيه الصليبيون في دخول بيت المقدس فحاولوا قدر المستطاع طمس تلك الصفحة المشرقة ﴿ يُريدُونَ أَن يُطفئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفواهِهِم ويأبَى اللَّهُ إلَّا أَن يُتم نُورَهُ وَلَو كَرِهَ الكَفِرُونَ ﴾[3]، وحاول أيضاً بعض الباحثين من العرب والمسلمين تقليد هؤلاء المستشرقين بقصد أو بغير قصد ، فوصفوا هذه الدولة بالتخلف والهمجية واعتبروا قيامها بداية لانحدار الحضارة العربية الإسلامية في المغرب والأندلس لذا رأيت من الواجب أن أسلط الضوء على تاريخ هذه الدولة في عهد أمير المسلمين علي ابن يوسف بن تاشفين لابرز دور هذه الدولة المجاهدة في هذه الحقبة في مختلف المجالات ، السياسية ، والجهادية ، والإقتصادية ، والاجتماعية ، والفكرية والمعمارية . وجاء اختياري لدراسة هذه الجزئية من تاريخ هذه الدولة لأنني لاحظت أن جل الدراسات التي قدمت في تاريخ هذه الدولة انصبت على فترة التأسيس وعهد يوسف بن تاشفين مكتفية بالإشارة العابرة لعهد علي بن يوسف ودون أن تكشف عن الدور الخطير الذي قام به علي بن يوسف في هذه الحقبة في مجال الجهاد والحضارة

---

(١) الكهف ، آية ٥٩ .

(٢) الإسراء ، آية ١٦

(٣) سورة التوبة ، آية ٣٢

الإسلامية . وربما لم يدرك المؤرخون أهمية هذا العهد في تاريخ المغرب والأندلس وفي تاريخ الحضارة الإسلامية ، وما خلفه من تراث مجيد بقيت أوروبا تستضيء بنوره في مجال الطب والصيدلة والجغرافيا والأدب حتى عهد قريب . فهو عهد ابن زهر ، وابن باجة ، والإدريسي ، وابن رشد ، وابن العربي ، وابن خفاجة ، وابن خاقان ، وعهد الجهاد ومقارعة أعداء الله والذي أخر سقوط الأندلس عدة قرون ، وعهد التقدم الصناعي ، والتجاري ، والزراعي ، والعمراني . وهو العهد الذي نشأت وترعرعت فيه دعوة من أخطر الدعوات التي ظهرت في المغرب وهي دعوة محمد بن تومرت التي قضت في نهاية الأمر على دولة المرابطين . وموجز القول فان هذا العهد يمثل قمة الإزدهار الحضاري لدولة المرابطين ، وفي نفس الوقت يمثل بداية الانهيار والسقوط لهذه الدولة .

وعلى الرغم من أهمية هذا الموضوع إلا أني لم أجد أحداً من الباحثين فيما أعلم قد بحثه بشكل متكامل يبرز جوانبه الحضارية والسياسية ويلقي ضوءاً ساطعاً على ما خلفه من آثار تستحق العناية . فقد عرج عليه الباحثون على عجل في الوقت الذي أسهبوا فيه في عهد يوسف بن تاشفين ، ومن هؤلاء حسن محمود في أطروحته لنيل درجة الدكتوراه التي كان موضوعها قيام دولة المرابطين ، والسعيد محمد مجيد في أطروحته لنيل درجة الدكتوراه في الشعر في عهد المرابطين ، وخليل إبراهيم صالح البشير في أطروحته لنيل درجة الدكتوراه عن علاقات المرابطين بالممالك النصرانية بالأندلس والدول الإسلامية ، وعصمت هانم عبد اللطيف في أطروحتها لنيل درجة الماجستير عن دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب أفريقيا ، وعبد رب النبي محمد في أطروحته لنيل درجة الماجستير عن مسكوكات المرابطين والموحدين في شمال أفريقيا والأندلس . كما كتب رضا عبد الجليل الطيار عن الدراسات اللغوية في الأندلس منذ مطلع القرن السادس الهجري حتى منتصف القرن السابع الهجري ، وكتب ميرانده مقالة في مجلة تطوان عن علي بن يوسف وأعماله في الأندلس . هذا بالإضافة الى دراسات أخرى عن المرابطين رسمت

صوراً جزئية لا تروي ظمأ الباحث الذي يهدف إلى رسم صورة متكاملة عن هذا العهد . ولكننا نلتمس للمؤرخين بعض العذر في احجامهم عن الإفاضة في بحث هذه الفترة ، والتوسع في الدور الذي لعبه علي بن يوسف في مجال الحرب والسياسة والحضارة لقلة المادة العلمية ، فقد ضاعت مصادر كثيرة عن هذا العصر على درجة كبيرة من الأهمية ، مثل كتاب الأنباء في سياسة الرؤساء ، وكتاب الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية لابن الصيرفي . ويجب في هذا الصدد أن لا ننسى ما قام به الموحدون أعداء الدولة المرابطية من أعمال تخريب وطمس لكل ما يشرف هذه الدولة ، فلم يصلنا من المصادر المرابطية المعاصرة إلا النذر اليسير . كما لا يخفى على الباحثين صعوبة جمع المصادر والمراجع لمثل هذا البحث لانتشار أصولها في عدة مكتبات عالمية .

على الرغم من كل ذلك أقدمت على دراسة هذا الموضوع ودقات قلبي تتسارع خشية أن تصرفني ضحالة المادة العلمية عن إماطة اللثام عن تاريخ هذه الحقبة . ولكني بعون الله وتوفيقه عثرت على المصادر والمراجع التي غطت معظم جزئيات الموضوع وأبرزت بقدر المستطاع أهم معالمه السياسية والحضارية .

وقد قسمت بحثي الى أربعة أبواب تحوي أحد عشر فصلاً مسبوقة بمقدمة وبحث في أهم المصادر والمراجع وتمهيد ، ثم ختمت البحث بخاتمة أبرزت فيها نتائج دراستي لعهد علي بن يوسف بن تاشفين . وفي تحليل المصادر تحدثت عن بعض المصادر الفقهية ، وكتب التراجم ، والمذكرات الخاصة ، وعن مجموعات الوثائق ، ودواوين الشعر ، وكتب التاريخ الأندلسي العام ، ثم عن المصادر المشرقية ذات القيمة ، وعن الموسوعات الجغرافية ، وعن بعض المصادر المفقودة والتي اعتمد عليها بعض المتأخرين أمثال ابن عذارى ، وابن الخطيب مبرزاً خلال العرض أهمية هذه المصادر بالنسبة لموضوع بحثي . هذا ولم تفتني الإشارة إلى أهم المراجع الحديثة التي تناولت تاريخ المرابطين لا سيما ما كان منها خاصاً بموضوع البحث .

أما التمهيد فقد عرضت فيه لأحوال العالم الإسلامي في المشرق

والمغرب موضحاً ما كان يعانيه من تفكك وضعف في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ، ثم تحدثت عن دولة المرابطين من النشأة حتى وفاة يوسف بن تاشفين مبيناً أهم منجزاته في مختلف المجالات .

وخصصت الباب الأول للأحوال الداخلية في دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين ، ويقع هذا الباب في ثلاثة فصول : الأول منها تحدثت فيه عن ولاية علي بن يوسف بن تاشفين للحكم ، وأبرزت كيف تمت بيعته في حياة والده ، والشروط التي اشترطها عليه والأسباب التي حدت بيوسف الى اختيار ابنه علي على الرغم من أنه لم يكن أكبر اخوته ، كما تكلمت عن أهم سمات شخصيته ، أما الفصل الثاني فقد خصصته للحديث عن الثورات والفتن في المغرب والأندلس من عام ٥٠٠ حتى ٥٣٧ هـ/ ١١٠٦ ـ ١١٤٢ م وعرضت فيه لعدة ثورات منها ثورة فاس ، وثورة أبي بكر بن علي في غرناطة ، وثورة ابن الحاج في قرطبة ، وثورة الرعية فيها ضد واليها ابن رواد ، وثورة العامة في قرطبة على اليهود ، وثورة العامة فيها أيضاً ضد القاضي ابن رشد ، وثورة العامة في إشبيلية ضد القاضي ابن العربي . والفصل الثالث أفردته لثورة المهدي ابن تومرت التي كانت معولاً من معاول الهدم في جسم الدولة المرابطية ، ومثالاً للدعوات المنحرفة التي تقوم على تعاليم فاسدة . فتحدثت عن فكرة المهدي وكيف استغلت في حقب التاريخ لتحقيق طموحات بعض الشخصيات على حساب الدين ، وكيف أن هذه الثورة كانت نتيجة للصراعات بين قبائل البربر . كما تحدثت عن نسب ابن تومرت ، ـ ورجحت عدم نسبته العلوية ثم نوهت بأثر العوامل الجسمية والاقتصادية والسياسية والثقافية في دعوته ، ورجحت عدم لقاء ابن تومرت بالغزالي ، كما تتبعت مراحل دعوته ، وما تعرض له من طرد وسجن في المشرق والمغرب ، واعلان مهديته وطرده من مراكش مشيراً الى جرائمه الدموية واعتماده على المكر والخداع لتثبيت عقيدته في نفوس أتباعه ، وتتبعت أيضاً مراحل الصراع المسلح بين الموحدين والمرابطين الذي بدأ في عهد علي بن يوسف واستمر الى أن سقطت دولة المرابطين على يد

الموحدين . وإذا كانت دعوة محمد بن تومرت قد نجحت في إسقاط دولة المرابطين إلا أن أتباعه ما لبثوا بعد فترة من الزمن أن تخلوا عن مهديته وأعلنوا زيفها وأسقطوا اسمه من السكة والخطبة .

وعقدت الباب الثاني للعلاقات السياسية للمرابطين مع العالم الإسلامي ، ويقع في فصلين : الأول منها أفردته لعلاقة دولة المرابطين ببني هود في سرقسطة وروطة ، وتحدثت فيه عن أهمية سرقسطة الاستراتيجية والاقتصادية والثقافية ، وتطور علاقتها مع المرابطين منذ عهد يوسف بن تاشفين وحتى سقوطها بيد النصارى عام ٥١٢ هـ / ١١١٨ م ، وعوامل هذا السقوط ونتائجه على المرابطين والنصارى . ثم تتبعت علاقاتهم ببني هود في روطة حتى وفاة آخر حاكم من حكام بني هود عام ٥٤٠ هـ/ ١١٤٥ م مشيراً في أكثر من موضع لعلاقات بني هود بالممالك النصرانية .

وشمل الحديث في الفصل الثاني علاقات المرابطين مع إمارة بني زيري ، فقد تضافرت جهود بني زيري والمرابطين لصد عادية النورمان ، كما كانت العلاقات المرابطية العباسية على أفضل ما يكون كما تدل على ذلك وثيقة جديدة أشرت إليها في البحث . هذا ولم تكن العلاقات بين الدولة المرابطية والدولة الفاطمية منقطعة كما يظن ، فقد عثرت أيضاً على وثيقة تدل على وجود مراسلات بينهما .

وجعلت الباب الثالث لجهاد علي بن يوسف للممالك النصرانية ، وذلك في فصلين : الأول خاص بجهاده ضد مملكة قشتالة وقلمرية ، والثاني لجهاده ضد مملكتي أرغونة وبرشلونة ودخول الجزائر الشرقية . وفي هذه الدراسة تحدثت عن أشهر المعارك الحاسمة التي خاضها المرابطون ضد تلك الممالك مخضعاً إياها للتحليل والنقد لمعرفة أسباب النصر والهزيمة فيها ، ونتائج ذلك على الطرفين ، ومشيراً في نفس الوقت الى صليبية هذا الصراع .

وأفردت الباب الرابع لأهم مظاهر التطور الحضاري في دولة المرابطين ، ويقع في أربعة فصول : تحدثت في الأول منها عن نظم الحكم

والإدارة مبيناً صلاحيات أمير المسلمين ، ونظام ولاية العهد ، وعن الجيش والأسطول ، وعن نظام القضاء والخطط المتفرعة عنه .

وخصصت الفصل الثاني للحياة الاقتصادية والاجتماعية وتحدثت فيه عن الزراعة وأهم المحاصيل المنتجة ، وجهود الدولة في دفع عجلة الحياة الاقتصادية إلى الأمام ، وعن حركة التجارة الداخلية والخارجية ، والصناعة ، كما تحدثت عن العملة المرابطية . وفي هذا الفصل أيضاً عرضت بالدراسة للحياة الاجتماعية .

أما الفصل الثالث فقد خصصته للحركة الفكرية ، وحاولت فيه الرد بالدليل الدامغ على كل من رمى هذه الدولة بالتخلف والهمجية ، وأبرزت دور حكامها في دفع عجلة التقدم العلمي عن طريق مشاركتهم في طلب العلوم المختلفة . فقد اشتغل علي بن يوسف بن تاشفين وبعض ولاته وأقاربه في تحصيل العلم والرحيل من أجله ، وحضوا أبناءهم على طلبه ، بل تعدى الأمر الى مشاركة بعض النساء المرابطيات فيه ونبوغهن في مجالات متعددة منه . كما أشرت الى أهم مراكز الاشعاع الحضاري في الدولة وعوامل ازدهار الحركة الفكرية في هذا العهد ، ثم ـ أخذت أعرض لكل فرع من فروع العلم التي ازدهرت في هذه الحقبة مبرزاً أهم من نبغ فيه وما أضافوه من جديد في كل ميدان . فتحدثت عن العلوم الشرعية من حديث وقراءات وتفسير ، ثم علوم اللغة العربية من أدب وشعر ونثر ونحو ، وعن الجغرافيا والتاريخ والأنساب ، والفلسفة ، والصيدلة والطب .

وفي الفصل الرابع تناولت بالدراسة العمارة والفنون الإسلامية في عهد علي بن يوسف ، وفي هذه الدراسة أشرت إلى العوامل التي تحكمت فيها . وقد قسمت حديثي عن هذا الموضوع إلى ثلاثة أقسام : الأول يشمل الحديث عن العمارة المدنية المتمثلة في عمارة المدن والمرافق العامة والقصور ، والثاني عن العمارة الدينية وتشمل المساجد وما يتعلق بها ، والثالث عن العمارة العسكرية من قلاع وأسوار ، ثم ختمت دراستي لهذا الجانب بالحديث عن الفنون الزخرفية .

وفي الخاتمة تحدثت عن أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال دراستي لهذا العهد .

وفي نهاية هذا العرض لا يفوتني أن أسجل خالص شكري وتقديري لكل من استرشدت بجهودهم في هذا البحث والذين سبقوني في بحث تاريخ دولة المرابطين ، فقد أخذت من مؤلفاتهم ولمست معاناتهم وجهدهم في البحث والتنسيق والتبويب وحاولت أن أضيف لما صنعوه بعض ما فاتهم سواء من حيث الموضوع أو من حيث الشكل ، وربما خالفتهم في بعض ما ذهبوا إليه فذلك من سمات حرية الفكر في البحث العلمي . والله أسأل أن يهدينا سواء السبيل وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

سلامة محمد سلمان الهرفي

مكة المكرمة

ذو القعدة ١٤٠٤ هـ

بحث في أهمّ المصادر والمراجع

يمتاز تاريخ دولة المرابطين بقلة المصادر التي وصلت لنا عنه ، لأن أعداء هذه الدولة وعلى رأسهم الموحدون قد قضوا على كل ما يشرف هذه الدولة المجاهدة فطمسوا معالم حضارتها ونهضتها . إلا أنه من حسن الحظ أن بعض المصادر والوثائق التي تعود إلى هذه الفترة قد وصلت إلينا ، وإذا اضفنا اليها المصادر الثانوية وكتب التراجم فاننا نستطيع أن نمضي قدماً في دراسة هذه الدولة .

ويتصدر هذه المصادر الكتب الفقهية ، والكتب التي خصصت لأجوبة الفقهاء التي ردوا فيها على الأسئلة التي وردت إليهم من مختلف فئات الرعية وفي مختلف الموضوعات ، لذا فهي ذات قيمة كبيرة لأنها لسان حال الرعية وتحدثنا عما كان يشغلها في تلك الفترة ، وفي كثير من الحالات ترد في هذه الأجوبة ملاحظات تاريخية ذات قيمة تنفرد بها عن غيرها من المصادر التاريخية . ومن هذه الكتب « مسائل ابن رشد » المتوفي عام (٥٢٥ هـ / ١٢٢٦ م) ، والموجود في الخزانة الملكية في الرباط تحت رقم ٦٥٧٧ . وقد قام محمد بن الحبيب التجكاني بتحقيق هذه المخطوطة كجزء من متطلبات الحصول على درجة الماجستير في الفقه الإسلامي من دار الحديث الحسنية التابعة لجامعة القرويين ، وقد انتهى من ذلك في عام ١٩٧٧ م .

والكتاب كتاب فقه بالدرجة الأولى ، إلا أنه يعرض صوراً من المجتمع

المرابطي ، وملوك الطوائف ، فمن الناحية الفقهية تعرض الكتاب للعلاقات بين المذاهب الفقهية ، كما تعرض للزندقة ، وللشعوبية مثل سب العرب واللغة العربية . ومن الناحية الاجتماعية تقدم المسائل صورة عن المرأة الأندلسية (مكانتها ، المهر) ، ومن الناحية السياسية تظهر إمارة ابن عباد بمظهر المتسلطة على الرعية بإرهاقها بالجبايات . كما أوضحت هذه المسائل من الناحية الاقتصادية المواد المتبادلة بين الأندلس والمغرب .

أما أهميتها من الناحية التاريخية فتعود إلى أنها عرضت إلى ثلاثة أحداث تاريخية ذات أهمية وهي : صك شهادة تثبت قيام سعيد بن أحمد بن زيفل بثورة ضد الدولة المرابطية في حصن شقورة عام ٤٩٢ هـ/ ١٠٩٨ م ، ومعركة كتندة ، وهجوم ابن رذمير الواسع على الأندلس [١] .

ومن الكتب الفقهية المهمة أيضاً « الديباج المذهب » لمؤلفه برهان الدين ابراهيم بن علي بن محمد بن محمد بن فرحون ، الذي نبغ في مختلف العلوم من فقه ، وأصول ، وقضاء ، وطب ، ونحو ، وتاريخ الرجال وطبقاتهم ، وبشكل خاص الفقهاء ، فهو يحوي تراجم المالكية حتى عصر المؤلف . وقد ترجم بشكل خاص لمشاهير الرواة وأعيان الناقلين عن الإمام مالك ، وصدر مؤلفه هذا بترجيح مذهب مالك . والمؤلف ناقل ومختصر لمن سبقوه ، وتارة يصرح بالمصدر الذي ينقل عنه وأخرى يهمل ذلك . كما لم يحقق الأحاديث النبوية الشريفة ، ومن الناحية التاريخية لم يهتم بالتحقيق ، إلا أنه مصدر يفيد مع بعض الجهد لمن يريد التعرف على علماء المذهب المالكي حتى انتهاء المؤلف من تأليفه عام ٧٦١ هـ/ ١٣٥٩ م [٢] .

ومن كتب التراجم المهمة عن هذه الفترة كتاب « قلائد العقيان في محاسن الأعيان » لمؤلفه أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله القيسي

---

(١) ابن رشد : مسائل أبي الوليد بن رشد ، ج١ ، ص ٥٣ ـ ٥٦ ، ج٢ ، ص ٩٩ .

(٢) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج١ ، ص ل ـ ث .

الإشبيلي ، والذي كان يعرف بين الناس بابن خاقان ، والمتوفي في مدينة مراكش عام ٥٢٩ هـ/ ١١٣٤ م [١] .

وأصله من قلعة يحصب من أعمال غرناطة ، وقد تلقى علومه على أيدي مشاهير عصره أمثال أبي بكر سليمان ، وأبي الحسن بن سراج ، وأبي الطيب ابن زرقون ، وأبي محمد بن عبدون وغيرهم ، فقد كان كثير الأسفار [٢] . وقد ألف عدة مؤلفات منها (قلائد العقيان) جمع فيه من شعراء المغرب طائفة كثيرة وتكلم على ترجمة كل واحد منهم بأحسن عبارة ولطيف إشارة . وأسلوبه في هذا الكتاب أقرب إلى أسلوب المقامات في حسن السبك واختيار الكلمات مع جزالة في الأسلوب .

وقد استمد معلوماته عن التراجم التي ترجم لها بالاتصال المباشر مع أصحابها فعندما عزم على تأليفه أرسل إلى أمراء الأندلس . ورجالات الأدب ـ يسألهم إيفاد شيء من شعرهم ونثرهم ليذكره في كتابه ، وكان الجميع يعرف قذاعة هجائه ، فكانوا يخشونه ، ولذلك أنفذوا إليه ما طلب مع بعض الهدايا ، فمن عظمت هديته أحسن في وصفه ، ومن تغافل عنه هجاه . ومن أمثلة ذلك قصته مع الفيلسوف المعروف ابن باجة الذي لم يلتفت إليه في القلائد إلا أنه عندما أحسن صلته توسع في ترجمته في كتابه الآخر « مطمح الأنفس » .

ومن المآخذ على ابن خاقان أنه بعيد عن الموضوعية لأن ترجمته للأشخاص تعتمد على أهوائه ونزواته ، لذا يجب على الباحث أن يكون على حذر في التعامل مع مؤلفاته . ومن المآخذ عليه أيضاً أنه لا يتناول جميع نواحي المترجم له ، ولا يذكر الآثار التي ألفها ، وكان همه إيراد ما للمترجم من النثر الرصين والشعر الجيد ، فهو صورة ممتازة لدارس الأدب عن أحوال الأدب في تلك الحقبة .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص ٢٣ ـ ٢٤ . ويذكر ابن الأبار (المعجم ، ص ٣٠١) . أنه توفي عام ٥٢٨ هـ .

(٢) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٢٣ ـ ٢٤ .

وأهمية الكتاب بالنسبة لنا تعود إلى كونه يمثل نموذجاً من نماذج أعلام الأدب في هذه الفترة من جانب ، على أن أهميته الكبرى من الجانب الآخر تعود لاحتوائه بين دفتيه مجموعة من الوثائق المرابطية ، ومجموعة من القصائد التي مدح بها قادة المرابطين . فقد وردت في هذا الكتاب سبع رسائل على قيمة كبيرة بالنسبة لهذه الفترة ، وهي ثلاث رسائل من انشاء أبي بكر بن القصيرة عن علي بن يوسف بن تاشفين ، وأربع رسائل من إنشاء أبي القاسم ابن الجد عن علي بن يوسف أيضاً [1] . كما نقل ابن خاقان تعزية القاضي أبي محمد عبد الحق بن عطية للأمير مزدلي لمصابه بأخيه محمد المستشهد في نبره [2] .

وقد قسم ابن خاقان كتابه إلى اربعة أقسام ، فخصص القسم الأول لمحاسن الرؤوساء وأبنائهم ، والثاني للوزراء والكتاب والبلغاء ، والقسم الثالث لأعيان القضاة وأعلام العلماء ، أما الرابع فخصصه لنبهاء الأدباء ، وروائع فحول الشعراء . وقد طبع الكتاب عدة طبعات منها طبعة باعتناء رشيد الدحداح بباريس عام ١٨٦٠ م ، وطبع ثانياً ببولاق عام ١٢٨٣ هـ ، وطبع في القاهرة ١٣٢٠ هـ ، وفي تونس ١٩٦٦ م طبعة مصورة عن طبعة باريس .

ومن الكتب المهمة في باب التراجم كتاب « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » لأبي الحسن علي بن بسام الشنتريني المتوفي عام ٥٥٢ هـ/ ١١٤٧م . وقد خصص ابن بسام هذا المؤلف لتراجم علماء الأندلس حتى عصره وقسمه إلى أربعة أقسام .

الأول خاص بعلماء قرطبة وما جاورها ، وهو مطبوع . والثاني خاص بعلماء إشبيلية وما يتبع إليها وهو ما يزال مخطوطاً . والثالث لعلماء بلنسية وهو مخطوط أيضاً . والرابع في الوافدين على الأندلس من شمال أفريقية وبلاد المشرق وقد نشر جزء منه ، إلا أنه في السنوات الأخيرة قامت جهود طيبة من

---

(١) ابن خاقان : قلائد العقيان ، ص ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢٤ - ١٢٨ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٤٣ .

أجل تحقيق هذا الكتاب ، فقام الدكتور احسان عباس بتحقيق بعض أجزائه من عام ١٩٧٥ حتى عام ١٩٧٩ م ، فحقق الأقسام التالية (ق١ ، ج٢ ، ق٢ ، ج١ ، ج٢ ، ق٣ ، ج١ ، ق٤ ، ج ١) .

ومن كتب التراجم « بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس » لابن عميرة ، أحمد بن يحيى بن أحمد الضبي الأندلسي المتوفي عام ٥٩٩ هـ ١٢٠٣ م . وقد صدره بلمحة عن فتح الأندلس وحكامها إلى عصر المؤلف ، وبعد ذلك أخذ يترجم لمن اسمه محمد ثم سار في بقية التراجم على ترتيب أحرف المعجم حتى استوعب ١٥٩٥ ترجمة ، وهو مطبوع في مجلد واحد في مدريد ١٨٨٤ م ، وفي دار الكاتب العربي عام ١٩٦٧ م .

ونترك كتب التراجم لنتناول بالحديث مصادر ذات قيمة تاريخية كبيرة لأنها كتبت من قبل أناس معاصرين للأحداث التي كتبوها ، وهي كتب المذكرات الخاصة ، وعلى رأسها كتاب « التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة » ، للأمير عبد الله بن بلقين الذي كان سيداً لغرناطة لمدة ١٤ عاماً من سنة ٤٦٩ هـ حتى عام ٤٨٣ هـ/ ١٠٧٧ ـ ١٠٩٠ م حيث استسلم لجيوش المرابطين التي أعطيت الأوامر لها من قبل القائد الأعلى يوسف بن تاشفين للقضاء على معاقل ملوك الطوائف ، ثم أرسل الى منفاه في أغمات حيث انتهت حياته هناك [1] .

وقد انصب المؤلف في حديثه على دولة بني زيري في غرناطة إلا أنه كان يتشعب في الحديث ليشمل جميع ما يدور في شبه الجزيرة الأيبيرية ، وهو يصرح بذلك فيقول « ولأن كتابنا لم يكن مبنياً إلا على وصف مملكتنا خاصة ، والحديث ذو شجون فلا بد من ذكر جمل من غيرها عند الحاجة الى وصفه أو ضرب مثل به تزيينا للكلام ، واقامة البرهان ودورانا على الحقيقة » [2] .

وتحدث المؤلف في بداية كتابه عن القواعد التي يتعين للمؤلف

(١) عبد الله بن بلقين : التبيان ، ص ٨ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٨٣ .

اتباعها ، وعن حقيقة الاسلام ، والرد على من لا يؤمن به ، وضرورة التعليم ، والتكوين السياسي للأمير عبد الله ، وصعوبة الانصاف التاريخي ، وبداية دول الطوائف بعد انقضاء دولة المنصور بن عامر ، ونشأة دولة بني زيري وأحوالها . والكتاب لا يسير حسب التسلسل التاريخي ، كما لا يؤرخ في معظم الأحيان للحوادث ، وفي حديثه التاريخي يقف المؤلف عند الإشارة إلى استيلاء النصارى على بلنسيه ، ولكنه لم يتحدث عن تفاصيل هذا الإستيلاء . ويختم المؤلف كتابه بمعلومات قيمه عن بعض المواضيع غير التاريخية كما يورد بعض نصائحه من خلال تجربته .

على أن أهم فائدة حصلت عليها بالنسبة لموضوعي من هذا الكتاب هي الحديث عن ممالك الطوائف وخضوعها للمرابطين ، فقد تحدث المؤلف عن هذه النقطة من واقع المشاهدة ، ولذلك أورد لنا معلومات قيمة . والكتاب حققه ليفي بروفنسال وطبع في القاهرة عام ١٩٥٥ م .

ومن المصادر المهمة في عهد علي بن يوسف بن تاشفين مجموعات الوثائق المرابطية التي زودتنا بمعلومات قيمة عن هذه الدولة التي طمست مصادرها من قبل خصومها ومن هذه المجموعات : ـ

أولاً : نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين الى الموحدين ، وعددها تسع قطع ، وقام بتحقيقها الدكتور حسين مؤنس ونشرها في مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد في العدد الثالث ، المجلد الأول عام ١٩٥٥ م . فالوثيقة الأولى منها تتعلق بإحراق كتاب إحياء علوم الدين ، والثانية تتعلق بإقصاء ابن أبي الخصال عن الكتابة بسبب الرسالة المشهورة التي نال فيها من كرامة المرابطين ، والثالثة تتعلق باسترجاع المرابطين لمدينة بلنسية ، والرابعة تتعلق بفتح كواليه ، والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة تلقي الضوء على تاريخ شرق الأندلس في أواخر أيام الدولة المرابطية ، والتاسعة خاصة بأمر تعيين قاض .

ثانياً : وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين وعددها ٢٢ رسالة قام

بتحقيقها ونشرها الدكتور محمود مكي في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد في المجلد السابع والثامن عام ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠ م ، ص ١٠٩ ـ ١٩٨ .

ثالثاً : أربع قطع تتعلق بتاريخ الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين . وقد قام الدكتور حسين مؤنس بتحقيق هذه الرسائل . ونشرها بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة بالمجلد الحادي عشر ، الجزء الثاني ديسمبر ١٩٤٩ م ، ص ٩١ ـ ١٤٣ .

والوثيقة الأولى عن وقعة إقليش وهي عبارة عن رسالة كتب بها الوزير ابن شرف عن بعض رؤساء الغرب الأندلسي إلى أمير المسلمين علي بن يوسف ابن تاشفين في فتح إقليش ، والثانية رسالة كتب بها قاضي سرقسطة الى الأمير أبي الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين حين حاصرها ابن رذمير ، والثالثة رسالة كتب بها علي بن يوسف إلى الأمير أبي محمد بن أبي بكر بهزيمة القلاعة ، والرابعة رسالة من علي بن يوسف رداً على رسالة بعثت له عن وصف هزيمة القلاعة .

رابعا : سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس ، وقد قام حسين مؤنس أيضاً بتحقيقها ونشرها في صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ، في المجلد الثاني . العدد ١ ـ ٢ عام ١٩٥٤ م . فالوثيقة الأولى عبارة عن رسالة من الخليفة العباسي المستظهر الى أمير المسلمين علي بن يوسف ، والثانية رسالة من يوسف بن تاشفين الى ولده أبي بكر ، والثالثة رسالة من تاشفين بن علي الى الزبير بن عمر ، والرابعة صك من أحد الرؤساء ، والخامسة والسادسة والسابعة تتعلق بالنزاع بين أبي بكر بن الصائغ ، وأبي محمد البطليوس .

ومن المصادر المعاصرة ذات الأهمية الشعر ، فالشاعر كما هو معلوم لسان حال الرعية التي يعيش بينها ومرآة لأحوالها السياسية والاجتماعية ، والاقتصادية .

والباحث يجب أن لا يهمل قصائد المدح والهجاء ، والرثاء ، والاشادة ببعض الانتصارات ، الا أنه يجب عليه الحيطة والحذر من شطحات الشعراء ومبالغاتهم ومن الشعراء الذين عاشوا خلال الفترة التي تناولتها بالبحث الشاعر الأعمى التطيلي ، أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن هريرة المتوفي عام ٥٢٥ هـ / ١١٣٠ م ، ويحوى ديوانه مجموعة من القصائد ذات القيمة منها ثلاث قصائد في مدح أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين [١] ، وقصيدتان في مدح الأمير أبي يحيى [٢] ، وقصيدة في مدح أبي العلاء بن زهر [٣] . وقد قام الدكتور احسان عباس بتحقيق هذا الديوان ، وصدر في بيروت عام ١٩٦٣ .

كما وردت في ديوان ابن خفاجة ، المتوفي عام ٥٣٣ هـ / ١١٣٨ م مجموعة قصائد في مدح أمراء الدولة المرابطية . فقد مدح الأمير ابراهيم بن يوسف ابن تاشفين ، والأمير تميم بن يوسف ، وله قصيدة أيضاً كتب بها إلى الأميرة مريم بنت ابراهيم يستشفع بها إلى الأمير أبي ظاهر تميم ، وقصيدة أخرى بمناسبة ـ استرداد مدينة بلنسية من قبضة النصارى .

وننتقل الآن إلى قطاع التاريخ الأندلسي العام ، ونشير الى كتاب « ريحان الألباب وريعان الشباب في مراتب الآداب » تأليف أبي القاسم محمد بن ابراهيم بن خيرة المواعيني المتوفي نحو سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م [٤] ، والذي فرغ من تأليفه عام ٥٥٧ هـ / ١١٦١ م [٥] . والكتاب ما زال مخطوطاً في الخزانة الملكية المغربية تحت رقم ١٤٠٦ ، وهناك نسخة أخرى تحمل رقم ٢٦٤٧ ، فالنسخة الأولى التي اعتمدت عليها تقع في ١٤٤ ورقة ، أما الثانية فتقع في ٢٠٣ ورقة .

---

(١) قصيدة رقم ٣٨ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ص ١٠٠ ، ٢٠٠ ، ٢٠٨ .

(٢) قصيدة رقم ٤٠ ، ٧٠ في الديوان .

(٣) قصيدة رقم ٣٩ في الديوان .

(٤) ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، ج١ ، ص ٢٤٧ .

(٥) ريحان الألباب وريعان الشباب في مراتب الآداب ، ورقة ١٤٤ .

وهو كتاب جامع في اللغة والآداب ، والتاريخ والأنساب . وتعود أهمية هذا المخطوط بالنسبة للكتاب لاحتوائه على رسالتين في غاية الأهمية ، الأولى : عبارة عن رسالة موجهة من أمير المسلمين علي بن يوسف إلى الخليفة العباسي المستظهر يعلن فيها أنه ما زال محافظاً على ولائه له ، والتزامه بالدفاع عن المسلمين في المناطق التي تخضع له ، وهي من انشاء أبي القاسم بن أبي الجد إلا انها خالية من التاريخ .

والثانية رسالة من أمير المسلمين علي بن يوسف الى الأفضل بن بدر الجمالي وزير الخليفة الفاطمي المستعلي يوصيه فيها بحجاج من أعيان لمتونة ، وهي أيضاً خالية من التاريخ ، والرسالتان وردتا في ورقة ١٣٥ ا ، ب.

وللمواعيني قصائد في مدح الأمير المرابطي الزبير بن عمر ، وأخرى في مدح الأميرة زينب بنت علي بن يوسف بن تاشفين . وله أيضاً مؤلف آخر إسمه « الوشاح المفصل » ، كما كانت له عناية خاصة بالآداب [1] .

ثم كتاب « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » ، تأليف الفقيه المؤرخ - محيي الدين أبو عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي . الذي تنقل في طلب العلم إلى فاس والأندلس ، ثم اتجه في ظروف غامضة إلى المشرق عام ٦١٣ هـ / ١٢١٦ م ، وزار مصر وبغداد . ويشتمل الكتاب على اثنين وثلاثين فصلا تناول فيها المراكشي بالحديث من فتح المسلمين للأندلسي حتى عصره أي إلى عام ٦٢١ هـ/ ١٢٢٤ م ، فتحدث عن نشأة دولة المرابطين ، وعن حركة المهدي بن تومرت ، وكيف تم القضاء على دولة المرابطين ثم يتسلسل في الحديث حتى عصره .

وأسلوب المراكشي خلاب ، وهو يميل في عرضه إلى الإيجاز . وخلال حديثه يورد تراجم لأدباء معظمهم من الأندلس ، إلاأنه لم يتقيد بالترتيب الزمني عند عرضه للأحداث . ومن مميزاته أنه يصرح بمصادره التي اعتمد عليها ، الا أن - اعتماده على الذاكرة في كتابه قد أوقعه في عدة اخطاء تاريخية

---

(١) ابن سعيد : المصدر السابق ، ج١ ، ص ٢٤٧ .

منها أنه جعل عبد المؤمن بن علي قائداً للموحدين في موقعة البحيرة ، والمتفق عليه أن القائد هو أبو محمد البشير الونشريشي الذي قتل في المعركة [1] .

والمراكشي كغيره من مؤلفي الدولة الموحدية قد رسم صورة سيئة لدولة المرابطين ، فصورها وكأنها دولة المجون والنساء فقال : « واستولى النساء على الأموال واسندت اليهن الأمور وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور . . . . » [2] ، فكان بهذا من شيعة الموحدين المبغضين للمرابطين [3] . وقد طبع الكتاب عدة طبعات آخرها بتحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ١٩٦٣ م .

وعلى رأس المصادر التاريخية الهامة يأتي كتاب « البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب » لأبي عبد الله بن عذاري المتوفي عام ٦٩٥ هـ/ ١٢٩٥ م ، ويهمنا من هذا الكتاب الجزء الرابع ، وهو عبارة عن قطعة من تاريخ المرابطين ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، بيروت ١٩٦٧ م . وهذه القطعة لا تشمل تاريخ المرابطين كله فقد سقط منه الأحداث من عام ٤٦٩ هـ حتى ٤٩٥ هـ/ ١٠٧٦ م حتى ١١٠١ م ، وقد حاول احسان عباس استكمال هذا النقص عن طريق الملاحق التي وضعها في نهاية الجزء . هذا وللكتاب أهمية خاصة لما حواه من معلومات قيمة تتعلق بأحوال دولة المرابطين السياسية والحضارية منذ النشأة حتى السقوط .

والكتاب يسير على نظام الحوليات ، وفي كثير من الحالات لا يصرح ابن عذارى بالمصادر التي اعتمد عليها ، أما الروايات التي لا يثق بها فيقول في بدايتها (وقيل كذا) . وهو بشكل عام يميل إلى الإيجاز في معلوماته ،

---

(١) عبد الله علام : الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي ، ص ٢٢ .

(٢) المعجب ، ص ٢٤١ .

(٣) ابن الآبار : الحلة السيراء ، ج٢ ، ص ٦٦ ، حاشية رقم ١ .

وفي بعض الأحيان لا يذكر بعض الأخبار متعللاً بعدم الاطالة ، فهو يقول على سبيل المثال عن سنة ٥٢٩ هـ / ١١٣٤ م (حدثت أحداث اعرضنا عنها لئلا يطول الكتاب بها) [١] .

ومن المصادر المهمة أيضاً « المطرب من أشعار أهل المغرب » لابن دحيه ، عمر بن الحسن بن علي بن محمد بن جميل بن دحيه الكلبي الأندلسي المتوفى عام ٦٣٣ هـ/ ١٢٣٥ م .

والكتاب ألف بناء على رغبة سلطان مصر الكامل الأيوبي بعدما ارتحل ابن دحيه الى القاهرة ، وقيمته ترجع الى أنه وثيقة ادبية لدارس الأدب في تلك الفترة . وهو غير منظم في عرضه للأحداث ، ويميل إلى الأطناب ، ويعرج في حديثه في بعض الأحيان على بعض الأخبار التي تتعلق بالمغرب . وقد حقق هذا الكتاب ونشره ابراهيم الأيباري وآخرون وطبع في المطبعة الأميرية بالقاهرة عام ١٩٥٥ م .

ويأتي كتاب « المغرب في حلى المغرب » لعلي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد المتوفى عام ٦٨٥ هـ/ ١٢٨٦ م ، الذي عرف بسعة الأفق وكثرة الترحال [٢] على رأس المصادر الأدبية المهمة في هذه الفترة التي أعالجها ، إذ يصور أحوال الشعر الأندلسي في مختلف عصوره . فقد ترجم المؤلف لأعداد كبيرة من الشعراء ، ولم يقتصر حديثه على الشعر بل كان يأخذه الحديث فيتحدث عن بيئاتهم ، وعن معاصريهم من رجال فكر وحكام . كما ضمن كتابه عيون الموشحات ، والازجال ، والأشعار ، وأورد بالاضافة إلى كل ذلك معلومات جغرافية وتاريخية قيمة . وأهم مصادر معلوماته : المشاهدة بالنسبة لمعلوماته الجغرافية ، والرواية الشفوية ، والمصنفات لمعلوماته التاريخية والأدبية ومن ميزاته أنه يصرح بمصادره التي ينقل عنها ، وأهمها كتاب « المسهب في غرائب المغرب » للحجاري ، وكتاب « فرحة

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج٤ ، ص ٩٥ .

(٢) ابن سعيد : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ١٧٢ - ١٧٣ .

الأنفس » لابن غالب (عاش في القرن السادس الهجري) وكتابات ابن حيان [1] ، « وتاريخ أفريقية والمغرب » للرقيق القيرواني وغيرها من الكتب ، وقد قام بتحقيق هذا السفر الضخم شوقي ضيف ، ونشره في القاهرة عام ١٩٦٤ م في جزئين [2] .

ومن المصادر المتأخرة التي لا يستغني عنها الباحث لتاريخ المغرب والأندلس حتى القرن الثامن الهجري كتاب « الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية » الذي على الرغم من صغر حجمه (اذ يقع في جزء واحد ولا تزيد صفحاته مع فهارس التحقيق عن ٢٠٧ صفحة) يعتبر من أمهات تاريخ دولتي المرابطين والموحدين . والكتاب لا يقف عند تاريخ هاتين الدولتين بل يتعداهما إلى دولة بني مرين في المغرب . والكتاب يظن لأول وهلة بأنه كتاب خاص في تاريخ المدن فقط ، الا أن فصوله ومادة أبحاثه لم تتقيد بفن تاريخ المدن ، وانما تحدث عن تاريخ المغرب والأندلس ، وهو بذلك يعتبر كتاب تاريخ عام أرخ لعدة دول ولم يؤرخ لمدينة مراكش [3] .

وقد قدم لنا كتاب الحلل الموشية مجموعة وثائق تتعلق بعهد علي بن يوسف ابن تاشفين ، كما فصل في حديثه عن دولة المرابطين ، والتي استمد معلوماته عنها من مؤلف ذي قيمة كبيرة هو « الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية » لابن الصيرفي ، كما نقل عن البكري المتوفى عام ٤٨٧ هـ / ١٠٠٤ م ، وعن البيذق وغيرهم [4] .

وقد انجز مؤلف الكتاب مؤلفه هذا يوم الخميس الثاني عشر لشهر ربيع أول من عام ٧٨٣ هـ ، وألفه مكلفاً من أحد ملوك بني الأحمر المسمى محمد الغني بالله ، ولذلك كانت خزائن وذخائر غرناطة من المؤلفات تحت تصرف

---

(١) ابن سعيد : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٤ ، ١٨ .

(٢) عن ابن سعيد : انظر محسن حامد العبادي : ابن سعيد الأندلسي حياته وتراثه الفكري والأدبي .

(٣) مؤلف مجهول : الحلل الموشية ، ص ٣ ـ ٤ .

(٤) أحمد مختار العبادي : دراسة حول كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية وأهميته في تاريخ المرابطين والموحدين ، مجلة تطوان ، ع٥ ، ١٩٦٠ م ، ص ١٣٩ ـ ١٤١ .

مؤلف الحلل الموشية الذي أخفي اسمه حفاظاً على نفسه [١] .

وقد نسب بعض المؤرخين المحدثين تأليف هذا الكتاب إلى أديب مالقي اسمه أبو عبد الله محمد بن أبي المعالي بن السماك العامري الذي كان حياً في أواخر القرن الثامن الهجري ، غير أنهم لم يقدموا لنا الدليل الذي اعتمدوا عليه في اثبات صحة هذه النسبة [٢] .

وطبع الكتاب أول ما طبع في تونس عام ١٩١٠ م ونسبه الناشر خطأ الى لسان الدين بن الخطيب ، ثم أعاد طبع هذا الكتاب الأستاذ علوش ضمن مطبوعات معهد الدراسات المغربية بالرباط عام ١٩٣٦ م . وطبع مرة أخرى بتحقيق سهيل زكار ، وعبد القادر زمامه ، ونشر في الدار البيضاء عام ١٩٧٩ م ، وقد ترجمه المستشرق الإسباني هويسى ميرانده إلى اللغة الإسبانية [٣] .

ومن الكتب المشرقية المهمة الموسوعة التاريخية المسماة « الكامل في التاريخ » لابن الأثير المتوفى عام ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٣ م . وهي موسوعة علمية تحوي تاريخ المشرق والمغرب الى أواخر أيام حياة المؤلف ، ويقع الكتاب في ١٢ جزءاً تكرر نشرها من بينها الطبعة التي اعتمدت عليها (بيروت ١٩٦٦ م) .

والأجزاء التي تهمني بشكل مباشر من الكامل لابن الأثير هي الجزء العاشر والحادي عشر . فقد أورد ابن الأثير معلومات جيدة عن موقعة افراغه ، وان ابن تومرت لم يلتق مع الغزالي ، كما أمدنا بمعلومات جيدة عن ثورة المهدي بن تومرت ، وعن اخضاع ملوك الطوائف ، وعن بيعة يوسف بن تاشفين لابنه علي ، وعن ثورة قرطبة ضد واليها ، وعن غيرها من الموضوعات

---

(١) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٥ ، ٨ .

(٢) أحمد مختار العبادي : المقال السابق ، ص ١٣٩ .

(٣) المقال السابق نفسه ، ص ١٣٩ ـ ١٤٠ .

التي تتصل بموضوع بحثي ، وأهميته تعود الى أنه مصدر مشرقي محايد كتب بعد سقوط دولة المرابطين .

ومن المصادر الجغرافية العامة الموسوعة الجغرافية الضخمة « معجم البلدان » لياقوت الحموي المتوفي عام ٦٢٦ هـ/١٢٢٨م ، وفي معجمه تحدث ياقوت عن جغرافية العالم الإسلامي كله ، فتحدث عن المدن ، والقرى ، والجبال والآثار مع ضبط أسمائها ، وتحديد المسافات بين المواقع ، كما كان يتحدث خلال حديثه عن هذه الآثار والمدن عن السكان ، وما قيل فيها من أشعار ، ولذلك فهو موسوعة لا يستغني عنها باحث في العلوم الاجتماعية . وكان فراغه من تأليف هذا المؤلف الضخم عام ٦٢١هـ : ١٢٢٤م ، وقد سار في حديثه عن هذه البلدان على حروف المعجم ، وقد طبع عدة طبعات منها طبعة إحياء التراث العربي ، بيروت ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧م .

ويجب ان لا ننسى كتاب « الروض المعطار في خبر الأقطار » للحميري ، محمد بن عبد المنعم المتوفي عام ٩٠٠هـ / ١٣٠٠م . وقد اعتمدت عليه كثيراً في التعريف بالمدن الأندلسية والمغربية ، وقام بتحقيق هذا السفر احسان عباس ، ونشر في بيروت عام ١٩٧٥م .

وفي نهاية هذا التحليل للمصادر لا بد ان أشير الى مصدر على جانب كبير من الأهمية قد فقد ، وهو كتاب « الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية » لابن الصيرفي ، يحيى بن محمد بن يوسف الأنصاري المتوفي عام ٥٥٧هـ / ١١٧٤م ، وهو أمين سر الأمير تاشفين بن علي الذي كتب له كتاب « الأنباء في سياسة الرؤوساء » الذي ضاع أيضاً [١] إلا انه من حسن الحظ ان مقتطفات من كتاب « الأنوار الجلية » يوجد بعض منها من كتاب البيان المغرب ، والإحاطة في أخبار غرناطة ، والحلل الموشية .

ومن أهم المراجع التي اعتمدت عليها في كتابة هذا البحث كتاب

---

(١) ميراندة : علي بن يوسف وأعماله في الأندلس ، مجلة تطوان ، ع ٣ ـ ٤ ، ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩ م ، ص ١٥٤ .

« عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس » لمحمد عبد الله عنان ، والذين يهمني منه القسم الأول الخاص بعصر المرابطين وبداية الدولة الموحدية ، المطبوع في القاهرة عام ١٩٦٤ م .

وقد قدم هذا الكتاب معلومات جيدة عن أوضاع الأندلس في عصر المرابطين منذ وقعة الزلاقة وحتى سقوطه دولة المرابطين بشكل إجمالي اذ لم يخضع كثيراً من الجوانب للنقد والتحليل . ولعل الفائدة الكبرى للكتاب تأتي من إيراده للروايات النصرانية حول بعض الموضوعات التي تهمني . ولكن مؤلف الكتاب لم يعط النظم الاقتصادية والاجتماعية، والادارية، والعمارة والفنون الزخرفية حقها وإذا كان قد مسها بشيء فإنما مسها مساً خفيفاً لا يروي ظمأ الباحث لهذه الحقبة . ومن المآخذ على الكتاب انسياقه وراء المقولة التي تصف الدولة المرابطية بالهمجية والتخلف ، واعتباره انقياد امرائها للفقهاء دليلاً على تخلفها وسبباً من الأسباب الرئيسة في سقوط دولة المرابطين .

وقد ختم المؤلف كتابه بالحديث عن الممالك الإسبانية النصرانية خلال العصر المرابطي وأوائل عصر الموحدين ، كما ذيل الكتاب بمجموعة من الوثائق الخاصة بالعصر المرابطي والموحدي .

أما كتاب « دول الطوائف » لنفس المؤلف ، والمطبوع في القاهرة عام ١٩٦٠ م و ١٩٦٩ م فقد استفدت منه في التمهيد حيث قدم لي صورة جيدة عن أحوال الأندلس قبيل وبعد سقوط دول الطوائف ، فتحدث عن دول الطوائف في غرب الأندلس ، والوسط ، والجنوب ، وشرق الأندلس . . الخ ، وتحدث عن موقعة الزلاقة ، ونشأة الدولة المرابطية ، وفتح المرابطين للأندلس ، وكذلك تكلم عن أحوال الممالك الاسبانية الكبرى في عهد سانشو الكبير وولده .

ويعتبر كتاب المؤرخ الألماني يوسف أشباخ « تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين الذي ترجمه محمد عبد الله عنان ، والمطبوع في القاهرة عام ١٩٥٨ م من المراجع التي لا يستغني عنها الباحث لهذا العصر لأنه

يعتمد في معلوماته على مصادر نصرانية إلى جانب المصادر الإسلامية ، ، وأهم الموضوعات التي تناولها الكتاب هي : تاريخ الممالك الإسبانية من سنة (٤٢٨ - ٤٦٩ هـ/ ١٠٣٧ - ١٠٧٦ م) ، وتاريخ ملوك الطوائف حتى سقوط مدينة طليطلة عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، ونشأة المرابطين وأسباب عبورهم إلى الإندلس ، وعهد يوسف بن تاشفين وولده علي ، وتاريخ الدول الإسبانية الداخلي في عهدي الفونسو السادس والفونسو المحارب ، وأهم الوقائع التي خاضها المسلمون ، ثم تطرق لاضمحلال سيادة المرابطين من خلال حديثه عن حروب الفونسو السابع ضد المسلمين ، ومن خلال حديثه عن ثورة المهدي بن تومرت ، وثورات أهل الأندلس على المرابطين . وقد ختم كتابه بالحديث عن دولة الموحدين واضمحلالها ، وعن نظم الدولة وفنون الحرب وأحوال الحضارة في دولتي المرابطين والموحدين .

ومن المآخذ على الكتاب أنه بعيد عن الموضوعية إذ نجده يتناول الموضوعات المشرقة بالنسبة للمسلمين باقتضاب خاصة فيما يتعلق بالمواقع الحربية فموقعة إقليش الحاسمة التي حقق فيها المرابطون أروع انتصاراتهم يتعرض لها المؤلف في اختصار شديد ، هذا في الوقت الذي يلمس فيه الباحث حقد هذا المستشرق على هذه الدولة الإسلامية المجاهدة وذلك من خلال عدة شواهد منها ؛ أنه عندما تحدث عن نشأة دولة المرابطين عزا قيامها إلى جهود رجل متعصب يسمى عبد الله بن ياسين ، كما وصف حكام الدولة المرابطية بالهجمية والجهل وذلك في أكثر من مناسبة ، فقد ذكر عند حديثه عن حضارة دولة المرابطين بأن سلاطين هذه الدولة لم يبدو كبير عناية « بأمر العلوم والفنون والشعر ، وتقدم المعارف ، وقد اضطهدوا كل ما عنيت الدولة العربية بتشجيعه من قبل ، ص ٤٨٣ » . ووصل به الأمر إلى وصفه للمرابطين بأنهم أعداء لكل حضارة فقال : (ظهر المرابطون من بين سكان الصحراء البدو الساذجين ، فكانوا أعداء لكل حضارة عربية ، ومن ثم كانت حكومتهم كريح الصحراء اللافح حيث يهب على الغياض النضرة تعمل لتحطيم جميع العلوم والفنون ، والصنائع التي وصلت في ظل السيادة العربية في الأندلس

إلى ذروة التقدم والازدهار ، وكان أولئك الحكام القساة يمقتون القبائل العربية وثقافتها ، ويعملون على سحق هذه الثقافة بكل ما وسعوا . . . . ويعملون على تحطيم الروح الشعرية الأندلسية . . . ص ٤٩٣) . ومن الأمثلة الدالة على تحيز المؤلف وبعده عن الموضوعية أنه ركز خلال حديثه عن الحركة العلمية على أعلام اليهود ولم يخص أعلام المسلمين في العهد المرابطي بأية عناية .

على أي حال يعتبر هذا الكتاب نموذجاً للدراسات الإستشراقية التي لم تخف حقدها على الحضارة الإسلامية والتي لم تدخر وسعاً في تشويه معالم حضارتنا الإسلامية .

ويأتي كتاب عميد المستشرقين الاسبان اميلوغرسيه غومس (الشعر الأندلسي) ترجمة حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٩ م على رأس المراجع المهمة في بحث الحياة الأدبية وبشكل خاص الشعر في عهد دولة المرابطين .

فقد تحدث المؤلف عن عدد كبير من الذين نبغوا في عهد علي بن يوسف في مجال الشعر وفنون الأدب الأخرى ، ولم يقصر المؤلف حديثه على دولة المرابطين بل تحدث عن عصر الخلافة ، وملوك الطوائف ، والموحدين وختم كتابه بمختارات شعرية .

ومن مؤلفاته أيضاً (مع شعراء الأندلس والمتنبي) ترجمة الطاهر أحمد مكي ، القاهرة ١٩٧٤ م . وقد تحدث فيه عن المتنبي ، ثم تحدث عن عدة شعراء في القرنين الرابع الهجري والخامس الهجري . والذي يهمني من هذا الكتاب حديثه عن ابن الزقاق ، وابن قزمان من شعراء عهد أمير المسلمين علي ابن يوسف .

وصدر في عام (١٩٨٠ م) عن وزارة الثقافة والأعلام بالجمهورية العراقية دراسات جادة عن الحركة الفكرية في عهدي المرابطين والموحدين كان أهمها : ـ

١ ـ الدراسات اللغوية في الأندلس من مطلع القرن السادس الهجري

حتى منتصف القرن السابع الهجري ، تأليف رضا عبد الجليل الطيار . وقد تحدث المؤلف عن عدة موضوعات أفدت منها ، أهمها ظاهرة كتب الردود ، والرحلة إلى المشرق وبالعكس ، ومجالس التدريس ، والتأليف في اللغة ، كما تحدث عن نشأة اللغة وتطورها وعلاقتها باللغات الأخرى في الأصوات اللغوية إلى غيرها من الموضوعات اللغوية .

٢ ـ الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس تأليف محمد مجيد السعيد . والكتاب مقسم الى ثلاثة أبواب . الأول منها تحدث فيه المؤلف عن عصر المرابطين والموحدين من الناحية التاريخية مركزاً على تأسيس الدولتين وسقوطهما وملامح الحياة الاجتماعية والفكرية في كل عصر . وأما الباب الثاني فقد خصصه للشعر في الدولتين ، وأفرد الباب الثالث للموشحات .

ومن المؤلفات القيمة التي صدرت عن دار المعارف المصرية في عام ١٩٨٠ م ـ كتاب (دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة) لمؤلفه الطاهر أحمد مكي . والكتاب عبارة عن مجموعة أبحاث تناولت عدة موضوعات في جوانب متعددة من تاريخ الأندلس وحضارته في فترات مختلفة ولذلك استفدت من هذا المرجع في أكثر من موضع فقد تحدث عن عدة موضوعات أهمها بالنسبة لموضوع بحثي : سقوط الخلافة وقيام دول الطوائف ، والشعر الأندلسي وتأثيره في الشعر الأوروبي إلى غير ذلك من الموضوعات التي لا يستغني عنها أي دارس ـ لتاريخ المغرب والأندلس لا سيما أنه يعرض لموضوعات أندلسية طرقها مستشرقون اسبان مثل :الأصول العربية لفلسفة رايموندو لوليو للمستشرق خوليان ريبيرا ، والشعر الأندلسي وتأثيره في الشعر الأوروبي تأليف انخل جونثالث بالنثيا . . الخ .

وأختم هذا التحليل بالحديث عن بعض المراجع المهمة في حقل الفن المرابطي والتي يأتي في مقدمتها كتاب (الفن المرابطي والموحدي) لمؤلفه ليوبولد وتوريس بالباس ترجمة سيد غازي ، دار المعارف بمصر ١٩٧١ م . والكتاب على صغر حجمه اذ لم تتعد صفحاته المئة واربع صفحات ، إلا أنه بحث قيم لدارسي العمارة والفنون الاسلامية في عهدي المرابطين

والموحدين . فقد تحدث عن عمارة المساجد ، والصوامع ، والقصور ، والبيوت ، واسوار المدن والحصون ، وعن المجصصات الأندلسية ، والفنون الصناعية ، كما أن الكتاب مزود بلوحات فنية ورسوم تخطيطية تساعد على فهم كثير من المواضيع التي طرقها المؤلف .

ومن المراجع المهمة في مجال الفن الاسلامي والتي تناولت العهد المرابطي بالحديث كتاب (الفن الإسلامي في إسبانيا) تأليف مانويل جوميث مورينو ترجمة لطفيَ عبد البديع والسيد محمود عبد العزيز سالم . وقد تناول الكتاب الفن الإسلامي في إسبانيا منذ الفتح إلى عصر الموحدين ثم المستعربين فدخل ضمن موضوعاته العمارة في عصر المرابطين . والكتاب مزود بصور توضيحية جيدة ، كذلك ذيل الكتاب بجداول بالاصطلاحات الفنية الواردة فيه . وقد صدر هذا الكتاب القيم عن الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٧٧ م .

هذه هي أهم المصادر والمراجع التي استفدت منها في هذا البحث وسيجد القارىء في نهاية البحث قائمة مطولة بالمصادر والمراجع التي رجعت إليها .

تمهيد

نبذة عن أحوال العالم الإسلامي
في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري
الحادي عشر الميلادي

لقد شهد العالم الإسلامي في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي تفككاً خطيراً ، فقد كانت الدول الإسلامية القائمة في ذلك الوقت (الدولة العباسية ، والدولة الفاطمية ، ودول المغرب ، ودول الطوائف في الأندلس) مثالاً للتمزق والضعف . ويعود سبب هذا التمزق بشكل خاص الى ازدياد الخلاف ما بين السنة والشيعة ، وهو خلاف مذهبي تمتد جذوره الى القرن ـ الأول الهجري ، ثم تطور وازداد حده وأدى في نهاية الأمر الى التمزق والفرقة السياسية بين المسلمين ، التي تمثلت في جبهتين متعاديتين ، الدولة الفاطمية في مصر ، والدولة العباسية في بغداد .

وطوال القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي اضطربت ـ الأحوال في بغداد ، واشتدت الفتن وأصبح الخليفة العباسي ألعوبة بأيدي السلاجقة لا يملك من الأمر شيئاً ، كما ان السلاجقة أنفسهم كانوا في صراع مرير فيما بينهم على السلطة [1] .

ولم تكن الدولة الفاطمية أحسن حالاً من الدولة العباسية ، فكانت قد

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ١٤٧ ؛ القلقشندي ـ مآثر الأنافة في معالم الخلافة ، ج ٢ ، ص ١٢ ـ ١٣ ؛ سعيد عاشور : بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص ٦٥ .

دخلت في دورها الثاني دور الضعف ابتداء من فترة الشدة العظمى التي قاست منها مصر سبع سنوات . وتحت ضغط الظروف التي كانت تمر بها الدولة الفاطمية وقت ذاك وخاصة اضطراب الأمن اضطر الخليفة المستنصر الى استدعاء بدر الجمالي والي عكا ، الذي بادر بالاستجابة الى دعوة الخليفة الفاطمي وجاء الى مصر في عام ٤٦٦هـ / ١٠٧٣م ، واستطاع اعادة الهدوء وسيطر على البلاد ، واستحوذ على السلطة دون الخليفة الفاطمي . ولما توفي بدر الجمالي عام ٤٨٧هـ / ١٠٩٣م استأثر ابنه الأفضل بالسلطة أيضا ، واستطاع أن يقرر موضوع ولاية العهد . فبعد وفاة الخليفة الفاطمي المستنصر بايع الأفضل الأمير أبا القاسم أحمد الذي لقب بالمستعلي ، وكان شاباً يافعاً لم يتجاوز الحادية والعشرين من عمره . بدلاً من نزار الابن الأكبر للمستنصر صاحب الحق الشرعي في الحكم [1] .

وخطوة الأفضل بن بدر الجمالي هذه ترجع الى رغبته في الاستئثار بالسلطة دون ـ الخليفة ، لأن نزار كان كبير السن ، وأكثر تجربة من المستعلي ، هذا علاوة على صلات القرابة بين الأفضل والمستعلي [2] .

اما بالنسبة لبلاد الشام فكانت بحكم موقعها الجغرافي تعتبر حلقة وصل بين مصر والعراق ، لذا كان الصراع عليها مريراً بين الخلافتين العباسية والفاطمية . ونتيجة لضعف الخلافة العباسية فقد انحسر نفوذها عن كثير من أملاكها ومن بينها بلاد الشام ، وامتد بدلاً منه ابتداءاً من عام ٣٥٩هـ / ٩٦٩م نفوذ الدولة الفاطمية ، وصحب هذه الهيمنة الفاطمية انتشار المذهب الشيعي في جنبات الشام ، وهيأ ذلك بيئة مناسبة لنزاعات جديدة بين الشيعة والسنة في بلاد الشام ، فضلاً عن الصدام السياسي والعسكري بين السلاجقة بعد أن آلت اليهم السلطة في الدولة العباسية ـ والفاطميين وهو الصدام الذي أدى الى

---

(١) ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ١٤٨ ؛ محمد جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية في مصر ، ص ١١٣ ـ ١١٤ ؛ محمد حمدي المناوي : الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي ، ص ٣٧ .

(٢) يكون المستعلي ابن أخت الأفضل بن بدر الجمالي انظر : محمد كامل حسين : طائفة الاسماعيلية تاريخها ، نظمها ، عقائدها ، ص ٤١ .

انحسار النفوذ الفاطمي عن بلاد الشام واقتصاره على فلسطين [1] .

وأصبحت بلاد الشام أيضاً مسرحاً لصراع الأمراء المحليين ، ومسرحاً لصراع أمراء السلاجقة على السلطة ، ولم تلبث القبائل البدوية في بلاد الشام ان أصبحت ذات ثقل ، واستطاعت أن تتسنم السلطة ، وأقامت لها عدة إمارات منها : إمارة بني مرداس في حلب (٤١٥ - ٤٧٢هـ / ١٠٢٤ - ١٠٧٩م) ، وإمارة بني عمار في طرابلس (٤٦٣ - ٥٠٣ هـ / ١٠٧٠ - ١١٠٩م) ، وإمارة بني منقذ في شيزر (٤٧٤ - ٥٥٢ هـ / ١٠٨١ - ١١٥٧م) [2] . وتركت هذه الأوضاع بصماتها في حياة بلاد الشام اذ تناقص عدد السكان في أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي تناقصاً خطيراً [3] .

وفي هذه الظروف التي كانت فيها بلاد الشام تعاني الوهن ، والضعف ، والفرقة ، كنتيجة للصراعات المذهبية ، والسياسية ، والعشائرية ، وصلت الحملة الصليبية الأولى الى بلاد الشام في أواخر سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٧م ، ونجح الصليبيون في إقامة مملكتهم الصليبية فيها .

ومما يبعث على الأسى انه ما أن وصل الصليبيون الى إنطاكية في يناير ١٠٩٨م حتى وصلتهم سفارة من الأفضل بن بدر الجمالي تحمل عروضاً خلاصتها ان يتعاون الطرفان من أجل القضاء على السلاجقة ، على أن يكون القسم الشمالي للصليبيين ، والجنوبي للفاطميين [4] .

ولم يستجب الصليبيون لعروض الفاطميين ، وتابعوا زحفهم نحو بيت المقدس وفي ضحى يوم الجمعة ٢٣ شعبان سنة ٤٩٢ هـ / ١٥ يوليه ١٠٩٨ م ، وبعد حصار دام شهراً ونصف الشهر نجحوا في دخول بيت

(١) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص ١٦٦ ؛ محمد حملي المحاوي : المرجع السابق ، ص ٢٠٤ .
(٢) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص ٤٣ - ٤٤ .
(٣) المرجع السابق نفسه ، ص ٣٥ .
(٤) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٦٧٩ ؛ سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص ١٧٠ - ١٧١ .

المقدس ، حيث ارتكبوا مذبحة مروعة ضد السكان العزل فلم يفرقوا بين كهل وطفل وامرأة ، وقتلوا ما يزيد على ستين ألفاً (١) .

وفي وسط هذه المحنة التي حلت بالمسلمين في بلاد الشام اتجهت الأنظار الى بغداد ، حيث اتجه وفد من الشام على رأسه قاضي دمشق ليخبر الخليفة العباسي المستظهر بالله (٤٧٠ ـ ٥١٢هـ / ١٠٧٧ ـ ١١١٨م) بهول الفاجعة التي حلت بالمسلمين . لكن الخليفة العباسي لم يكن له حول ولا قوة ، فقد كان يستظل بحماية سلطان السلاجقة بركيا روق (٢) الذي اكتفى عند وصول الصليبيين أمام انطاكية بأن عهد الى أتابك الموصل بالخروج على رأس جيشه لانقاذ انطاكية من حصار الصليبيين الا أنه هزم إمامهم فعاد من حيث أتى (٣) .

وهكذا استطاع الصليبيون التغلغل في أعماق الدولة الإسلامية ، ونجحوا في إقامة مملكة لهم في بيت المقدس فضلاً عن إمارات أخرى في أنطاكية والرها ، وطرابلس ، وأخذوا يمكنون لأنفسهم عن طريق بناء عشرات القلاع والحصون ، ويستولون على المدن والموانىء ، ويكيلون الضربات تلو الضربات للجزيرة الفراتية .

لقد استبيحت حرمات المسلمين في المشرق من قبل الصليبيين لا لشجاعتهم وقوة بأسهم بل لتمزق العالم الإسلامي الذي شغله عن رسالته

---

(١) ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ١٥٦ ؛ السيوطي : المصدر السابق ، ص ٦٧٩ ؛ القلقشندي : مآثر الأنافة في معالم الخلافة ، ج ٢ ، ص ١٥ ـ ١٦ ؛ ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ٤٠٣ ـ ٤٠٤ ؛ لمزيد من التفاصيل عن أحوال العالم الإسلامي في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي انظر : زكي النقاش : العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والأفرنج خلال الحروب الصليبية ، ص ١٠ ـ ٢٤

(٢) هو أبو المظفر ركن الدين ، تولي الحكم بشكل رسمي في محرم ٤٨٧هـ / فبراير ١٠٩٤م ، وتوفي في ربيع ثاني ٤٩٨هـ / ديسمبر ١١٠٤م انظر : دائرة المعارف الاسلامية مادة بركياروق ، ج ٣ ، ص ٥٦٩ ـ ٥٧١ .

(٣) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص ٥٨ .

الخالدة التنازع والتناحر. فقد وقفت الخلافة العباسية موقف العاجز عما يحدث بالشام ، وبادرت الخلافة الفاطمية تخطب ود الغزاة من أجل التخلص من خلافة بغداد ، متغافلة عن حقيقة عظيمة وهي أن هؤلاء الغزاة ما جاءوا الا لتمزيق راية القرآن الكريم .

ولم يكن المغرب الإسلامي أسعد حظاً من المشرق الإسلامي ، فكان يعيش في هذه الفترة محنة سياسية ودينية واقتصادية لضعف السلطة المركزية ، وانعدامها في بعض الفترات ، لذا كان المغرب نهباً لطوائف منتزية ، متصارعة ، فيما بينها .

ومن هذه الطوائف غمارة [1] في الشمال ، وقبائل برغواطة [2] في الغرب ، وقبائل زناتة [3] التي كانت تكون حزاما حول الطوائف السابقة وطوائف الشيعة ، والوثنيين في الجنوب [4] . ووصف عبد الله بن ياسين صاحب دعوة المرابطين الاضطراب والفوضى في المغرب خلال مروره ببلاد المصامدة [5] عائداً من الأندلس بأنهم كانوا يغيرون على بعض ويغنمون

(١) قبيلة بربرية تعود الى فرع البرانس وهي قسم من قبيلة مصمودة انظر : ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ١٧٧ .

(٢) هم أخلاط من قبائل شتى من البربر اجتمعوا الى صالح بن طريف القائم بتامسنا حين ادعى النبوة في أيام هشام بن عبد الملك وكان أصله من برباط (حصن لمن عمل شذونه من بلاد الأندلس) ، وكان يقال لمن تبعه برباطي فعربه العرب وقالوا برغاطي فسموا برغواطة ، وكان صالح هذا يهودياً ، وكانت تعاليمه مزيجاً من أفكار الخوارج ، والمعتزلة ، والشيعة ، واليهودية ، انظر : ابن أبي زرع : روض القرطاس ، ص ١٣٠ ؛ محمود اسماعيل : دراسات مغربية جديدة ، ص ١٥ - ٥٣ ؛ محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ، ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

(٣) من أهم قبائل البربر البتر ، وانتشرت زناته في جميع أنحاء المغرب ، وكان لهم فن حربي خاص بهم فكانوا يستخدمون الدروع الجلدية ، ويعتمدون الخفة في القتال ، وقد أخذ عنهم الأسبان هذا النظام وسموه (Zenetes) انظر : أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ١٧ .

(٤) المرجع السابق نفسه ، ص ٢٩٨ - ٢٩٩ .

(٥) هم من بربر البرانس ، كانوا يؤلفون معظم سكان المغرب أيام الفتح الإسلامي حيث كانوا يشغلون معظم المناطق الجبلية وسهول الأطلسي ، ويعتبر الأطلسان الصغير والكبير موطناً للمصامدة انظر : ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ، ج ١ ، ص ٣٤ - ٣٥ ، ٢٦٠ .

الأموال ، ويقتلون الرجال ، ويسبون النساء ، ولا يرجعون الى طاعة إمام [١] .

وانتشرت الشعوذات والبدع ، وكثر المتنبئون خاصة في غمارة ، وترتب على ذلك التحلل من القيم الانسانية النبيلة[٢] .

وكان الملثمون [٣] لا يعرفون من الاسلام الا اسمه ، فلم يقلعوا عما اعتادوه في جاهليتهم من مساوىء قضى عليها الإسلام في كل مكان حل فيه [٤] .

وترتب على سوء الأحوال السياسية سوء الأحوال الاقتصادية ، فكثرت المكوس على التجارة أثناء تنقلها بين طوائف المغرب ، ونتيجة لذلك ارتفعت

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٤ ، ص ١٠

(٢) أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩ .

(٣) هم قوم يتلثمون ولا يكشفون وجوههم لذلك سموا بالملثمين ، وهم قبيلة من البربر يقال لها لمتونة وهي فخذ من صنهاجة ، وكانوا على المجوسية قبل الإسلام ، وأسلموا بعد الفتح ، وموطنهم يمتد من غدامس جنوب طرابلس الى المحيط الأطلسي ومن جبال درن في الشمال حتى مصب نهر السنغال بل الى منحنى النيجر ، وعدد قبائل الملثمين يزيد على السبعين ، وأصلهم قوم لا يعرفون حرثاً ولا زرعاً عيشهم على اللحم واللبن . وقد تعددت الآراء حول سبب استخدامهم للثام ، فمحمد عبد الله عنان (دولة الطوائف ، ص ٢٨٩) يجعل السبب الى انهم كانوا يتخذونه في أعراسهم فاصبح لديهم عرفاً . أما أحمد مختار العبادي (في تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٨٩) فيرى انه تقليد أخذ عن الزنوج المجاورين لهم الذين استخدموا اللثام لطرد العين الشريرة ، ويذكر ابن عذارى (البيان المغرب ، ج ٤ ، ص ١٢٨ ـ ١٢٩) أنه تقليد موروث عن حمير الذين كانوا يتلثمون لشدة الحر والبرد ، ويرى البزيوي (تاريخ دول الاسلام في المغرب الأقصى ، ورقة ٣٢) أن سبب ذلك أن قوماً من أعداء الملثمين كانوا يقصدون غفلتهم اذا غابوا عن بيوتهم فيطرقون الحي فيأخذون المال والحريم ، فأشار عليهم أحد مشايخهم أن يبعثوا النساء في زي الرجال الى ناحية ويقصدون هم البيوت فيلبسون ثياب النساء فاذا جاء العدو ثاروا عليه ، فنجحت الخطة ، فالتزموا اللثام تبركاً بما حصل لهم من الظفر بالعدو . ويرى عبد الحليم عويس (رحلة الى بلاد الملثمين ، مجلة الفيصل ، عدد ٣٦ ، جمادي الآخر ١٤٠٠هـ / مايو ١٩٨٠م) ان السبب هو أن الفم عورة ومن سوء الأدب كشفه ، ومن المرجح أن الحر والرمال هما السببان الرئيسيان للثام وبسلطان العادة أصبح استعماله عرفاً ثم أضيف اليه اعتبارات أخرى نسجتها عقولهم ومشاعرهم .

(٤) حسن محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ١٠٧ .

الأسعار ، ونضبت المواد الضرورية من الأسواق ، واشتد الخوف ، وخيم شبح الجوع والغلاء حتى قيل : ان أوقية البر كانت تباع بدرهم [١] .

وشجعت أحوال المغرب السيئة أعداء الإسلام على الإغارة على السواحل الأفريقية ، فأغار النورمان [٢] على مدينة زويله [٣] ، وفي عام ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م أغارت أساطيل بيزة وجنوة على المهدية ، وسقطت صقلية بيد النورمان في عام ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م .

لقد انهارت السيادة الإسلامية في البحر الأبيض المتوسط ، وامتهن المسلمون واستذلوا ، وأغار النصارى عليهم في عقر دارهم ، يأسرون وينهبون ، وقد صور الشاعر الحصري القيرواني حال الناس أصدق تصوير حيال هذه الكارثة التي حلت بالبحرية الإسلامية التي فقدت سيطرتها على السواحل الإسلامية حيث قال :

لا تعجبن لـرأسي كيف شـاب أسى
واعجب لأسـود عين كيف لـم يشـب
البحـر للروم لا يجـري السفـين بـه
الا عـلى مضض والبـر لـلعـرب [٤]

أجل لقد كان المغرب بظروفه السياسية والاقتصادية ، والدينية المضطربة بحاجة ماسة لحركة اصلاحية تلم شعثه وتوحد قواه نحو هدف

---

(١) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٨٩ .

(٢) ذكروا في المصادر والمراجع بعدة أسماء منها : الأردمانيين ، والمجوس ، والفيكنج ، وهناك من يؤكد بأن اللفظ محرف عن (Northmen) أي سكان الشمال ، انظر : الحميري : الروض المعطار ، ص ٨٩ ؛ البكري : جغرافية الأندلس وأوروبا ، ص ١١٢ ؛ فشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ١١٥ ، ٢١٨ ؛ محمد عبد الله عنان : دولة الاسلام ق ١ ، ص ٢٥٠ ؛ سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٢١٨ - ٢١٩ .

(٣) مدينة كانت متصلة بالمهدية انظر : الحميري : المصدر السابق ، ص ٢٩٦ .

(٤) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢٤١ .

مقدس يسمو بـه عن كل نزاع من شأنه أن يفرق شمله ، ويحميه من كل تيار فكري منحرف .

وإذا انتقلنا الى الأندلس في النصف الأول من القرن الخامس الهجري وجدناه قد فقد وحدته السياسية التي طالما تمتع بها خلال خلافة بني أمية ، فما أن سقطت الخلافة الأموية عام ٤٢٢هـ / ١٠٦٤م ، حتى انتزى المتنزون من كبار القادة والزعماء المحليين الطامعين كل في منطقته ، واذا بنا أمام عشرين دويلة مستقلة في عشرين مدينة اومقاطعة ، ومن أشهرها : مملكة بني عباد في إشبيلية ، وبني حمود بمالقة والجزيرة ، وبني زيري بغرناطة ، وبني هود بسرقسطة ، وبني ذي النون في طليطلة [1] .

ومما زاد الأمر سوءاً تناحر وتخاصم هذه الإمارات مما أضاف الى ضعفها ضعفاً وجعلها غنيمة سهلة لممالك النصارى في الشمال ، وشجع ذلك الوضع أيضاً النورمان على غزوها ، فاستولوا على بربشتر [2] في عام ٤٥٦هـ / ١٠٦٣م ، حيث ارتكبوا بحق أهلها مذبحة مروعة ، في الوقت الذي كان فيه ملوك الطوائف مشغولين بملاذهم ولهوهم ، والكل منهم يسعى من أجل كسب رضى ملك قشتالة الفونسو السادس (الأذفونش) [3] الذي أرهقهم بالأتاوات حتى أصبح له عمال يجبون له الأموال من ملوك الطوائف [4] .

وكان المعتمد بن عباد أعظم ملوك الطوائف يؤدي اليه الضريبة في كل

---

(١) عبد الحميد العبادي : المجمل في تاريخ الأندلس ، ص ١٥٤ ـ ١٥٥ ؛ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية الإسلامية ، ص ٥٧ ـ ٥٨ .

(٢) مدينة تقع على فرع صغير من أفرع نهر ابرة بين لاردة ووشقة في الشمال الشرقي لسرقسطة ، دخلوها بعد حصار دام أربعين يوماً ، فقتلوا من أهلها اربعين ألفاً ، انظر : محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ، ص ٢٦٤ ـ ٢٦٦ .

(٣) هو اذفونش بن فرذلند بن غرسية بن شانجة ، كان من أشجع أخوته ، يرد في المصادر والمراجع بلفظ الفونس ، والفنش ، توفي في مدينة طليطلة في شهر ذي الحجة من عام ٥٠٢ هـ ، انظر: ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٥٠ ـ ٥١ ؛ السلاوي : الاستقصا ، ج ٢ ، ص ٣٣ .

(٤) ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص ٧٧ ؛ ابن أبي دينار : المؤنس ، ص ١٠٠ ـ ١٠١ ؛ عبد الكريم التواتي : مأساة انهيار الوجود العربي في الأندلس ، ص ٣٠٩ .

سنة (1) وعلى الرغم من هذا الذل لملوك الطوائف على يد ألفونسو السادس فقد تلقبوا بألقاب ملوكية فخمة مثل المقتدر ، والمتوكل ، والمؤتمن ، والمعتضد ، فرحم الله ابن رشيق حين قال :

مما يبغضني في أرض أندلس سماع مقتدر فيها ومعتضد
ألقاب سلطنة في غير مملكة كالهر يحكي انتفاخاً صورة الأسد (2)

ولم يجد ملوك الطوائف حيفاً في الاستنجاد بأعدائهم النصارى لقتل بعضهم بعضاً (3) ، أو من أجل أن يحافظ أحدهم على عرشه المهزوز ، وكانوا في المقابل يقدمون الأموال الطائلة مقابل هذه المساعدات فأثقلوا كاهل رعاياهم بالضرائب من أجل تقديمها لأعداء أمتهم (4) .

واستخدم النصارى هذه الأموال في تجهيز الجيوش للانقضاض على الأراضي الإسلامية في الأندلس والتهامها تحت شعار حركة الاسترداد الصليبية التي شجعتها وباركتها الكنيسة (5) .

لقد كان عصر ملوك الطوائف عصراً زاخراً بالمجون ، ومثالاً للتمزق السياسي ، وضعف التمسك بمبادىء الإسلام الحنيف . ولكن على الرغم من هذه الصورة القاتمة كان هناك بصيص من نور يخرج من بين الفينة والفينة ينير للناس الدرب . ويحضهم على رفض واقعهم المرير فكثيراً ما رفض الأندلسيون الانصياع لحكامهم الذين ارتضوا لأنفسهم الذلة بارتمائهم في أحضان ملوك النصارى . فقد رفض أهل سرقسطة دفع الأموال الى المقتدر عميل النصارى ، وأفهموه أن الأمر مخالف لتعاليم الشرع الحنيف . وكذلك حذا حذوهم أهل طليطلة ورفضوا جمع الأموال الى القادر بن ذي النون

---

(1) السلاوي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٣ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٥ ، ص ٢٧ ـ ٢٨ .
(2) ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص ١٠٠ ـ ١٠١ .
(3) ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ص ٧٧ .
(4) عباس الجراري : الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه ، ج ١ ، ص ١٢٠ .
(5) لين بول : قصة العرب في اسبانيا ، ص ١٦١ ـ ١٦٣ .

ليقدمها الى حليفه الفونسو السادس عام ٤٦٨هـ / ١٠٧٨م [١] .

وتزعمت فئة من الفقهاء ورجال الفكر دعوة ملوك الطوائف الى التكاتف والوحدة من أجل الوقوف أمام زحف النصارى المستمر نحوهم ، وكانت تلقى أمثال هذه الدعوات أذناً صاغية بعد الأزمات ، والنكبات المفجعة التي كان يتعرض لها الأندلس من غارات مخربة او سقوط موقع حساس مثل بربشتر وقلمرية في عام ٤٥٦هـ / ١٠٦٤م ، وقد توجت هذه النكبات بسقوط طليطلة عام ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م .

ومن الذين تزعموا حركة الدعوة للوحدة ولمّ الشعث لمواجهة الأخطار المحدقة سليمان بن خلف الباجي [٢] ، كما شاركه علماء آخرون في هذه الدعوة في فترات مختلفة [٣] .

لقد كان الأندلسيون يرزحون تحت نير الذل والفقر ، وكابوس الضرائب الباهظة التي لا تخضع لنظام معين في زياداتها ، لذا كانت الرعية الأندلسية لا بل العالم الإسلامي كله بحاجة لمن يخلصه من واقعه المرير الذي كان يعانيه .

دولة المرابطين حتى نهاية عهد يوسف بن تاشفين

في هذه الظروف اجتمعت قبائل صنهاجة في المغرب بعد تفرق دام مئة وعشرين عاماً على يد أحد زعمائهم المسمى أبو عبد الله محمد بن تيفاوت

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ق ٣ ، ص ٧١ - ٧٢؛ ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٢٩ ؛ ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ص ٨٢ - ٨٣ .

(٢) محدث وفقيه وعالم متكلم مشهور توفي سنة ٤٧٤هـ / ١٠٨١م بمدينة المرية ، انظر : الضبي : بغية الملتمس ، ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .

(٣) الضبي : نفس المصدر السابق والصفحات .

المعروف بتارشتا اللمتوني (٤٠٠ - ٤٠٣ هـ / ١٠٠٩ - ١٠١٢م) [١] ، وبعد وفاته حمل الراية بعده صهره يحيى بن ابراهيم الكدالي (٤٠٣ - ٤٣٤هـ / ١٠١٢ - ١٠٣٤م) الذي كان غير راض عما كان فيه قومه من جهل وتخلف ، فصمم على تبديل أحوالهم ، وكان يتحين الفرص من أجل إخراج قومه من الظلمات الى النور [٢] .

وواتته الفرصة في عام ٤٢٧هـ / ١٠٣٦م عندما رحل لأداء فريضة الحج وفي طريق عودته استطاع ان يصطحب معه أحد تلاميذ واجاج بن زلو اللمطي [٣] المسمى عبد الله بن ياسين الذي استجاب لنداء الواجب ، ورأى في خروجه مع يحيى بن ابراهيم للدعوة الى الله لوناً من ألوان الجهاد في سبيل اعلاء كلمة لا إله إلا الله ، فعاد يحيى به الى قومه ظافراً مسروراً ، وشاركه قومه هذه الفرحة [٤] .

وأخذ عبد الله بن ياسين يوضح للملثمين الذين سيطرت عليهم البدع والخرافات مبادىء الاسلام الصحيحة ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر . وعلى الرغم من كل الصعوبات التي اعترضته استطاع خلال فترة وجيزة أن يربي ألف رجل من أشراف صنهاجة على تعاليم الإسلام الصافية ، وللزومهم رباطه واخلاصهم له سماهم المرابطين [٥] .

---

(١) البزيوي : تاريخ دول الإسلام بالمغرب ، ص ٣٣ .

(٢) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ق ٣ ، ص ٢٢٦ ؛ ابن أبي زرع : روض القرطاس ، ص ١٢٠ - ١٢١ ؛ ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٣٧٣ - ٣٧٥ ؛ عبد الحق حموش : ابن تاشفين ، ص ١٩ ؛ حسن محمود : المرجع السابق ، ص ١٠٧ - ١٠٨ .

(٣) هو أحد تلاميذ أبي عمران الفاسي ، الذي عاد الى السوس بعد إكمال تعليمه وبني هناك داراً للعلم ، ودراسة القرآن سماها دار المرابطين ، ويعتبر البعض ان رباط وجاج أقدم رباط مغربي ، انظر : ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣٧٤؛ حسن محمود : المرجع السابق :ص ١٢٨ - ١٣٦ ؛ محمد ادريس العلمي : الحركة الدينية في عهد المرابطين ، مجلة دعوة الحق ، ع ٣ رجب ١٣٨٢ هـ ، ص ١٩ - ٢٠ .

(٤) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٢٢ - ١٢٣ ؛ حسن محمود : المرجع السابق ، ص ١١٣ .

(٥) الرباط : معناه اللغوي ، هو : الثبوت واللزوم ، وربط النفس على الأمر أي تثبيتها عليه والزامها إياه ، =

وبهذا العدد القليل استطاع عبد الله بن ياسين أن يخضع كل المعارضين لدعوته في جميع بلاد الصحراء ، وما أن قضى نحبه في يوم الأحد الموافق ٢٤ جمادى الأولى سنة ٤٥١هـ حتى كانت جيوشه قد أخضعت بلاد نفيس وسائر بلاد كدميوة ، وجبل درن [١] ، ودرعة [٢] ، وسجلماسة [٣] . وتسلم الراية بعده أبو بكر بن عمر ، الذي أدى الرسالة على أكمل وجه ، فتابع جهاده لبرغواطة حتى هزمهم [٤] . الا ان خبراً طار إليه من جنوب المغرب نغص عليه انتصاراته ، وهو وقوع الفتنة ما بين مسوفة ولمتونة فقرر الرحيل اليهم ليلم شملهم ويوحّد كلمتهم ، فوكل شؤون المغرب لابن عمه يوسف بن تاشفين لما امتاز به من فضل وشجاعة ، وترك عنده ثلث الجيش ورحل بالملثمين في

= ومعناه الشرعي هو : ملازمة الثغور والثبوت بها على السار والمحذور ، وفرائضه النية ، والزاد الحلال ، والعدة ، والمعقل ، انظر : محمد مفتاح : مفهوم الجهاد والاتحاد في الأدب الأندلسي ، مجلة عالم الفكر ، مج ١٢ ، ابريل ـ مايو ـ يونيو ١٩٨١م ، ص ١٨٣ ، أما عن سبب تسميتهم بالمرابطين فانظر ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص ١٠٦ ؛ ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ق ٣ ، ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ ؛ ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٢ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ١٢٨ ـ ١٢٩ ؛ المراكشي : المعجب ، ص ٢٢٧ ؛ أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الاسرات الحاكمة ، ج ١ ، ص ٧٩ .

(١) جبل مشهور بالمغرب معترض بالصحراء ، وفي اعلاه مجموعة قلاع وحصون تزيد على السبعين حصناً وينفجر منه نهر نفيس ، ووادي أغمات انظر : الحميري : المصدر السابق ، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥ .

(٢) مدينة عامرة في جهة سجلماسة تبعد عنها ثلاثة مراحل ، انظر : الحميري : المصدر السابق ، ص ٢٣٦ .

(٣) مدينة في جنوب المغرب في مقطع جبل درن ، وسكانها من أغنى الناس لوقوعها على طريق غانة بلد الذهب ، ويعود تأسيسها الى عام ١٤٠هـ على يد مدرار بن عبد الله ، أنظر : الحميري : المصدر السابق ، ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦ ؛ ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٩٢ ؛ القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ص ٤٢ ؛ مالك كوك : الرواية التاريخية عن تأسيس سجلماسة وغانة ص ١٢ ـ ويعتبر المستشرق باذل دافسن (افريقيا تحت أضواء جديدة ص ١٤٢) ، أن مجيء المرابطين الى هذه المناطق كان بمثابة الوبال والنكبة ، وهذا مغاير للحقيقة اذ ازدهرت المدينة في ظلهم ازدهاراً فائقاً ، وما هذا الا جزءاً من الحملة الظالمة التي يشنها المستشرقون على هذه الدولة المجاهدة التي وقفت في وجه الزحف الصليبي في إسبانيا .

(٤) ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص ١٠٦ ـ ١٠٧ ؛ أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٣١٧ .

شهر ذي القعدة سنة ٤٥٣هـ / ديسمبر ١٠٦١م (١) .

وأخذ يوسف بن تاشفين يتابع جهاده للمخالفين لدعوة عبد الله بن ياسين ، فوجه أربعة جيوش لقتالهم وسار هو خلفهم كرديف للنجدة في اللحظة الحاسمة ، فغزا قبائل المغرب قبيلة قبيلة حتى أخضعها . وفي جمادى الثانية سنة ٤٦٢هـ / ١٨ مارس ١٠٧٠م توج انتصاراته بفتح فاس الفتح النهائي ، وبذلك يكون قد فتح جميع بلاد المغرب الأقصى ما عدا سبتة وطنجة (٢) .

وبعد هذه الانتصارات الرائعة التي حققها يوسف بن تاشفين أخذ يفكر بالانفراد بالسلطة او على الأقل التمسك بما وصل اليه ، وهذا ما اتضح من خلال اتصالاته مع بعض إخوانه حيث طلب منهم القدوم اليه واعداً إياهم بالمال والسلطة ، فهرع اليه جمع منهم ، وكل ذلك يحدث خفية عن القائد الأعلى أبي بكر بن عمر ، الا ان يوسف على الرغم من عظم سلطانه كان على اتصال مع أميره أبي بكر في الصحراء يخبره عن انتصاراته ، فكان يتقبل ذلك بالسرور والشكر (٣) .

ولما قضى أبو بكر بن عمر على الفتنة التي نشبت في الجنوب عاد الى مراكش ليجد الأمور قد تغيرت عما كانت عليه ، وأن يوسف قد أصبح يتمتع بمكانة عظيمة بين جنده ورعيته ، وأنه أحاط نفسه بحاشية تشبه حاشية الملوك العظام ، عندها أدرك أن الأمور خرجت من يده فخاطب يوسف بن تاشفين من أجل التنازل له رسمياً عن السلطة وقال له : « يا يوسف اتق الله في المسلمين

---

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١١١ - ١١٢ ؛ الكتبي : عيون التواريخ ، ج ١٢ ، ورقة ٩٠ ؛ مؤلف مجهول : الحلل الموشية ، ص ٢٣ - ٢٥ ؛ ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٣٤ .

(٢) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ق ٣ ، ص ١٣٨ - ٢٣٤ ؛ ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٣٨ - ١٣٩ ، ١٤٢ ؛ ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٨ ؛ رزق الله الصدفي : تاريخ دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ٤٩ - ٥١ .

(٣) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٢ - ٢٣ ؛ ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ق ٣ ، ص ٢٣٢ - ٢٣٣ .

ولا تضيع شيئاً من أمورهم فانك مسؤ ول عنهم والله خليفتي عليك وعليهم » ، وخلع نفسه في جمع من أشياخ لمتونة ، وأشهد بذلك العدول ، وأعيان القبائل ، وبالمقابل قطع يوسف على نفسه الا يقطع أمراً دونه ، وأعلم يوسف القبائل بذلك فبايعوه وقدموه [١] .

ثم رحل أبو بكر بن عمر عام ٤٦٥هـ / ١٠٧٣م محملاً بالهدايا ، وبقي هناك حتى استشهد في شعبان عام ٤٨٠ هـ . وقد ظلت السلطة الإسمية لأبي بكر حتى تاريخ استشهاده ، وخير شاهد على ذلك أن النقود بقيت تضرب باسمه حتى التاريخ المذكور بصفته حاكماً للمرابطين [٢] .

وبعد أن أصبح يوسف بن تاشفين سيد المغرب بصورة شرعية بعد تنازل أبي بكر ، أخذ يتابع جهاده من أجل استكمال توحيد أرض المغرب تحت سيادته ، فبعث في عام ٤٧٠هـ / ١٠٧٧م جيشاً ضخماً على رأسه صالح بن عمران الى طنجة ، حيث دخلها عنوة بعد أن قتل سكوت البرغواطي [٣] في ساحة المعركة ، وفي عام ٤٧٢هـ / ١٠٧٩م تمكن مزدلي بن تلكان اللمتوني ، أحد قادة يوسف بن تاشفين المشهورين من دخول تلمسان ، وبذلك يكون قد سقط المغرب الأوسط تحت سيادة يوسف بن تاشفين [٤] .

---

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٣ - ٢٦ ؛ ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ق ٣ ، ص ٣٣٢ - ٣٣٣ ؛ مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٢٥ - ٢٧ ؛ ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٤٢ ؛ غوتية : ماضي شمال افريقيا ، ص ٢٨٢ ؛ محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ، ص ٣٠٠ .

(٢) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٢٧ ؛ ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٦ ؛ ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، ق ٣ ، ص ٣٣٢ ؛ حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢٢٥ .

(٣) أصله من برغواطة الزناتية ، وكان يعمل تحت إمرة علي بن حمود ، وكان نائبه على طنجة وسبتة وبعد زوال أمر الحموديين استقل سكوت بما تحت يده انظر : ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ - ابن الآبار : الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ٥١ ، حاشية رقم ١ .

(٤) ابن خلدون : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٣٨٠ - ٣٨١ ؛ رزق الله الصدفي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥١ .

أما سبته فقد تحصن بها ضياء الدولة يحيى بن سكوت البرغواطي ، الا ان يوسف استطاع دخولها في عام ٤٧٧هـ / ١٠٨٤م ، وقتل يحيى بن سكوت [١] .

وبهذا يكون يوسف بن تاشفين قد حول حلم عبد الله بن ياسين الى حقيقة ، فتحررت قبائل صنهاجة ، وبلاد المغرب من البدع والخرافات ، وأخذوا ينهلون من منهل الإسلام الصافي تحت راية دولة تمتد حدودها من تونس شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً ، ومن البحر الأبيض المتوسط شمالاً حتى حدود السودان جنوباً ، تنتشر في ربوعها الطمأنينة والسكينة بفضل السياسة الحكيمة التي انتهجها يوسف بن تاشفين [٢] .

واستطاع يوسف بن تاشفين أن يقضي على كل محاولة تمرد ضد سلطته فقضي على تمرد أهل الجنوب عام ٤٦٤هـ / ١٠٧٢م ، وأحبط محاولة تمرد ابراهيم بن أبي بكر في عام ٤٦٩هـ / ١٠٧٦م ، الذي جاء مطالباً بملك أبيه ، وأحبط أيضاً مؤامرة قامت ضده في مدينة فاس [٣] ، ولجأ الى اسلوب الدسيسة ضد من لم يستطع القضاء عليه مباشرة كما فعل مع سيد قبيلة كزولة ومالك جبلها محمد بن ابراهيم ، حيث حاول قتله عن طريق الحجام ، وعن طريق دس السم له ، ولكنه نجا من كل هذه المحاولات [٤] .

ومن أجل أن يحافظ يوسف على قوة دولته ، حظي الجيش منه برعاية خاصة ، لأن دولة بسعة دولته لا بد لها من جيش قوي يحمي ذمارها ، ويقارع أعداءها لذا فقد عمل يوسف على زيادة أفراد جيشه من الأغزاز [٥] ، والروم ،

---

(١) ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ق ٢ ، ج ٢ ، ص ٦٦٣ - ٦٦٤ (يحدد سقوطها في صفر ٤٧٦هـ) ؛ ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ، ج ١ ، ص ١٧٣ - ١٧٤ .

(٢) محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ، ص ٢٩٨ - ٣٠٢ ؛ حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢٣١ - ٢٣٢ .

(٣) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٢ - ٣٠ ؛ ابن خاقان : قلائد العقيان ، ص ٣٠ - ٣٤ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ص ١٧٨ - ١٧٩ .

(٥) هم جنس من الترك عملوا في جيوش المرابطين والموحدين ، والمرينيين ، انظر : ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٣٩ ، حاشية رقم ٨٠ .

والرماة [١] ، فقام بشراء نحو من الألفين من العبيد السودان ومائتين وأربعين فارساً من الأعلاج ابتيعت له من الأندلس ، وأركب الجميع في الجيش [٢] .

وحتى يحافظ على فتوحاته اضطر الى بناء معسكرات خاصة لحمايتها ، فأنشأ عدة مدن لهذا الغرض . فعندما فتح المرابطون سجلماسة أسسوا مدينة تبلبلا ، وأنشئت مدينة مراكش في قلب بلاد المصامدة لتكون معسكراً يحشد فيه الجند للتصدي لهم اذا حدثتهم أنفسهم بالثورة ، كما بنيت في تلمسان قلعة حصينة تحرس الزناتين ، وتقف لهم بالمرصاد ، وكانت كل قلعة تشحن بالأقوات ، والسلاح ، والمقاتلة حتى تكون مستعدة لمواجهة أي طارىء يهدد أمن الدولة [٣] .

ولم يغفل يوسف بن تاشفين عن الأسطول فانشأ أسطولاً فخماً أثبت جدارته في حصار سبتة [٤] ، وازدهر هذا الأسطول في عهد علي بن يوسف حتى أصبح هو المسيطر في مياه البحر الأبيض المتوسط .

وعلى الرغم من هذا الجهد المضني الذي بذله يوسف في مجال الحرب ، والاهتمام بالجيش ، الا انه لم يغفل عن العمارة فشجعها ، وأقام عدة منشآت أهمها : حصن قصر الحجر برجسة مراكش [٥] ، واهتم بشكل خاص ببناء المساجد ، وربما يعود ذلك لأدراكه لأهميتها في إعداد الأفراد إعداداً سليماً ينزع بهم عن كل ما هو مخل بالأخلاق ، وهذا ليس غريباً على رجل تخرج من مدرسة عبد الله بن ياسين ، الذي غرس في نفسه حب الإسلام والعمل له . فعندما دخل مدينة فاس عام ٤٦٢هـ / ١٠٧٠م أمر ببناء المساجد

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٣ ، ص ٢٣٥ ؛ ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٣٩ .

(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٣ ؛ مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٢٥ .

(٣) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

(٤) ابن بسام : المصدر السابق ، ق ٢ ، ج ٢ ، ص ٦٦٣ - ٦٦٤ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ١١٣ - ١١٤ .

(٥) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٢٥ .

في أحوازها وأزقتها وشوارعها ، وأي زقاق لم يجد فيه مسجد عاقب أهله ، وأمرهم ببناء مسجد فيه ، وكذلك أسس المساجد في جزائر مزغنة [١] وندرومة [٢] وتاكرارت [٣] ، وقام بتشييد جامع مراكش [٤] ، وأمر بعمل منبر للمسجد الجامع بالجزائر كان آية في الزخرفة والجمال [٥] ، وزاد في عام ٤٨٤هـ / ١٠٩١م في مسجد سبتة ، وأمر ببناء سور الميناء السفلي فيها [٦] .

وشجع أيضاً بناء الفنادق ، والارحاء ، والأسواق في جميع أرجاء بلاده على أن أهم عمل معماري قام به هو اختطاطه لعاصمة ملكه مراكش [٧] .

أما سياسته الاقتصادية فقد التزم فيها أحكام الشرع ، فلم يفرض أي ضريبة غير شرعية طوال حياته [٨] ، واقتصر على الزكاة ، والأعشار ، وجزية أهل الذمة ، وأخماس غنائم المشركين [٩] ، وقام بتشجيع التجارة لفائدة رعاياه [١٠] .

وبدل يوسف بن تاشفين في عام ٤٧٣هـ / ١٠٨٠م السكة في جميع

---

(١) مدينة جليلة البنيان تقصدها السفن من أفريقية ، والأندلس وهي على ضفة البحر بين أفريقية والمغرب ، انظر : ياقوت : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٣٢ .

(٢) في الأصل اسم قبيلة من قبائل جذم كوميه تقع شمال غرب تلمسان انظر : البيذق : أخبار المهدي بن تومرت ، ص ٦٥ ، حاشية رقم ١١٧ .

(٣) قلعة حصينة بينها وبين تلمسان مسيرة يوم . انظر: الحميري : المصدر السابق ، ص ١٢٩ .

(٤) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٤١ - ١٤٢ ؛ السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ج ٢ ، ص ٧٤٩ .

(٥) مانويل جوميث مورينو : الفن الإسلامي في إسبانيا ، ص ٣٣٧ .

(٦) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٤٤ .

(٧) السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ج ٢ ، ص ٥١٧ ، قالوا مراكش معناها مرّ مسرعاً - ستتحدث عن هذه المدينة بشيء من التفصيل في الفصل الخاص بالعمارة انظر : ياقوت : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٩٤ ؛ الحميري : المصدر السابق ، ص ٥٤٠ .

(٨) ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص ١٠٧ .

(٩) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٣٧ ؛ ابن القاضي : جذوة الاقتباس ، ج ٢ ، ص ٥٤٥ .

(١٠) عبد الحق حموش : ابن تاشفين ، ص ٤٦ .

أعماله ، وكتب عليها اسمه [1] ، وأنشأ داراً للسكة في مدينة مراكش [2] .

أما علاقته مع رعيته فقد اتخذ مختلف الوسائل من أجل كسب رضاها ، فكان يوزع خمس الغنائم على الفقهاء والعلماء في كافة جهات المغرب ، ورد أحكام البلاد الى القضاة ، وأسقط ما دون الأحكام الشرعية ، وكان يقوم بتفقد أحوال رعيته في كل سنة ، ويجري الأرزاق على الفقهاء من بيت المال طوال أيام حياته [3] ، لهذا كان المرابطون يستقبلون في كل بلد يحلون فيه استقبال المنقذين [4] .

وحتى يضمن لنفسه طبقة موالية مخلصة ، عمد الى توزيع الأراضي الخصبة ـ على قبائل الملثمين القادمة من الجنوب ، وولى رجالاتها الأعمال ، واتخذ من أقربائه ولاة على الأمصار المفتوحة [5] .

ولكي يضفي على دولته وبلاطه الشكل الذي يليق بعظمتها ، أنشأ الدواوين ، واتخذ الأعلام المدبجة بالآيات القرآنية ، وأحاط نفسه بطبقة من الحشم [6] ، والأتباع ، ونظم مقابلاته ، واستقبالاته عن طريق الحجاب [7] ، ولم يلبث أن اتخذ لنفسه ألقاباً سلطانية فخمة مثل أمير المسلمين ، وناصر الدين ، وذلك من خلال مرسوم صدر عنه عام ٤٦٦هـ / ١٠٧٣م وزع في

---

(١) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٣٧ ، ١٤٣ (نقش في الدينار على الوجه لا إله الا الله محمد رسول الله ، وتحت ذلك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، وكتب في الدائرة « ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » ، وكتب في الصفحة الأخرى . الأمير عبد الله العباسي ، وفي الدائرة تاريخ الضرب وموضع السكة) .

(٢) أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٣٢٨ .

(٣) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٣٧ ؛ ابن القاضي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٤٥ .

(٤) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢٠٩ .

(٥) المرجع السابق نفسه ، ص ٢٢٩ .

(٦) ضم يوسف من جزولة ولمطة ، ومصمودة ، وقبائل زناتة جموعاً كثيرة ، واطلق عليهم اسم الحشم ، وضم طائفة أخرى من اعلاجه وأهله وحاشيته وسماهم الداخلين انظر : مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٣٣ .

(٧) أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩ .

أنحاء البلاد للخطبة له بهذا الإسم [1] .

وحتى يحيط حكمه بسياج شرعي دعا للخليفة العباسي ، الذي أرسل بدوره تقليداً اليوسف بحكم البلاد التي تحت يده ، ومدافعة لأعداء [2] .

وبذلك يكون يوسف بن تاشفين قد نجح في إقامة صرح دولة قوية ، ذات بلاط فخم ، ومؤسسات عديدة ، ضمن وحدة سياسية قوية ، في الوقت الذي كان فيه الأندلس يعاني من آلام التفكك السياسي ، والاجتماعي ، والظلم الاقتصادي في ظل ملوك الطوائف ، ففرضوا الضرائب غير الشرعية على رعاياهم ليشبعوا نهم ملوك النصارى الذي لا ينتهي [3] .

عندها رأى أهل الأندلس ، وملوكهم بأنه لا بد من التخلص من هذا الوضع المزري الذي هم فيه ، فتوالت الوفود على يوسف بن تاشفين ، وتتابعت الرسائل من ملوك الطوائف ، طالبين تخليص البلاد من خطر النصارى خاصة بعد سقوط مدينة طليطلة عام ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م [4] وبعد أن استقر الفونسو السادس في طليطلة ، استشرى خطره وأخذ يتوق لامتلاك الأندلس

---

(١) اجتمع أشياخ القبائل في هذه السنة على يوسف وقالوا : أنت خليفة الله في المغرب وحقك أكبر من أن تدعى بالأمير ، إلا أنه رفض ، لأن ذلك الإسم خاص بالخليفة العباسي ، وهو تابع له يخطب في المغرب باسمه ، وعندما أصروا عليه باتخاذ اسم قال لهم أمير المسلمين ، وهو أول من تسمى بهذا الإسم انظر : ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٧ ـ ٢٨ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ١٢٤ ـ ١٢٥ .

(٢) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ .

(٣) ابن بسام : المصدر السابق ، ق ٢ ، ج ١ ، ص ٢٤٨ .

(٤) بعث المعتمد بن عباد عام ٤٦٧ هـ الى يوسف يطلب منه الجواز ، وفي عام ٤٧٤هـ قدم وفد من الأندلس يشكون سوء أحوالهم ، وكتب اليه ابن الأفطس يستنصره ، وفي عام ٤٧٥هـ جاء كتاب استصراخ آخر من ابن عباد انظر : ابن بسام : المصدر السابق ، ق ٢ ، ج ١ ، ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠ ؛ ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٤٢ ـ ١٤٤ ؛ ابن خلدون : المصدر السابق ج ٦ ، ص ٣٨٠ ـ ٣٨٢ ؛ مؤلف مجهول : المصدر السابق : ص ٣٣ ـ ٣٥ ، ٤٥ ـ ٥١ ؛ البزيوي : المصدر السابق ، ص ٣٩ ، وعن الخلاف حول تاريخ سقوط طليطلة انظر : ياقوت : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤٠ ؛ القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٥٤٧ ؛ ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٤٤ .

كلها ، ويذكر أنه أعد قوساً ضخماً من اجل وضعه مكان الهلال المنصوب على مسجد قرطبة .

لقد كانت مصيبة المسلمين في طليطلة مروعة ، فحركت المشاعر الإسلامية الصّادقة لأنهم شعروا بأن ذلك مؤشر لنهاية مروعة للمسلمين في الأندلس ، وعبر الشاعر الأندلسي ابن أبي العسال [1] عن خطورة سقوط طليطلة وما سيترتب على ذلك أصدق تعبير حين قال :

حثوا رواحلكم يا أهل أندلس
فما المقام بها الا من الغلطِ

السلك ينثر من أطرافه وأرى
سلك الجزيرة منثوراً من الوسط

من جاور الشر لا يأمن عواقبه
كيف الحياة مع الحيّات في سفط

لقد كان أهل الأندلس يرون في دولة المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين أملهم الوحيد في تخليصهم من ذلك الواقع المزري ، ولم يخيب يوسف رجاءهم فأرسل الى المعتمد بن عباد يشترط عليه أن يسلم إليه الجزيرة الخضراء [2] قبل الجواز اليهم فوافقه المعتمد ، فجاز يوسف الى الأندلس ، والتقى مع الفونسو السادس ، وانتصر عليه في موقعة الزلاقة عام ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م [3] .

وما لبث أن جاز يوسف جوازاً آخر بعد الزلاقة ، الا انه اكتشف أن ملوك الطوائف غير مخلصين لدينهم وبلادهم ، فقسم منهم يتعامل مع الأعداء ضد إخوانه المجاورين له ، أو ضد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، لذا اتخذ

---

(١) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٧ ـ ٢٨ .
(٢) مدينة مشهورة مقابلة لسبتة وهي شرقي شذونة انظر : ياقوت : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٦ .
(٣) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٣٨ ، ٥٠ ـ ٥١ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ج ٥ ، ص ٢٨ ـ ٢٩ .

قرار استئصال شأفتهم فتم له ذلك [١] باستثناء بني هود في سرقسطة لأسباب سنعرض لها في الباب الثاني .

وهكذا استطاع يوسف بن تاشفين أن يوحد تحت لوائه ما بقي من الأندلس الإسلامي ، وتمكن بعد جهد باهظ التكاليف ان يوقف تقدم النصارى بانتصاره الكبير في موقعة الزلاقة ، وان يحول بين السيد القمبيطور [٢] وتوسيع مدى نشاطه المخرب الى ما يلي بلنسية جنوباً [٣] .

وبذلك استطاع يوسف بن تاشفين أن يحقق الوحدة التي عزت منذ سقوط الخلافة الأموية في الأندلس ، فامتد سلطانه من السودان جنوباً الى البرانس شمالاً ، ومن المحيط الأطلسي غرباً الى حدود تونس شرقاً [٤] .

وعلى الرغم من هذا السلطان العريض الذي حازه يوسف بن تاشفين الا انه كان إنساناً متواضعاً عادلاً لا يرهق رعيته بالمغارم المحرمة [٥] ، وكان يعيش حياة بسيطة في لباسه الصوف ، وأكله خبز الشعير ، ولحوم الإبل وألبانها ، وكان شديد الحياء ، جامعاً لخلال الفضل [٦] يخاف ربه ، كتوماً لسره كثير الدعاء والاستخارة [٧] ، حازماً سائساً للأمور ضابطاً لمصالح دولته [٨] .

---

(١) المقري : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٤١٣ .

(٢) فارس قشتالي قام بدور كبير في شرقي الأندلس توفي ١٠ يوليه ١٠٩٩م ، انظر : حسين مؤنس : السيد القمبيطور ، المجلة التاريخية المصرية ، مج ٣ ، ع ١ ، مايو ١٩٥٠ م ؛ ابن الآبار : الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ١٢٥ ، حاشية رقم ١ ؛ حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٣٠٩ - ٣١١ .

(٣) حسين مؤنس : نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين الى الموحدين ، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ، ع ٣ ، مج ١ ، ١٩٥٥ م ، ص ١٠٠ .

(٤) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٣٦ .

(٥) محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ، ص ٣٠٢ .

(٦) ابن القاضي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٤٥ .

(٧) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤٦ .

(٨) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ١٢٤ - ١٢٥ ؛ سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٢٩١ .

ويعد حياة مليئة بالكفاح والجهاد مدة نصف قرن أمضاها في إقامة دولة المرابطين في المغرب والأندلس على النحو الذي شرحناه ، توفي يوسف بن تاشفين في ٢٧ محرم ٥٠٠هـ [١] . وكان جهاد يوسف بن تاشفين وجهوده في بناء دولته موضع الثناء والتقدير من قبل كافة المسلمين في المشرق والمغرب ففي المشرق كانت أخبار انتصاراته على النصارى تثير الحمية الدينية في صفوف الرعية والعلماء ، مما دفع أبا حامد الغزالي الى شد الرحال اليه ليقابل هذا الزعيم الفذ ، ولكن ما أن وصل الى الاسكندرية حتى وافاه نعي يوسف فعاد من حيث أتى [٢] . هذا ويعتبر يوسف بن تاشفين من أعظم حكام المسلمين في عصره [٣] ، وبوفاته تبدأ مرحلة جديدة من مراحل دولة المرابطين وهي فترة حكم ابنه علي الذي سيتابع خطا أبيه في الجهاد والحكم .

---

(١) القرماني : أخبار الدول ، ص ٢٥٤ ؛ الحنبلي : شذرات الذهب ، ج ٣ ، ص ٤١٢ ؛ ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٩٥ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق : ج ٧ ، ص ١٢٥ ؛ ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٣٧ .

(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٢٤ ، حاشية رقم ١ ؛ حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٣٢٣ .

(٣) الحنبلي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤١٣ .

الباب الأول

الأحوال الداخلية في دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف

الفصل الأول : ولاية أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين .

الفصل الثاني : الثورات والفتن في المغرب والأندلس (٥٠٠ ـ ٥٣٧ هـ / ١١٠٦ ـ ١١٤٢ م)

الفصل الثالث : ثورة محمد بن تومرت (٥١٤ ـ ٥٣٧ هـ / ١١٢٠ ـ ١١٤٢ م) .



الفصل الأول

ولاية أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين

لقد كانت أمور الدولة ، ومصالح الرعية تؤرق أمير المسلمين يوسف بن تاشفين . ويبدو أنه كان مشغولاً بشكل خاص في اختيار الرجل المناسب ليتولى الحكم بعده ويتحمل مسئولية الجهاد ، والحفاظ على المنجزات التي حققها هو وأسلافه لا سيما ان رقعة الدولة المرابطية قد اتسعت ، وخطر النصارى قد استشرى .

ويظهر أنه وصل إلى قناعة بأن القبائل لا تجتمع إلا على رجل يعينه هو وبذلك يطمئن على استمرار مسيرة الدولة الفتية . ولذلك فكر يوسف بن تاشفين في تعيين أحد أبنائه ولياً للعهد . وعندما اختمرت الفكرة في رأسه عام ٤٩٥هـ / ١١٠١م وقع اختياره على ابنه علي [١] لما امتاز به من ورع ونباهة

---

(١) كنيته أبو الحسن ، ولد بمدينة سبتة يوم الخميس ٤ ربيع أول عام ٤٧٦ هـ ، وفي رواية أخرى عام ٤٧٧ هـ . وقد اختلف في اسم أمه فمنهم من يقول أن ـ اسمها (قمر) ، وآخرون يقولون (منوا) ، وتكنى بأم الحسن ، ولكن هناك إجماعاً على أنها جارية إسبانية مسيحية . وكان علي يتمتع بصفات جسمية رائعة ، فوصفه ابن أبي زرع (روض القرطاس ، ص ١٥٧) بانه (أبيض اللون مشرب بحمرة تام القد ، أسيل الوجه ، أفلج ، أقنى خفيف العارضين ، اكحل العينين ، طويل القامة) ، وأضيف لهذه الصفات الجسمية الرائعة ذكاء وفهم وقادان . وقد تزوج من عدة نساء منهن : رياض الحسن والتي انجبت له ولداً اسمه عمر الصغير ، وأخرى أمة سوداء اسمها تاغشيت ، وثالثة اسمها قمر أم ولي عهده

وحزم . عندها أصدر مرسوماً بهذا الشأن في نفس العام ، وقام بكتابة المرسوم الوزير الفقيه أبو محمد بن عبد الغفور . وفي العام التالي جاز يوسف بن تاشفين جوازه الرابع الى الأندلس من أجل تنظيم البيعة لولده علي [1] .

ولكن قبل أن نخوض في تفاصيل ذلك نتساءل عن سبب اختيار علي دون أخويه الأكبر منه سناً ، أبو طاهر تميم ، والمعز بالله ؟ [2] . يبدو أن يوسف كانت له فراسة جيدة في أبنائه ، ومن خلال مراقبتهم اكتشف ان علياً هو أفضلهم ، وأجدرهم بهذا المنصب لما كان يتمتع به من ذكاء وقاد . لذا أخذ يعده بعناية لتولي هذا المنصب فأوكل إليه وهو ما يزال يافعاً لم يتجاوز الثامنة عشر من عمره النظر في المظالم والشكايات فأثبت جدارة ومقدرة فائقتين فأحبه الناس وأعجبوا به [3] .

وربما كان يوسف بن تاشفين يرمي من وراء اختياره علي بالذات الى أهداف بعيدة . فالأندلس التي تمثل جزءاً مهماً من مملكته فضلاً عن كونها تمثل خط المواجهة الأول مع النصارى لا بد أن يكون حاكمها الجديد على معرفة ودراية بأحوالها ، ولم يكن هناك شخص مؤهل لذلك أفضل من علي لاتصاله بالأندلسيين عن طريق أمه من جانب ، وعن طريق نشأته بسبتة من جانب آخر . فقد عاش علي في الأندلس أكثر مما عاش في المغرب ، ولا

= سير ، وكان لعلي من الأبناء : تاشفين الذي تولى الحكم بعده (٥٣٧ ـ ٥٣٩ هـ) ، وأبو بكر الذي كان يدعى بيكور ، وأبو حفص عمر الكبير ، وابراهيم ، وإسحاق ، وتميم ، انظر : ابن القاضي : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٤٥٩ ـ ٦٠ ؛ مؤلف مجهول : الحلل الموشية ، ص ٨٤ ؛ ابن عذارى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ١٠٠ ـ ١٠١ ؛ محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ٥٨ ؛ عبد الحق حموش : ابن تاشفين ، ص ٣١ ؛ محمود مكي : وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، مج ٧ ـ ٨ ـ ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠ ، ص ١٥٦ ـ ١٨٢ ـ

E. I. article, Ali B. Yusuf. B. Tashufin. Vol. L p. 389- 390

(١) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ٤٥ ـ ٤٦ .

(٢) مرانده : علي بن يوسف وأعماله في الأندلس ، مجلة تطوان ع٣ ـ ٤ ـ ١٩٥٨ ، ص ١٥٥ .

(٣) مؤلف مجهول : الحلل الموشية ، ص ٨٤ .

عجب أن تكون الحضارة الأندلسية قد أثرت فيه من حيث ملامحه الجسمية وطريقة تربيته أكثر من المؤثرات المغربية [1] .

وقد نشأ علي كما ينشأ أبناء الأشراف والأمراء ، فحصل قسطاً وافراً من الثقافة ، وكان له اطلاع في علوم الفقه والآداب . كل هذه المعطيات جعلته أقرب الى المجتمع الأندلسي ومعرفة مشاكله ، وجعلته يبذ أخواته في نظر والده .

ويبدو أيضاً أن يوسف كان حريصاً على أن لا يكون خليفته من إحدى زوجاته الصنهاجيات لأن ذلك سيدفع بهن الى تقريب أقاربههن ومواليهن لصالح أبنائهن مما يسارع في فساد الدولة ، أما علي فكانت أمه نصرانية لا عصبية لها [2] .

على أي حال جاز يوسف بن تاشفين جوازه الرابع إلى الأندلس عام ٤٩٦ هـ / ١١٠٢ م من أجل تنظيم البيعة لولده علي . فما أن استقر في حاضرة الأندلس قرطبة ، وقاعدة حكم المرابطين في الأندلس حتى جمع ممثلي الرعية من أمراء لمتونة ، ورجال علم ، وفقهاء ، وأشياخ ، وقادة رأي [3] ، وتلا عليهم عقد البيعة لابنه علي ، وبين لهم الأسباب التي حدت به لهذا الاختيار ، فأقسموا له يمين الطاعة والولاء ووقعوا على عقد البيعة . ثم قام ولي العهد بإلقاء قسم الالتزام بما في العقد من شروط اشترطها عليه والده ، ووقع على عقد البيعة وكان ذلك في ذي الحجة عام ٤٩٦ هـ [4] .

---

(١) محمد ولد داداه : مفهوم الملك في المغرب من انتصاف القرن الأول إلى انتصاف القرن السابع ، ص ١٠٩ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ، ج٤ ، ص ١٢٧ .

(٣) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٥٦ ؛ محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ٤٦ - ٤٧ .

(٤) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ٤٦ - ٤٧ ؛ السيد عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، ص ١٤٢ - ١٤٣ .

وممن حضر مراسيم توقيع هذه الوثيقة عبد الملك بن المستعين بن هود ممثلاً عن مملكة بني هود المستقلة في سرقسطة [1] . وقد بارك أهل الأندلس هذا الاختيار عن طريق أحد شعرائهم حيث أنشد : ـ

وان كـان في الأسنان يحسب ثـانيا
علي ففـي العليـاء يحـسب أولا
كـذلكم الأيـدي سـواء بنـانهـا
ونختص فيهن الخنـاصـر بـالحـلا [2]

ثم خاطب يوسف سائر أهل مملكته للمبايعة لولده علي [3] ، ودخل في السنة التالية إلى غرناطة فأخذ البيعة من أهلها لولده ثم رجع الى مقر ملكه في مراكش [4] .

ولنتأمل الآن وثيقة تولية العهد التي صدرت عندما قرر يوسف جعل ولده علي ولياً لعهده [5] ومما جاء في هذه الوثيقة : « الحمد لله الذي رحم عباده بالاستخلاف ، وجعل الإمامة سبب الائتلاف ، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه الكريم الذي ألف القلوب المتناحرة وأذل لتواضعه عز الملوك الجبابرة ، أما بعد فان أمير المسلمين وناصر الدين أبا يعقوب يوسف بن تاشفين لما استرعاه الله على كثير من عباده المؤمنين خاف أن يسأله الله غداً عما استرعاه كيف تركه هملاً لم يستنب فيه سواه ، وقد أمر الله بالوصية فيما دون هذه العظيمة وجعلها من أوكد الأشياء الكريمة كيف وفي عظائم الأمور ، ومصلحة الخواص والجمهور ، وأن أمير المسلمين بما لزمه من هذه الوظيفة وخصه الله

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج٤ ، ص ٤٣ .

(٢) مؤلف مجهول : الحلل الموشية ، ص ٧٧ ـ ٧٨ .

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ، ج٢ ، ص ٥٢٠ .

(٤) ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص ١١٣ .

(٥) والنص الذي كتبه أبو محمد بن عبد الغفور لا يختلف في الجوهر عن النص الذي كتبه ابن أبي القصيرة ، انظر : ابن الخطيب : الإحاطة ، ج٢ ، ص ٥١٩ ـ ٥٢٠ .

به من النظر في هذه الأمور الدينية الشريفة ماز عوالي رماحه وأحد سلاحه فوجد ابنه الأمير الأجل أبا الحسن أكثر ارتياحاً الى المعالي ، واهتزازاً ، وأكرمها سجية ، وأنفسها اعتزازاً فاستنابه فيما استرعى ودعاه لما كان إليه ادعى بعد استشارة أهل الرأي على القرب والنأي فرضوه لما رضيه ، واصطفوه لما اصطفاه ، ورأوه أهلاً أن يسترعي فيما استرعاه فأحضر مشترطاً عليه الشروط الجامعة بينها وبين المشروط فقبل ورضي وأجاب حين دعي بعد استخارة الله الذي بيده الخيرة والاستعانة بحول الله الذي من آمن به شكر) . [1] .

والمتأمل لهذه الوثيقة يخلص الى القول أن الاختيار لم يكن عشوائياً بل جاء بعد مشاورات مع أهل الرأي (بعد استشارة أهل الرأي على القرب والنأي) . كما قررت هذه الوثيقة حقيقة مهمة فيما يختص بصلاحيات الحاكم المرابطي التي تعطيه الحق في تعيين خلف له ، وتؤكد بأن هذا الحق من الحقوق الأساسية التي يتمتع بها ، وأن هذا الحق قد منحه الله له (. . . لما استرعاه الله على كثير من عباده المؤمنين خاف أن يسأله الله غداً عما استرعاه كيف تركه هملاً لم يستنب فيه سواه . . .) .

أما الشروط التي اشترطها يوسف على ولده علي من أجل تقديمه لولاية العهد فهي : - ترتيب قوة عسكرية مكونة من سبعة عشر ألف فارس في الأندلس [2] ، موزعة على نواحي مختارة لأهداف استراتيجية بحتة . فقد خصص لإشبيلية سبعة آلاف فارس لأنه أدرك أن هذه الحاضرة كانت مقراً لابن عباد أعظم ملوك الطوائف فلا بد أن تكون قد تكونت حوله طبقة انتهازية ذات مصالح معه ، وأنه بزوال ملك ابن عباد زالت تلك النعمة التي كانوا يتمتعون بها في ظل الدولة الزائلة . ولذلك وجدنا مجموعة من الشعراء يرثون ابن عباد ويبكون على المجد الضائع ، وقد تبنى بعض المؤرخين هذه الأشعار لينالوا من الدولة المرابطية فصوروها على أنها دولة همجية أنهت

(١) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٧٨ـ٧٩ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٨٠ ؛ عبد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ص ٤٢٤ .

عصور العلم والأدب المشرقة . ومن ثم كان يوسف يدرك خطورة هذه الحاضرة ، ويبدو أنه توقع أن تكون في إشبيلية طبقة أو جماعة تتحين الفرص للوثوب في اللحظة المناسبة على الوافدين الجدد ، فلهذه الاعتبارات خصص هذا العدد الضخم من الجند من المجموع العام الذي خصصه للأندلس ككل .

وخصص لقرطبة ألف فارس ، ولغرناطة كذلك . أما منطقة شرق الأندلس فقد خصص لها أربعة آلاف فارس لتعرض تلك المنطقة المستمر لغارات النصارى وبشكل خاص من قبل القمبيطور [١] .

وخصص أربعة آلاف فارس للثغور لمدافعة النصارى ، والمرابطة في الحصون المقابلة للعدو ، ويظهر أنه كان يحبذ أن يقوم الأندلسيون بحراسة حدودهم مع النصارى لعلمهم ودرايتهم بأحوال أعدائهم لمعاملتهم إياهم عن قرب [٢] .

ومن الوصايا التي قدمها يوسف لولي عهده أيضاً والتي تدل على خبرة ودراية وبعد نظر ، أنه أوصاه بأن لا يحاول إثارة أهل جبل درن ومن ولاهم من المصامدة ، وأهل الجنوب ، وأن يترك بني هود على ما هم عليه من الاستقلال حتى يكونوا حائلا بينه وبين الممالك النصرانية ، وأن يكون لأهل قرطبة وضع خاص فيقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم [٣] ، لأنه على ما يبدو كان على علم بتاريخ هذه الحاضرة وموقفها المعارض من الحكومات السابقة التي أدارت الأندلس فقد كانوا دوماً يقفون موقف المعارض الثائر [٤] .

وفي أواخر عام ٤٩٨ هـ/ ١١٠٤ م غادر يوسف بن تاشفين الأندلس

---

(١) حسين مؤنس : السيد القمبيطور ، المجلة التاريخية المصرية ، مج٣ ، ع١ ، ١٩٥٠ م .
(٢) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ٤٦ .
(٣) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٨٢ - ٨٣ .
(٤) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ، ج ٤ ، ص ١٢٦ .

عائداً إلى المغرب بعد أن اطمأن على الأمر بعده[1] . وفي هذا العام أصيب بمرض عضال ـ حال دون ممارسته لمهامه فكان علي يقوم مكانه في ممارسة سلطاته ، فنراه في عام ٤٩٩ هـ/ ١١٠٥م يصدر أمراً بعزل قاضي إشبيلية ابن منظور [2] . وبقي المرض ينخر في جسد يوسف بن تاشفين حتى قضى عليه يوم الأحد مستهل شهر محرم عام ٥٠٠ هـ / ٢ سبتمبر ١١٠٦ م [3] .

وتولى ابنه علي زمام السلطة بعده مباشرة [4] . فبعد مواراته في التراب خرج علي ويده في يد أخيه أبي الطاهر تميم فنعياه إلى المرابطين ، وجدد ـ أبو طاهر بيعته لأخيه ثم قال لهم : قوموا فبايعوا أمير المسلمين ، فبايع جميع من حضر من لمتونة وسائر قبائل صنهاجة ، والفقهاء ، وأشياخ القبائل ، فتمت له البيعة في مراكش [5] .

وكتب علي في نفس الوقت إلى سائر قواعد المغرب والأندلس ، والصحراء يعلمهم بوفاة أبيه واستخلافه إياه بعده ، ويطلب منهم بأن يأخذوا البيعة له ، وكان عمره عند توليه السلطة لا يتجاوز الثالثة والعشرين من العمر [6] .

وورث علي بن يوسف دولة مترامية الأطراف تتمتع بالهدوء والرخاء الاقتصادي ، والدليل على ذلك ما وجد في بيت مال المسلمين بعد وفاة والده من أموال طائلة [7] . كل هذه العوامل شجعته على متابعة خطا أبيه فسار على

---

(١) حسن محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ٣٢١ .

(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٤٥ .

(٣) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٥٦ (يذكر أنه توفي يوم الاثنين من نفس الشهر والسنة) .

(٤) ابن أبي دينار : المؤنس ، ص ١٠٩ ؛ المقري : نفح الطيب ، ج٦ ، ص ١١٠ ؛ ابن القاضي : جذوة الإقتباس ، ج٢ ، ص ٤٥٩ ـ ٤٦٠ .

(٥) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٤٨ .

(٦) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٥٧ ؛ ابن القاضي : المصدر السابق ج٢ ، ص ٤٦٠ ؛ السلاوي ، الاستقصا ، ج٢ ، ص ٦١ .

(٧) وجد ثلاثة عشر ألف ربع من الورق ، وخمس آلاف وأربعون ربعاً مطبوع الذهب انظر : سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج١ ، ص ٢٩١ .

هدية في جميع أموره وهذا ما أكده ابن عذارى بقوله: [(فاقتفى أثر أبيه وسلك سبيله في عضد الحق وإنصاف المظلوم، وأمن الخائف، وقمع المظالم، وسد الثغور، ونكاية العدو فلم يعدم التوفيق في أعماله والتسديد في حسن أفعاله)][1]. كما تلقب بلقب أمير المسلمين كأبيه [2].

وبهذه السياسة الحكيمة امتلك ما لم يمتلكه والده [3]. فقد ملك جميع بلاد المغرب من بجاية [4] إلى بلاد السوس الأقصى، وملك جميع بلاد الجنوب من سجلماسة إلى جبل الذهب من بلاد السودان. وملك بلاد الأندلس شرقاً وغرباً، وملك الجزائر الشرقية [5]، وخطب له على ألفي منبر ونيف وثلاثمائة منبر [6].

وصرف أمير المسلمين علي جل جهوده في متابعة شئون الأندلس ومراقبة أحواله بنفسه لكونه الخط الدفاعي الأول ومسرح الصراع مع نصارى الشمال الإسباني. ولذلك نجده يجوز إليه أربع مرات من أجل الاطمئنان على أحواله عن قرب وسد خلله [7].

وكمحصلة لهذه الجهود في حراسة الديار والذمار، فقد كانت أيامه أيام

---

(١) محمد عبد الله عنان: عصر المرابطين والموحدين، ص ٥٨.

(٢) المراكشي: المعجب، ص ٢٣٥؛ المقري: المصدر السابق، ج٦، ص ١١١؛ السلاوي: المصدر السابق، ج٢، ص ٦١، ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ١٥٧.

(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق٣، ص ٢٥٣؛ المراكشي: المصدر السابق، ص ٢٣٥؛ السلاوي: المصدر السابق، ج١، ص ١٢٣.

(٤) بجاية: قاعدة المغرب الأوسط وهي مدينة عظيمة على ضفة البحر، وهي مدينة تجارية، وكانت توجد فيها دار لصناعة السفن لتوفر الخشب فيها وهي مدينة محدثة بناها ملوك صنهاجة أصحاب قلعة أبي طويل المعروفة بقلعة حماد، انظر: الحميري: الروض المعطار، ص ٨٠ - ٨١.

(٥) وهي ميورقة، ومنورقة، ويابسة، وهي أكبر جزائر الأندلس في البحر المتوسط على ساحلها الشرقي مصاقبة لقطلونيا وبلنسية، ويسميها الجغرافيون المحدثون جزائر البليار انظر: المراكشي: المصدر السابق ص ٢١٢، ٣٤٣، حاشية رقم ٢.

(٦) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق٣، ص ٢٥٣؛ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ١٥٧.

(٧) إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، ج٢، ص ٧٤١.

خير ودعة ، فلم يدخر وسعاً في جعل كلمة الله هي العليا ، وقارع النصارى حتى قهرهم في كثير من المواقع [1] ، ولم تشغله الثورات الداخلية عن واجبه المقدس تجاه اخوته في الأندلس على الرغم من أن ابن تومرت كان يقرع أبواب عاصمته مراكش في الوقت الذي كانت فيه جيوشه تتصدى للممالك النصرانية ، فأمضى حياته يد تبني وأخرى تحمل السلاح ، فكانت فترة حكمة بحق كما قال ليوبولد وتورس بالباس من أعظم وأزهى فترات تاريخ المرابطين [2] .

لقد امتاز علي بن يوسف بن تاشفين بصفات أخلاقية حميدة تضعه في مصاف رجال القرن الأول الهجري من صلحاء المسلمين ، فقد كان حليماً وقوراً حريصاً على إقامة العدل منقاداً إلى الحق والعلماء [3] . فقوة سلطانه واتساع دولته لم يجعلا منه إنساناً فظاً غليظاً ، بل كان يمثل الخلق الإسلامي خير تمثيل ، فقد كان مثالاً ـ للمسلم المتواضع [4] ، شاكراً لله بكثرة عبادته ، قواماً لليل صواماً للنهار [5] .

وكان حسن الطوية ، صافي النفس ، أبعد ما يكون عن الظلم ، فقد أصاب عين الحقيقة من عده في الزهاد المتبتلين [6] . ووصفه صاحب الحلل الموشية بقوله : (.... كان كثير الصدقة عظيم البر جزيل الصلة ، وألبسه الله المهابة ، وقذف له في القلوب المحبة فاجتمعت عليه الأمة) [7] .

لقد كان أباً رفيقاً رحيماً برعيته حريصاً على معرفة أحوالها ، فكان يداوم

---

(1) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٤٨ ؛ مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٨٥ ؛ ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج٦ ، ص ٣٨٦ .

(2) الفن المرابطي والموحدي ، ص ١٠ .

(3) ميراندة : علي بن يوسف وأعماله في الأندلس ، ص ١٥٦ .

(4) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص ٤٩ .

(5) المراكشي : المصدر السابق ، ص ١٥٣ ؛ عبد الله علام : الدولة الموحدية بالمغرب ، ص ٥٩ .

(6) المراكشي : المصدر السابق ، ص ٢٣٥ .

(7) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٨٤ ـ ٨٥ .

على إرسال الرسائل إلى عماله حاضاً إياهم على الرفق بالرعية ، وإقامة العدل ورفع الحجاب عن المظلومين والشاكين [1] . وهناك وصايا كثيرة وجهها علي بن يوسف إلى رعاياه وولاته على الأمصار ركز فيها بشكل خاص على تقوى الله ، والاتحاد ونبذ الفرقة ، أي أن الروح الدينية هي الغالبة على كل هذه الرسائل ، وهو أمر تميزت به الدولة المرابطية [2] . كيف لا وهي الدولة التي قامت أول ما قامت على أساس ديني ، فجميع أمرائها تلاميذ للداعية عبد الله بن ياسين ، ومنهجه الذي غرسه في نفوس أتباعه بقي متأصلاً فيهم .

فلا غرابة أن علي بن يوسف حذا حـذو عبد الله بن ياسين في تحكيم كتاب الله بين رعاياه ، إذ كانت لا تأخذه في الله لومة لائم ، وكان لا يبالي في إنزال أشد العقوبات بالوالي الذي يثبت لديه بأنه ظلم رعيته [3] .

(١) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ١٥٦ ، ١٨٣ .

(٢) المرجع السابق نفسه ، ص ١٤٣ ـ ١٤٤ .

(٣) ابن عذاری : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٧٧ .

الفصـل الثـاني
الثورات والفتن في المغرب والأندلس
٥٠٠ - ٥٣٧ / ١١٠٦ - ١١٤٢

١ - ثورة فاس ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م

لم تكن هذه الثورة ذات خطورة كبيرة على كيان دولة المرابطين ، وإنما أعرض لها فقط باعتبارها بداية لتاريخ المعارضة لحكم المرابطين ، وعلامة في نفس الوقت على أن الهدوء والاستقرار الذي طالما تمتعت به الدولة في العهد السابق قد بدأ يتلاشى منذ بداية حكم علي بن يوسف بن تاشفين .

وتجدر الإشارة إلى أن المعارضة للحكم المرابطي في الداخل بدعوى أحقية المعارضين في السلطة لم تكن أمراً جديداً ، فقد رأينا في التمهيد كيف خرج إبراهيم بن أبي بكر بن عمر معارضاً ليوسف بن تاشفين ، ومطالباً بالسلطة لنفسه عام ٤٦٩ هـ/ ١٠٧٧ م ولكنه لم يظفر بمطلوبه واستقر الأمر ليوسف بن تاشفين .

وكانت ولادة ثورة فاس عندما توفي يوسف بن تاشفين عام ٥٠٠ هـ/ ١١٠٦ م ، وتولى ابنه علي بعده . فبعد أن أخذ علي بن يوسف البيعة من أعيان وفقهاء وشيوخ مراكش بعث بالرسل والرسائل إلى سائر أنحاء مملكته يعلمهم بوفاة والده وتوليه بعده ويطلب منهم البيعة ، فجاءت البيعات ، وجاءت الوفود المعزية المهنئة من كل صوب إلّا من مدينة فاس [1] التي كان يحكمها

(١) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٥٧ - ١٥٨ .

الأمير يحيى بن أبي بكر من قبل جده يوسف بن تاشفين ، فقد رفض الأمير يحيى بن أبي بكر البيعة لعمه علي لاعتقاده بأنه هو الأولى والأجدر بخلافة جده يوسف لا سيما وأن والده أبا بكر شقيق علي بن يوسف الأكبر كان نائباً عن والده يوسف في المغرب أثناء جوازه إلى الأندلس الذي حارب فيه الفونسو السادس في موقعة الزلاقة ، ولذلك كان يعتبر نفسه أحق من عمه علي بهذا المنصب ويعتبر نفسه أكثر أهلية منه لأنه كان والياً على أهم ولايات المغرب والتي اعتنى بها المرابطون عناية خاصة بعد فتحها وهي مدينة فاس [1] .

ولكن المعارضة لم تقف عند الأمير يحيى بن أبي بكر بل تعدى الأمر ذلك فقد انضم إليه بعض أشياخ وأعيان مدينة فاس ، وساندته أيضاً بعض الشخصيات البارزة في الدولة المرابطية . وربما يعود ذلك لاقتناعهم بعدالة قضيته أو لأهداف خاصة بهم وجدوا لها متنفساً عن طريق هذه الثورة ، ومن هؤلاء أبو عبد الله محمد بن الحاج اللمتوني [2] الذي بادر الى تأييد الأمير يحيى بن أبي بكر منذ اللحظة الأولى [3] .

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه لماذا لم تظهر معارضة هذه الفئة ممثلة بيحيى أثناء تنقل يوسف بن تاشفين لاستطلاع وجهات النظر حول ولي عهده علي بن يوسف؟

يبدو أن قوة شخصية يوسف بن تاشفين كانت لا تدع مجالاً لأي صوت معارض أن يرتفع ليقضي على وحدة دولته الناشئة ، لذا اختزنوا معارضتهم الى

(١) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٤١ - ١٤٢ ؛ ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٣٨٠ ؛ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ، ج ٤ ، ص ١٢٧ .

(٢) وهو من أكابر زعماء لمتونة وقوادها يشترك مع يوسف بن تاشفين في الجد ترقوت ، وعرف بابن الحاج لأن أباه قام بأداء فريضة الحج وقد برزت شخصيته عندما دخل يوسف بن تاشفين الى الأندلس وشارك في فتح مدينة قرطبة ، ثم أخذ في مجاهدة القشتاليين فلمع نجمه وعين والياً على عدة مناطق في المغرب والأندلس ، انظر : النباهي : المرقبة العليا ، ص ١٠٢ ؛ محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ١ ، ص ٧٥ - ٧٦ .

(٣) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ؛ ق١ ، ص ١٤٩ .

أن توفي ليجسوا نبض الحاكم الجديد ، فإذا كان لهم مدخل دخلوا منه ووصلوا الى مآربهم ، ولكنهم أساءوا التقدير وواجهوا صورة لا تختلف كثيراً عن صورة يوسف . فما أن سمع علي بمعارضة فاس حتى بادر إلى تكوين جيش قاده بنفسه وتوجه نحوها لاخماد نار الفتنة قبل أن يستشري خطرها لأنه يعي خطورة التهاون في مثل هذه الأمور ، فالثائر لا يطلب ذهباً ولا فضة وإنما يسعى للسلطة ، فجد في السير نحو مدينة فاس .

وما أن وصل الى مدينة مغيلة [1] حتى بادر باستخدام أول أسلحته من أجل القضاء على هذه الثورة ، حيث شن عليهم حرباً نفسية يهدف من ورائها إلى تفتيت الجبهة الداخلية للثائرين . فبعث برسالة الى ابن أخيه يعاتبه ويؤنبه على فعلته ويحذره من خطورة مفارقة الصف ، ويطلب منه الطاعة والمبايعة ، وفي نفس الوقت بعث رسالة شديدة اللهجة إلى أشياخ وأعيان مدينة فاس يهددهم ويتوعدهم ويدعوهم إلى بيعته .

وأدت الرسائل غرضها المرجو منها وتزعزعت ثقة الثائرين بأنفسهم . فما أن قرأ عليهم يحيى محتوى رسائل أمير المسلمين علي حتى تخلوا عنه ، ولما يئس من نصرتهم خرج من المدينة متوجهاً إلى تلمسان للاحتماء بواليها مزدلي ابن تيلكان [2] ، فلاقاه بوادي ملوية [3] مقبلاً من أجل المبايعة لعلي بن يوسف ، فأعلمه يحيى بما كان من شأنه فضمن له عفو عمه ورجع معه ، وفي هذه الظروف وفي يوم الأربعاء ٨ ربيع الثاني عام ٥٠٠ هـ دخل علي بن يوسف مدينة فاس [4] .

---

(١) مدينة مغربية سماها باسم القبيلة التي تسكنها ، تقع بين فاس ومكناسة انظر : ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٥٨ ، حاشية رقم ٨٩ .

(٢) من أعظم أعماله استرجاعه لمدينة بلنسية من يد القمبيطور عام ٤٩٥ هـ/ ١١٠٢ م ، وكان قد ولي بلنسية ثم قرطبة وغرناطة أيام يوسف بن تاشفين ثم ولي قرطبة قبل وفاته ببضعة أعوام من قبل علي بن يوسف انظر : محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ٧٢ ـ ٧٣ .

(٣) نهر كبير ينبع من ملتقى جبال الأطلس المتوسط والأطلس الكبير وتجري مياهه باتجاه شمالي شرقي حتى تصب في البحر المتوسط بعد ما يقطع في جريانه مسافة ٤٨٠ كم من المنبع إلى المصب انظر : ابن ابي زرع : المصدر السابق ص ١٥٩ حاشية رقم ٩٠ .

(٤) ابن القاضي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٦٠ ؛ ابن أبي زرع : المصدر السابق ص ١٥٨ ـ ١٥٩ .

ووفد مزدلي على أمير المسلمين علي بن يوسف في فاس تاركاً يحيى مستخفياً بحومة وادي شرذع . واجتمع مزدلي بأمير المسلمين الذي أحسن استقباله وأكرمه ، ولما رأى منه ذلك أعلمه بخبر يحيى وما ضمن له من العفو ، فأجابه إلى ذلك وعفا عنه . فبادر يحيى وبايع عمه ، ولكن علي بن يوسف رفض أن يكون يحيى مقيماً على مقربة من المنطقة التي ثار فيها ، لأنه كان يخشى أن يعاود الكره لوجود بعض الفئات التي تؤيده ، فخيره ما بين السكنى بجزيرة ميورقة [1] وبلاد الصحراء فاختار الثانية وانصرف إليها ، ومكث فيها مدة ثم شد بعد ذلك الرحال نحو الحجاز لأداء فريضة الحج .

وعاد يحيى بعد أداء فريضة الحج إلى مراكش واستسمح عمه علي بالسكن في حاضرته فسمح له بذلك ، إلا أن علياً كان حذراً مراقباً لتحركات ابن أخيه ، ويظهر أنه اكتشف بعض نواياه المناوئة لحكمه فاتهمه بالتشغيب وعاقبه بالنفي إلى الجزيرة الخضراء التي مكث فيها إلى أن توفي [2] .

وهكذا انتهت ثورة فاس بنفي صاحبها الى الجزيرة الخضراء ،والتي كانت مؤشراً لبداية ثورات أخرى ضد علي بن يوسف في المغرب والأندلس والتي كانت بمثابة معاول هدم تعمل بشكل نشط داخل جسم دولة المرابطين .

٢ - ثورات الأندلس (٥٠٠ ـ ٥١٤ هـ/ ١١٠٦ ـ ١١٢٠ م)

يبدو أن تيار المعارضة للحكم المرابطي الجديد لم يكن مقتصراً على المغرب بل شاركته فيه الأندلس منذ فترة مبكرة . وربما تكون أقدم إشارة لثورة قامت ضد الحكم المرابطي في الأندلس تعود إلى الأيام الأخيرة من حكم يوسف بن

---

(١) كبرى الجزر الشرقية وعاصمتها بالما وهي خصبة طولها اربعون ميلاً ، وفيها بحيرة وحصون انظر ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ق٣ ، ص ٢٥٥ ، حاشية رقم ٢ ؛ ابن سعيد : المغرب في حلي المغرب ، ج٢ ، ص ٤٦٦ .

(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق٣ ، ص ٥٣ ؛ الحميري : المصدر السابق ، ص ٥٦٧ ؛ السلاوي : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٦١ - ٦٢ ؛ رزق الله الصدفي : تاريخ دول الإسلام ، ج٢ ، ص ٥٥ .

تاشفين وبالتحديد إلى عام ٤٩٢ هـ/ ١٠٩٩ م عندما ثار سعيد بن أحمد بن زيفل في حصن شقورة [1] واستقل به عن السلطة المركزية ، ثم أخذ يوسع قاعدة حكمه ، فاستولى على جميع الجهات والنواحي التي تحيط بذلك الحصن ، ومكث على ذلك عدة أعوام ، واستقر له الأمر ، وجبيت له الضرائب من المناطق التابعة له ، وحصل من ذلك ثروة طائلة لم يكن يمتلكها من قبل استقلاله بذلك الحصن . وقد ورد خبر هذه الثورة في عقد لإثباتها في كتاب خاص بمسائل ابن رشد [2] ، بينما لم تشر المصادر التي بين أيدينا اليها .

على أي حال تشير هذه الثورة إلى أن التحرك ضد الحكم المرابطي في الأندلس لم يكن جديداً في عهد علي بن يوسف بل تمتد جذوره إلى عهد أبيه ، وأن ما حدث في عهد علي ما هو إلا امتداد واستمرار لانتفاضات سابقة .

أ ـ ثورة أبي بكر بن علي بن يوسف ٥٠٠ هـ/ ١١٠٦ م في غرناطة :

لقد حدثت أول مواجهة ضد حكم علي بن يوسف في الأندلس عندما ثار ولده أبو بكر في غرناطة لأمر لم تفصل فيه المصادر . واكتفى ابن الخطيب [3] بقوله : أنه (ثار لأمر رابه) ولكنه لم يجد له مؤيدين من قومه بل كانوا له بالمرصاد وأحبطوا محاولته ، وألقوا القبض عليه وارسلوه إلى والده علي في مراكش ليرى رأيه فيه ، فصفح عنه ، ثم ما لبث أن عينه والياً على سرقسطة . وقد جاء تاريخ هذه الثورة في نفس تاريخ ثورة فاس .

لقد كان أبو بكر بن علي أكبر اخوته وكان يتمتع بقسط وافر من

(١) يقع شمال مدينة مرسية انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج٣ ، ص ٣٥٥ .
(٢) ابن رشد : مسائل ابن رشد ، ج٢ ، ص ٩٩ (انظر نص العقد في الملاحق ملحق رقم ١) .
(٣) الإحاطة ، ج ١ ، ص ٤٠٧ ـ ٤٠٨ .

الذكاء[1] ، ولربما قام بهذه الحركة من أجل لفت الانتباه إليه وإثبات وجوده وتنبيه والده إلى أنه الأجدر بولاية أفضل الولايات ، ويظهر أن والده فهم إيماءته فعينه والياً على سرقسطة .

والمتتبع لحياة أبي بكر بن علي يجده دوماً صلباً في مواقفه ، فقد عارض والده في اختيار أخيه سير ولياً لعهده بدلاً منه ، وهو الأكبر سناً والأكثر خبرة ودراية في أمور السياسة بحكم توليه أكثر من ولاية في حياة والده ، عندها لم يجد والده بدا من نفيه إلى الجزيرة الخضراء[2] .

ب - ثورة ابن الحاج عام ٤٩٩ هـ/ ١١٠٥ م في قرطبة :

أما قرطبة فيبدو أن العمل فيها بدأ ضد الحكم المرابطي منذ عام ٤٩٩ هـ/ ١١٠٥ م عندما قام ابو عبد الله بن الحاج أحد قادة المرابطين والنائب عن أمير المسلمين في حكم قرطبة[3] ، بالاتصال مع بعض الأعيان والشخصيات البارزة في قرطبة بشأن الخروج على الحكم المرابطي . وممن استشارهم في هذا الصدد القاضي بن حمدين[4] الذي لم يشجعه على ما هو عازم عليه[5] ، ولكنه على الرغم من ذلك صمم على إعداد العدة للثورة على علي بن يوسف بن تاشفين .

لقد كان ابن الحاج شخصية ذات قيمة ووزن في الدولة المرابطية ، فكان من النخبة الممتازة في عهد يوسف بن تاشفين ، وله تجربة وشهرة في الجهاد في الأندلس ، ومهما اعتمد على كل هذه المقومات في شخصيته ليقوم بمثل هذا الدور .

---

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ١٠١ ؛ مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٨٤ .

(٢) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٨٤ .

(٣) عبد الله كنون : رسالة الكاتب ابن أبي الخصال التي نال فيها من كرامة المرابطين ، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، مج ٣٥ ، ج٤ ، ربيع الثاني سنة ١٣٨٠ هـ ، ص ٥٦٩ .

(٤) هو أبو القاسم أحمد بن محمد بن علي بن حمدين قاضي الجماعة في قرطبة توفي عام ٥٢١ هـ انظر ابن سعيد : المصدر السابق ، ج١ ، ص ١٦٢ .

(٥) ابن خاقان : قلائد العقيان ، ص ٢٢٠ .

ويظهر أنه فكر في أفضل وقت للقيام بهذه المعارضة فلم يجد أفضل من وقت وفاة يوسف بن تاشفين لأن خليفته علي بن يوسف كان ما يزال في مقتبل العمر وخبرته في أمور الحرب والسياسة لا تقاس بخبرة هذا القائد المجرب ابن الحاج .

وفعلاً عندما بعث اليه الأمير الجديد علي بن يوسف الرسائل من أجل أخذ البيعة له من رعيته في قرطبة رفض المبايعة ، معلناً بذلك الخروج عليه ، وانضم اليه جمع من أهل قرطبة ، وبعض فقهاء وأعيان المدينة ، وذلك في عام ٥٠٠ هـ/ ١١٠٦ م ، ولكن هذه الثورة لم تكن بأسعد حظاً من سابقاتها إذ سرعان ما انطفأت دون أن تمدنا المصادر بتفصيل عن كيفية القضاء عليها .

وما ورد من معلومات عن هذه الثورة لا يتناسب مع حجمها وشخصية صاحبها . ويذكر أنه بعد فشلها هرب ابن الحاج إلى خارج قرطبة ولحق به أعوانه ، ثم تذكر المصادر أن أمير المسلمين علي بن يوسف قد رضي عنه وعن أخيه وقومه وولاه مدينة فاس وما يليها من أعمال [1] ، ثم نقله إلى ولاية سرقسطة وبلنسية في شرق الأندلس حيث استشهد عام ٥٠٨ هـ/ ١١١٥ م في معركة البورت (الباب) [2] .

ومن الشخصيات البارزة التي تأثرت بهذه الثورة الأديب والكاتب ابن أبي الخصال [3] ، الذي كان من أعز أصدقاءابن الحاج وصحبه في الشدة والرخاء

---

(1) ابن الأبار : المعجم ، ص ١٣٣ - ١٣٤ ؛ ابن عذارى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٤٩ ، حاشية رقم ١ .

(٢) والبرت لفظ لاتيني Portaاي الباب أو الممر في الجبال انظر : حسين مؤنس : فجر الأندلس ، ص ٢٤٢ ، حاشية رقم١ ؛ شكيب ارسلان : الحلل السندسية ، ج٢ ، ص ١١٠ .

(٣) وهو من أهل المعارف الجمة ، وكان من أبرز اعلام النثر ، ولد في أول ربيع الثاني عام ٤٦٥ هـ ، وقتل أمام داره في ١٢ ذي الحجة من عام ٥٤٠ هـ ، ومن مؤلفاته : ظل الغمامة ، وطوق الحمامة انظر ابن الخطيب : الإحاطة ج٢ ، ص ٣٨٩ - ٣٩٠ ؛ ابن خاقان : قلائد العقيان ، ص ١١٩ - ٢٠٠ - المراكشي : المصدر السابق ، ص ٢٣٨ ؛ ابن سعيد : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٦٦ - ٦٨ ؛ ابن دحية : المطرب من أشعار أهل المغرب ، ص ١٨٧ - ١٨٩ ؛ العماد الأصفهاني : خريدة القصر وجريدة العصر ، ق٤ ، ج٢ ، ص ٦٤٣ - ٦٤٤ .

وتنقل معه في جميع الولايات التي تولاها وبقي معه حتى استشهاده [١] .

وتأثر بهذه الثورة أيضاً أبو بكر بن المرخي [٢] ، الذي كان من أخص أصدقاء ابن الحاج . فبعد أن فشلت ثورة صديقه فرّ إلى شرق الأندلس حتى إذا رضي أمير المسلمين على ابن الحاج عاد الى صحبته في فاس وغيرها من أعمال الأندلس وظل في صحبته حتى استشهاد صديقه [٣] .

جـ - شغب أهالي غرناطة وإشبيلية :

يبدو أن غرناطة لم تكف عن الشغب والخروج على أمير المسلمين علي بن يوسف ، فعلى الرغم من أن المصادر تبخل علينا بتفاصيل المشاغبات التي حدثت فيها خاصة في السنوات الأولى من حكم علي بن يوسف ، إلا أن بعض رسائل أمير المسلمين لأهالي هذه الناحية توضح لنا أنه كانت هناك حركات مستمرة في التمرد على والي أمير المسلمين عليها .

ففي يوم الجمعة ١٩ رمضان عام ٥٠٧ هـ كتب أبو القاسم بن أبي الجد [٤] عن أمير المسلمين علي بن يوسف إلى أهالي غرناطة يعاتبهم ويؤنبهم ، ويحذرهم من مغبة كثرة التمرد على واليه عليها القائد المشهور مزدلي الذي خلف عبد الله بن فاطمة في حكمها عام ٥٠٤ هـ/ ١١١٠ - ١١١١م وأضيف إليه حكم قرطبة والمرية ، وعلى الرغم من جهود مزدلي المتواصلة من أجل الإبقاء على ولايته هادئة آمنة من خطر الاسبان النصارى إلا

(١) ابن الابار : المعجم ، ص ١٤٦ - ١٤٧ ؛ عبد الله كنون : المقال السابق ، ص ٥٦٩ .

(٢) كان مقرباً للمرابطين ، وكان محدثاً ، ضابطاً حسن الخط ، استكتبه علي بن يوسف بن تاشفين مع ابي عبد الله بن أبي الخصال ، توفي عام ٥٣٦ هـ . انظر : ابن بسام : الذخيرة ، ق٢ ، ج٢ ، ص ٥٣٣ ، حاشية رقم ١ .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ق٢ ، ج٢ ، ص ٥٣٣ - ٥٣٤ .

(٤) اثنى عليه ابن بسام ، وقال عنه فريع وقتنا ووحيد عصرنا ، وقال أنه تولى خطة الشورى ، وكان عالماً بالفقه والحديث انظر ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، ج١ ، ص ٣٤١ - ٣٤٢ .

إن أهل غرناطة لم يدخروا وسعاً في انتهاز الفرص للشغب والخروج عليه [1].
وقد جاءت رسالة ابن أبي الجد عن أمير المسلمين علي بن يوسف تستنكر عليهم تصرفاتهم تلك ومما جاء في هذه الرسالة قوله لهم - (قد اتصل بنا أنكم من مطالبة « فلان » على أو لكم وفي عنفوان عملكم وأنه لا يعدم تشغيباً وتأليباً من قبلكم ، فالى متى تلحون في الطلب . . . . وقد آن لحركتكم في امره أن تهدأ وللثائرة بينكم أن تصلح) ، ويتابع كلامه معاتباً إياهم بطريقة فيها شيء من الشدة قائلاً : (. . . . واذا وصل اليكم خطابنا هذا فاتركوا متابعة الهوى . . . . ودعوا التنافس على حطام الدنيا . . . وفقكم الله لما فيه صون أياديكم ، وأعراضكم وتسديد انحائكم وأغراضكم بمنّه) [2] .

وفي جمادى الأولى من عام ٥١٢ هـ كتب أبو القاسم بن أبي الجد أيضاً رسالة مشابهة للرسالة السابقة إلى أهل إشبيلية يهددهم ويتوعدهم ، ويحذرهم من مغبة شغبهم ، ومما جاء فيها : (واحذروا دواعي الفتن وعواقب الأحن) ثم ينبههم إلى نتائج هذه الأعمال وانعكاساتها على بلادهم وأهاليهم فيقول : (واشفعوا على دياركم وأعراضكم وثوبوا إلى الصلاح في جميع أغراضكم ، وأخلصوا السمع والطاعة لوالي أموركم وخليفتنا في تدبيركم وسياسة جمهوركم أخينا أبي إسحاق ابراهيم أبقاه الله وأدام عزه بتقواه . .) [3] .

د- ثورة أهالي قرطبة
عام ٥١٣ هـ أو ٥١٤ هـ/ ١١١٩ أو ١١٢٠ م

ونختم الحديث عن هذه الثورات بالحديث عن ثورة أخرى ضد الحكم المرابطي في مدينة قرطبة ، والتي زلزلت أركان الدولة بأسرها . فقد تحركت

---

(١) محمود علي مكي : وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، مج ٧ - ٨ ، ١٩٥٩ - ١٩٦٠ م ، ص ١٥٦ - ١٥٧ .
(٢) العماد الأصفهاني : المصدر السابق ، ق٤ ، ج٢ ، ص ٣٦٨ .
(٣) ابن خاقان : المصدر السابق ، ص ١٢٤ - ١٢٥ ، العماد الأصفهاني : المصدر السابق ، ق٤ ، ج٢ ، ص ٣٦٢ - ٣٦٣ .

قرطبة بقضها وقضيضها ، وشيوخها ، وفقهائها ، وأعيانها ، وعامتها في عام ٥١٣ هـ أو عام ٥١٤ هـ ضد المرابطين أثر تعرض أحد عبيد الوالي لإحدى النساء المسلمات في المدينة.

وبداية الأمر أنه أثناء تجمع الناس في يوم عيد الأضحى مدّ أحد عبيد والي المدينة يحيى بن رواد يده إلى امرأة وأمسكها فطلبت الغوث والنجدة من المسلمين ، فهرع الناس لنصرتها واشتبكوا مع العبيد في معركة عنيفة استمرت طوال النهار حتى ادركهم الليل فتفرقوا ، وعلم الأمير أبو بكر يحيى بن روّاد بالأمر عندها شكل أهل المدينة وفداً من الفقهاء وأعيان البلد واجتمعوا مع والي المدينة ونصحوه بقتل العبيد الذين سببوا الفتنة ليهدأ الناس ، وتحتوي الفتنة في مهدها ، إلا أن الوالي أخذته عزة النفس ورفض تنفيذ مطلبهم هذا.

وفي الصباح عزم الوالي على قتال معارضيه فأظهر السلاح والرجال، عندها استشاط الناس غضباً ونظموا أنفسهم وتقدم الفقهاء والأعيان والشبان الصفوف واشتبكوا مع قوات الوالي في معركة عنيفة حتى هزموها ، وتحصن الوالي في قصره فحاصروه فيه ، ثم اقتحموه عليه فولى هارباً ، فنهب المهاجمون القصر ، وامتد النهب والحرق الى جميع بيوت المرابطين الذين خرجوا على أقبح صورة بعد أن سلبت بيوتهم .

وطارت أخبار هذه الثورة إلى أسماع أمير المسلمين علي بن يوسف في مراكش فأفزعه الأمر ، ورأى أن الموقف يحتاج إلى حسم سريع فأعد جيشاً ضخماً مكوناً من صنهاجة وزناتة وغيرهم وتوجه بهم نحو قرطبة في عام ٥١٥ هـ / ١١٢١ م وفرض الحصار على المدينة فاستمات أهلها في الدفاع عنها .

ولما فشل أمير المسلمين في اقتحامها أدرك أن الأمر لا يصلح بالحرب فمشت السفارات بينه وبينهم ، وتم الاتفاق في النهاية بين الطرفين على شروط خلاصتها أن يغرم أهل قرطبة ما نهبوه من أموال المرابطين ، وبالتالي انتهى

الحصار وانتهت الثورة [١] .

لقد اتخذت هذه الثورة صورة تختلف عن صور الثورات السابقة ، فالتعدي جاء من جانب أحد جند الوالي الذي حاول التعرض لأمرأة مسلمة مما أثار حمية الرعية فثاروا على الوالي وعلى المرابطين .

ومن نتائج هذه الثورة انها زادت من ثقة الرعية الأندلسية بزعمائها من فقهاء وأعيان ، الذين قادوهم نحو النصر على الفئة التي حاولت النيل من شرفهم ، وأثبتت أيضاً عجز والي قرطبة ، ثم أمير المسلمين علي بن يوسف عن القضاء على ثورتهم واقتحام مدينتهم على الرغم مما كان معه من قوة .

على أي حال لقد اتبع أمير المسلمين علي بن يوسف سياسة حكيمة مع الذين ثاروا ضد حكمه فلم يحاول القضاء على معارضيه بطريقة قمعية تعسفية بل كان يتبع معهم أسلوب الصفح لاحتوائهم ، وكان يميل إلى تحقيق رغباتهم بتوليتهم على ولايات مهمة ثم يقذف بهم إلى الجبهات الساخنة مع النصارى مثل سرقسطة وبلنسية ليستغل طاقاتهم لصالح الإسلام والمسلمين . وقد فشلت جميع هذه الثورات لأنها جاءت في فترة كانت الدولة ما تزال في أوج قوتها .

هـ - ثورة العامة في قرطبة على اليهود ٥٢٩ هـ/ ١١٣٤ م : -

وفي رجب من عام ٥٢٩ هـ ثارت العامة في قرطبة على اليهود بسبب وجود جثة أحد المسلمين في حي من أحيائهم ، فاقتحموا منازلهم ، وانتهبوا أموالهم ، وقتلوا عدداً منهم [٢] .

ويظهر أن هذه الثورة العارمة ضد اليهود هي محصلة كره دفين لليهود الذين ارتضوا لأنفسهم أن يكونوا في كل بيئة يعيشون فيها مركز فساد وافساد ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج١٠ ، ص ٥٥٨؛ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ، ج٤ ، ص ١٥٨ .

(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٩٣ .

فقد كانوا كعادتهم متقوقعين على أنفسهم في أحياء خاصة ، وكانوا يحتكرون التجارة، وفي بعض الأحيان السلطة واذا وجدوا من ينافسهم في ذلك عملوا على التخلص منه بطريقة خسيسة ، فمثلاً عندما قوى نفوذ موسى بن مقروج [1] في غرناطة عمد أحد أطباء اليهود إلى دس السم له فأرداه صريعاً في عام ٥٢٢ هـ/ ١١٢٨ م [2] فمثل هذه الحوادث وغيرها تجعل النفوس تنفر منهم وتحقد عليهم وتتحين الفرص للتخلص منهم .

ولم تكن هذه الغضبة الشعبية ضد اليهود الأولى في الأندلس ، فعندما كثرت أعدادهم في مدينة غرناطة حتى أطلق عليها مدينة اليهود [3] ، وتغلغلوا في الوظائف الحساسة في عهد ملوك الطوائف فتذمرت الرعية المسلمة من ذلك وقف شاعرهم أبو اسحاق الألبيري [4] في عام ٤٥٩ هـ/ ١٠٦٦ م ليعبر عما يعتمل في صدورها ضد اليهود منتقداً حاكم غرناطة على تقريبه لليهود وداعياً إلى الثورة على هذا الوضع بأسلوب شعري رائع شخص فيه الوضع أفضل تشخيص ومما قال : ـ

ألا قل لصنهاجة أجمعين	بدور الزمان وأسد العرين
لقد ذل سيدكم ذلة	تقر بها أعين الشامتين
تخير كاتبه كافراً	ولو شاء كان من المؤمنين
فعز اليهود به وانتخوا	وتاهوا وكانوا من الأرذلين
فكم مسلم راغب راهب	لأرذل قرد من المشركين

وما أن انتهى من إلقاء قصيدته حتى ثارت العامة ونهبت بيوت اليهود

(١) نشأ في مدينة طنجة وتأدب بإشبيلية ، له حظ بارع ونفوذ في الحساب ألقى إليه الأمير أبو حفص عمر بن علي بن يوسف جميع الأعمال انظر : ابن عذارى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٧٦ ـ ٧٧ .

(٢) نفس المصدر السابق والصفحات .

(٣) دوزي : ملوك الطوائف ، ص ٤١ .

(٤) هو أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود بن سعيد التجيبي الألبيري ، كان فقيها محدثاً ، وأديباً ، وشاعراً سعى به الوزير يوسف بن نغزلة اليهودي لأمور نقمها منه لدى سلطانه باديس فأبعده عن غرناطة فسكن البيرة وانقطع للعبادة والزهد انظر : دوزي : المرجع السابق ، ص ١٣٣ ، حاشية رقم٢ .

وقتلوا منهم ما يقرب من أربعة آلاف فخلصوا المدينة من شرهم [1] .

ويبدو أن المرابطين أدركوا دناءة اليهود وكره الرعية لهم ، فاتخذوا ضدهم اجراءات تقيد من تحركاتهم وتجعلهم تحت مراقبة الدولة باستمرار [2] ، كما فرض عليهم يوسف بن تاشفين حسب بعض الروايات عام ٤٦٤ هـ/ ١٠٧١ م ضرائب اجتمع له منها مائة وثلاثة عشر ألف دينار [3] .

على أي حال لم يتمتع اليهود في القرنين الخامس والسادس الهجريين بذلك النفوذ والشرف اللذين تمتعوا بهما في عهد ملوك الطوائف ، اذ أخذهم المرابطون بالشدة وحذا حذوهم الموحدون لما جاءوا بعدهم [4] .

أجل ان نفساً تنطوي على الحقد على البشرية ، وتعمل على استغلال كل فرصة للتمكين لنفسها ، وتعتبر انها سيدة العالم التي يجب أن تطاع ، وتمتلك خيرات الدنيا ، حري بالمجتمع الذي تعيش فيه هذه الشرذمة المنطوية على نفسها أن ينظر إليها نظرة احتقار وسخط ، وأن يحبطوا كل محاولاتهم كلما نجحوا في التغلغل في دولتهم .

و- ثورة العامة في قرطبة ضد القاضي ابن رشد ٥٣٤ هـ/ ١١٣٩ م

وفي أحرج فترة من فترات حياة الدولة المرابطية التي توالت فيها الهزائم عليها على أيدي الموحدين ، في هذه الظروف ثارت العامة في قرطبة عام ٥٣٤ هـ/ ١١٣٩ م ضد قاضيها ابن رشد لأسباب لم تفصح عنها المصادر وقد بادر ابن حمدين [5] بالتدخل فأسكت ثائرتها ، وبعد برهة من الوقت استعفى

---

(١) دوزي : المرجع السابق ، ص ١٦٤ - ١٦٠ .

(٢) انظر الفصل الخاص بالأحوال الاجتماعية والاقتصادية من هذه الرسالة .

(٣) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٢٣ .

(٤) لطفي عبد البديع : الفن الاسلامي في اسبانيا ، ص ٣٤ - ٣٥ .

(٥) هو أبو جعفر حمدين بن علي بن حمدين ، تلقى العلم في مدينة قرطبة ، واشتغل بالقضاء حتى وصل الى منصب قاضي الجماعة في قرطبة في شعبان ٥٢٩ هـ بعد مقتل قاضيها ابن الحاج الا أنه أختلف مع حكام

ابن رشد من منصبه ، فأخضعت المدينة إلى ما يعرف في الوقت الحاضر بالحكم العسكري ، فعطلت فيها الأحكام ما يزيد على عام كامل تأديباً لأهلها بأمر واليها ابي عمر اللمتوني ، ثم اذن لهم باختيار قاض لهم فأجمعوا على اختيار ابن حمدين في عام ٥٣٦ هـ/ ١١٤١ م (١) .

ويبدو أن أبا عمر اللمتوني والي قرطبة لم يكن راضياً عن هذا الاختيار لأن شخصية ابن حمدين كان لها ثقل اجتماعي كبير ، ومن المحتمل أن يقوم بمناوأة الدولة فقبل ذلك على مضض لاقتناعه بان ذلك هو الحل الأجدى في مثل هذه الظروف لأن أهل قرطبة لن يقبلوا بديلاً لابن حمدين .

ز - ثورة العامة في إشبيلية ضد القاضي ابن العربي ٥٢٩ هـ / ١١٣٤ م :

واذا انتقلنا إلى إشبيلية وجدنا أنها لا تقل حماساً للثورة عن اختها قرطبة وكأن المدن الاندلسية كانت على موعد من أجل الوثوب على حماتها من المرابطين ، ومن المناسب أن أعرض لأحوال هذه الحاضرة في عهد المرابطين قبل الشروع في الحديث عن ثورتها ، وبما أن الشعر هو المرآة الصادقة لأحوال المجتمع المعبر عن آلامه وهمومه ومآسيه ، فلربما يكون المصدر الوحيد الذي يعطينا صورة عن بعض ما كان يعانيه شعب إشبيلية بشكل خاص من إهمال وتضييع ، ويأتي الشاعر الأعمى التطيلي على رأس الشعراء الذين لم يصمتوا عندما ارادت منهم الرعية أن يعبروا عن آلامهم ، وما يكابدونه من ظلم وجور ، ولكن يجب على الباحث أن يكون حذراً في تعامله مع النصوص الشعرية لما تحمل

= المرابطين فعزل من منصبه عام ٥٣٢ هـ/ ١١٣٧ م ، وانتخبته الرعية قاضياً عام ٥٣٦ هـ / ١١٤١ هـ وبقي في هذا المنصب حتى قام بالثورة عام ٥٣٩ هـ/ ١١٤٤ م ، وتوفي في مدينة لبلة بعد أن فر من وجه الموحدين الداخلين على الأندلس عام ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩ م انظر : ابن الآبار : المعجم ص ٦٣ - ٦٤ ؛ عبد الله علام : المرجع السابق ، ص ١٥١ .

(١) السيد عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، ج١ ، ص ١٤٥ ؛ عبد الله علام : المرجع السابق ، ص ١٥١ .

في طياتها من مبالغات وتهويل للموقف ، وفي الوقت نفسه يجب ان لا يغفل عن حقيقة هامة وهي أن الشاعر فرد من أفراد المجتمع يمتاز عنهم بنفسه الشفافة وحساسيته المرهفة لما يحيط به ، فصرخته لا تنطلق من فراغ .

على أي حال ما نملكه عن أحوال إشبيلية لا يتعدى ما قاله الأعمى التطيلي من شعر ومن نماذج ذلك ما قاله في تحريض أهل إشبيلية على الثورة من خلال قصيدة طويلة نقتطف منها : -

فشا الظلم واغترّ اشياعه	ولا مستغاث ولا مشتكي
أيا أهل حمص وقدما دعوت	وهل تسمعون الى من دعا ؟
يقلّ لاقداركم كل شيء	فكيف رضيتم بدون الرّضى
وساد الطغام بتمويههم	وهل يفدح الرزء الا كذا
وطالت خطاهم الى الترهات	الا قصر الله تلك الخطى [1]

وعلى ما لهذه القصيدة من أهمية لما تحمل في ثناياها من صرخات مريرة تعبر عن واقع مؤلم يعيشه أبناء هذه المدينة فنحن لا نعرف الظروف التي قيلت فيها . إلا أنه يمكن أن نستخلص منها ما كان يعانيه أهالي إشبيلية في فترة من فترات حكم المرابطين من عسف وظلم ، فكل ثورة تقوم بها الرعية يكون لها ما يبررها لأنها لا تنطلق من فراغ .

ووصلت الأوضاع في مدينة إشبيلية عام ٥٢٩ هـ/ ١١٣٤ م إلى قمة الغليان عندما ثارت على قاضيها أبي بكر بن العربي [2] لحزمه وصرامته مع

---

(١) الأعمى التطيلي : ديوان الأعمى التطيلي ، ص ز ، ١ - ٣ .

(٢) هو محمد بن عبد الله بن محمد بن أحمد المعروف بابن العربي (٤٦٨ - ٥٤٣ هـ/ ١٠٧٦ - ١١٤٨) ، من أهل إشبيلية أخذ عن عدد كبير من العلماء في الأندلس والمشرق أمثال أبي عبد الله بن منظور ، وأبي مروان بن سراج ، خرج إلى الحج عام ٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م ، فأخذ عن علماء مصر أمثال مهدي الوراق وأبي الحسن بن داود الفاسي ، وفي الشام لقي أبا نصر المقدسي ، وأبا حامد الغزالي ، وفي بغداد عن ابي الحسن المبارك ثم عاد إلى إشبيلية عام ٤٩٥ هـ ، وقد خلف لنا عدداً كبيراً من المصنفات منها : أحكام القرآن ، المسالك في شرح موطأ مالك ، المحصول في أصول الفقه ، سراج المريدين ،

الجناة والمفسدين في المدينة وهذا ما أكده القضاعي [1] حين قال : « وكانت له بالظالمين سورة مرهوبة » ، وهذا ما لم يرق لمن تعود على حياة الترف والبذخ ، والتلذذ بكل محرم .

ويبدو أن المتذمرين من صرامة ابن العربي ، اخذوا يستغلون محافظته على تنفيذ الحدود على المخالفين لتشويه سمعته ، خاصة أنه كان يتفنن في معاقبة المفسدين ، فكان يأمر بثقب أشداق من يتخذ المزمار وسيلة للهو والفساد [2] ، وكان يطارد معاقري الخمور وبائعيها ، فكان يضرب ويصلب ويشهر بكل فاسق يظفر به فظل على هذا الحال حتى ثقل على الفساق والأشرار فهاجوا عليه [3] ، وهذا ما أكده ابن العربي [4] نفسه حين قال : (ولقد حكمت بين الناس فألزمتهم الصلاة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى لم يك يرى في الأرض منكر ، واشتد الخطب على أهل الغصب ، وعظم على الفسقه الكرب فتألبوا وألبوا وثاروا إلي فاستسلمت لأمر الله وامرت كل من حوالي ألا يدافعوا عن داري وخرجت على السطوح بنفسي فعاثوا علي ، وامسيت سليب الدار ولولا ما سبق من حسن المقدار لكنت قتيل الدار) .

ويظهر أن الثورة لم تكن من جانب السفلة فقط بل شاركهم آخرون من أهل البلد لتذمرهم أيضاً من بعض تصرفاته ، فيذكر انه لما اراد بناء احدى

= الناسخ والمنسوخ وغيرها انظر : ابن العربي : احكام القرآن ، ج١ ، ص ٤ ـ ٧ ؛ المقري : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢٣٣ ـ ٢٤٢ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ج٢ ، ص ٢٥٢ ـ ٢٥٦ ؛ النباهي : المرقبة العليا ، ص ١٠٥ ـ ١٠٦ ؛ الضبي : بغية الملتمس، ص ٩٢ ـ ٩٣ ؛ ابن القاضي : المصدر السابق ، ج١ ، ص ٢٦٠ ـ ٢٦١ ؛ أبي بكر بن العربي : العواصم من القواصم ، ص ١٠ ـ ٣٤ ـ ١٣٧ ـ ١٣٩ ـ كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي ج١ ، ص ٢٩٨ .

(١) جذوة الإقتباس ، ج١ ، ص ٢٦١ ؛ النباهي : المصدر السابق ، ص ١٠٦ ؛ المقري : المصدر السابق : ج ٢، ص ٢٣٥ .

(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٩٣ ؛ المقري : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢٣٥ .

(٣) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٩٣ ـ ٩٤ .

(٤) العواصم من القواصم ، ص ١٣٧ ـ ١٣٨ .

جهات سور إشبيلية ولم يكن بها مال متوفر فرض على الناس جلود ضحاياهم وكان ذلك في عيد الأضحى ، فأحضروها كارهين مما سبب الثورة عليه فنهبت العامة داره ففر الى قرطبة (١) .

ومن المرجح أن يكون السبب الرئيسي لهذه الثورة هو ما كانت تعانيه إشبيلية وقتذاك من ضائقة إقتصادية ، وأن أمير المسلمين علي بن يوسف لم يهب لمساعدتهم في ضائقتهم الإقتصادية تلك ، وربما يعود ذلك إلى انشغاله بمصائبه التي كانت تتوالى عليه لتوالي انتصارات الموحدين على جيوشه وانه كان في حاجة لمن يساعده في إحباط ثورة ابن تومرت .

ويبدو أن ابن العربي لم يكن على وفاق مع بعض زعماء إشبيلية فيذكر ابن الأبار (٢) أنه كان على خلاف مع أبي القاسم المعروف بالرنجاني الذي كان على رأس الشورى مما حدا به أن يستعدي عليه أمير المسلمين إلا أنه توفي لتسع بقين من محرم ٥٢٩ هـ/ ١١٣٤ م .

وقبيل قيام العامة بالثورة على ابن العربي قامت بعض الأيدي الخفية المناوئة له بتشويه سمعته ، ويبدو أنهم طعنوا في عقيدته ، وهذا ما يفهم من كلام المقري (٣) والنباهي (٤) حين ذكرا ما نصه : (ولكثرة حديثه وأخباره وغريب حكاياته ورواياته أكثر الناس فيه الكلام وطعنوا في حديثه) .

ويظهر أنهم بعد ما نجحوا في ذلك قاموا بثورتهم تلك ، ولكن المصادر لم تمدنا بتفاصيل هذه الانتفاضة ، والأدوار التي مرت بها ، وكيفية انتهائها وتكتفي بذكر صرفه عن قضاء إشبيلية الذي تولاه عام ٥٢٨ هـ/ ١١٣٣ م ، وان أمواله وكتبه قد نهبت (٥) .

---

(١) المقري : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢٣٤ .

(٢) المعجم ، ص ١١٣ .

(٣) نفح الطيب ، ج٢ ، ص ٢٣٦ .

(٤) المرقبة العليا ، ص ١٠٥ ـ ١٠٦ .

(٥) المقري : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢٣٦ .

وهكذا أصبحت الأندلس مرجلاً يغلي بالحقد والكراهية للمرابطين الذين قدموا إليها من أجل حماية الأوطان وصون الأعراض من أعداء أمتهم نصارى الشمال الإسباني ، فلماذا انقلبت فرحتهم بجيوش المرابطين المتوجهة إلى جبهات القتال الشمالية إلى صرخات تذمر وثورة ؟

يبدو أن هناك عوامل اقتصادية ، وسياسية ، وحضارية وراء هذه الثورات في هذه البقعة ، فلو نظرنا الى أحوال المجتمع الأندلسي بعد موقعة الزلاقة الشهيرة ، وبعد أن قضى المرابطون على مهزلة دول الطوائف ، نجد أن المجتمع الأندلسي قد تحرر من كل الضرائب غير الشرعية وترتب على ذلك ازدهار التجارة، والصناعة، والزراعة، لتوفر الأمن والطمأنينة، وكما هو معروف في الغالب عندما تزداد أموال الرعية تحاول أن تمارس ضغوطاً على الحكام، وتكون أقل انصياعاً للأوامر ، وإذا أضيف الى ما تقدم الاهتمام بالثقافة والتفوق العلمي زاد ذلك أيضاً من اعتدادهم بأنفسهم ومطالبتهم بحكم أنفسهم بأنفسهم ، فمن طبيعة الشعوب رفض الوافدين من الخارج الذين يتصرفون بمقدراتهم ، وإذا راجعنا تاريخ الأندلسيين وعلاقاتهم بالمغاربة ، وجدنا أنهم كانوا ينظرون لأنفسهم نظرة استعلاء على القادمين من البربر ، فهم أكثر تقدماً وحضارة ، وإذا ارتبط الوافد بالعنف والقسوة ازداد البغض والكره له ، وتجربة الأندلسيين مع البربر تعود إلى بدايات الفتح الإسلامي للأندلس ، وأكثر فترة برز فيها البربر على الساحة وأبغضهم الأندلسيون هي فترة المنصور بن أبي عامر الذي استقدم أعداداً كبيرة منهم ليدعم بهم سلطانه [١] .

ويرجح الدكتور إبراهيم حركات [٢] ان سبب هذه الثورات هو استئثار المرابطين بالوظائف مما أسخط الأندلسيين وأدى إلى اتهامهم إياهم بالخشونة والجهل . ويعزوها محمد عبد الله عنان [٣] إلى أساليب القادة والولاة الخشنة مع الأندلسيين ، والتي تتنافى مع ما جبلت عليه الأمة المترفة ، ثم يقول بأن هذه الثورات ما هي إلا محاولات للتنفيس عن حكم المرابطين المرهق .

---

(١) ابن الأبار : الحلة السيراء ، ج٢ ، ص ٦٦ ، حاشية رقم ١ .

(٢) المغرب عبر التاريخ ، ج١ ، ص ٢٣٢ .

(٣) عصر المرابطين والموحدين ، ص ٢٩ ـ ٣٠ .

الفصل الثالث

ثورة محمد بن تومرت

٥١٤ ـ ٥٣٧هـ/ ١١٢٠ ـ ١١٤٢م

واجه علي بن يوسف بن تاشفين ـ كما رأينا في الفصل السابق ـ ، منذ اللحظة الأولى لولايته معارضة لحكمه في أنحاء مختلفة من بلاده التي كانت تضم بين جناحيها المغرب والأندلس . ولكن هذه المعارضة لم تؤثر كثيراً في صرح الدولة الشامخ لافتقارها للشخصية القيادية الموهوبة التي تجعل القلوب ترفرف حولها ، إضافة لعدم توفر سند شرعي يبرر قيامها على ولي الأمير، ولحدوثها في فترة كانت ما تزال فيها الدولة المرابطية في أوج ازدهارها .

ولم يطل الوقت بعد فشل هذه الحركات المعارضة حتى برزت شخصية محمد بن تومرت الذي تقنع بقناع المهدية [1] ، ذلك القناع المزيف الذي استغل على طول حقب التاريخ الإسلامي واتخذ مبرراً للخروج على السلطة الشرعية القائمة .

وقد استغل الفاطميون هذه القضية الى أبعد الحدود ، واستطاعوا في النهاية ان يشيدوا صرح دولة يحكمها عبيد الله المهدي في المغرب ، بعدما أشاع الدعاة الفاطميون في بلاد البربر فكرة المهدوية ، واستطاعوا بقيادة أبي

---

(١) أول من أطلق عليه لقب المهدي محمد بن الحنفية، أطلقها عليه المختار بن عبيد الثقفي حيث زعم أنه المهدي المنتظر ، وأنه لم يمت ولن يموت حتى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ، انظر : وتموت الفتنة ص ٢٧٢ (مجموعة مقالات أصدرتها جريدة الندوة السعودية على شكل كتاب عام ١٩٧٩م) .

عبد الله الشيعي التغلب على عمال الأغالبة ، ونصبوا عبيد الله الذي تلقب بالمهدي مدعياً أنه من أبناء فاطمة ، ومن نسله كان الخلفاء الفاطميون الذين تعاقبوا على حكم المغرب ومصر ، والذين كانوا يزعمون لأنفسهم من القداسة ما لا يجوز إلا لله وحده ، وعن طريق دعاة الإسماعيلية عرف المغاربة دعوة المهدوية ، وعرفوا قوة تأثيرها على المستوى الشعبي [1] .

هذا ويذكر عبد العليم عبد العظيم في أطروحته لنيل درجة الماجستير من كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الملك عبد العزيز شطر مكة أن بعض الباحثين المحدثين أمثال : محمد رشيد رضا ، ومحمد فريد وجدي ، وأحمد أمين ، ومحمد عبد الله عنان ينكرون فكرة المهدية [2] ، ويذكر ابراهيم بن سليمان ـ الجبهاني أن الفكرة من اختراعات حاخامات اليهود ليعللوا أنفسهم بظهور مخلص ينقذهم مما يتعرضون له من اضطهاد في جميع أدوار التاريخ [3] .

ولكن هناك جمع من الأئمة والعلماء نصوا على ثبوتها ومنهم : ابن القيم الجوزية في كتاب المنار المنيف ، وابن حجر في فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، والسخاوي وغيرهم [4] وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : (أن الأحاديث التي يحتج بها على خروج المهدي أحاديث صحيحة رواها أبو داود ، والترمذي ، وأحمد وغيرهم من حديث ابن مسعود) [5] .

وحول هذه القضية وما ورد فيها من أحاديث يذكر عبد العليم عبد العظيم في أطروحته المشار اليها سابقاً ان هناك تسعة احاديث صحيحة في هذه المسألة ، وعلى ضوئها خلص الى أن صفات المهدي هي : انه محمد او

---

(١) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص١٥٧ ؛ وتموت الفتنة : ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ .

(٢) عبد العليم عبد العظيم : الأحاديث الواردة في المهدي في ميزان الجرح والتعديل ، ص ٢٣ ـ ٢٧ (رسالة ماجستير لم تطبع) .

(٣) وتموت الفتنة ، ص ٢٧٢ .

(٤) عبد العليم عبد العظيم : المرجع السابق ، ص ٣٠ ـ ٣٣ .

(٥) وتموت الفتنة ، ص ٢٨٥ .

أحمد او عبد الله وذلك لقول رسول الله ﷺ من حديث ابن مسعود (لو لم يبق من الدنيا الا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث رجلاً من أهل بيتي يواطىء اسمه إسمي واسم أبيه اسم أبي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً) ، ومدة حكمه سبع او تسع سنوات وحددوا له صفات جسمية خاصة [1] ، الا ان هناك من يقول انه يشبه النبي ﷺ في أفعاله وأخلاقه لا في صوته وشكله [2] .

وعلى ضوء هذه الأحاديث سيتبين لنا زيف دعوة المهدي بن تومرت التي كانت تقوم على المكر والخديعة كما سنرى في الصفحات التالية .

ويبدو أن نجاح قبيلة لمتونة في تبني دعوة عبد الله بن ياسين الإصلاحية وتركز السلطة بيدها أوجد ردة فعل قبلية عند القبائل الأخرى . فكما هو معلوم أن الصراع والتطاحن على السلطة من أبرز السمات التي تتصف بها القبائل البربرية البدوية ، وكان يوسف بن تاشفين يدرك حقيقة هذه المنافسات والتطلعات القبلية ، فنجده يوصي ولي عهده علي بن يوسف بأن لا يثير أهل جبل درن عليه [3] .

وأخذت القبائل المنافسة للمتونة تتلمس العوامل التي أدت الى قيام دولة المرابطين والى تسنم قبيلة لمتونة للسلطة في هذه الدولة . ويظهر أنهم وصلوا في تصورهم إلى تشخيص العامل الرئيسي لنجاح قبيلة لمتونة في هذا الصدد وهو التفافها حول دعوة عبد الله بن ياسين الاصلاحية وهذا ما أدركه أحد أفراد قبيلة هرغه وهو محمد بن تومرت الذي اتشح فيما بعد بوشاح المهدية [4] .

---

(١) ومن هذه الصفات : انه أصلع مقدمة الرأس ، واسع الجبهة ، أنفه محدود ، وسط مرتفع ، طرفه سابغ ، انظر : عبد العليم عبد العظيم : المرجع السابق ، ص ٥٨٧ ـ ٥٩٠ ؛ اسماعيل الشطبي : حقيقة قضية المهدي ، مجلة المجتمع عدد ٤٦٢ ، ٢٢ محرم ١٤٠٠هـ ، ص ٣٠ ـ ٣٢ .

(٢) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ١٥٧ ؛ وتموت الفتنة ، ص ٢٨٩ .

(٣) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٨٢ ـ ٨٣ .

(٤) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون، ج ٦، ص ٢٦٤ ؛ ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٥٦٩ ؛ ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٧٢ ؛ ابراهيم حركات : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٦٠ .

فكيف استطاع محمد بن تومرت أن يبلور دعوته الى فكرة عملية نشطة ضد دولة المرابطين وأن ينجح في هدم أركانها وتأسيس الدولة الموحدية على أنقاضها ؟ كيف استطاع ذلك على الرغم من زيف عقيدته وخداعه وكذبه . . هذا ما سنعرض اليه فيما يلي .

نسب ابن تومرت :

أما فيما يختص بنسب ابن تومرت فيختلف فيه النسابون والمؤ رخون . فمنهم من ينسبه الى آل البيت وإلى الأدارسة العلويين خاصة ، ومنهم من ينكر عليه ذلك ويؤكد على أصله البربري .

ويأتي البيذق تلميذ المهدي بن تومرت على رأس أنصار النسبة العلوية لعدم وجود خيار أمامه لأنه من شروط المهدية النسبة لآل البيت ، وإنكار ذلك هو مطعن في دعوته .

فيذكر عن نسبه أنه : محمد بن عبد الله بن وكليد بن يامصل بن حمزة بن عيسى بن عبيد الله بن ادريس بن ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن فاطمة بنت رسول الله ﷺ [1] .

ويرجح ابن خلدون [2] نسبته العلوية فيقول : (وعلى الأمرين فإن نسبه الطالبي وقع في هرغة من قبائل المصامدة ووشجت عروقه فيهم ، والتحم بعصبيتهم فلبس جلدتهم وانتسب بنسبتهم وصار في اعدادهم) ، ويكتفي ابن الأثير [3] بذكر انه أبو عبد الله محمد بن تومرت العلوي . أما المراكشي [4] فيؤكد على أن نسبه متصل بالحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب . ويذكر عبد الحميد العبادي [5] أنه في الأصل من أحفاد العلويين الأدارسة الذين

(١) البيذق : المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب ، ص ١٢ .
(٢) تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٢٦٥ .
(٣) الكامل ، ج ١٠ ، ص ٥٦٩ .
(٤) المعجب ، ص ٢٤٥ .
(٥) المجمل في تاريخ الأندلس ، ص ٦٦ .

اندمجوا في البربر بعد سقوط دولتهم ، فهو على رأيه علوي الأصل بربري الطباع والأخلاق .

يلاحظ مما تقدم أن أنصار النسبة الطالبية لم يغفلوا عن إدخال إدريس ضمن سلسلة نسبه وهي إيماءة ذكية ، فالنسب الطالبي يكسبه احتراماً كبيراً في نظر الرعية [1] .

ويأتي ابن أبي زرع ، وابن الخطيب ، وابن أبي دينار على رأس المنكرين لنسبته الطالبية [2] . ويرى السيد عبد العزيز سالم [3] أنه لم يكن اسمه الأصلي هذا ، وإنما كان له اسم مختلف استبدله باسم محمد بعد عودته من المشرق تيمناً باسم الرسول ﷺ ، ثم رأى أن يكون اسم أبيه عبد الله ، ولم يكن اسمه الحقيقي ، إذ كان يسمى تومرت بن وجليد .

ويذكر البعض الآخر ان اسم تومرت هو اسم إحدى جدات المهدي غلب على نسبه ، وكان جده لأبيه يسمى وجليد ، وجده لأمه يسمى واركن وهي أسماء بربرية بحتة [4] .

والذي يرجح هو ان تومرت ليس اسماً لوالد المهدي او اسماً لإحدى جداته ، وإنما هو لقب اطلقته ام المهدي عليه لسرورها به عند مولده ، فيذكر انه عندما ولد قالت امه باللسان البربري (آتومرت آينو آيسك آييوى) ومعناها يا فرحتي بك يا بني ، وكانت اذا سئلت عنه وهو صغير تقول : (ياك ياك تومرت) أي صار فرحاً وسروراً فغلب عليه اسم تومرت [5] .

---

(١) محمد ولد داداه : مفهوم الملك في المغرب من انتصاف القرن الأول الى انتصاف القرن السابع دراسة في التاريخ السياسي ، ص ١٣٤ .

(٢) روض القرطاس ، ص ١٧٢ ؛ أعمال الأعلام ، ص ٣ ، ص ٣٦٦ ؛ المؤنس ص ١١٢ .

(٣) المغرب الكبير ، ج ٢ ، ص ٧٦٩ ، حاشية رقم ١ .

(٤) عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ج ٢ ، ص ٧٦٩ ؛ ابراهيم حركات : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٦٠ ؛ محمد عبد الله عنان : تراجم أندلسية ص ٢٣٧ .

(٥) البيذق : المقتبس من كتاب الأنساب ، ص ٢٦ ـ ٢٧ .

وكما أختلف في حقيقة نسبه اختلف ايضاً في سنة ميلاده . الا ان هناك إجماعاً على ان مولده كان في الثلث الأخير من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي (١) في قرية جبلية تسمى ايجلي (٢) ، بجبال الأطلس ببلاد السوس بالمغرب الأقصى (٣) .

وينتمي ابن تومرت الى قبيلة تسمى هرغة (٤) من قوم يعرفون بايسرغنين (وهم الشرفاء بلسان المصامدة) (٥) وهرغة هي إحدى بطون قبيلة مصمودة صاحبة المال والسطوة ، والمنتشرة بالمغرب الأقصى (٦) .

ولم تمدنا المصادر التي بين أيدينا بمعلومات مفصلة عن أسرته وبيئته الأولى ألتي نشأ فيها والتي لو وجدت لساعدتنا على حصر العوامل المؤثرة في شخصيته ، وتفسير بعض تصرفاته ، وتشير بعض المصادر إلى أن والده كان زعيماً لقبيلته الا ان ابن تومرت نشأ فقيراً (٧) ، ولم يمنعه ذلك من الجد والمثابرة في طلب العلم حتى انه لقب بعدة ألقاب تشهد له بالجد منها : أمغار (٨) - (التي تعني باللسان البربري الشيخ) ، وآسافو (التي تعني

---

(١) يحدده الزركشي (تاريخ الدولتين ، ص ٤) بعام ٤٩١هـ ، ويحدده السلاوي (الاستقصا ، ج ٢ ، ص ٧٨) وابن خلكان (وفيات الأعيان ج ٥ ، ص ٥٣) وابن تغري بردى (النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٢٥٥) بعام ٤٨٥ هـ .

(٢) ايجلي أو ايكلي : وهي قاعدة بلاد السوس الأقصى ، وهي خصبة في سهل من الأرض على نهر كبير ، ويعمل بها النحاس الذي كان يصدر الى بلاد السودان ، انظر : الحميري : المصدر السابق ، ص ٤٥ .

(٣) المراكشي : المصدر السابق ، ص ٤٥ .

(٤) تحتل المنطقة الممتدة جنوب مدينة مراكش ، ويقال ان اسم القبيلة البربري هو أرغن ثم حرف الى هرغة أنظر : ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٣ ، ص ٢٦٦ ، حاشية رقم ١ .

(٥) المراكشي : المصدر السابق ، ص ٤٥ .

(٦) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ، ج ٤ ، ص ٢٩٢ ؛ عبد الله علام : المرجع السابق ، ص ٤٤ - ٤٦ .

(٧) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٧٢ ؛ عبد الله علام : المرجع السابق ، ص ٤٥ .

(٨) ابن قنفذ ، الوفيات ، ص ٤٧٣ ، حاشية رقم ١ ؛ عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ج ٢ ، ص ٧٧٠ .

الضياء لكثرة ما كان يسرج من القناديل في المساجد)[١] ، وكان قارئاً للقرآن متظاهراً بالزهد والتقشف والتشبه بالصالحين[٢] ، كما يذكر عنه أنه كان منقبضاً عن الناس[٣] مما أتاح له فرصة للتأمل والتفكير في أوضاع عشيرته التي تخفي بين ضلوعها ناراً تتأجج ضد لمتونة وحلفائها[٤] ، وأتاح له ذلك أيضاً فرصة طيبة للدرس والمطالعة .

لقد كان ابن تومرت يشعر بشعور قبيلته الأم مصمودة التي كانت تعاني من ضنك حكم المرابطين ، ويبدو أنه فكر في أقصر طريق يمكن أن يخلص بواسطته قومه من سلطان المرابطين ، ومن المرجح أنه أخذ يتفحص أحوال دولة المرابطين ليجد له منفذاً ينفذ من خلاله ليعمل على الإطاحة بها فوجدها ما زالت في أوج مجدها السياسي ، والعسكري ، والحضاري ، وتقوم بتحكيم الشرع ، عندها أدرك أن أي ثورة ستقوم ضدها سيكون مصيرها الفشل إذا لم يكن لديها مبررات أقوى من الأسس التي قامت عليها دولة المرابطين .

وأخذ ابن تومرت يبحث عن السبيل الذي يوصله الى تحقيق طموحاته وبالتالي طموحات قومه فوجد ضالته عن طريق ادعاء المهدية ، ولكن المهمة لم تكن سهلة ، ولا بد له من أن يعد نفسه لهذه الدعوة .

فبعد ان درس القرآن الكريم في قريته الجبلية وحصل بعض العلوم البسيطة جاز الى الأندلس في عام ٥٠٠هـ / ١١٠٦م أو عام ٥٠١هـ/ ١١٠٧م ، وأخذ عن مشاهير علمائها[٥] ، واطلع على عيون المؤلفات هناك ، ولا بد أنه قرأ مؤلفات ابن حزم[٦] خاصة كتاب « الفصل في الملل

---

(١) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٤٦٥ .

(٢) المراكشي : المصدر السابق ، ص ٢٦١ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٤٦ ؛ الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص ٧ .

(٣) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ق ٣ ، ص ٢٦٦ .

(٤) ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص ١١٣ ـ ١١٤ .

(٥) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٥٩ ؛ مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٢٤٥ ؛ الزركشي : المصدر السابق ، ص ٤ .

(٦) عبد الحميد العبادي ، المرجع السابق ، ص ١٦٦ .

والاهواء والنحل » الذي ركز فيه على قضية اهتم بها ابن تومرت فيما بعد وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر [١] .

ولم تسد العلوم الأندلسية نهم وتعطش ابن تومرت للمعرفة ، خاصة انه كان يعد نفسه ليكون داعياً فيما بعد ، فلا بد له من علم الكلام ، والجدل الذي كان محذوراً في المغرب والأندلس ، ويعد من يشتغل بها في نظر المرابطين كافراً ، ومن ثم رحل الى الحجاز والشام والعراق ومصر [٢] ، وهناك أقبل على دراسة الحديث النبوي الشريف وعلم الأصول متتلمذاً على مشاهير العلماء في تلك الأمصار أمثال أبي بكر الشاشي بالعراق [٣] وغيره [٤] .

والمسألة التي تثير النقاش هي لقاء ابن تومرت مع الغزالي ، فقسم يؤكد على ان اللقاء تم فعلاً ، ولكنهم يختلفون في مكانه ، فذهب فريق بأنه في الشام ، وذهب آخر بأنه في العراق ونقلوا أحاديث دارت بين الرجلين [٥] ، والمتفحص للروايات التي جاءت حول هذه القضية يلاحظ أن قسماً منها جاء بصيغة الشك ، فمنها مثلاً (وقيل أنه لقي [٦] ، ولقي فيما زعموا [٧] ، وقيل أنه جرى له حديث مع الغزالي [٨] ، وأخرى يغلب عليها طابع الأسطورة فمثلاً

---

(١) ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٢ ، ق ٤ ، ص ١٧٣ - ١٧٦ .

(٢) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ١٠٣ - ١٠٤ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٤٦ .

(٣) أحد ألمة الشافعية (٤٢٧ - ٥٠٧ هـ) درس بالنظامية ببغداد ، انظر : ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ١١٢ .

(٤) أمثال أبي عبد الله الحضري في الشام ، وأبي الوليد الطرطوشي وغيرهم ، انظر : مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ١٠٣ - ١٠٤ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ١٩١ ؛ الكتبي : عيون التواريخ ، ج ١٣ ، ورقة ١٩٣ - ١٩٤ ؛ ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ١٨٦ .

(٥) المراكشي : المصدر السابق ص ٢٤٥ ؛ السلاوي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٧٨ - ٧٩ ؛ ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٥٩ - ٦٠ ؛ ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٧٢ ؛ مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ١٠٣ .

(٦) المراكشي : المصدر السابق ، ص ٢٤٥ .

(٧) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٤٦٥ - ٤٦٦ .

(٨) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٥٦٠ .

يذكر ابن زرع [1] أن الغزالي قال عن ابن تومرت : (. . . لا بد لهذا البربري من دولة اما انه يثور بالمغرب الأقصى ويظهر أمره ويعلو سلطانه . . . فان ذلك ظاهر عليه في صفاته وبائن عليه في شمائله ، وردت بذلك الأخبار ودلت عليه العلامات ـ والآثار) ، وان هذه العلامات والآثار موجودة في كتاب يمتلكه الغزالي يسمى السر المكنون وكشف ما في الدارين [2] .

والمتأمل للروايات التي تؤكد اللقاء يجد انها غير مشجعة على الأخذ بها لأنه يحتمل ان يكون وصوله الى المشرق أثناء وجود الغزالي خارج الشام والعراق ، فقد عاد الغزالي إلى وطنه طوس عام ٥٠٠هـ / ١١٠٦م [3] .

ويبدو أن جميع الروايات التي نسجت حول هذه القضية من قبل أتباع ابن تومرت ما هي الا من أجل ربط أسم ابن تومرت باسم أبي حامد الغزالي ليكسب شهرة ما بعدها شهرة .

وتذكر بعض المصادر الموحدية [4] أن الغزالي دعا على سلطان المرابطين بقوله : « ليذهبن عن قليل ملكه وليقتلن ولده ، وما أحسب المتولي لذلك الأمر الا حاضر مجلسنا » ، وذلك بعد ان أخبره ابن تومرت باحراق كتاب إحياء علوم الدين » [5] .

والسؤال الذي يطرح نفسه هو هل تأثر ابن تومرت بمؤلفات الغزالي ؟ لقد حاول الإجابة على هذا السؤال المستشرق جولد سيهر (فأكد ان التأثير لم

---

(١) روض القرطاس : ص ١٧٢ .

(٢) محمد بن تومرت : كتاب محمد بن تومرت ، ص ٣٨ ؛ محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ١٦٢ .

(٣) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢١٧ ـ ٢١٩ ؛ أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين ، ج ١ ص ج ، وحيدر بامات : مجالي الإسلام ، ص ٢٤٩ .

(٤) المراكشي : المصدر السابق ، ص ٢٤٦ .

(٥) سنعرض لقضية إحراق كتاب إحياء علوم الدين في الفصل الخاص بالحياة الفكرية .

يكن كبيراً بحجة ان الغزالي كان ميالاً الى الاتجاه التصوفي وابن تومرت لم يكن ميالاً لذلك الاتجاه) [1] .

ولكن المتفحص لكتاب إحياء علوم الدين ، والمتتبع لسلوك ابن تومرت في دعوته لا يجد مناصاً من الترجيح بأن ابن تومرت قد تأثر بشكل غير قليل بالغزالي خاصة في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي أفرد له الغزالي في كتابه الأحياء قسماً لا بأس به ، رسم فيه الأسس التي يقوم عليها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي اعتبره أهم ركيزة يقوم عليها الإسلام حيث قال : (فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم من الدين . .) كما بيّن أن من يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنما يقوم بإحياء السنة من جديد معززاً ذلك بعشرات الآيات والأحاديث والآثار التي توضح ان من مميزات الفئة المؤمنة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر [2] .

وتمكن ابن تومرت خلال إقامته في المشرق من إشباع نهمه من العلوم فحفظ كثيراً من الأحاديث النبوية ، ونبغ في العلوم الشرعية ، والعربية ، والكلامية ، وخط الرمل [3] ، وشهد له بذلك كل من ابن الأثير [4] وابن أبي زرع [5] والسلاوي [6] وابن خلدون [7] والمراكشي [8] .

وتفاعلت هذه الدراسات في نفس ابن تومرت لتجعل منه رجلاً مؤهلاً للقيام بدعوته في بلاده ، ولكن الطريق صعب وشاق ، لأنه كان يريد هدم أركان دولة المرابطين التي لم تزل في ريعان شبابها . وعلى الرغم من ذلك

---

(١) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ١٦٣ .

(٢) أبو حامد الغزالي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٠٦ - ٣١٠ ، وما بعدها .

(٣) الكامل ، ج ١٠ ، ص ٥٦٩ ؛ ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٧٢ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٤٦ .

(٤) الكامل ، ج ١٠ ، ص ٥٦٩ .

(٥) روض القرطاس ، ص ١٧٣ ، ١٨١ .

(٦) الاستقصا ، ج ٢ ، ص ٧٨ .

(٧) تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٤٦٦ .

(٨) المعجب ، ص ٢٤٧ .

صمم على المضي من أجل تحقيق هدفه ، وعندها عزم على العودة الى بلاده ويبدأ رحلة الإياب في يوم الجمعة أول ربيع الأول من عام ٥١٠هـ / ١٤ يوليو من عام ١١١٦م [1] حامل في ذهنه برنامجاً لدعوة ثورية على المرابطين من ضمن نقاطه :

إماتة المنكر ، وإحياء العلوم ، وإخماد البدع عن طريق الوعظ والإرشاد والمناظرة تارة ، وأخرى عن طريق تغييرها باليد [2] . واتخذ من الأمر بالمعروف والنهي غن المنكر وسيلة لتحقيق برنامجه ، وطريقاً لجمع الأتباع وإظهار مفاسد المرابطين .

وخلال مروره بمكة المكرمة لاداء فريضة الحج وقف بالحجيج خطيباً معلناً ثورته على سوء الأوضاع في الدولة الفاطمية التي كان حكامها غارقين في الملذات وحياة الترف في الوقت الذي كان فيه الصليبيون ينتهكون حرمات المسلمين في بلاد الشام . وبعد الانتهاء من خطبته بادر شريف مكة أبو فليته القاسم محمد بن جعفر الموالي للفاطميين [3] باعتقاله ، ولما تيقن من عدم وجود أتباع له أفرج عنه فرحل الى مصر عام ٥١١هـ / ١١١٦م [4] . وما أن حل بالعاصمة الفاطمية (القاهرة) حتى أخذ يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر فطاردته السلطات ففر منها إلى الاسكندرية [5] ، واستمرت ملاحقته هناك حتى قبض عليه وصدر أمر بنفيه إلى بلاده في نفس العام [6] .

وفور وصوله الى مدينة المهدية أخذ بتغيير المنكر فيها ، فكسر جرار

---

(١) محمد بن تومرت : المصدر السابق ، ص ٣٨ ؛ ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٧٣ ؛ ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص ١١١ ؛ السلاوي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٧٩ ـ ٨٠ ؛ عبد العزيز الملزوزين : نظم السلوك في تاريخ الأنبياء والخلفاء والملوك ، ورقة ٥٠ أ .

(٢) سعد عبد الحميد : محمد بن تومرت وحركة التجديد في المغرب والأندلس ، ص ١٥ ـ ١٦ .

(٣) انظر زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، ص ٣١ ؛ أحمد السباعي : تاريخ مكة ، ج ١ ، ص ٢٠٧ .

(٤) سعد عبد الحميد : المرجع السابق ، ص ١٥ .

(٥) المراكشي : المصدر السابق ، ص ٢٤٦ ؛ سعد عبد الحميد : المرجع السابق ، ص ١٥ .

(٦) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٤٧ ؛ ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٧٣ .

الخمر ، وأدوات اللهو ، وأنكر على الناس ما هم عليه من أحوال غريبة عن الإسلام . عندها طلبه صاحب المهدية العزيز بن الناصر علي بن يحيى بن تميم (٥٠٩ ـ ٥١٥هـ / ١١١٥ ـ ١١٢١م) ، فلما رأى صلاحه أكبره وطلب منه الدعاء [١] . وما لبث ان غادر المهدية الى بجاية [٢] واستقر في مسجد الريحانة ، فاجتمع عليه الناس واعجبوا به لسعة ثقافته الدينية ، ومعرفته بأصول الجدل والفصاحة . وأخذ كعادته يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر مما أغضب حاكم بجاية يومئذ المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد فاضطر ابن تومرت الى الفرار مذعوراً الى ملاله على فرسخ من بجاية ودخل في بني ورياكل من قبائل صنهاجة الذين كانوا يتمتعون بقسط وافر من القوة والمنعة ، فحموه من السلطان الذي يطارده ، واستمر بينهم يلقي دروسه على الطلبة الوافدين عليه [٣] .

وفي مدينة ملالة التقى ابن تومرت بعبد المؤمن بن علي [٤] الذي كان متجهاً الى الشرق لطلب العلم برفقة عمه يعلو فاستطاع ان يصرفه عن وجهته

---

(١) البيذق : أخبار المهدي بن تومرت ، ص ١١ ، حاشية رقم ١ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٤٧ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٠ ، ص ٧٥٠ ؛ الزركشي : المصدر السابق ، ص ٤ ؛ السلاوي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٧٩ ـ ٨٠ ؛ مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ١٠٦ .

(٢) مدينة كبيرة ، وهي ميناء تجاري ومركز لصناعة السفن وقد نالت في ذلك الوقت من رقة الحياة قدراً كبيراً مما جعل ابن تومرت ينكر على الناس هذا الترف ، واختلاط النساء بالرجال في الأعياد فأخذ يضربهم بعصاة ، انظر : الحميري : المصدر السابق ، ص ٨٠ ـ ٨١ ؛ السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ج ٢ ، ص ٧٧٢ ـ ٧٧٥ ؛ عبد الله علام : المرجع السابق ، ص ٥٦ .

(٣) المراكشي : المصدر السابق ، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧ ؛ ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٤٦٨ ؛ السلاوي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٨٠ ـ ٨١ ؛ الزركشي : المصدر السابق ، ص ٤ ـ ٥ .

(٤) ينتمي الى قبيلة كومية ، ولد في قرية تاجرا من أعمال مدينة تلمسان في الثلث الأخير من القرن الخامس الهجري ، كان مقبلاً على العلم إقبالاً شديداً ، وقد حظي عند ابن تومرت بمكانة مرموقة وسماه صاحب الوقت واختصه بفرس أخضر وتوفي في ٢٧ جمادى الثاني عام ٥٥٨ هـ بعد ان تولى خلافة الموحدين ٣٣ سنة ، انظر : البيذق : المقتبس من كتاب الأنساب ، ص ١٣ ، ١٧ ، ٣٠ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٣ ، ص ٢٧١ ؛ ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٨٣ .

ويقنعه بملازمته بعد أن أخبره بحقيقة ما ينوي القيام به [1] فبايعه على مؤازرته في الشدة والرخاء والأمن والخوف [2] .

ونسجت حول لقاء الرجلين رواية يغلب عليها طابع الخيال والدعاية من أجل ترسيخ مكانتهما في نفوس الاتباع ، فالرواية تقول أن الدلائل والإشارات كانت تبشر بقرب ظهور عبد المؤمن الذي على يديه يتحقق النصر ، وان صفاته موجودة في كتاب يمتلكه ابن تومرت يسمى الجفر [3] ، وأنه رأى فيه أنه لا يتم هذا الأمر الا على يد رجل هجاء اسمه (ع بد م و م ن) ويجاوز وقته المائة الخامسة وتستمر الرواية في سرد قصة اللقاء الاسطورية بينهما وكيف استطاع ابن تومرت أن يتعرف على عبد المؤمن ويبشر به قبل قدومه [4] .

ومن المرجح ان الأمر لم يكن يتعدى ان طلبة تلمسان لما توفي شيخهم عبد السلام التوانسي ندبوا زميلهم عبد المؤمن للذهاب الى المشرق بقصد

---

(١) المراكشي : المصدر السابق ، ص ٢٤٧ ؛ عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ج ٢ ، ص ٧٧٤ - ٧٧٥ .

(٢) محمد بن تومرت : المصدر السابق ، ص ٣٩ ؛ ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٧٣ ؛ ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص ١١١ - ١١٢ .

(١) أصله أن هارون بن سعيد العجلي رأس الزيدية كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق ، يذكر ان فيه علم ما سيقع لأهل البيت عموماً وبعض الأشخاص منهم على الخصوص ، وكان مكتوباً عند جعفر الصادق على جلد ثور صغير فرواه عنه هارون العجلي وكتبه وسماه الجفر باسم الجلد فصار الإسم علماً لهذا الكتاب عندهم وكان فيه تفسير باطني للقرآن . على اي حال فالقرآن يبطل زعمهم بأن الجفر فيه علم الغيب فقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب الا الله وما يشعرون ايان يبعثون﴾ النمل - آية ، ٦٥ ، انظر : ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٤٠ - ٢٤١ - السلاوي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٨١ ؛ عبد الله علام : المرجع السابق ، ص ٩١ ، حاشية رقم ١ .

(٤) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٤٧ - ٤٨ ؛ السلاوي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٨١ ، ومن الجدير بالذكر ان ابن تومرت لم يكن أول من قام بعملية الاستدلال بالحروف ، فيظهر انه أخذها عن بعض الفرق الباطنية خلال إقامته في المشرق ، فقد كانت الباطنية تهتم اهتماماً كبيراً في هذه الأمور مما دعا الغزالي الى مناقشة هذه القضية بإسهاب في كتابه الذي خصصه لفضائح الباطنية حيث أثبت زيف الادعاءات التي تقوم على أساس الاستدلال بالحروف والأرقام . انظر : أبو حامد الغزالي : فضائح الباطنية ص ٦٦ - ٧٠ .

استقدام شيخ جديد لهم ، فالتقى عبد المؤمن بابن تومرت وتعرف عليه ، وبدلاً من أن يعود به الى تلمسان ليأخذ عنه هو ورفاقه العلم رافقه الى جبال المصامدة بأقصى المغرب ليبث معه الدعوة ويتولى بعده الملك [١] .

ويستفاد من الروايات التي تتحدث عن أحلام عبد المؤمن، والتي تدور حول العظمة والسلطة [٢] ، بأن الرجل كان يحدث نفسه بالخروج على السلطان ولكن هذه الفكرة كانت في طور التكوين وباجتماعه مع ابن تومرت نضجت هذه الفكرة ، ومن ثم أخذا يعملان سوياً من أجل تقويض أركان دولة المرابطين .

ومن الذين انضموا الى ابن تومرت ولعبوا دوراً هاماً في دعوته عبد الله الونشريشي [٣] الذي كان على درجة كبيرة من الثقافة . وقد اتفق معه ابن تومرت على أن يتستر على ما هو عليه من العلم والفصاحة عن الناس ، ويظهر العجز والغباء والتعري من الفضائل مما يشتهر به عند الناس على أن يداوم على أخذ العلم في السر ثم يفصح عن ذلك دفعة واحدة عندما يطلب منه المهدي ذلك فيكون بمثابة المعجزة فيصدقه الناس ويزداد إيمانهم بدعوته ، فقام الونشريشي بذلك أحسن قيام [٤] .

ورحل ابن تومرت مع مجموعة من طلبته من بجاية الى فاس ، واستمر في إلقاء دروسه فيها حتى عام ٥١٤هـ /١١٢٠م [٥] . وكان خلال هذه المدة ملتزماً ببرنامجه الذي وضعه لنفسه والذي كان من ضمن نقاطه العمل على تقريب أشخاص من ذوي القوة الجسمانية قليلي التجربة ، اضافة لاستمراره

---

(١) البيذق : أخبار المهدي بن تومرت ، ص ١٥ ، حاشية رقم ١ .

(٢) المراكشي : المصدر السابق ، ص ٢٤٩ .

(٣) نسبة الى نشريش ، وهو أبو محمد عبد الله بن محسن بن يكنيمان بن الحسن بن الحسين ، ومن أهل العشرة كان قائداً للموحدين في البحيرة في ٢ جمادى الأولى ٥٢٤هـ / السبت ١٢ ابريل ١١٣٠م انظر : البيذق : المقتبس من كتاب الأنساب ، ص ٢٣ ـ ٢٤ ؛ مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ١٠٦ .

(٤) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٤٨ .

(٥) محمد بن تومرت : المصدر السابق ، ص ٣٩ ـ ٤٠ ؛ ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٧٣ .

في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما أفضى الى طرده من فاس ، فتوجه الى مراكش [١] مقر حكم المرابطين . وخلال رحلته اليها كان ينبه عبد المؤمن بن علي للمواقع ذات الأهمية الاستراتيجية [٢] ويدل ذلك على انه كان يخطط لحرب طويلة الأمد ضد المرابطين .

ودخل ابن تومرت مدينة مراكش في عام ٥١٤هـ / ١١٢٠م [٣] في زي الزهاد وعلى عادته خرج مع تلاميذه الى أسواق مراكش يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر دون إذن أمير المسلمين أو إذن أحد قضاته او وزرائه ، لأنه شاهد في مراكش من المفاسد ما لم يره في مدينة ثانية [٤] وصدف أن رأى أخت أمير المسلمين علي المسماة (الصورة) حاسرة قناعها على عادة قومها فوبخها فشكته الى أخيها ثم توجه ابن تومرت الى مسجد علي بن يوسف في صلاة الجمعة [٥] فوجد أمير المسلمين جالساً وحوله الوزراء وقوفاً فاستنكر عليهم ذلك وعاب عليهم لبس النقاب [٦] وخاطب علياً قائلاً : (الخلافة لله وليس لك يا علي بن يوسف) [٧] .

ولما كثر نشاط ابن تومرت في مدينة مراكش خاصة في مجال الأمر

---

(١) محمد بن تومرت : المصدر السابق ، ص ٣٩ - ٤٠ ؛ البيذق : أخبار المهدي بن تومرت ، ص ٢١ - ٢٦ ؛ المراكشي : المصدر السابق ص ٢٥١ .

(٢) البيذق : أخبار المهدي بن تومرت ، ص ٢١ - ٢٢ .

(٣) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج ٦ ، ص ٤٦٧ - ٤٦٨ ؛ مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ١٠٦ - ١٠٧ ؛ البيذق: أخبار المهدي بن تومرت ، ص ٢٤ - ٢٥ ؛ محمد عبد الله عنان : تراجم أندلسية ، ص ٢٤٤ .

(٤) الكتبي : المصدر السابق ، ج ١٣ ، ورقة ١٩٣ - ١٩٤ ؛ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ، ج ٢ ، ص ١٤٨ .

(٥) المراكشي : المصدر السابق ، ص ٢٥٢ ؛ ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ١٨٦ - ١٨٧ ؛ ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج ٦ ، ص ٤٦٨ ويذكر فليب حتي (تاريخ العرب مطول ج ٢ ، ص ٦٤٩) ان التعرض للصورة كان في مدينة فاس .

(٦) البيذق : أخبار المهدي بن تومرت ، ص ٢٧ ؛ الزركشي : المصدر السابق ص ٤ - ٥ .

(٧) سعد عبد الحميد : المرجع السابق ، ص ١٨ .

بالمعروف والنهي عن المنكر ، والطعن في أمير المسلمين علي بن يوسف [1] استدعاه علي للاطلاع على حقيقة أمره ، فلما حضر بين يديه استطاع ابن تومرت أن يقنعه بأنه زاهد وليس له أي مطمع دنيوي ، وإنما يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتفشي المفاسد والبدع في ملك أمير المسلمين الذي هو مكلف بإزالتها ، والعمل على إحياء السنة ، وكان يتحدث بأسلوب مؤثر وقع في نفس أمير المسلمين فذرفت دموعه على وجنتيه [2] .

ولم تعم فصاحة وأسلوب ابن تومرت المؤثر أمير المسلمين علي بن يوسف عن خطورة دعوته فدعا العلماء من كل صوب لمناظرته لمعرفة حقيقة هذا الرجل ، فإن كان على حق أتبع وإن كان على جهل أدب [3] .

وكانت المناظرة فرصة لا تعوض لابن تومرت ، لأنها ستتيح له إبراز ما لديه من علم ، وإظهار علماء مراكش بمظهر العاجزين أمام سطوع حجته وفصاحته . وهي أيضاً وسيلة دعائية ممتازة لدعوته لأن ما ستسفر عنه ستتناقله الألسن ، وستطير أخبار هذه المناظرة ونتيجتها في الآفاق ، فهي بحق بطاقة تعريف جيدة لداعية مغمور . وسيدفع الفضول كثيرين من الحضور وأفراد الرعية الى مقابلة الداعية الجديد للاستفسار عن حقيقة دعوته ، وعن بعض القضايا التي أثيرت في المناقشة مما يتيح له فرصة ممتازة لتوضيح فكره ، وهذا ما يسعى اليه لضم أعداد جديدة الى صفوفه .

وقبل بدء المناظرة في مجلس أمير المسلمين علي الغاص بالعلماء والأعيان ، قدم علماء الدولة المرابطية ـ الذين كانوا يجهلون علم الأصول والجدل ـ عنهم قاضي المرية محمد بن أسود ليمثلهم في هذه المناظرة .

وأخذ ابن تومرت يسخر كل كلمة في المناظرة لتصوير فساد الأوضاع في الدولة المرابطية ، فأوضح ان الخمور تباع جهاراً نهاراً ، وان الخنازير تمشي

---

(1) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٣ ، ص ٢٦٧ .

(2) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٧٤ ؛ ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص ١١٢ .

(3) البيذق : أخبار المهدي بن تومرت ، ص ٢٧ ؛ محمد بن تومرت : المصدر السابق ، ص ٣٩ ـ ٤١ .

في الشوارع ، وان أموال اليتامى تؤكل ، وبيّن أن الذي يتحمل المسؤولية هم حاشية أمير المسلمين لاخفائهم تلك الأوضاع عنه [1] .

وبعد ان كشف عن سوء الأوضاع أراد ان يثبت عجز علماء مراكش عن مجاراته في العلم ، فطرح عليهم بعض الأسئلة التي لم يستطيعوا الإجابة عليها . فلما رأى عجزهم عن الإجابة بدأ يوضح لهم ما عجزوا عنه بأسلوب أخاذ ، سخر له كل ثقافته وفصاحته ، وهكذا انتهت المناظرة لصالح ابن تومرت [2] .

وأدركت حاشية أمير المسلمين علي خطورة هذه الشخصية التي فاقتهم علماً ، ووصمتهم وصمة عار لا تمحى عندما أظهرهم بمظهر العاجزين ، فتدارسوا أمرهم ، وأجمعوا على وصفه بالحمق ، وانه إنسان خارجي ، صاحب جدل ، وإذا بقي في المدينة أفسد عقائد أهلها [3] . ولكن الذي أدرك هدف ابن تومرت البعيد ، وعرف انه ليس طالب آخرة ، وإنما هو طالب سلطان ، الفقيه مالك بن وهيب الأندلسي [4] الذي أشار بقتله ليكتفي شره ، لأنه إذا وقع في بلاد المصامدة ألبهم على المرابطين [5] . ولكن وزير علي بن يوسف ينتان بن عمر ، وسير بن وربيل ، أقنعا أمير المسلمين علي بن يوسف بعدم الأخذ برأي مالك بن وهيب ، وكانت حجتهما أنه كيف يقتل او يسجن رجل هو أعرف أهل الأرض بالله [6] .

والحّ مالك بن وهيب على أمير المسلمين بتخليده بالسجن اذا لم

(١) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٤٨ - ٥٠ .

(٢) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٧٤ - ١٧٥ .

(٣) ابن الخطيب : أعمال الأعلام : ق ٣ ، ص ٢٦٦ ؛ ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٧٥ .

(٤) كان فقيهاً مشاركاً في جميع العلوم له كتاب سماه « قراضة الذهب في ذكر لئام العرب » وله تحقيق من أجزاء في الفلسفة ، انظر : المراكشي : المصدر السابق ، ص ٢٥١ ؛ البيذق : أخبار المهدي بن تومرت ، ص ٢٧ ، حاشية رقم ٣٢ .

(٥) المراكشي : المصدر السابق ، ص ٢٥١ - ٢٥٤ .

(٦) البيذق : أخبار المهدي بن تومرت ، ص ٢٨ ؛ ابراهيم حركات : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٦٢ .

يقتله ، وقال له : « اجعل عليه كبلاً كي لا تسمع له طبلاً » فوافقه على ذلك [1] . وحال ينتان مرة ثانية دون الأخذ برأي مالك بن وهيب والذي خاطب أمير المسلمين قائلاً : « يا أمير المسلمين هذا وهن في حق الملك ان تلتفت لهذا الرجل الضعيف فخلِّ سبيله انه رجل لا يملك سد جوعه » [2] . وحركت كلمات ينتان عزة نفس أمير المسلمين فاستصغر شأنه وأمر بإطلاق سراحه على شرط أن يخرج من بلاد أمير المسلمين ليقضي الله أمراً كان مفعولاً [3] .

ولجأ ابن تومرت الى مقبرة ابن حيدوس ، بالقرب من مراكش وبنى فيها خيمته [4] . وكان اختياراً موفقاً ، يدل على ذكاء خارق ، فهو إيماءة لأمير المسلمين بأنه رجل يريد الآخرة فيقطع بذلك دابر كل وشاية عليه من قبل المناوئين له . كما ان اختيار هذا المكان سيدفع الكثير من الفضوليين الى القدوم إليه للاستفسار عن أحوال هذا العابد الذي نبذ الحياة وزخرفها وارتضى الحياة بين الأموات فيبث أفكاره بينهم فمن اقتنع ضمه إليه .

والمقبرة من ناحية اخرى مكان مناسب وهادىء ، وبعيد عن الأعين ، فيتحدث هناك بما يشاء الى تلاميذه ، وفعلاً توافد عليه الطلاب حتى كثر جمعه [5] .

وفي هذه المقبرة بدأت المرحلة الثانية من مراحل دعوة ابن تومرت . فالمرحلة الأولى كانت دعائية إعلامية بالدرجة الأولى ، أما هذه المرحلة الثانية فهي مرحلة التنظيم من أجل الخروج على المرابطين ، فقد التفت حوله الجموع التي امتلأت قلوبها بمحبته ، وأعلم الخواص منهم بمقصده [6] .

---

(١) ابن خلكان: المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٤٩ ـ ٥٠ ؛ المراكشي: المصدر السابق ، ص ٢٥١ ـ ٢٥٤ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٣ ، ص ٢٦٧ ؛ البيذق : أخبار المهدي بن تومرت ، ص ٢٧ ـ ٢٨ ؛ مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ١٠١ .

(٢) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ١٠١ .

(٣) البيذق : أخبار المهدي بن تومرت ، ص ٢٨ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ج ٥ ، ص ٤٩ ـ ٥٠ .

(٤) البيذق : أخبار المهدي بن تومرت ، ص ٢٨ .

(٥) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٧٥ .

(٦) ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص ١١٢ .

وأراد ابن تومرت أن يبدأ معركته بالطعن في عقيدة المرابطين فرماهم بالتجسيم [١] وأوضح لأتباعه بأن غزوهم أوجب من غزو النصارى والمجوس ، وسمى أتباعه بالموحدين ، وهم المؤمنون حقاً لأنهم يوحدون الله وينزهونه عن كل تشبيه له بالخلق على خلاف أصحاب التشبيه والتجسيم [٢] .

ولما سمع أمير المسلمين بتحركات ابن تومرت أرسل إليه من يذكره بشرطه عليه عندما أخرجه من السجن وهو أن يخرج من بلاده . فرد ابن تومرت على الرسول بأنه مع الموتى وليس في بلد أمير المسلمين . وبعد أن تأكد أمير المسلمين من نوايا ابن تومرت قرر قتله ، ولكنه نجا بواسطة أحد تلاميذه الذي أخبره بالأمر قبل تنفيذه [٣] .

وتشير بعض الروايات ان وزير علي بن يوسف ينتان كان يتردد على ابن تومرت في المقبرة لما شعر أن أمير المسلمين مصر على طرده ، فكان يرجوه بأن يرحل ، ومما قال له : « يا فقيه سر حيث شئت وأمرك لله ولا تجعلنا نهلك بين يديك » [٤] .

لقد جاء موقف أمير المسلمين الحازم من ابن تومرت متأخراً ، بعد أن اشتد عوده ولم يعد بتلك اللقمة السائغة التي يمكن ابتلاعها بسهولة . فقد التف حوله ما يزيد على ألف وخمسمائة من المؤمنين بدعوته ، وأصبح اقصاؤه عن البلاد لقتل حركته اجراء لا يجدي [٥] .

---

(١) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٤٧١ ؛ ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص ١١١ - ١١٢ .

(٢) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٧٥ ، التجسيم : تشبيه الله بخلقه وهذا مخالف لمذهب السلف فقد قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه : « لا يوصف الله الا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله لا يتجاوز القرآن والحديث » .

انظر : محمد خليل هراس : شرح العقيد الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية ، ص ٢١ .

(٣) عبد الحميد العبادي : المرجع السابق ص ١٦٧ .

(٤) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٧٦ ؛ السلاوي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٨٤ .

(٥) البيذق : أخبار المهدي بن تومرت ، ص ٢٨ - ٢٩ ؛ ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص ١١٢ ؛ ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٧٥ .

وعندما أيقن ابن تومرت ان أمير المسلمين جاد في طلبه لقلته ، غادر مراكش الى أغمات [١] . ولكن مقامه فيها لم يطل لأن أهلها اتصلوا بأمير المسلمين مخبرين بوجوده بين ظهرانيهم [٢] ، عندها هرب الى جبل ايجليز [٣] من بلاد هرغة بين أهله وعشيرته [٤] .

وكان اختياره لهذا الموقع اختياراً موفقاً ،لوقوعه على مدخل مدينة مراكش فعن طريقه يتمكن من أن يلتقي بالداخلين والخارجين منها ، ليستطلع أخبارها ليعرف ما يعده أمير المسلمين من تجهيزات للإيقاع به ، هذا علاوة على وجوده في منعة وقوة بين قومه .

ويظهر ايضاً ان هذا الجبل كان مزاراً للجهلاء من البربر لوجود بعض الخلوات لعدد من الزهاد أمثال أبي العباس السبتي [٥] . ومن المرجح انه كان يستغل زيارة تلك الجموع لهؤلاء الزهاد لبث دعوته بينهم ، فكانوا لا يجدون بدأ أمام رجل مثل ابن تومرت من تصديق دعوته فالتفوا حوله بأعداد كبيرة ، مبالغين في تعظيمه الى حد انه لو أمر أحدهم بقتل أخيه او ابنه لما تردد [٦] .

ولما رأى ابن تومرت إقبال البربر على دعوته بدأ بتنظيم الجبل ، وقام ببناء رباط للعبادة لبث أفكاره بين الوافدين عليه ، وليكون منطلقاً لإرسال البعثات الى القبائل [٧] .

---

(١) تقع بالقرب من مراكش ، وتشتهر بوفرة مياهها وبساتينها ، وبها قبر المعتمد بن عباد انظر : ابن الخطيب : معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار ، ص ١٦٤ ، حاشية رقم ١٠٩ .

(٢) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ١٠١ ؛ ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٤٦٨ .

(٣) جبل عند مدخل مراكش ارتفاعه ٥٢٧م ، وقد سمي في الكتابات الموحدية باسم الجبلين أو جبل الجبلين وهو وعر صعب المسالك ، انظر : ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٦٨ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام : ق ٣ ، ص ٢٧٠ ، حاشية .

(٤) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ١٠٧ .

(٥) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٣ ، ص ٢٧٠ ، حاشية رقم ١ .

(٦) المراكشي : المصدر السابق ، ص ٢٥٩ .

(٧) المراكشي : المصدر السابق ، ص ٢٥٤ ؛ مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ١٠١ - ١٠٢ ؛ السلاوي : المصدر السابق : ج ٢ ، ص ٨٥ - ٨٦ ؛ ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٤٦٩ .

ويظهر أن انشغال أمير المسلمين في هذا الوقت بثورة قرطبة التي خرج لاخمادها عام ٥١٥هـ / ١١٢١م قد أتاح لابن تومرت فترة من الأمن والطمأنينة ، فذاع صيته وتسامعت به القبائل في الجبل وخارجه[١] .

وبعد عودة أمير المسلمين من الأندلس انزعج من أخبار ابن تومرت ، فاتصل بعامله على السوس أبي بكر بن محمد اللمتوني ليعمل على قتل ابن تومرت ، الا انه فشل في تحقيق هذا الهدف [٢] .

ولم تبهر ابن تومرت كثرة الواردين عليه والمؤيدين له ، بل استمر في استكمال جميع نقاط برنامج دعوته التي ترمي في نهاية الأمر الى إعلان مهديته ، والشروع في محاربة دولة المرابطين حتى إسقاطها . ولكن هذه الجموع المتدفقة عليه أعطته ضوءاً أخضر ليسير في الخطوة التالية وهي إعلان مهديته ، فأخذ يهيىء الناس لاستقبال هذا الحدث ، ويشوق من حوله بقرب ظهور المهدي المنتظر مستشهداً بالأحاديث المتعلقة بهذه المسألة ، ويقوم بشرحها وتحليلها للناس لترسخ في عقولهم وتكون محور اهتمامهم [٣] .

وأخذ ابن تومرت يبث دعاته المخلصين بين القبائل بعد ان أوصاهم باتباع أسلوب اللين والمداراة مع من سيدعونه[٤] ، لأن أسلوب العنف الذي كان مجدياً في الحواضر الكبرى أمثال : فاس ، ومراكش ، والمهدية ، لا يجدي عند القبائل ذات الأنفة وعزة النفس ، والتي لا تبالي بمقابلة العنف بالعنف ، فهم بحاجة لمداراة ورفق لكسبهم .

وهذه الخطوة إن دلت على شيء إنما تدل على دهاء ومقدرة ابن تومرت الذي كان خبيراً بطبائع الجماعات التي يبث بينها دعوته ، فكان يتخذ لكل فئة أسلوباً مناسباً لها ، لعلمه أن الأمزجة والعادات تختلف باختلاف البيئات ،

---

(١) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ١٠١ ـ ١٠٢ .

(٢) الزركشي : المصدر السابق ، ص ٥ ـ ٦ ؛ ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٤٦٩ .

(٣) حسن محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ١٧٧ ـ ١٧٨ ؛ عبد الله علام : المرجع السابق ، ص ٦٥ .

(٤) عبد الله علام : المرجع السابق ، ص ٦٤ ـ ٦٥ .

وهذا لا يفطن اليه إلا من أوتي حظاً وافراً من الفطنة والدهاء .

ونجح دعاة ابن تومرت في تشويق الكثير من أفراد القبائل للرحيل الى ابن تومرت عن طريق وصفهم لأخلاقه وسجاياه فكان يتلقفهم ابن تومرت ويضمهم الى صفوفه (١) .

ورسخ دعاة ابن تومرت في أذهان القبائل بأن الفساد والظلم والجور ، لا تزال الا بالمهدي لذا فالإيمان به واجب ، ومن يشك فيه فهو كافر ، وأن هذا الوقت وقته وأنه سيفتح المشرق والمغرب ، ويملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً (٢) .

ولما اقتنع ابن تومرت بأن جهوده قد أثمرت ، وأن نفوس أتباعه قد تشربت بفكرة المهدية ، قرر ان يعلن بأنه هو المهدي المنتظر . فبعد أن جمع أصحابه قام فيهم خطيباً موضحاً لهم أن جميع صفات المهدي متوفرة فيه (٣) ، فبادر اليه العشرة الملازمين له (٤) فبايعوه على الوقوف بجانبه في العسر واليسر ، وتتابع بعد ذلك عليه البربر مبايعين على نصرته وبذل مهجهم دونه ولما كملت بيعته لقبوه بالمهدي القائم بأمر الله ، وكان قبل ذلك يلقب بالإمام (٥) .

---

(١) ابن أبي زرع : المصدر السابق ص ١٧٦ - ١٧٧ ؛ المراكشي : المصدر السابق ، ص ٢٥٤ .

(٢) المراكشي : المصدر السابق ، ص ٢٥٤ ؛ حسن محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ١٧٧ - ١٧٨ .

(٣) عبد الله علام : المرجع السابق ، ص ٦٥ - ٦٦ .

(٤) وهم الونشريشي ، وعبد الله بن ملويات ، وأبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي ، وأبو حفص عمر بن علي أصناك ، وسليمان بن مخلوف ، وابراهيم بن اسماعيل الخزرجي ، وأبو محمد عبد الواحد الحضرمي ، وأبو عمران تماري ، وأبو يحيى بن يكيت ، والبينق ، انظر : محمد عبد الله عنان : عهد المرابطين والموحدين ، ص ١٧٤ وذكر المراكشي (المصدر السابق) ص ٤٢٠ - ٤٢٢ ، والزركشي (المصدر السابق ، ص ٦) وابن خلدون : (تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٤٦٩ - ٤٧٠) وابن الخطيب : (أعمال الأعلام ، ق ٣ ، ص ٢٦٧ - ٢٦٩) أسماء أخرى .

(٥) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٣٠ ؛ تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٤٧٠ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٥٧١ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٩١ ؛ مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ١٠٧ - ١٠٩ .

واختلفت المصادر في تحديد تاريخ ومكان هذه البيعة[1] . وقد يكون ذلك عائد الى أن ابن تومرت كان مطارداً من قبل السلطات المرابطية مما جعله يختفي في بعض الظروف في أماكن متعددة .

ويرجح ان البيعة تمت في جبل ايجليز [2] في عام ٥١٨هـ / ١١٢٤م ، وهو العام الذي انتقل فيه الى تينمل ، لأنه لا يعقل ان يعلن مهديته فور وصوله الى ايجليز بل الأمر كان يحتاج الى وقت ، وهذا ما حدث فعلاً إذ استمر يروج هو ودعاته لهذه الفكرة فلما تقبلها القوم أعلن مهديته .

وبنجاح ابن تومرت في لباس قناع المهدية يكون قد حقق خطوة عظيمة في سبيل نجاح دعوته . فمنذ أن فكر في الخروج على دولة المرابطين كان يصارح بعض المقربين بحقيقة نواياه ، وتسعفنا بعض المصادر ببعض الإشارات التي تؤكد انه منذ اللحظات الأولى كان يخطط ليتقنع بقناع المهدية . فتعبر لنا أصدق تعبير بعض أبيات كان قد قالها قبل خروجه بالمغرب عما كان يجول في نفسه ، وما كان يسعى ويخطط للوصول اليه حيث قال :

إني وفي النفس أشياء مخبأة ... لالبسن لها درعاً وجلبابا
كيما أطهر دين الله من دنس ... وأوجب الفضل للسادات ايجابا
تالله لو ظفرت كفي بمطلبها ... ما كنت عن ضرب أعناق الورى آبي [3]

وأخذ ابن تومرت بعد مبايعته بالمهدية ينظم جبهته الداخلية بعناية فائقة ، فقسم أتباعه الى طبقات حسب أسبقيتهم الى بيعته ، وسمي الأتباع بشكل عام بالموحدين تعريضاً بالمرابطين الذين عدلوا عن التأويل ومالوا للتجسيم [4] .

---

(١) البيذق : أخبار المهدي بن تومرت ، ص ٣٤ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٣ ، ص ٢٦٩ ؛ ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٧٦ ؛ الزركشي : المصدر السابق ، ص ٦ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ، ص ١٩١ ؛ ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٤٦٩ - ٤٧١ .

(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٦٨ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٥٧١ .

(٣) العماد الأصفهاني : المصدر السابق ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ١٩٥ .

(٤) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٣ ، ص ٢٦٩ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٥٧١ .

وبعد ان فرغ من تثبيت الركائز اللازمة لدولته المستقبلية رأى انه من غير المناسب بقاءه في جبل ايجليز لقربه من العاصمة المرابطية فانتقل الى تينمل [1] في قلب جبال الأطلسي الكبير عام ٥١٨/ ١١٢٤م واتخذه قاعدة لدولته الناشئة ، وقد بقي فيها حتى وفاته عام ٥٢٤هـ / ١١٢٩م [2] .

ومن مقره الجديد شدد من حملته الإعلامية على المرابطين واصفاً إياهم بأقذع الأوصاف . ولم يجد أمير المسلمين أفضل من الحسام لإخماد نار تلك الحملة ، فوجه اليه وزيره ينتان بن عمر على رأس جيش كبير للقضاء عليه [3] .

وتعيين ينتان قائداً لأول حملة توجه ضد ابن تومرت تحمل أكثر من معنى . فقد رأينا في الصفحات السابقة كيف وقف ينتان بجانب ابن تومرت وحال دون قتله او تخليده في السجن ، فلربما عندما يلتقيان تعمل خيوط المودة عملها فتضع الحرب أوزارها ، وتحقن دماء المسلمين ويعود ابن تومرت الى حظيرة دولة المرابطين . ويمكن الافتراض ان أمير المسلمين علي بن يوسف أراد من ذلك التأكد من ولاء ينتان إليه ، فالركون الى وزير يكن العطف والود الى عدو الدولة اللدود أمر خطير جداً له تأثير على سير الأحداث .

على أي حال التقى ينتان بجيشه مع ابن تومرت في منطقة يقال لها

= ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٤٧١ ، وعن طبقات الموحدين انظر : البيذق : المقتبس من كتاب الأنساب ، ص ٣٢ - ٣٥ ؛ المراكشي : المصدر السابق ، ص ٢٥٥ - ٢٥٦ ، ٤٢٢ ؛ مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ١٠٧ - ١٠٩ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٥٧٦ .

(١) جبل يمتاز بحصانته ، فالطريق اليه صعب وطويل ، وله قدرة على مقاومة الحصار الطويل لتوفر الثمار والزروع ، انظر ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٥٧٢ - ٥٧٣ ؛ ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٧٨ - ١٧٩ ؛ مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ١١٢ - ١١٣ .

(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٦٨ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٣ ، ص ٢٧٠ .

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، حاشية رقم ٢ ؛ محمد بن تومرت : المصدر السابق ، ص ٢٥٩ - ٢٦٦ - مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ١١١ ؛ ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٨٢ ؛ عبد الله علام : المرجع السابق ، ص ٧٢ - ٧٤ ؛ سعد عبد الحميد : المرجع السابق ، ص ٢٣ .

تاودارات [1] ولما انتظمت الجيوش فزع اتباع ابن تومرت لمرأى جيش ينتان فهدأ ابن تومرت روعهم ، وبشرهم بالنصر ، وما هي الا برهة من الوقت حتى انسحب ينتان بجيشه الى مراكش [2] .

ويظهر ان ينتان عندما رأى إصرار صديقه ابن تومرت على القتال ، وتنكره لأياديه البيضاء عليه آثر الانسحاب ـ ويبدو أنه أراد من هذه الخطوة اطلاع علي بن يوسف على الموقف ، أو أنه لم تكن لديه أوامر بالقتال ، أو أنه أقدم على هذا العمل اعتماداً على اجتهاد شخصي ، وهذا ليس غريباً عليه ، فقد كان صاحب آراء في بعض الأحيان لأمير المسلمين نفسه ، ولحاشيته . واستغل ابن تومرت هذه الفرصة ، وأخذ يروج بين أتباعه بأن عمل ينتان لم يكن انسحاباً وانما كان هروباً وهذه منّة منّها الله عليهم [3] .

وعندما رأى أمير المسلمين علي بن يوسف تعاظم خطر ابن تومرت أخذ يرسل الحملات تلو الحملات لاستئصال شأفته ولكن جميعها كان مصيره الفشل والهزيمة ، ومن هذه الحملات حملة أبي إسحاق ابراهيم الذي وجهه اليه على رأس جيش كبير ولكنه انهزم أمام ابن تومرت دون قتال وتعقبتهم القوات الموحدية وقتلت أعداداً كبيرة منهم وغنموا حملتهم . وقد اغتم أمير المسلمين لهزيمة جيشه ، وبادر بإرسال حملة أخرى بقيادة الأمير سير بن مزدلي اللمتوني الذي أضاف هو ايضاً هزيمة الى سجل الهزائم المرابطيةّ على يد الموحدين [4] .

والذي يستوقف الباحث هو كثرة هزائم المرابطين على يد الموحدين على الرغم من أن قادة جيوش المرابطين كانوا من أفضل قادة الدولة ، وفي الوقت الذي كانت فيه الجيوش المرابطية تصد أعتى وأقوى الجيوش

---

(1) مدينة بناها المرابطون بالجنوب وهي تنسب الى قبيلة كانت تسكنها تسمى تاودا ، انظر : عبد الله علام : المرجع السابق ، ص ٧٦ ، حاشية .

(2) البيذق : أخبار المهدي بن تومرت ، ص ٣٥ .

(3) عبد الله علام : المرجع السابق ، ص ٧٦ ـ ٧٧ .

(4) مؤلف مجهول المصدر السابق ، ص ١١٠ ؛ محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ١٧٩ .

النصرانية في الأندلس ، وتعيث بين الفينة والفينة في أحواز طليطلة وتتجاوزها في بعض الأحيان نحو الشمال والشرق والغرب .

يبدو أن هناك عدة عوامل أسهمت في صنع هذه الهزائم ، منها الاستراتيجية العسكرية التي اتبعها ابن تومرت في قتاله مع المرابطين ، وقد ساعدته وعورة أرضه على عدم مواجهة أعداد كبيرة من جيوش المرابطين دفعة واحدة . كما أن الجيوش المهاجمة عادة تحتاج الى وقت للتأقلم على ساحة المعركة الجذيدة ، بينما كان ابن تومرت واتباعه يقاتلون على أرض خبروها وعرفوا مسالكها ، وهذا عامل مهم من عوامل نصر الجيوش . والأهم من ذلك أن أتباع ابن تومرت كانوا يقاتلون بمعنويات عالية بعد ان بايعوا ابن تومرت على أنه المهدي في الوقت الذي كانت فيه معنويات الجند المرابطي منهارة ، فكانوا ينهزمون دون قتال لغلبة التردد عليهم وعدم وضوح الهدف . فالجندي المرابطي كان في حيرة فهو يقاتل مسلمين من أبناء جلدته ، وهو يسمع كل يوم بأن القبائل تتوافد على ابن تومرت وتبايعه ، بعدما شاعت الأخبار عما يتمتع به من علم وزهد وتقشف وانه هو المهدي . كل هذه الأمور كانت تجعل الجندي المرابطي مضطرب النفس متردداً في إقدامه على قتال ابن تومرت ولذلك كان يفضل الفرار على الصدام .

وازدادت ثقة ابن تومرت بنفسه بعد تحقيقه تلك الانتصارات ، فبادر بإرسال رسالة الى المرابطين يعرض عليهم الدخول في طاعته واما القتال مهدداً ومتوعداً من عدم الانقياد له ، ومما جاء فيها : « الى القوم الذين استزلهم الشيطان ، وغضب عليهم الرحمن ، الفئة الباغية ، والشرذمة الطاغية اللمتونية أما بعد : فقد أمرناكم بما نأمر به أنفسنا من تقوى الله العظيم ولزوم طاعته ، وأن الدنيا مخلوقة للفناء ، والجنة لمن اتقى ، والعذاب لمن عصى ، وقد وجبت لنا عليكم حقوق بوجوب السنة فان اديتموها كنتم في عافية والا فنستعين بالله على قتالكم حتى نمحو آثاركم ونهدم دياركم ، وحتى يرجع العامر خالياً والجديد بالياً ، وكتابنا هذا اليكم اعذار وانذار ، وقد أعذر من أنذر والسلام

عليكم سلام السنة لا سلام الرضى » [1] .

وتعتبر هذه الرسالة مؤشراً على انتقال ابن تومرت من دور الدفاع الى دور الهجوم ، وقد ارتكزت استراتيجيته في هذه المرحلة على استنزاف قوى الدولة المرابطية باستخدام أسلوب حرب العصابات وتجنب الدخول معها في معارك فاصلة . فأخذت جيوش ابن تومرت تروح وتغدو على محلات المرابطين القريبة من مقره مكبدة إياها خسائر فادحة ، وبلغت الجرأة بها أنها أخذت تراوح مراكش مقر حكم المرابطين [2] .

وقبل ان يعطي ابن تومرت الأمر لجيوشه بالانقضاض على المرابطين للاستيلاء على عاصمتهم مراكش أراد ان يطهر صفوفه من بعض الأشخاص الذين يشك في ولائهم له . فأوعز في عام ٥١٩هـ / ١١٢٥م لصديقه الحميم الونشريشي ـ الذي كان يظهر البلاهة بينما هو عالم من مشاهير العلماء ، ان يظهر ما لديه من علم دفعة واحدة ليكون ذلك بمثابة المعجزة لابن تومرت .

وكان الونشريشي باتفاق مع ابن تومرت قد حفظ أسماء من شعر أنهم يشكون في مهدية ابن تومرت ، وكان أيضاً ابن تومرت قد طلب من القبائل تزويده بأسماء المشاغبين عندهم فدفعها الى الونشريشي فحفظها .

---

(١) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ١١١ .

(٢) يذكر البيذق تسع غزوات لابن تومرت : الأولى المسماة تاودارات والتي انسحب فيها ينتان . والثانية كانت جيوش المرابطين بقيادة سليمان بن يكلد وابن أبي فراس وعبد الرحمن قاضي السوس ويانسو وفيها دارت الدائرة على المرابطين . والثالثة دارة في موقع يقال له تالات آن ميزك وفيها هزم المرابطون أيضاً ، والرابعة كان المرابطون بقيادة يانو ، وآكدي بن موسى ، وكان الموحدون بقيادة عبد المؤمن وانتصر فيها الموحدون . والخامسة كان قائد الموحدين فيها المهدي نفسه ، وكان المرابطون بقيادة عمر بن ديان ، وجرح المهدي فيها ، ولكن الدائرة في النهاية دارت على المرابطين وكان المرابطون بقيادة أبي بكر بن علي . ثم حدثت موقعة عسكورة ، وأخرى في تزاكورت وانتصر فيها الموحدون ، واستطاعوا في عام ٥١٧ هـ الاستيلاء على قلعة تاسغيموت والتي حملت أبوابها الى تينمل ، عن هذه الغزوات انظر : البيذق : أخبار المهدي بن تومرت ، ص ٣٥ ـ ٣٩ ، ٩١ ـ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٣ ، ص ٢٧٠ ـ ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٧٧ ـ ١٧٩ ؛ ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص ١٣ ؛ عبد الله علام : المرجع السابق ، ص ٧٨ .

وبعد صلاة الفجر تقدم الونشريشي (البشير) وأعلن أنه جاءه البارحة ملكان وشقا قلبه وغسلاه وحشواه علماً وحكمة ، فاختبره القوم فعجبوا من شدة حفظه ثم شهد لابن تومرت بالمهدية . ثم قال اعرض عليّ أصحابك حتى أميز أهل الجنة من أهل النار ، وقد انزل الله تعالى ملائكته الى البئر التي في المكان الفلاني يشهدون بصدقي . وكان المهدي قد وضع فيها رجالاً لهذا الغرض فسار المهدي وأتباعه الى ذلك البئر، وبعد ان صلى على رأسها قال: «يا ملائكة الله ان عبد الله الونشريشي قد زعم كيت وكيت»فقال من فيها: صدق ، فصدقه الناس ، ثم أمر بطمر البئر بحجة انها مقدسة . وواضح ان طمره للبئر كان بسبب خوفه من أن يفضحوا أمره مما سيكون له اسوأ الأثر على دعوته وكشف زيفها .

ونادى ابن تومرت في أهل الجبل للحضور للتمييز ، وأخذ الونشريشي يعمد الى الرجال الذين يخاف من ناحيتهم ويضعهم على يساره فيقول هؤلاء من أهل النار ويضع الى يمينه الغمر [1] ، فيقول هذا من أهل الجنة . ثم أمر القبائل بقتل الأفراد الذين قيل أنهم من أهل النار وكان عددهم حسب بعض الروايات سبعين ألفاً ، فلما فرغ من ذلك أمن ابن تومرت على نفسه وأصحابه واستقام أمره [2] .

وعلم ابن تومرت ان الباقين من أهل وأقارب المقتولين لا تطيب قلوبهم بذلك ، فجمعهم وبشرهم بانتقال مراكش اليهم واغتنام أموال المرابطين ، فسرهم ذلك وسلاهم عن أهلهم [3] ، ثم ندبهم لقتال المرابطين قائلاً : « أقصدوا هؤلاء المارقين المبذلين الذين تسموا المرابطين فادعوهم الى إماتة

---

(1) الغمر : هو غير المجرب ، انظر : الزمخشري : أساس البلاغة ، ص ٦٨٦ مادة (غمر) ؛ الأزهري : تهذيب اللغة ، ج ٨ ، ص ١٢٩ .

(2) عن التمييز انظر : ابن عذارى ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٦٩ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٥٧٤ - ٥٧٦ ؛ السلاوي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٨٨ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ج ٥ ، ص ٥٢ - ٥٣ ؛ البيذق : أخبار المهدي بن تومرت ، ص ٣٩ ؛ محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ٨٣ ؛ عبد الله علام : المرجع السابق ، ص ٨٠ .

(3) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٥٣ .

المنكر وإحياء المعروف وازالة البدع ، والإقرار بالإمام المهدي المعصوم فان أجابوكم فهم اخوانكم لهم مالكم وعليهم ما عليكم وان لم يفعلوا فقاتلوهم فقد أباحت السنة قتالهم »[1] .

وبدأ ابن تومرت يرسل جيوشه وطلائعه لمهاجمة معاقل المرابطين فوصلت عام ٥٢٠هـ / ١١٢٦م الى أسوار مراكش[2] ، ويظهر انه منذ هذا التاريخ تحول موقف المرابطين من الهجوم الى الدفاع . فيذكر ابن عذارى[3] أنه في هذه السنة أمر أمير المسلمين علي بن يوسف ببناء المراصد بقرب مراكش ، وأن تسد الطرق التي ينزل منها أتباع المهدي الى الأوطية .

وذكر لنا البيذق[4] اسماء عدد كبير من الحصون ، وكأن لسان حاله يقول انه على الرغم من هذه التحصينات فقد انتصرنا عليهم .

وبعد سلسلة من الحملات الناجحة التي قام بها ابن تومرت على معاقل المرابطين أراد ان يحسم الأمر بإسقاط عاصمة المرابطين مراكش . وتضطرب الروايات حول تحديد تاريخ هذا الزحف ، وسبب ذلك يعود الى أن المعركة الفاصلة بين الطرفين جاءت بعد سلسلة معارك دامية . فالوصول الى أسوار مراكش لم يتم بسهولة بل كلف الموحدين اختراق كل الخطوط الدفاعية التي أقامها المرابطون وحصنوها بالقلاع . على أي حال صمم ابن تومرت على القضاء على المرابطين بإسقاط عاصمتهم مراكش ، فأخذ يستدعي القبائل الى تينملل ليحشدهم ويوجههم الى ذلك الهدف المنشود .

وأخذت القبائل تتوافد على ابن تومرت وهي في غاية الاستعداد ، وتجمع منهم نحو أربعين ألفاً منهم الفرسان والغالب منهم رجّالة ، وقدم عليهم

---

(١) المراكشي : المصدر السابق ، ص ٢٥٩ - ٢٦١ .
(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٧٥ .
(٣) البيان المغرب ، ج ٤ ، ص ٧٥ .
(٤) اخبار المهدي بن تومرت ، ص ٩١ - ٩٣ .

الونشريشي ووجههم نحو مراكش [١] ، فبدأوا بالزحف نحوها عام ٥٢١هـ / ١١٢٧م [٢] . وقبل وصولهم الى أسوار مراكش خاضوا معارك عديدة مع المرابطين كانت جميعها لصالحهم [٣] .

وضرب الموحدون الحصار حول مدينة مراكش مدة أربعين يوماً على أرجح الروايات [٤] . وطوال فترة الحصار كانت تدور رحى معارك ضارية بين المرابطين المدافعين عن عاصمتهم والموحدين الذين كانوا يتمتعون بروح معنوية عالية لكثرة انتصاراتهم على المرابطين [٥] .

ومن المعارك الحاسمة التي دارت خلال فترة الحصار الموقعة التي خرج فيها أمير المسلمين علي بن يوسف لفك الحصار عن عاصمته ولكنه لم يوفق وتشتت شمل جيشه ، وفرت مجموعة من جنده عندما لم تسعها أبواب مراكش لشدة مطاردة الموحدين لها حتى وصلوا وادي أم الربيع ، ولما عادوا عاقبهم أمير المسلمين بحلق لحاهم ومثل بهم حتى يكونوا عبرة لبقية جنده [٦] .

أنه لمن الخزي والعار أن يبقى أمير المسلمين مع جنده محصورين داخل أسوار مراكش ، وهذا ما كان يحز في نفس القائد عبد الله بن همشك الذي كان مع أصحابه الأندلسيين المئة محصوراً داخل المدينة ، فخاطب أمير المسلمين علي قائلاً : « ما نعير الا بالمقام تحت الحصار » . فأوضح اليه أمير المسلمين ان قتال المصامدة ليس مثل قتال النصارى ، فأكد اليه ابن همشك

---

(١) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ١١٤ .

(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٧٥ ، يذكر المراكشي (المعجب ، ص ٢٥٩) أن بداية الزحف كان عام ٥١٧هـ ولكن هذا مجانب للصواب لأنه بدأ بعد عام التمييز ٥١٩هـ .

(٣) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ١١٤ ؛ ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٤٧١ ؛ ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٨٣ ـ ٨٤ ؛ البيذق : أخبار المهدي بن تومرت ، ص ٤٤ ؛ الزركشي : المصدر السابق ، ص ٦ ـ ٧ ؛ محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ١٨٥ ـ ١٨٦ .

(٤) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٧٦ ؛ مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ١١٤ .

(٥) مؤلف مجهول : ص ١١٤ ـ ١١٥ .

(٦) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٧٥ ـ ٧٦ .

بأنه يعرفهم لوجود نخبة منهم في الأندلس ، وبيّن لأمير المسلمين أنه ما زال يملك العدد الكافي من الجند وخاصة الرماة ، وان البقاء على هذا الحال لا يكون الا مع قلة العدد ، ثم عرض رغبته عليه بأن يعطيه ثلاثمائة فارس ليخرج بهم فسمح له . وقبل خوضه للمعركة أراد ان يعدل أسلحة جنده لتتلائم مع طبيعة المعركة المقبلة ، فرأى ان يقصروا رماحهم ، ثم برز للموحدين فما انتصف النهار حتى دخل بثلاثمائة رأس منْ رؤوس المصامدة فارتفعت معنويات الجند وصمموا على تخليص مدينتهم من الحصار (١) .

وطير أمير المسلمين علي بن يوسف رسائله الى سائر ولاته وقواده طالباً المدد والعون ، فجاءت اليه النجدات من كل صوب ، وكان أعظمها القادم من سجلماسة بقيادة واليها وانودين بن سير . وخرج علي بن يوسف من المدينة وانضمت إليه النجدات ، وقدم أبو محمد بن سير قائداً عاماً للقوات المرابطية ، وقيل قدم الزبير بن علي بن يوسف (٢) .

وقبل بدء القتال دارت أحاديث بين الطرفين الغرض الأساسي منها تحطيم نفسية الخصم قبل مقارعته بالسنان . فبادر الموحدون بإرسال رسالة الى المرابطين يطلبون منهم الاعتراف بمهدية ابن تومرت والانصياع إليه ، فرد أمير المسلمين عليهم محذراً إياهم من عاقبة مفارقة الجماعة ، وهكذا لم يستجب أي طرف للآخر .

وأخذ الونشريشي القائد العام للقوات الموحدية وعبد المؤمن امام الصلاة لهم ينظمان القوات الموحدية لخوض المعركة الفاصلة . وما هي الا مدة وجيزة حتى اشتبك الطرفان في معركة مروعة استمرت من الصباح حتى الغروب قتل فيها في بداية النهار الونشريشي ، فخلفه عبد المؤمن في قيادة الجيش . ولما رأى المصامدة كثرة المرابطين وقوتهم اسندوا ظهورهم الى

(١) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ١١٤ ـ ١١٥ .

(٢) المراكشي : المصدر السابق ، ص ٢٥٩ ـ ٢٦١ ؛ محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين : ص ١٨٨ .

بستان هناك ، والبستان عندهم يسمى البحيرة[1] ، وما ان جن الليل حتى قتل معظم المصامدة ففر عبد المؤمن بنفر يسير لا يتجاوز الاربعمائة ما بين فارس وراجل . وبعد انتهاء المعركة بحث الموحدون عن جثة الونشريشي بين جثث القتلى فلم يعثروا عليها لأن عبد المؤمن كان قد واراها فوراً فأشاعوا فيما بينهم أنه رفع الى السماء[2] .

وتابع عبد المؤمن مع من نجا من القتل سيره نحو تينملل . وعندما وصل الى هيلانة[3] استعاد أنفاسه وحشد حشوده وأعاد الكرة على مراكش فهزم ايضاً وقتل من أتباعه نحواً من اثني عشر ألفاً فعاد أدراجه مع خمسين رجلاً من أتباعه الى تينملل[4] . وكان البيذق قد سبق عبد المؤمن الى ابن تومرت وأخبره بخبر الفاجعة التي حلت بهم في البحيرة ، فسأله ابن تومرت عن عبد المؤمن فقال هو حي ، فرد معزياً الأمر باق ، وأوصاهم بعدم الجزع[5] .

واستثمر المرابطون فوزهم في البحيرة وأسرعوا بإرسال أربعة جيوش

---

(١) ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص ١١٣ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٥٧٦ ـ ٥٧٧ ؛ ويذكر ابن كثير (البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ١٨٧ ، ان قائد الموحدين عبد الله التومرتي .

(٢) عن وقعة البحيرة ، انظر : ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٧٥ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام : ق ٣ ، ص ٢٦٨ حاشية رقم ٥ ؛ البيذق : أخبار المهدي بن تومرت ، ص ٣٠ ؛ الذهبي : تاريخ دول الإسلام ، ورقة ١٤٤ أ ؛ مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ١١٦ ؛ الزركشي : المصدر السابق ، ص ٦ ـ ٧ ؛ ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٤٧١ ـ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٥٣ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق : ج ١٠ ، ص ٥٧٦ ـ ٥٧٧ ـ وقد اختلف في تاريخ هذه الموقعة فيذكر ابن أبي زرع : (المصدر السابق ، ص ١٧٩) انها حدثت في رجب عام ٥٢٤هـ / يونيو ـ يوليو ١١٣٠م . وهناك من يحددها بيوم السبت ٢ جمادى الأولى عام ٥٢٤هـ / ١١ ابريل ١١٣٠م . انظر : الزركشي : المصدر السابق ، ص ٦ ـ ٧ ؛ البيذق : أخبار المهدي بن تومرت ص ٣٩ ـ ٤٠ ـ ولم يصرح ابن أبي زرع وابن أبي دينار بنتيجة هذه الموقعة واكتفوا بالقول : « ورجعوا الى تينملل فخرج المهدي الى لقائهم » .

(٣) اسم قبيلة بربرية كانت تسكن بالقرب من مراكش وقد بنيت مراكش على الحدود بينهما وبين قبيلة هزمرة ، انظر : البيذق : أخبار المهدي بن تومرت ، ص ٧٠ ، حاشية رقم ١٥٤ .

(٤) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٧٦ .

(٥) البيذق : أخبار المهدي بن تومرت ، ص ٣٩ ـ ٤١ ـ مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ١١٦ .

بقيادة أربعة من مشاهير قوادهم وهم : سير بن واربيل ، ومسعود بن ورتيغ ، ويحيى بن سير ، ويحيى بن كانجان الى تينملل للقضاء على الموحدين في معقلهم الحصين . وتقابل الطرفان بموقع يقال له ايكر متاع بني كوربيت ، إلا انه لم يحدث قتال بينهما . ويعلل البيذق [1] ذلك بأن المرابطين قد خلت في قلوبهم الرهبة من جموع الموحدين التي تدفقت عليهم النجدات من هنتانة وكنفيسة ومزالة فرجعوا الى مراكش .

وعلى الرغم من ذلك فقد ترددت أصداء هزيمة البحيرة بين قبائل الموحدين فزلزت ثقتهم بابن تومرت ، فالمهدي مؤيد من السماء فكيف يهزم من كان حليفه الله . . . وترتب على هذا التساؤل إعادة النظر في عقيدة المهدي وعلى الرغم من كل الجهود التي بذلها ابن تومرت لاقناعهم بأن قتلاهم في الجنة [2] ، فقد بقيت رواسب الشك في مهديته تساور نفوسهم . عندها لجأ ابن تومرت الى أسلوب المكر والخداع حتى يعيد الثقة بدعوته وقيادته ومهديته . فاتفق مع مجموعة من أتباعه على أن يدفنهم أحياء وجعل لكل واحد منهم متنفساً في قبره وأوصاهم بأن يقولوا إذا سئلوا «قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً من مضاعفات الثواب على جهاد لمتونة وعلو الدرجات التي نلنا بالشهادة فجدوا في قتال عدوكم فان ما دعاكم إليه الإمام المهدي صاحبكم حق» ، ووعدهم اذا نفذوا ذلك بأن يخرجهم ويجعل لهم منزلة رفيعة . ولما ذهب أكثر الليل اجتمع بأشياخ الموحدين وأوضح لهم بأنهم حزب الله وأنصار دينه وطالبهم بالجد في قتال أعدائهم ، وطلب منهم ان كانوا في شك مما يقول ان يذهبوا سوياً الى قبور قتلاهم في معاركهم مع المرابطين ليحدثوهم بما لقوا من خير ونعيم ، وذهب معهم الى مكان إحدى المعارك التي نشبت مع المرابطين وسقط فيها عدد كبير من الموحدين ، والتي يوجد فيها ذلك النفر الذين دفنهم أحياء ولقنهم ما يقولون . ولما وصل رفع صوته في المقبرة قائلاً : يا معشر الشهداء خبرونا ما لقيتم من الله عز وجل . فقالوا : وجدنا ما لا عين

(1) أخبار المهدي بن تومرت ، ص ٣٩ ـ ٤١ .

(2) المراكشي : المصدر السابق ، ص ٢٥٩ ـ ٢٦١ .

رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر ، إضافة الى ما لقنهم إياه ابن تومرت ، عندها ذهل الناس وعادت ثقتهم بالمهدي ، وبدلاً من أن يخرج المدفونين قام بإغلاق المنافس التي كان قد تركها لهم فماتوا من فورهم ، لأنه خشي ان يخرجوا فيذيعون سره فيفتضح أمره فتكون كارثة عليه (١) .

ورأى ابن تومرت في قرارة نفسه ان الهزائم التي منيت بها قواته ما هي الا نذير شؤم للاطاحة بكل مخططاته التي سخر حياته من أجلها ليقيم دولته المنشودة ، فتفاعلت هذه الأحداث في نفسه لتورثه المرض الذي أودى بحياته بعد فترة وجيزة . . .

وتكاد تجمع معظم المصادر على ان وفاته كانت عام ٥٢٤هـ / ١١٣٠م (٢) . وتذكر المصادر الموحدية انه لما شعر بدنو أجله استدعى أصحابه المسمين بالجماعة ، وأهل الخمسين ، فلما حضروا أخذ يعظهم واعداً إياهم بالنصر على المرابطين ، ومحذراً إياهم من الفرقة والتناحر ، وأمر عليهم عبد المؤمن ، وطلب منهم السمع والطاعة له ما دام مطيعاً لربه (٣) .

بهذه المواعظ ودع ابن تومرت أصحابه معلماً إياهم بأنه راحل الى ربه في هذه السنة . ولما اشتد عليه مرضه قدم عبد المؤمن بن علي للصلاة (٤) وأمره بإخفاء وفاته حتى تجتمع كلمة الموحدين على أمير ، وان يتكفل بغسله ودفنه بجامع تينملل (٥) .

---

(١) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٨٢ ؛ محمد بن تومرت : المصدر السابق ، ص ٥١ ؛ ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٣٨٨ ؛ الذهبي: تاريخ دول الإسلام ج ٤ ص ٤ ، ورقة ١٤٤أ .

(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٨٤ ؛ مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ١١٧ ؛ السلاوي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٩٧ ؛ ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٣٨٨ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٥٣ .

(٣) المراكشي : المصدر السابق ، ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .

(٤) ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص ١١٣ ؛ ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٧٩ ؛ مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ١١٧ .

(٥) ابن الخطيب : أعمال الإعلام ، ق ٣ ، ص ٢٧٠ ؛ ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٨٠ .

وعندما توفي ابن تومرت كفنه عبد المؤمن بن علي وصلى عليه ، ودفنه سراً بمسجده كما أوصاه ، وقد كتم أصحابه وفاته مدة ثلاثة أعوام ولم يعلنوها الا في عام ٥٢٧هـ / ١١٣٢م بعد أن اتفقت كلمتهم على عبد المؤمن بن علي [١] .

وهكذا انتهت حياة ابن تومرت ومصير دعوته مجهول بسبب ما حاق بأتباعه من هزيمة نكراء في موقعة البحيرة ، ولكنه قد نجح في ترسيخ دعوته في قلوب أتباعه حتى صدقوه وآمنوا بمهديته ، وأطاعوه ولو في قتل ابنائهم ، وهذا ما حصل فعلاً في عملية التمييز التي تقشعر لهولها الأبدان حيث قتلت كل قبيلة بعض فلذات أكبادها دون تردد أو حيرة .

لقد كان ابن تومرت شخصية فريدة في التاريخ لما امتاز به من صفات المكر والدهاء واستغلاله كل الفرص ، واستخدامه كل الأساليب من أجل تحقيق حلمه بإقامة دولة يكون هو زعيماً ومرشداً روحياً لها ، وليدفع بقبيلته مصمودة الى مركز الصدارة بعد ان سلبتها لمتونة ذلك الشرف .

واجتمعت في شخصية ابن تومرت صفات قلما تجتمع في شخصية قيادية في ذلك الوقت . فقد كان على قسط وافر من العلم ، وقد ساعده ذلك على الاستفادة من كل الأفكار المطروحة في العالم الإسلامي لينتقي منها ما يلائم دعوته الجديدة ويساعد على تقوية مركزه بين أتباعه . كما مكنه تكوينه العلمي من أن يرد على أي انتقاد أو اتهام يوجه ضده من قبل الخصوم ، يساعده في ذلك فصاحة لسان وسطوع حجة وسحر بيان يأخذ بالألباب . وبذلك جمع القلوب حوله وأملى عليها ما يريد من فكر فانقادت له مبهورة بأسلوبه وسعة علمه .

ومن حسن الموافقات التي حظي بها ابن تومرت أنه ألفى مجتمعاً ساذجاً

---

(١) البيذق : اخبار المهدي بن تومرت ، ص ٤٣ ؛ الزركشي : المصدر السابق ص ٧ ؛ مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ١١٧ ؛ عبد الله علام : المرجع السابق ، ص ١٠٠ ـ ١٠٥ ؛ السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ج ٢ ، ص ٧٨١ .

جاهلاً عشعشت في ذهنه الأساطير والخرافات حتى عاد غريباً عن منهل الإسلام الصافي ، فعلى الرغم من الجهود الكبيرة للمرابطين لإفهام هؤلاء أمور دينهم فقد بقي قطاع كبير منهم متمسكاً بعلائق الجاهلية مما أوقعه فريسة سهلة لمخططات ابن تومرت فأملى عليهم تعاليمه البعيدة كل البعد عن عقيدة السلف الصالح فتقبلوها دون نقد او تمحيص، وقدموا أرواحهم دفاعاً عنها بعد ان أوهمهم أنه المهدي المنتظر الذي يملأ الأرض عدلاً بعدما ملئت جوراً.

ومن افتراءات ابن تومرت انه ادعى أنه مامور بنوع من الوحي والإلهام [١] ، وان من لا يؤمن بمهديته فهو كافر وألف لهم عقيدة أوجب حفظها على أتباعه [٢] ، وأحدث في آذان الصبح « أصبح ولله الحمد » ، وتطاول وادعى أنه يعلم الغيب [٣] .

ان دعوة تقوم على الخداع والزيف وتذكيها العصبية القبلية لا يمكن ان تستمر فترة طويلة دون اكتشاف حقيقتها . لقد وصفه بحق لفيف من المؤرخين بأنه منتحل ومبتدع ، وانبرى له شيخ الإسلام ابن تيمية يهدم عقيدته ودعوته الفاسدة فألف كتاباً خاصاً في الرد على كتابه المرشدة [٤] .

وأكبر دليل على فساد عقيدته وزيف مهديته انه ما كاد يمضي على وفاته قرن من الزمان حتى خرج أحد خلفائه الملقب بالمأمون [٥] على الملأ معلناً

---

(١) السلاوي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٩٥ .

(٢) من أشهر المؤلفات التي وضعها لاتباعه : المرشدة ، والموطأ ؛ والقواعد ، وأعز ما يطلب ، وغيرها ، انظر : محمد بن تومرت : المصدر السابق ، ص ٢٤٥ ؛ ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٤٦٦ ؛ مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ١١٧ - ١١٨ .

(٣) الزركشي : المصدر السابق ، ص ٧ ؛ ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٤٧١ - ٤٧٢ ؛ محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ٢١٦ ، وعن عقيدته انظر : أبو شامة : مجموعة الرسائل ، ص ٤٥ - ٦٢ .

(٤) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٣٨٧ - ٤٧١ - ٤٧٢ ؛ محمد المنتصر الكتاني : الغزالي والمغرب ، ص ٧١٤ ؛ ابن تيمية : مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، ج ١١ ، ص ٤٩٢ .

(٥) هو ابو العلاء أدريس بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي (ت ٦٣٠هـ) انظر : ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص ١٢٦ ، حاشية رقم ١ ، ص ١٢٧ .

في مدينة مراكش من فوق منبر مسجدها بطلان عقيدة المهدي بن تومرت لارتكازها على الزيف والخداع ، كما أسقط اسمه من السكة ومن الخطبة ، وقال لا ندعوه بالمهدي ، وكتب بذلك الى الآفاق [1] ، وبناء على هذا الاعلان حذف اسم « المهدي » من السكة الموحدية واستعيض عنه بـ (القرآن حجة الله) في المركز ، وفي الهامش نقش اسم خليفة الموحدين المأمون [2] .

لقد أوحى ابن تومرت للعامة السذج بأن حركته حركة اصلاحية جاءت في وقت بدأت فيه الدولة المرابطية تنحرف عن قواعد الشريعة الاسلامية ، فتزعم حركة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ثم تدرج في دعوته حتى وصل في نهاية الأمر الى ادعاء المهدية والى رمي المرابطين بالكفر ، وان قتالهم أولى من قتال اليهود والنصارى والمجوس .

وبدأ ابن تومرت يعمل على هدم أركان دولة المرابطين ، تلك الدولة التي قامت على تعاليم الإسلام النقيه ، واتخذت من جهاد النصارى في الأندلس هدفاً أسمى لوجودها ، فما أفزعهم من مقر حكمهم في مراكش الى الأندلس سوى الغيرة على الإسلام عندما أخذت معاقل المسلمين تتهاوى تحت مطارق الفونسو السادس وبذلك أخروا سقوط الأندلس بيد النصارى عدة قرون .

ولكن ما أن بدأت ثورة المهدي بن تومرت حتى أخذت تشغلهم بعض الشيء عن واجبهم المقدس في الأندلس ، فأخذ أمير المسلمين يستصرخ قواده العظام من الأندلس أمثال تاشفين بن علي لمقارعة الموحدين ، وأدى ذلك الى ازدياد ضغط النصارى على المسلمين في الأندلس ، وبدأوا يلتهمون المدن الأندلسية الواحدة بعد الأخرى في هذا الوقت استطاع ابن تومرت

---

(١) ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص ٢١٦ - ٢١٧ .

(٢) عبد النبي : مسكوكات المرابطين والموحدين في شمال افريقيا والأندلس ، ص ١٩١ دينار رقم ٦٩٠ (رسالة ماجستير مقدمة لقسم الحضارة في جامعة الملك عبد العزيز - مكة المكرمة - لم تطبع) .

بواسطة المؤمنين بمهديته ان يطيحوا بدولة المرابطين ، فأثلج ذلك قلوب النصارى الذين أدركوا ان الخلاص من الوجود الإسلامي في الأندلس أضحى وشيكاً .

الحرب بين المرابطين والموحدين
(٥٢٤ - ٥٣٧هـ / ١١٢٩ - ١١٤٢م)

كما رأينا في الصفحات السابقة توفي ابن تومرت وشبح الانحلال والاندثار يهدد كل مبادئه التي أمضى حياته من أجل بلورتها ضمن جماعته . فهزيمة البحيرة كانت بمثابة الاختبار العسير لتلك الدعوة ، فكل بيت كان فيه بكاء وعويل ، ومن نجا منها راعه هول المصيبة ، وأخذت تساوره شكوك وشكوك في عقيدة المهدي .

في هذه الظروف الحالكة المنذرة بالفتنة تولى عبد المؤمن بن علي قيادة الموحدين فلم يخيب فراسة استاذه ابن تومرت فيه . فقد استطاع عبد المؤمن بن علي امتصاص نقمة القبائل وتطهير أذهانها من تلك الشكوك التي تسربت اليها حول صحة عقيدة المهدي مسخراً كل مواهبه ولباقته وقوة شخصيته ، وحسن تصرفه ، في إعادة الصفاء العقدي ، والوحدة التي طالما تمتعوا بها في حياة ابن تومرت . كما استطاع خلال فترة وجيزة ان يعيد تنظيم جيشه استعداداً لمواصلة محاربة المرابطين . ولكنه رأى ان المواجهة المفتوحة مع المرابطين لا تجدي لعدم تكافؤ الطرفين من ناحية العدة والعدد ، اذ ان الموحدين ما زالوا يضمدون جراحات البحيرة ومن ثم رأى ان يقتصر في تلك المرحلة على الغارات السريعة الخاطفة على معاقل المرابطين بهدف استنزاف طاقاتهم قبل خوضه معركة حاسمة معهم .

وبدأ عبد المؤمن بن علي حربه الاستنزافية ضد المرابطين بغزو احدى المحلات الحصينة الواقعة في شرق وادي درعة والمسماة (تادلا) ففتحها

وغنم وسبى ما فيها في ربيع أول من عام ٥٢٦هـ / يناير ١١٣٢م على الرغم من دفاع قائدها يدّر بن ولجوط [١] .

وهناك من يذكر انه قصد أول ما قصد مدينة مراكش فلما عجز عن دخولها توجه الى تادلا [٢] ، وبعدها توجه الى درعة فاستولى عليها وعلى أحوازها [٣] ، ثم غزا عدة مناطق من بينها بلاد فازار وبلاد غياثة [٤] ، وفي هذا العام (٥٢٦هـ) نجح أيضاً في فتح حصن تاسفيموت وقتل قائده أبا بكر بن وارصول ومن معه من المرابطين ، كما فتح حصن جلاده ، وحصن هـزرجة ، وحصوناً متعددة أخرى [٥] .

وفي نفس العام أيضاً حدث حادث خطير يحمل في طياته مغزى عظيماً ومبشراً بقرب أفول المرابطين ، فقد انضم القائد المرابطي المشهور الفلاكي [٦] ومعه طائفة من جنده الى الموحدين ، وكان الفلاكي يقوم بحراسة مخارج جبل درن التي كان يهبط منها الموحدون الى السهل ليعوق سبيلهم ، كما وجه الى السوس لمكافحة الموحدين فجد في قتالهم ، ولما فسد ما بينه وبين أمير المسلمين علي بن يوسف انضم الى الموحدين ، وأخذ يغير على معاقل المرابطين واستمر على ذلك عدة أعوام ثم تخلى عن طاعة الموحدين [٧] .

---

(١) ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص ١١٤ ؛ ابن ابي زرع : المصدر السابق ، ص ١٨٦ ؛ محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ص ٢٢٥ .

(٢) عبد الله علام : المرجع السابق ، ص ١٠٨ ، ويذكر الذهبي (تاريخ دول الإسلام ، ج ٤ ، ورقة ١٤٦) ان فتح تادلا كان عام ٥٢٨هـ .

(٣) مدينة تقع في جهة سجلماسة انظر : الحميري ، المصدر السابق ، ص ٢٣٦ .

(٤) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١١٤ ، ١٨٦ .

(٥) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ٢٢٦ .

(٦) وهو من أهل إشبيلية ، كان في بداية أمره قاطع طريق ثم تاب فعفا عنه والي إشبيلية وقدمه على الرماة والرجالة وطار خبره الى علي بن يوسف فاستقدمه الى مراكش وقدمه على فرقة من الجند المرابطي ، انظر : محمد عبد الله عنان : المرجع السابق ، ص ٢٢٧ .

(٧) المرجع السابق نفسه ، ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ .

وحقق الموحدون في عام ٥٢٨هـ / ١١٣٣م عدة انتصارات على المرابطين ، وفي إحداها استطاع (عمر أصناك) قائد الموحدين ان يقتل القائد المرابطي المشهور ابن عائشة (١) في موضع يقال له تيزي ن الانيات (٢) .

ويبدو انه في هذه السنة ازداد ضغط الموحدين على المرابطين مما حدا بأمير المسلمين علي بن يوسف الى استدعاء ولده تاشفين من الأندلس ليقدمه على جيوشه ليتولى مقارعة عبد المؤمن بن علي (٣) .

وحدثت بين الطرفين عدة معارك غير حاسمة فيما بين عامي ٥٢٨ و ٥٣١هـ / ١١٣٣ و ١١٣٦م . وفي عام ٥٣١هـ / ١١٣٦م توجه عبد المؤمن بن علي نحو أراضي (كدميومية) جنوب غرب تينمل فاعترضه قائد الجيش المرابطي الربرتير (Reverter) (٤) ولم يسفر اللقاء عن نتيجة لصالح أي طرف (٥) .

ووقعت عدة صدامات دامية بين الطرفين عندما توجه عبد المؤمن بن علي الى حصن تنيلين عام ٥٣٢هـ / ١١٣٧م الذي دافع عنه حاكمه المرابطي يوجين بن ويدرن حتى هب الربرتير لنجدته فهرب الموحدون نحو الجنوب واستولوا على ايرمناد ميمون وتاسلوات ، ~~ودخلوا~~ تارودانت قاعدة السوس

---

(١) هو ابراهيم بن يوسف بن تاشفين ، عرف باسم أمه ، وكان من كبار قادة المرابطين ولي لأخيه علي عدة ولايات في الأندلس والمغرب ، انظر : البيذق : أخبار المهدي بن تومرت ، ص ٤٤ ، حاشية رقم ٧٤ .

(٢) الذهبي : المصدر السابق ، ج ٤ ، ورقة ١٤٦ ؛ مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ١٢٠ ؛ ابن الخطيب : أعمال الإعلام ، ق ٣ ، ص ٢٦٣ - ٢٦٤ .

(٣) عبد الله علام : المرجع السابق ، ص ١١٢ - ١١٤ .

(٤) قائد قطلوني مشهور ، وأصله من فرسان النبلاء في برشلونه أسرة أمير البحر المرابطي علي بن ميمون ، وسيق الى مدينة مراكش ، فدخل في خدمة أمير المسلمين علي بن يوسف فجعله قائداً لفرقة الروم (النصارى) المرتزقة التي كانت تعمل في صفوف المرابطين ، وتوفي الربرتير عند تلمسان عام ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ - ١١٤٥م انظر : ابن الأبار : الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ١٩٣ ، حاشية رقم ٢ .

(٥) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ٢٢٩ ؛ عبد الله علام : المرجع السابق ص ١٦٤ .

الأدنى ثم استولوا على ايجلي قاعدة بلاد السوس الأقصى . وأما الربرتير فقد انقض على قرية تيخيفا يين الموحدية وسبى كثيراً من نسائها ومن بينهم زوجة القائد الموحدي يعزى بن مخلوف وحملهن الى مراكش ، واستطاع عبد المؤمن بن علي أن يأسر تلموجونت ابنة الوزير ينتان بن عمر مع أربعمائة امرأة اخرى ، وعندما ذكرته ابنة ينتان بصنيع والدها مع ابن تومرت وكيف شفع له عندما أرادت حاشية أمير المسلمين علي بن يوسف قتله او سجنه منّ عليها وعلى زميلاتها بالعتق من الأسر ، فقابل المرابطون الاحسان بالاحسان وأطلقوا سراح النساء الموحديات اللواتي وقعن في الأسر (١) .

وفي عام ٥٣٣هـ / ١١٣٨م جدّ تاشفين بن علي في مطاردة الموحدين ، فضيق عليهم وحاصرهم في جبال غرب تينملل مدة شهرين فخيم شبح الجوع عليهم ، عندها لم يجد عبد المؤمن بن علي مناصاً من إصدار أوامره لجنده بالقيام بعملية تعرف في العرف العسكري اليوم بعملية تخليص الأرواح فاندفعوا نحو المرابطين فتناولتهم السيوف المرابطية من كل مكان ولكن كفتهم رجحت في آخر الأمر بسبب استماتتهم في القتال (٢) .

وازاء ضغط تاشفين بن علي كان لا بد لعبد المؤمن بن علي من تغيير خططه ، فقرر مغادرة عاصمته تينملل التي أصبحت مهددة من جيوش المرابطين تاركاً عليها صهره أبا عمران موسى بن سليمان ، وأخذ يتحرك في المناطق الجبلية ليفوت على تاشفين فرصة القضاء على قواته في معركة مفتوحة في أرض سهلية .

وفي شهر صفر ٥٣٤هـ / اكتوبر ١١٣٩م خرج في غزوته الطويلة التي امتدت الى سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م (٣) وتوغل جهة الشرق من تينملل ، ثم اعتدل وسار في وسط المغرب ، ثم اتجه شمالاً ، ثم شرقاً متخذاً من الجبال

---

(١) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ٢٣٠ ـ ٢٣١ .

(٢) المرجع السابق نفسه ، ص ٢٣٠ ـ ٢٣٢ ؛ عبد الله علام : المرجع السابق ، ص ١١٤ ـ ١١٥ .

(٣) عبد الله علام : المرجع السابق ، ص ١١٦ .

بيوتاً وحصوناً وكان إذا ما انتهى الزاد أرسل الى القبائل بعض السرايا داعية الى التوحيد فان استجابت استعان بمالها ورجالها ، وان أبت اغتصب الموحدون أموالها ومواشيها ووزعوها على أنفسهم . وقد تنبه المرابطون الى خطة الموحدين الجديدة فساروا بإزائهم في السهول ، الا ان الموحدين لم يكلوا من مواصلة الكفاح حتى انتصروا [1] .

وعن هذه الغزوة قدم البيذق تفصيلاً شافياً بصفته شاهد عيان ومشاركاً في الأحداث ، فذكر كل موقع وكل قرية وصل اليها الجيشان المتحاربان ، ووصف المناوشات والمعارك التي حدثت بين الطرفين [2] . وكانت أغلب تلك المناوشات والمعارك لصالح الموحدين .

في هذه الظروف توفي أمير المسلمين علي بن يوسف في رجب ٥٣٧هـ / كمداً وغيظاً لكثرة هزائم جيوشه [3] ، وتولى الحكم بعده تاشفين الذي كان متفرغاً في حياة والده لقتال الموحدين ، لذلك خف الضغط على الموحدين لانشغال تاشفين عنهم بعض الوقت بشئون الحكم الداخلية وبالمحافظة على هيبة المرابطين في الأندلس .

ومما زاد الأمر سوءاً أن النورمان أدركوا حرج الدولة المرابطية في ذلك الوقت ، وداهموا سبتة بأسطول يتألف من نحو مائة وخمسين سفينة حربية في عام ٥٣٨هـ / ١١٤٣م ، فتصدى لهم الأسطول المرابطي بقيادة علي بن ميمون وأنزل بهم هزيمة نكراء [4] .

وفي هذا الوقت أيضاً حدث خلاف بين لمتونة ومسوفة من قبائل المرابطين فانضمت مسوفة الى الموحدين . وفي عام ٥٣٩هـ /١١٤٤م تمكن عبد المؤمن بن علي من قتل القائد المرابطي الشهير الربرتير ودخل تلمسان .

---

(١) عبد الله علام : المرجع السابق ، ص ١١٦ - ١١٧ .

(٢) البيذق : أخبار المهدي بن تومرت ، ص ٥٢ - ٦٩ .

(٣) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ١٢٠ .

(٤) عبد الله علام : المرجع السابق ، ص ١٢٢ - ١٢٦ .

وفي ٢٧ رمضان من نفس العام قتل تاشفين ودخل الموحدون وهران ، وفي ١٤ ذي القعدة ٥٤٠هـ / دخل الموحدون فاس ، وفي ١٨ شوال تمكنوا من دخول مراكش (١) .

وهكذا نجح الموحدون في إسقاط دولة المرابطين بعد سلسلة طويلة من الصراع المرير استخدم فيه الطرفان مختلف الخطط ضد بعضهما البعض . ولكن خطط الموحدين كانت أحكم من خطط المرابطين ، فقد اعتمد الموحدون أسلوب الحرب الطويلة مستخدمين أسلوب حرب العصابات فقضوا على اقتصاديات دولة المرابطين . كما شجع هذا الوضع الأسبان النصارى على تشديد الضغط على المرابطين لتحويل المعركة لصالحهم . وقد صور صاحب الحلل الموشية (٢) ذلك بقوله :

« وتأججت نار الفتنة بالمغرب ، وبسبب هذه الفتنة اتصلت الحرب ، وغلت الأسعار وتوالت الفتن ، وعم الجدب وقلت المجابي وكثر على أهل الإسلام المحن بالعدوتين ووجه كثير من حماة الأندلس الى العدوة ونقل اليها كثير من أسلحتها وعددها فكان ذلك أعظم فساد حل بالأندلس واختل عليهم وألح النصارى بالضرب على جهات بلاد الأندلس حين علموا عجز الإمارة بالمغرب عن الدفاع لما فيه من الفتن حتى تغلبوا على كثير من بلادها ، وكان الإسلام بها عزيزاً والكفر مقهوراً والجزية مرتفعة منذ ملكها يوسف بن تاشفين إلـى زمان خروج المهدي فساءت الأحوال وكثرت الشدائد والأهوال » .

(١) السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ج ٢ ، ص ٧٨٣ ـ ٧٨٦ .

(٢) مؤلف مجهول ، ص ١٢٠ .

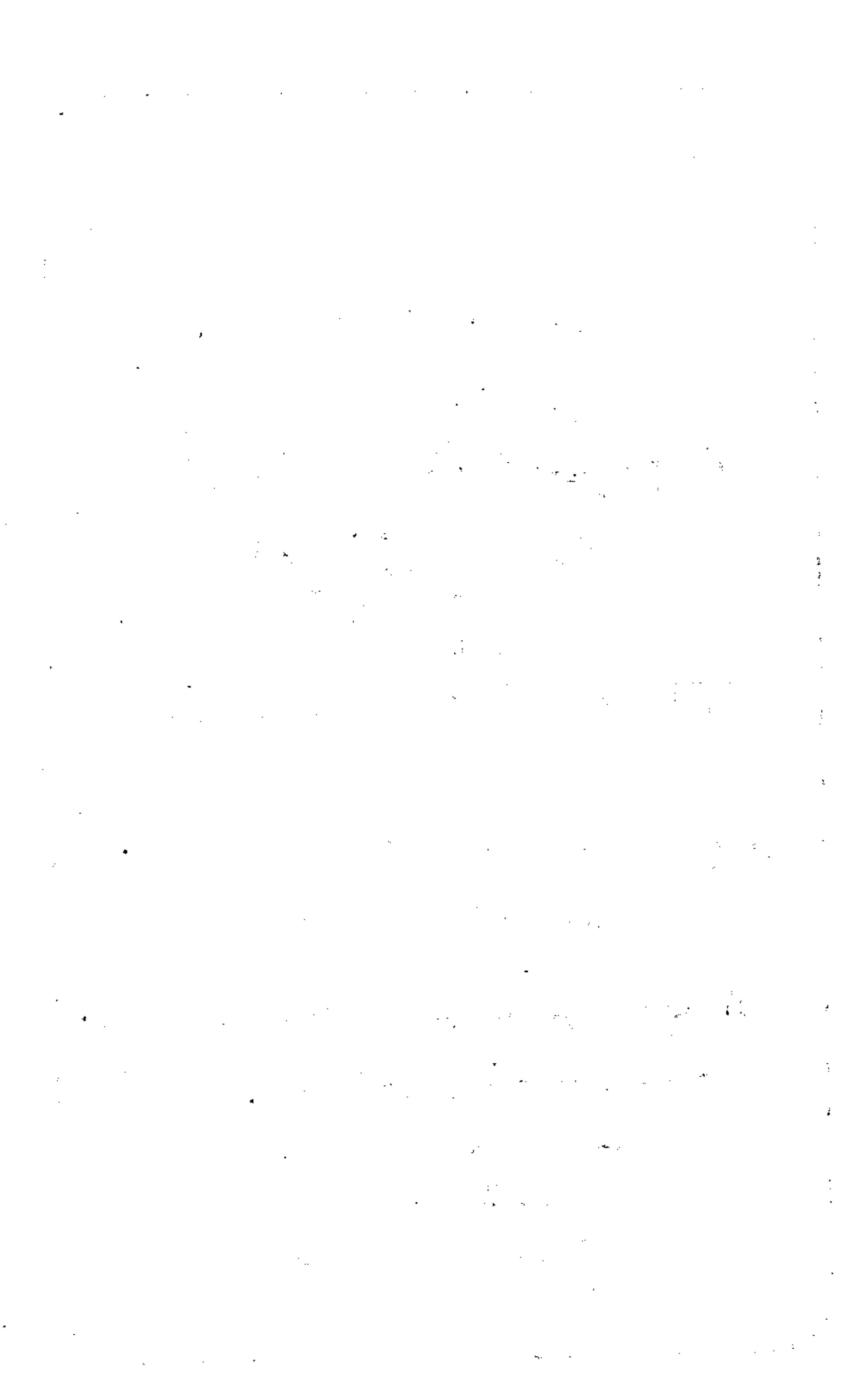
الباب الثاني

العلاقات السياسية للمرابطين مع العالم الإسلامي

الفصل الأول : العلاقات السياسية للمرابطين مع بني هود في سرقسطة وروطة

الفصل الثاني : العلاقات السياسية للمرابطين مع الدول الإسلامية في المغرب والمشرق .

ا ـ مع بني زيري في أفريقية
ب ـ مع الدولة العباسية
جـ ـ مع الدولة الفاطمية



ان دولة باتساع وسلطان دولة المرابطين لا بد أن تكوّن عنصراً فعالاً في الأسرة الدولية التي كانت تعيش بينها فقد ربطتها بكل من دولة بني هود في سرقسطة وروطة ، ودولة آل زيري في أفريقية ، والدولة العباسية ، والدولة الفاطمية ، علاقات سياسية وكانت السفارات والرسائل تتبادل ما بين الدولة المرابطية وهذه الدول .

واتصفت علاقات بني هود بالمرابطين بالود والصفاء طوال عهد يوسف بن تاشفين ، والسنوات الثلاث الأولى من حكم علي بن يوسف حتى إذا بدأوا في التعامل مع ملوك الأسبان النصارى تقدمت الجحافل المرابطية وأجلوهم عن سرقسطة إلى روطة حيث أقاموا فيها دولة محمية بحراب الأسبان النصارى وما هي إلا برهة من الوقت حتى تنازل ملك بني هود في روطه سيف الدولة عن هذا المعقل الحصين إلى أعداء أمته وارتضى لنفسه الخزي والعار ولعنة التاريخ إلى الأبد .

ووحدت الأخطار الخارجية جهود بني زيري حكام أفريقية والمرابطين ضد غارات النورمان المتكررة على سواحل أفريقية ، فهب الأسطول المرابطي لنجدة بني زيري لرد النورمان على أعقابهم بل تعدى الأمر ذلك إلى قيام الأسطول المرابطي بغزو النورمان في عقر دارهم .

ولم تسعفنا المصادر بتفاصيل شافية عن العلاقات المرابطية مع إمارة بني حماد في الجزائر ويبدو أنه كان يغلب عليها طابع عدم الود حتى وفاة علي بن يوسف عام ٥٣٧ هـ/ ١١٤٢ م ، ولكن خطر الموحدين وحد جهود الطرفين في عهد تاشفين بن علي بن يوسف [1] .

واصطبغت العلاقات المرابطية العباسية بالود والوفاق ، ذلك أن الدولة المرابطية تبعت من الناحية الإسمية للخلافة العباسية ، وأقام المرابطون الخطبة باسم الخليفة العباسي من فوق منابرهم ، كما نقشوا اسمه على عملتهم .

أما العلاقات المرابطية الفاطمية فقد كان يغلب عليها طابع العداء حتى وفاة يوسف بن تاشفين عام ٥٠٠ هـ/ ١١٠٦ م وذلك بسبب الخلاف المذهبي ، إلا أن الأوضاع السياسية في عهد علي بن يوسف فرضت على هذه العلاقات بين الطرفين بعض التغيير ، إذ نجد إحدى الوثائق الجديدة تشير إلى ميلها نحو التحسن .

(١) لمزيد من التفاصيل عن نشأة إمارة بني حماد ، وتحالفها مع قبائل بني هلال في عهد يوسف بن تاشفين وتآمرهم على هذه الدولة ، وعن تعاونهم مع تاشفين لصد عادية الموحدين انظر : خليل ابراهيم صالح البشير : علاقة المرابطين بالممالك النصرانية بالأندلس والدول الإسلامية ، ص ٣٥٤ ـ ٣٧٠ (رسالة دكتوراه لم تطبع) .

الفصل الأول

العلاقات السياسية للمرابطين مع بني هود في سرقسطة وروطة

للمرابطين

تعتبر مملكة سرقسطة من أعظم ممالك الطوائف في الأندلس من حيث المساحة التي تشغلها ، وأهمية موقعها وغناها الاقتصادي ودورها الثقافي . ويطلق على هذه الرقعة اسم ولاية الثغر الأعلى التي كانت عاصمتها مدينة سرقسطة التي استمرت عاصمة للملكة أيضاً [١] .

ومما زاد في أهمية هذه المملكة انتشار القلاع والحصون في طول البلاد وعرضها [٢] والتي ساعدتها على الصمود فترة طويلة أمام الأسبان النصارى الطامعين في انتهاب أراضيها .

وتمثل مملكة سرقسطة الضوء الإسلامي الساطع في قلب الأراضي النصرانية التي تحدق بها من كل جانب ، فتحدها من الشمال أربع ممالك نصرانية هي : مملكة قطلونية ، ومملكة ارغونة ، ومملكة بالبارس (Pallars) ، ومملكة شرطانية ، أما في الشرق فكانت تتصل حدود مملكة

---

(١) عبدالرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص ٣٥٥ ـ ٣٥٦ ، عن أهم المناطق التي تحويها هذه المنطقة أنظر : ابن عذارى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٥٤ ـ ٥٥ ؛ محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص ٢٥٥ ؛ حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، مج١١ ، ق٢ ، ص ٩٩ .

(٢) ياقوت الحموي : معجم البلدآن : ج٣ ، ص ٢١٣ .

سرقسطة بحدود مملكة نبْرة (Navarra) ، وبحدود مملكة ليون كبرى الممالك النصرانية وأشدها خطراً على مسلمي الأندلس اذ لعب ملكها فرناندو الأول (٤٢٦ ـ ٤٧٠ هـ/ ١٠٣٥ ـ ١٠٦٥ م) وابناؤه من بعده دوراً خطيراً في تاريخ الأندلس [١] .

وقد فرض على مملكة سرقسطة موقعها الخطير بين الممالك النصرانية المتحفزة للانقضاض عليها اتباع سياسة خاصة تحفظ لها سيادتها واستقلالها ، وتفوت على الذئاب المحيطة بها فرصة الانقضاض عليها ، وأخذها على حين غرة ، فقد اتبعت إزاء الممالك الاسبانية النصرانية المجاورة لها سياسة تجنح إلى السلم في أغلب الأحيان ، والملق والخضوع أحياناً في صورة أداء الجزية لتأمن شر جيرانها ، وفتحت أبوابها للمرتزقة الأوربيين ليعملوا في جيوشها ، فقد رحبت بكل قائد طموح فار من بلاده ، ومن أشهر هؤلاء الذين لجأوا إليها السيد القمبيطور . كما لجأت أحياناً إلى التحالف مع ملوك النصارى إذا داهمها داهم من أرض المسلمين [٢] .

وساعد ابتعاد سرقسطة عن العاصمة التقليدية للأندلس قرطبة ان جعلها فريسة مغرية للطامحين إلى السلطة فكثر المنتزون بها غير آبهين بالسلطة المركزية التي كانت تحسب ألف حساب قبل أن توجه جيشاً لاخضاع هذا الثائر أو ذاك الذي كان يتخذ من الممالك النصرانية عضداً له عند الضرورة .

في هذه المملكة التي تعتبر بمثابة الخط الدفاعي الأول للممالك الإسلامية في الأندلس ، والتي تمثل أيضاً الحاجز الطبيعي ما بين الأراضي الإسلامية والأراضي النصرانية [٣] استقل المنذر بن يحيى بن مطرف بن عبد الرحمن بن هاشم التجيبي (٤٠٨ ـ ٤١٤ هـ/ ١٠١٧ ـ ١٠٢٣ م) ، واتخذ من سرقسطة عاصمة لإمارته ، وتلقب بالمنصور وبقي هو وابناؤه من بعده

---

(١) حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، مج١١ ، ق٢ ، ص ٩٨ ـ ٩٩ .

(٢) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ٨٧ .

(٣) المرجع السابق نفسه ، ص ٨٧ ـ ٨٨ .

يحكمونها حتى عام ٤٣٠ هـ/ ١٠٣٩ م[1] حيث تمكن أبو أيوب سليمان بن محمد بن هود المستقل بتطيلة ولارده من أول الفتنة (٤٧٠ هـ/ ١٠١٩ م) من قتل المنذر بن يحيى معز الدولة (٤٢٠ - ٤٣٠ هـ/ ١٠٢٩ - ١٠٣٩ م) معلناً بذلك انتهاء حكم التجيبيين في الثغر الأعلى وقيام مملكة بني هود مكانها عام ٤٣٠ هـ/ ١٠٣٩ م)[2] التي استمرت قائمة حتى سقط آخر معقل من معاقلها ، في روطة في عام ٥٢٤ هـ أو ٥٢٥ هـ/ ١١٢٩ أو ١١٣٠ م [3] .

وبقيام مملكة بني هود في سرقسطة تبدأ مرحلة جديدة من حياة هذه الرقعة من العالم الإسلامي . وقد استطاع بنو هود أن يطلعوا بهذا الدور الخطير في حماية الزاوية الشمالية الشرقية من الأندلس من الخطر النصراني فترة من الوقت وحالوا دون انسياح النصارى إلى الأراضي الإسلامية ، وبفضل ما أنجب بنو هود من أمراء أقوياء استطاعوا أن يحافظوا على استقلال مملكتهم أمام القوى الطامعة فترة طويلة .

- دولة بني هود في سرقسطة في عام (٤٣٠ - ٤٧٨ هـ/ ١٠٣٩ - ١٠٨٥ م)

بعد أن ارتقى أبو أيوب سليمان بن محمد بن هود (٤٣٠ - ٤٣٨ هـ/ ١٠٣٩ - ١٠٤٦م) عرش سرقسطة [4] بدأت علاقاته تسوء مع المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة فاستعان كل واحد منهما على صاحبه بالنصارى

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٥ ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ج٥ ، ص ٢٥٤ - ٢٥٦ ؛ حسين مؤنس : الثغر الاعلى ، مج١١ ، ق٢ ، ص ٩٨ - ٩٩ .

(٣) حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، مج١١ ، ق٢ ، ص ١١٨ - ١١٩ ؛ ابن الأبار : الحلة السيراء ، ج٢ ، ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .

(٤) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٥٤ - ٥٥ - رزق الله الصدفي ، ج٢ ، ص ٧٧ .

الأسبان ، وقبل وفاته قسم مملكته بين ابنائه الأربعة (١) فوقع بذلك في الخطأ التقليدي الذي وقع فيه كثير من ملوك العالم في مختلف فترات التاريخ ، اذ خلق بعمله هذا أربع إمارات متناحرة ودارت الحرب ما بين الأخوة واستطاع أحمد الملقب بالمقتدر من التغلب على بقية أخوته ، واستطاع أن يعيد للمملكة وحدتها ، وطارت شهرته حتى أنه عد من أقوى أمراء بني هود ، ومن أوسعهم ذكراً ، فقد كان أقدر حكام سرقسطة على التكيف مع وضع إمارته فحافظ على استقلاله بالدهاء والحسام ، وأصبحت سرقسطة في عهده درة الأندلس ، وعلى الرغم من كل ذلك كان يؤدي الجزية لملوك النصارى في قشتالة (٢) .

وبعد حياة مليئة بالجهاد والإعمار توفي أحمد المقتدر عام ٤٧٤ هـ/ ١٠٨١ م (٣) بعد أن حكم ستاً وثلاثين سنة أمضاها في مقارعة إخوانه ، والممالك النصرانية ، إلا أنه لم يتعلم درساً من والده فكرر نفس الخطأ فقبيل وفاته قسم مملكته بين ولديه يوسف والمنذر ، فتلقب الأول بالحاجب المؤتمن (٤٧٤ ـ ٤٧٨ هـ/ ١٠٨١ ـ ١٠٨٥ م) واستقل بمدينة سرقسطة وغربي الإمارة كله وانفرد المنذر بطرطوشة ، ودانية ، والجزء الساحلي من الإمارة وتلقب بالحاجب عماد الدولة (٤) .

وتجددت الفتنة بين الأخوين واستنجد كل واحد منهما بالنصارى، واعتمد المؤتمن على السيد القمبيطور (٥) الذي قدم لاجئاً إلى سرقسطة بعد أن نفاه

---

(١) انفرد أبو جعفر أحمد بسرقسطة وتلقب بعماد الدولة المقتدر بالله ، واستقل ابو عمر يوسف بلاردة وتلقب بعماد الدولة المظفر ، وأخذ محمد قلعة أيوب وتلقب بعضد الدولة ، وكان نصيب المنذر تطيله وتلقب بالحاجب انظر : حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، مج١١ ، ق٢ ، ص ١٠١ ـ ١٠٢ .

(٢) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٧٦ ؛ القلقشندي : مآثر الأنافة ، ج٢ ، ص ١٠ ـ ١١ ؛ المراكشي : المصدر السابق ، ص ١٢٧ ، حاشية رقم ٢ ؛ عبد الرحمن الحجي : المرجع السابق ، ص ٣٥٨ ؛ حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، مج١١ ، ق٢ ، ص ١٠١ ـ ١٠٢ .

(٣) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٥٤ ـ ٥٥ .

(٤) حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، مج١١ ، ق٢ ، ص ١٠٢ ـ ١٠٣ .

(٥) عبد الرحمن الحجي : المرجع السابق ، ص ٣٥٦ .

الفونسو السادس ملك ليون من بلاطه فانضم إلى جيوش يوسف المؤتمن ومضى يحارب أعداءه ، واستطاع أن ينزل بالكونت رامون بيريجير الثاني صاحب قطلونية هزيمة نكراء عند المنارة ، التي وقع فيها الكونت في أسرابن هود ، واستمرت إقامة السيد في سرقسطة إلى عام ٤٧٧ هـ/ ١٠٨٤ م [١] ، وفي عام ٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥ م توفي يوسف المؤتمن [٢] فخلفه ابنه أحمد بن يوسف الملقب بالمستعين والذيْ نهض بأوزار الحرب الأهلية ومضى يحارب عمه المنذر فاستعان كل واحد منهما على صاحبه بالنصارى [٣] ، وفي هذه الظروف استطاع الفونسو السادس ان يحتل مدينة طليطلة عام ٤٧٨هـ / ١٠٨٥ م [٤] فازدادت ثقته بنفسه وزاد الحماس عند اتباعه وأخذ يخطط لالتهام سرقسطة خاصة بعد وفاة أبي عامر يوسف المظفر حسام الدولة في بلاطه . وكان المظفر حسام الدولة الذي أودعه أبو جعفر المقتدر بالله في سجن روطة قد فر من سجنه أيام ابني أخيه يوسف وأحمد في أوائل ٤٧٧ هـ/ ١٠٨٤ م واحتمى بالفونسو السادس وتوفي عنده بعد قليل . فزعم الفونسو ان المظفر قد تنازل له قبل وفاته عن نصيبه في الملك ، فهب هو ورجاله وفيهم ابن عمه راميرو نحو روطة ، إلا أن يوسف المؤتمن وحليفه القمبيطور تمكنا من إيقاع هزيمة شنيعة بالفونسو السادس الذي لم ينج منها إلا بصعوبة [٥] .

واستعد أبو جعفر أحمد المستعين بالله لمواجهة مخططات الفونسو السادس التي أخذت ترمي الآن إلى إسقاط مملكة بني هود في سرقسطة ، وحتى يقوي من مركزه الدفاعي تحالف مع جاره مروان بن عبد العزيز صاحب بلنسية [٦] وفعلاً قام الفونسو السادس بفرض الحصار على سرقسطة عام

---

(١) حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، مج ١١ ، ق٢ ، ص ١٠٢ - ١٠٣ .

(٢) ابن عذاری : المصدر السابق ، ج٤، ص ٥٤ - ٥٥ ؛القلقشندي : صبح الأعشى،ج٥ ،ص ٢٥٤ - ٢٥٥.

(٣) ابن عذاری : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٥٤ - ٥٥؛ حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، مج١١ ، ق٢ ، ص ١٠٢ - ١٠٣ .

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج١٠ ، ص١٤٣ ؛ المقري : المصدر السابق ، ج٦ ، ص ٨٨ .

(٥) حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، مج١١ ، ق٢ ، ص ١٠٢ - ١٠٣ .

(٦) عبد الرحمن الحجي : المرجع السابق ، ص ٣٥٨ ؛ حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، مج١١ ، ق٢ ، ص ١٠٢ - ١٠٣ .

٤٧٨ هـ/ ١٠٨٥ م من أجل إسقاطها فصدته ببسالة [١] ، في هذا الوقت كانت هناك تطورات خطيرة تجزي في الأندلس فقد اجتمعت كلمة ملوك الطوائف على استقدام المرابطين الذين لبوا النداء مسرعين في الجواز إلى الأندلس لايقاف الزحف النصراني نحو الجنوب ، وتخليص البلاد مما كانت تعانيه من ظلم وجور النصارى فجاز المرابطون في ربيع أول ٤٧٩ هـ ، وأخذت الجيوش الإسلامية المشتركة تزحف نحو الشمال [٢] .

ويبدو أن أخبار هذا الزحف قد وصلت إلى أسماع أهالي المدينة المحاصرة فارتفعت معنوياتهم ، وظن الفونسو انهم لم يسمعوا بذلك فشدد الحصار عليها بقصد اسقاطها ليتفرغ لمواجهة الزحوف الاسلامية المتقدمة نحوه ، ولما استعصت عليه طلب من المستعين بن هود المال الذي رفضه في البداية عندما فاوضه المستعين عليه [٣] فاضطر الفونسو السادس الى فك الحصار لمواجهة الحلف الاسلامي بحلف نصراني فتوجه الى طليطلة لهذا الغرض لصد الخطر القادم من بلاد العدوة[٤] .

وعندما التحمت الجموع الإسلامية بالجموع النصرانية في الزلاقة عام ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م [٥] لم تشارك مملكة بني هود في هذه الموقعة مع بقية ممالك الطوائف لحراجة موقعها بين الممالك النصرانية فحرصت على الحياد حتى لا تعقد علاقتها مع تلك الممالك .

لقد كان دخول المرابطين إلى الأندلس يعني دخول قوة جديدة إلى شبه الجزيرة الاليبيرية يحتم على دولة بني هود ان تحدد طبيعة علاقاتها مع هذه

---

(١) محمد عبد الله عنان : مواقف حاسمة ، ص ١٧٥ .

(٢) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ، ق٣ ، ص ٢٣٩ ـ ٢٤٢ ؛ ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٣٨٢ ـ ٣٨٣ .

(٣) ابن أبي زرع ؛ المصدر السابق ، ص ٩٢ ؛ السلاوي : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٣٠ .

(٤) ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص ٩٢ ؛ ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٤٥ ـ ١٥٠ ؛ السلاوي : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٣٤ ـ ٣٥ .

(٥) ابن الآبار : الحلة السيراء ، ج٢ ، ص ١٠١ ؛ ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ق٣ ، ص ٢٤٢ .

القوة النامية ، ويظهر أن الظروف التي أعقبت الزلاقة هي التي رسمت خطوط هذه السياسة ، فبعد الزلاقة خاضت مملكة بني هود معارك عنيفة ومريرة مع جيرانها النصارى الذين لم يدخروا وسعاً في محاولة إسقاطها(١).

وفي هذه الفترة توثقت علاقة المستعين بالفونسو السادس ، ونجده يقف موقف المتفرج عما كان يحدث في مدينة بلنسية التي كان يعيث فيها القمبيطور مفسداً مثقلاً كاهل أهلها بالضرائب حتى تمكن من إسقاطها عام ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م على الرغم من مؤازرة المرابطين لأهلها (٢).

وخلال هذه المدة اعطى يوسف بن تاشفين إشارة البدء للقضاء على ممالك الطوائف في الأندلس عندما ثبت لديه استحالة توحيد كلمتهم لاتساع الهوة بين ملوكها ، فالعداء مستحكم حتى بين الأخوه ، وقد صحب التنافس والتطاحن فيما بينهم ارتكاب خيانات عظمى بحق الأمة باتصالاتهم مع أعداء أمتهم الإسلامية عن طريق عقد المعاهدات مع الممالك النصرانية ودفع الأتاوات الضخمة لملوكها ، وبعد أن بارك فقهاء المغرب والأندلس والمشرق وعلى رأسهم الغزالي ، والطرطوشي مشروع إسقاط ملوك الطوائف ، أمر يوسف قواته بالانقضاض على معاقل ملوك الطوائف فلم تمض ثلاثة عشر عاماً حتى أخضعوها جميعاً خلا مملكة سرقسطة (٣).

على ضوء هذه التطورات التي جدت على الساحة الأندلسية ـ أخذ

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن أوضاع سرقسطة بعد الزلاقة انظر : الطرطوشي : سراج الملوك ، ص ٣٠٢ ؛ ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ق٣ ، ص ١٧٢ ؛ المقري : المصدر السابق ، ج١ ، ص ٤٤١ ؛ ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج٤ ، ص ١٦٣ ؛ اشباخ : تاريخ الأندلس ، ص ١٠٥ ـ ١٠٨ ؛ حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، مج١١ ، ق٢ ، ص ١١٠ .

(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٣١ ـ ٣٩ ؛ ياقوت : المصدر السابق ، ج١ ، ص ٤٩٠ .

(٣) لمزيد من التفاصيل حول أحوال ملوك الطوائف بعد الزلاقة وبعد حصار حصن لييط وما برز خلال ذلك من خلافات فيما بينهما واتصالات بعضهم مع الفونسو السادس انظر : عبد الله بن بلقين : التبيان ، ص ١٠٩ ـ ١١٣ ، ١٢٥ ـ ١٢٧ ؛ ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ق٣ ، ص ٢٥٠ ـ ٢٥٢ ؛ مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٦٩ ـ ٧٠ ؛ ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٥٢ ـ ١٥٣ ؛ ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج٦ ، ص ٣٨٥ .

المرابطون يستفزون حكام سرقسطة عندما حاول قائد المرابطين سير بن أبي بكر فتح أحد معاقلهم في روطة ، ولكنه فشل في إقتحامه لمتانته وتوفر المؤن فيه [1] ، كما أصبح ابن هود يشعر بخطورة الموقف عندما أصبح المرابطون مجاورين له في مرسية ودانية [2] عندها رأى ابن هود أن يعزز علاقاته مع النصارى والمرابطين في آن ـ واحد ، فاستغاث بالقمبيطور وعقد معه حلفاً جديداً ، وعقد القمبيطور بدوره سلسلة معاهدات مع ملك أرغون وملك نبرة ، وكان الغرض من هذه الاحلاف هو التصدي للمرابطين وايقاف زحفهم ، وانقاذ شرق الأندلس من الوقوع في قبضتهم ، فأخذ القمبيطور وابن هود ينظمان الوسائل الدفاعية لسرقسطة [3] .

وفي الوقت ذاته أخذ يمد خيوط المودة بينه وبين يوسف بن تاشفين حتى تكاد تجمع المصادر الإسلامية على أن العلاقات الهودية المرابطية في عهد المستعين كانت على أفضل ما يكون ، ونذكر أن ابن هود كان يتحف أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بالهدايا الثمينة من نفيس الذخائر ، واليواقيت والجواهر ، ورفيع الدنانير [4] ، ويؤكد ابن الأثير [5] على أن هذه الصداقة تعود إلى ما قبل جواز يوسف إلى الأندلس فرعى يوسف للمستعين بن هود ذلك ولم يتعرض لبلاده ، وأوصى خليفته علي عندما أشرف على الموت بأن لا يتعرض لبني هود وأن يتركهم حاجزاً بينه وبين العدو لأنهم يمتازون بالشجاعة .

وهناك من يذكر ان المستعين قد اتصل بيوسف بن تاشفين مرتين الأولى

---

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ١٢١ ـ ١٢٢ ؛ المقري : المصدر السابق ، ج٦ ، ص ١٠٤ ـ ١٠٥ .

(٢) السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ج٢ ، ص ٧٣٢ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج١٠ ، ص ١٩٣ .

(٤) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ١٤٦ ؛ مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٧٦ .

(٥) الكامل ، ج١٠ ، ص١٩٣ ؛ أبو الفدا : تاريخ أبو الفدا ، ج٢ ، ص ٢١٠ .

غداة الزلاقة لتبرير تقاعسه عن نصرة المجاهدين ، والثانية عقب سقوط بلنسية [١] .

ومن مكاتبات المستعين ليوسف ما جاء في إحدى رسائله : « نحن بينكم وبين العدو سّد لا يصل إليكم منه ضرر ومّناعين تطرف وقد قنعنا بمسالمتكم فاقنعوا منا بها إلى ما نعينكم به من نفيس الذخائر » ووجه إليه ابنه عماد الدولة أبا مروان عبد الملك فأجابه يوسف إلى ما أراد ومما جاء في الرد : « .... الذي عندنا أيدك الله بجنابك الكريم وبحرك الطامي ومجدك الصميم ومحلك المعلوم فوّد صريح وعقد في ذات الله تعالى صحيح ... وجملته الوفاق وجماعة الانتظام في سلك ما يرضي الله تعالى .... » [٢] .

ولما سقطت بلنسية بيد المرابطين عام ٤٩٥ هـ/ ١١٠٢ م [٣] ترتب على ذلك انهيار الجبهة النصرانية في شرق الأندلس فاستثمرت القوات المرابطية الفوز بعد دخول المدينة واستولت على مربيطر [٤] والمنارة والسهلة وغيرهما من القلاع والحصون المنتشرة في هذا الإقليم [٥] .

ويظهر أن المستعين بعد سقوط بلنسية التي كان يأمل أن تبقى فيها إمارة تحول بينه وبين المرابطين جعلته يميل أكثر إلى المرابطين فنجده في عام ٤٩٦ هـ/ ١١٠٣ م عندما جاز يوسف بن تاشفين جوازه الأخير لأخذ البيعة لولده علي يرسل ولده عبد الملك إلى قرطبة بهدية سنية من بينها أربعة عشر ربعاً من آنية الفضة مطرزة باسم المقتدر بن هود إلى أمير المسلمين يوسف فقبلها ووزعها بعد أن أمر بضربها قراريط على رؤساء المرابطين ليلة عيد

---

(١) حسن محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ٣١٩ - ٣٢٠ .

(٢) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٧٤ - ٧٥ .

(٣) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٤٢ ، حاشية رقم٢ ؛ ياقوت : المصدر السابق ، ج١ ، ص ٤٩٠ ؛ الحميري : المصدر السابق ، ص ٩٧ - ويذكر ابن الخطيب (الإحاطة ، ج٣ ، ص ٢٧٤) ان استرجاع بلنسية كان عام ٥٠٥ هـ .

(٥) حصن على جبل بالقرب من طرطوشة انظر : الحميري : المصدر السابق ، ص ٥٤٠ .

(٤) حسن محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ٣١٨ - ٣١٩ .

الأضحى وحضر عبد الملك حفل البيعة لعلي بن يوسف ثم عاد الى سرقسطة [1] .

ويبدو أن المستعين كان حريصاً ان لا يترك مناسبة الا ويظهر ليوسف ولاءه ـ وصداقته لا سيما في هذه الفترة التي شعر فيها أن المرابطين أخذوا يخططون للإستيلاء على أملاكه ، وهذا الذي اتضح من خلال شروط يوسف بن تاشفين على ولي عهده فيما يختص بالقوات المرابطية في الأندلس حيث خصص أربعة آلاف مقاتل لشرق الأندلس[2] ، ويبدو أن تخصيص هذا العدد الضخم من المجموع العام الذي خصصه للأندلس ككل (١٧ ألف) يعني أن المرابطين كانوا يعتنون بالشرق عناية خاصة ، وربما كانوا عازمين على تنفيذ مشروع توسعي آخر ، كما أن هذه السفارات جاءت في وقت أخذ فيه المستعين يعاني من كثرة غارات جيرانه النصارى خاصة من قبل الفونسو السادس الذي شدد من هجماته على سرقسطة فنجد المستعين في عام ٤٩٧ هـ/ ١١٠٤ م يطلب العون من يوسف بن تاشفين الذي بادر بإرسال قائده أبي محمد عبد الله بن فاطمة في ألف وخمسمائة فارس فهاجم أراضي قشتالة وغنم الكثير ورجع إلى بلاده [3] .

تحت ضغط كل هذه التطورات التي حدثت بعد موقعة الزلاقة كان المستعين بن هود مضطراً الى تحسين علاقاته مع المرابطين والتقرب إليهم أكثر من النصارى ، كما أن المرابطين لم يكونوا متشجعين لاسقاط مملكة بني هود لادراكهم كبر المسؤولية التي ستلقى على عاتقهم في الدفاع عنها وحمايتها من النصارى ، إضافة إلى انشغال المرابطين في المراحل الأولى من دخولهم للأندلس عن الثغر الأعلى في توطيد حكمهم في الأراضي التي امتلكوها من

---

(١) ابن الآبار : الحلة السيراء ، ج٢ ، ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩ ؛ ابن عذارى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص٤٢ ـ ٤٣ .

(٢) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٨٠ .

(٣) ابن الكرديوس : المصدر السابق ، ص١١٣ ؛ ابن عذارى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٤٢ ـ ٤٤ .

ملوك الطوائف ففضلوا ان يتركوها حاجزاً بينهم وبين النصارى [١] .

ويظهر أن ما كانت تتمتع به سرقسطة من حصانة وانقياد الرعية لحكم بني هود إضافة لما كان يتمتع به حكامها أمثال المستعين من دهاء سياسي ، الذي كان يهدد النصارى بالمسلمين ويهدد المسلمين بالنصارى [٢] يجعلنا ندرك لماذا بقيت هذه المملكة هذه المدة دون ان يخضعها المرابطون .

وفي عام ٥٠٣ هـ/ ١١٠٩ م خرج المستعين بعد أن جدد البيعة لنفسه ولولده عماد الدولة عبد الملك وجمع الجموع واتجه لغزو النصارى المجاورين ، فلدخل ارنبه (ارنبظ) وغلب على أرباضها ، واعتصم أهلها منه بكنيسة منيعة ثم صالحهم على ما يؤدونه إليه وأخذ منهم رهائن ثم انصرف قافلاً عنهم . وفي طريق عودته كان يشن الغارات على من بذلك الصقع من النصارى فهدم وسبى وحرق ، ولما اشرف على بلاده لحقت به خيل النصارى في أول يوم من رجب ونشبت بينهما معركة حامية الوطيس بالقرب من فالتييرا (Valtierra) [٣] ، استشهد فيها المستعين مع جمع كبير من المسلمين [٤] .

وبوفاة المستعين (الصغير) فقدت مملكة بني هود آخر زعمائها الأقوياء الذين حافظوا على استقلالها وحماية ذمارها مدة ثلاث وسبعين سنة . وتعتبر وفاته بداية لمرحلة جديدة من مراحل حياة هذه المملكة التي أخذت تلفظ أنفاسها في سرقسطة . وقد انتخب عبد الملك الملقب بعماد الدولة خليفة لابيه ، على شرط ان لا يلجأ إلى النصارى مستنجداً أو محالفاً [٥] .

---

(١) ابن سعيد : المغرب في حلي المغرب ، ج ٢ ، ص ٤٣٧ .

(٢) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٧٤ ـ ٧٦ .

(٣) اسمها العربي شلبطرا ، وهي حصن من عمل قلعة رباح انظر الحميري : الروض المعطار ص ١٠٨ ؛ ابن الأبار : الحلة السيراء ، و١٢ ص ٢٢٣ .

(٤) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٥٣ ـ ٥٤ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٦ ؛ ابن الأبار : الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ ؛ الطرطوشي : المصدر السابق ، ص ٣٣٠ ؛ المقري : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٤١ ؛ ميرانده : علي بن يوسف وأعماله في الأندلس ، ص ١٦٠ ـ ١٦١ ؛ حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، مج ١١ ، ق ٢ ، ص ١٠٦ .

(٥) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ق٣ ، ص ١٧٥؛ ابن عذارى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٥٤ـ

واستغل المرابطون فرصة وفاة المستعين وحاولوا دخول سرقسطة . فقد أرسل محمد بن الحاج والي بلنسية قائده محمد بن فاطمة في جيش صغير نحوها ، فلما اقترب منها خشي أهلها أن يسرع أميرهم بالاستنجاد بالنصارى ، فأشاروا عليه بأن ينصرف عنهم حتى لا يجني عليهم باستغاثة أميرهم بالنصارى فانصرف عنهم [1] .

وزادت حركة المرابطين تلك من مخاوف عماد الدولة فبادر بإرسال رسالة إلى أمير المسلمين علي بن يوسف يطلب منه أن تبقى علاقاته معه مثلما كانت في العهد السابق بين والديهما يسودها الود والألفة . ولكن أمير المسلمين كان قد اتخذ قراره باستئصال شأفة بني هود بعد أن اقنعه الفقهاء بذلك لمسالمتهم للنصارى [2] ووجه الأمير أبا بكر بن تيفلويت على رأس جيش لفتحها . ولما سمع ابن هود بقدومه تحصن في بلاده [3] ، وأخذ يتودد للنصارى لحمايته من المرابطين ومن رعيته التي استشعر ميلها لهم [4] .

وقد وصل كتاب ابن هود إلى علي بن يوسف في الوقت الذي كان قد أصدر فيه أمره بالقضاء عليه ، فلما قرأ الكتاب عدل عن رأيه السابق ولكن بعد فوات الأوان . ومما جاء في هذه الرسالة : « وقد كان المستعين بالله خاطب أباك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين رحمة الله عليه ، يسأله الدعة ويرغب في الهدوء والاستعانة على العدو فأقام وأقمنا معه مريحين ومن تعب النفاق فرحين فنعمنا بنور الهداية الساطع الاشراق واغتنمنا الدعة والأمن في هذه الآفاق ثم دهمنا من جهتكم داهم . . . . ولا يمكننا تسليم ما بأيدينا إليكم فيتحكم فينا الإذلال . . . ولم تتقدم منا إليكم إساءة جهرت عليكم بالقول ولا

= ٥٥ ؛القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٥ ، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥ ؛حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، مج١١ ، ق٢ ، ص ١٠٥ ـ ١٠٦ .

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص٥٣ ؛حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، ص ١١١ ـ ١١٢ .

(٢) ابن سعيد : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٤٣٨ .

(٣) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٩٨ ـ ٩٩ .

(٤) ابن الأبار : الحلة السيراء ، ج٢ ، ص ٢٤٨ .

أشارت ولا أخلت بجنابكم ولا عدت ولا ضرت . . . وقد كان لكم فيما فعله أبوكم أمير المسلمين أسوة حسنة . . . . »[1] .

وفتح أهالي سرقسطة أبواب مدينتهم للمرابطين صبيحة يوم السبت العاشر من ذي القعدة سنة ٥٠٣ هـ [2] ، وطرد عماد الدولة منها بعد خلافته لوالده بأربعة أشهر[3] ، وكتب محمد بن الحاج والي بلنسية الى علي بن يوسف بذلك[4] . وأما عماد الدولة فقد اعتصم في روطة (Rueda)[5] تحت حماية ملك أرغونة الفونسو المحارب[6] .

وبسقوط سرقسطة بيد المرابطين تبدأ مرحلة جديدة من العلاقات المرابطية الهودية في روطة من جانب ومن جانب آخر مع الممالك النصرانية التي حدثت فيها تطورات خطيرة قبيل وبعد موقعة (Valtierra) فقد توفي الفونسو السادس بعد فجيعته في ابنه الوحيد الذي سقط في موقعة أقليش بفترة يسيرة في عام ٥٠٣ هـ/ ١١٠٩ م ولم يترك إلا ابنة واحدة اسمها أراكه (Urraca) وريثة لعرشه واستطاع بعض النبلاء تزويج أراكه من الفونسو المحارب (الأول) ملك أرغونة في عام ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م ، وبذلك اتحدت قشتالة وأرغونة تحت سيادة الفونسو المحارب . وفي نفس الوقت أحدث هذا الزواج شرخاً عظيماً في الجبهة النصرانية لاهماله حقوق الفونسو السابع (Alfonso Raimundes) ابن أراكه وولي عهدها الشرعي ووريث الفونسو السادس ولذلك قام أنصاره يطالبون بحق ولي العهد الشرعي وحدثت

---

(١) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٩٨ ـ ٩٩ ، (انظر الرسالة في الملاحق) .

(٢) ابن الأبار : الحلة السيراء ، ج٢ ، ص ٢٤٨ ـ يحدد ابن أبي زرع (روض القرطاس ، ص ١٦٠) تاريخ دخول سرقسطة عام ٥٠٢ هـ/ ١١٠٨ م .

(٣) ميرانده : علي بن يوسف وأعماله في الأندلس ، ص ١٦٠ ـ ١٦١ .

(٤) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٦٠ .

(٥) ابن سعيد : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٣٨ ؛ وروطه حصن منيع جداً على وادي شلون انظر : ياقوت : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٩٦ ـ ٩٧ ؛ ابن الأبار : الحلة السيراء ، ج٢ ، ص ٢٤٦ ، حاشية رقم٢ ؛ عبد الرحمن الحجي : المرجع السابق ، ص ٣٥٦ ـ ٣٥٧ .

(٦) حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، مج١١ ، ق٢ ، ص ١١١ ـ ١١٢ .

سلسلة حروب بين حزب الفونسو المحارب (الأول) والفونسو السابع الذي كان يسانده اسقف طليطلة برناردو الذي سعى عند البابا بسكال الثاني لفسخ زواج الفونسو المحارب من أراكه ، فتم ذلك عام ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م على أن يكون الفونسو المحارب ملكاً على أرغونة وقشتالة وأن تكون أراكة ملكة على ليون وجليقية . وعندما توفيت أراكه خلفها ابنها الفونسو السابع الذي كان يسميه أهل الأندلس بالسليطين (أي السلطان الصغير) لتوليه العرش وهو صغير السن ، وبدأت بتوليه العرش دولة جديدة [١] . كل هذه التطورات كانت لصالح سرقسطة فأخرت سقوطها في يد النصارى في فترة مبكرة بعد موقعة (Valtierra) لانشغال الفونسو المحارب وغيره من ملوك النصارى في الحرب الأهلية التي دارت بينه وبين زوجه [٢] .

واستغل المرابطون حكام سرقسطة الجدد تفسخ الجبهة النصرانية عقب استقرارهم فيها ، فأخذ واليها الجديد محمد بن الحاج يشدد من غاراته على الأراضي النصرانية وخاصة برشلونة [٣] . وقد استمر على ذلك حتى عام ٥٠٨ هـ/ ١١١٤ م حيث استشهد في هذه السنة [٤] بعد أن نجح في صد محاولات ـ الفونسو المحارب لاقتطاع أجزاء أخرى من سرقسطة التي لم يكن قد بقي من أعمالها سوى تطيلة ولاردة ، وافراغه ، وطرطوشة [٥] فبعد استقراب ابن الحاج مباشرة في سرقسطة عام ٥٠٣ هـ/ ١١٠٩ م تحالف عماد الدولة مع الفونسو المحارب وتقدما نحو سرقسطة حتى أصبحا على فرسخين [٦] منها واستعد ابن الحاج مع أهل سرقسطة لصد المهاجمين ولكن

---

(١) ابن الأبار : الحلة السيراء ، ج٢ ، ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠ ، حاشية رقم ١ .

(٢) حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، مج١١ ، ق٢ ، ص ١١٠ ـ ١١١ .

(٣) مدينة حصينة خصبة تكثر فيها الحنطة واليهود وهي على البحر بينها وبين طرطوشة ... انظر : الحميري : المصدر السابق ، ص ١١٠ .

(٤) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٦٠ .

(٥) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ٨٨ .

(٦) الفرسخ ثلاثة أميال والميل ألف باع ، وكل باع أربعة أذرع شرعية وبذلك فطول الفرسخ حوالي ٦ كيلومتر انظر : فالترهنس : المكاييل والأوزان الإسلامية ، ص ٩٤ .

أهل سرقسطة تخلوا عنه وأخذوا يتسللون الى داخل المدينة فانتهز الفونسو المحارب الفرصة وانقض على محمد بن الحاج وابنه يحيى فتفرق شمل المسلمين ، واستشهد يحيى يوم الأحد ١٥ ذي الحجة ٥٠٣ هـ / ٥ يوليو ١١١٠ م (١) .

والذي يلفت الانتباه هو تخلي أهالي سرقسطة عن ابن الحاج في هذا الموقف العصيب وهم الذين رحبوا بالأمس به .

يبدو أنه ما زالت هناك فئات موالية لعماد الدولة المطرود من سرقسطة إلى روطة وأن هؤلاء قد استغلوا مداهمة قوات زعيمهم عماد الدولة وحليفه الفونسو لسرقسطة فانسحبوا ليحدثوا شرخاً في جيش ابن الحاج ليسهلوا على المهاجمين دخول المدينة إضافة إلى ذلك فمن المحتمل أن يكون الجيش المرابطي عندما دخل مدينة سرقسطة قد قام ببعض الأعمال مثل النهب ومحاكمة بعض العملاء مما أدى إلى تغير الرعية السرقسطية عليهم وتخليهم عنهم في ذلك الموقف الحرج .

ويظهر أن المرابطين حاولوا بعد فشل غزوة عماد الدولة وحليفه الفونسو لسرقسطة أن يقوموا بغزوة تأديبية لعماد الدولة في عقر داره ، فتوجه علي بن كنفاط اللمتوني في فصيلة من المرابطين إلى قلعة أيوب ، وعسكر أمام قلعة لعماد الدولة فحاصرها حصاراً شديداً . واستغاث أهل القلعة بسيدهم فأغاثهم بكتيبة نصرانية استطاعت أن تفك الحصار وتأسر علي بن كنفاظ وتسوقه إلى روطة ، وقد بقي في الأسر بعض الوقت ثم أطلق سراحه إثر إبرام صلح لوقت معلوم (٢) . ومن جهة أخرى حاول عماد الدولة دخول سرقسطة عام ٥٠٥ هـ/ ١١١٢ م فرده محمد بن الحاج على أعقابه خائباً (٣) .

---

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٥٥ ؛ ميراندة : علي بن يوسف وأعماله في الأندلس ، ص ١٦١ - ١٦٢ .

(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٥٥ ، ١٦١ - ١٦٢ .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ج٤ ، ص ٥٥ - ٥٦ .

وشدد النصارى في عام ٥٠٨ هـ/ ١١١٥ م من ضغطهم على منطقة الثغر الأعلى ، فحاصر الكونت رودر يجونوييذ (Rodrigo Nunez) صاحب مدينة سالم ، فسار إليه مزدلي [١] واضطره الى الفرار تاركاً عسكره وأثقاله ثم عاد مزدلي مسرعاً ليلتقي مع الفونسو المحارب في معركة عنيفة بالقرب من حصن قسطانية في يوم الثلاثاء ١٧ شوال ٥٠٨ هـ حيث خر شهيداً [٢] .

وفي هذا الوقت خلف أبو بكر بن تافلويت [٣] محمد بن الحاج على سرقسطة ، وقد فرضت عليه هذه الظروف السابقة أن يخوض الحرب دفاعاً عنها ففي أواخر سنة ٥٠٨ هـ/ ١١١٥ م خاض معركة مستميتة مع صاحب برشلونة رامون بيرنجير هزم فيها المرابطون [٤] ، ورد ابن تافلويت على ذلك بغارات انتقامية ضد عماد الدولة في روطة ، فتحرك عام ٥١٠ هـ/ ١١١٦ م ، وعاث في أملاك عماد الدولة ثم تحرك إلى برجة وفيها عماد الدولة وضيق عليها وبالغ في نكايتها حتى صالحه أهلها ثم رجع عنها إلى سرقسطة [٥] . وقد توفي أبو بكر بن تافلويت في هذه السنة ، ولما وصل نبأ ذلك إلى الأمير أبي إسحاق ابراهيم بن يوسف والي مرسية بادر بالسير إلى سرقسطة وضبط شئونها ، وبعد أن اطمأن على أحوالها عاد إلى مقر ولايته ولم يعين في تلك الآونة العصيبة وال يخلف أبا بكر بن تافلويت على الفور علماً أن أمير

(١) هو مزدلي بن تيولتكان بن حمني محمد بن ترقوت اللمتوني ، بطل عظيم الصيت عظيم الجلد أصيل الرأي ، طال عمره ، وعظمت في العدو وقائعه ، ومن مناقبه استراجع بلنسية من أيدي النصارى ، ولي غرناطة ، وقرطبة سنة ٥٠٥ هـ/ ١١١٢ م ، واستشهد عام ٥٠٨هـ / ١١١٥م انظر/ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج٣ ، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ج٣ ، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٦ ؛ حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، مج ١١ ، ق٢ ، ص ١١٣ ـ ١١٤ .

(٣) أقام خلال إقامته في سرقسطة بلاطاً فخماً وخاض حياة باذخة فخمة من حوله الأدباء والندماء وانهمك في الملذات والشراب على الرغم مما كانت تمر به سرقسطة من ظروف حرجة إزاء غارات النصارى المتكررة عليها انظر : محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ٨٨ ـ ٨٩ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج١ ، ص ٤٠٥ ـ ٤٠٨ .

(٤) حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، مج١١ ، ق٢ ، ص ١١٣ ـ ١١٤ .

(٥) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٦٢ .

المسلمين علي بن يوسف كان موجوداً في تلك الفترة (٥١١ هـ/ ١١١٧ م) في الأندلس ، وبعد مدة ندب عبد الله بن مزدلي لولاية بلنسية وسرقسطة وكان ذلك فيما يبدو في أواخر عام ٥١١ هـ/ ١١١٧ م [١] .

وفي هذه الفترة شدد الفونسو المحارب من ضرباته لسرقسطة طامعاً في امتلاكها ، فكان يحاصرها ويضيق على أهلها . وأخذ ابن مزدلي يدافع الفونسو حتى اضطره الى رفع الحصار [٢] ولذلك رأى الفونسو المحارب الذي طارت سمعته في قتال المسلمين إلى أوروبا أن يطبع حربه للمسلمين بطابع صليبي بحت ليتمكن من جلب فرسان أوروبا إليه لمساعدته في إسقاط سرقسطة ، لا سيما وأن الحرب الصليبية في المشرق قد كللت بالنجاح بإسقاط بيت المقدس وأجزاء كبيرة من الشام . وكانت هناك فئات كبيرة من الفرسان الذين اشتركوا في تلك الحرب واكتسبوا خبرات عسكرية جيدة خاصة في مجال الحصار قد عادوا إلى مواطنهم في أوروبا . ويبدو أن كل هذه الاعتبارات كانت تدور في خلد الفونسو المحارب ، فبعث الى طوائف النصارى يستصرخهم على سرقسطة فجاءوا في أمم كثيرة [٣] ، ولقيت الدعوة لحرب صليبية جديدة أذناً صاغية في فرنسا وإسبانيا .

ففي عام ٥١١ هـ/ ١١١٧ م عبرت حملة قوية من الفرنج (أهل بيارن) بقيادة جاستون دي بيارن وأخيه سانتولو إلى إسبانيا لمساعدة الأرغونيين في فتح سرقسطة .

وبارك رجال الدين المسيحي في مؤتمرهم المنعقد في مدينة طولوشة (تولوز) عام ٥١٢ هـ/ ١١١٨م الحماس الديني الذي لاقته دعوة الفونسو المحارب لحرب صليبية جديدة في إسبانيا وقرروا أن ترسل حملة صليبية جديدة إليها بقيادة الكونت دي تولوز ، كما حشدت قوات كبيرة من

---

(١) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ٨٨ ـ ٩٠ .

(٢) حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، مج١١ ، ق٢ ، ص ١١٤ .

(٣) السلاوي : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٣٥ .

البشكنس، وقطلونية، وأوقله تحت أمرة سادة هذه المناطق. وكان بين المقاتلين كثير من الأساقفة ورجال الدين الذين انضموا لقوات الفونسو المحارب وضربوا الحصار حولها في شهر صفر من عام ٥١٢ هـ/ مايو ١١١٨م وأحكموا الطوق عليها [١]، وقد جلبوا معهم أبراجاً خشبية عالية تجري على بكرات حتى يستطيع المهاجمون بها محاذاة الأسوار العالية لينصبوا فوقها الرعدات، وجاءوا كذلك بعشرين منجنيقاً ضخمة لدك الأسوار وكان يشرف على استعمال هذه الأدوات نخبة من أهل بيارن ممن اشتركوا في حصار بيت المقدس وتمرسوا في استخدامها [٢].

وطال الحصار أشهراً حتى فنيت الأقوات وهلك أكثر الناس جوعاً [٣] داخل المدينة المحصورة. في الوقت ذاته كان المحاصرون يعانون أيضاً من نقص المؤن وطول المدة حتى فكروا في فك الحصار لولا مساعدات أسقف وشقه وزملائه الذين قدموا ذخائر كنائسهم من أجل شراء الأقوات لهم مما شجعهم على مواصلة الحصار وإحكامه على المدينة للحيلولة دون وصول أي إمداد لأهلها [٤]. ومما زاد الأمر سوءاً وفاة عبد الله مزدلي داخل المدينة المحصورة في أوائل جمادى الآخرة ٥١٢ هـ/ سبتمبر ١١١٨ م إذ أصبح الأمر فوضى بعده [٥].

وعقد الأمر أكثر وأكثر تقاعس الأمير تميم واحجامه عن الصدام مع العدو المحاصر للمدينة على الرغم من الرسالة المؤثرة التي بعث بها قاضي المدينة ثابت بن عبد الله وجماعة من أعيان المدينة المحصورة إليه يلومونه على تقاعسه

---

(١) عبد الرحمن الحجي: المرجع السابق، ص ٤٢٨؛ محمد عبد الله عنان: عصر المرابطين والموحدين، ص ٩٠ ـ ٩١.

(٢) السلاوي: المصدر السابق، ج٢، ص ٦٦ ـ ٦٧؛ محمد عبد الله عنان: عصر المرابطين والموحدين، ص ٩٥.

(٣) ابن الكرديوس: المصدر السابق، ص ١١٧ ـ ١١٨؛ السلاوي: المصدر السابق، ج٢، ص ٦٦ ـ ٦٧.

(٤) محمد عبد الله عنان: عصر المرابطين والموحدين، ص ٩٥.

(٥) ابن خاقان: المصدر السابق، ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠.

في الوقت الذي كانوا يعانون فيه ويلات الحصار ويحذرونه من مغبة هذا الجبن الذي سيترتب عليه سقوط معقل من معاقل المسلمين المهمة وما يترتب على ذلك السقوط من نتائج . وقد جاءت هذه الرسالة في يوم الثلاثاء ٢٧ شعبان عام ٥١٢ هـ أي بعد ستة أشهر ونصف من الحصار [١] .

ويظهر أن أهل سرقسطة في الوقت الذي بعثوا فيه هذه الرسالة للأمير تميم بعثوا برسالة أخرى إلى أمير المسلمين علي بن يوسف في مراكش ، إذ نجد أنه بعد سقوط سرقسطة وصل جيش من أرض العدوة مكون من عشرة آلاف فارس ـ لاستنقاذ سرقسطة فوجدها قد سقطت في يد الأعداء [٢] .

وعندما يئس المحاصرون في سرقسطة من نجدة اخوانهم المرابطين راسلوا الفونسو المحارب على أن يرفع عنهم القتال إلى أجل فان لم يأتهم من ينصرهم أخلوا له البلد وأسلموه إليه ، وأخذت المواثيق على ذلك ، ولما تم الأجل ولم يأتهم أحد دفعوا إليه المدينة بشروط [٣] منها : أن تترك للمسلمين الحرية في الإقامة مع دفع الجزية أو المغادرة إلى أي جهة شاءوا ، وأن يسكن المسلمون ربض الدباغين ، والنصارى المدينة ، وأن من يفلت من الأسرى المسلمين ويحصل عند دار الإسلام فلا سبيل لمالكه إليه ولا اعتراض لمالكه عليه ، وسلمت المدينة على هذه الشروط ولكن ما أن دخلها العدو حتى غادرها ما يقرب من خمسين ألفاً من أهلها [٤] في يوم الأربعاء ١٢ رمضان من عام ٥١٢ هـ متجهين نحو مرسية وبلنسية [٥] .

وهكذا سقطت قاعدة من قواعد الأندلس الكبرى والتي كانت بمثابة قلب

---

(١) السلاوي : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٦٧ .

(٢) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ٩٨ .

(٣) السلاوي : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٦٧ .

(٤) ابن الكرديوس : المصدر السابق ، ص ١١٧ ـ ١١٩ .

(٥) المقري : المصدر السابق ، ج١ ، ص ٤١٦ ؛ السلاوي : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٦٧ ؛ ياقوت : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٢١٣ ؛ ابن الأبار : الحلة السيراء ، ج٢ ، ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٥ ، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٦ .

الإسلام النابض وسط الممالك الإسبانية النصرانية بعد أن استشهد على أرضها أفذاذ قادة المرابطين .

ونلمح من كلام ابن سعيد [1] أن سبب سقوط سرقسطة بيد النصارى هو رفض أمير المسلمين علي بن يوسف تعاونه مع عماد الدولة كما كان يتعامل أبوه مع أبيه وأن يتركه حاجزاً بينه وبين النصارى ، فيقول : « ..... فرغب إليه عماد الدولة أن يجري معه على ما كان عليه سلفه مع سلفه ، ويتركه حاجزاً بينه وبين النصارى فأبي ولّج فكان ذلك سبباً إلى أن استعان عماد الدولة بالنصارى وخرج من سرقسطة وملكها المرابطون ثم حصرها النصارى فأخذوها منهم » .

ويميل محمد عبد الله عنان [2] إلى تفسير تقاعس المرابطين عن نصرة سرقسطة تفسيراً عسكرياً فيذكر أن تميم لم يكن من صنف القادة العسكريين الكبار وأنه عندما رأى كثرة حشود النصارى خشي أن يدخل معركة غير مأمونة العواقب لتفوق العدو الظاهر ، كما يمكن أن يقال أن موقع سرقسطة البعيد عن مراكز تموين الجيش المرابطي في بلنسية ومرسية ، وقرطبة لم يكن مشجعاً لخوض معركة حاسمة . ويذكر أيضاً أن الحرب التي دارت منذ دخول المرابطين الأندلس في جهات الثغر الأعلى قد أفنت زهرة قوادهم من أصحاب الخبرة والدراية أمثال سير بن أبي بكر ، ومزدلي ، وعبد الله بن فاطمة ، ومع ذلك فإن محمد عبد الله عنان يرجح سبباً رئيسياً آخر لهذا التقاعس ، وهو أن المرابطين أدركوا أنهم لا يستطيعون الاحتفاظ بهذه المنطقة التي تحف بها الممالك النصرانية من كل جانب ، وأن الاحتفاظ بها سيكلفهم ثمناً باهظاً .

ويبدو أن هناك أسباباً أخرى غير تلك دفعت المرابطين لأن يقفوا هذا الموقف المزري من المدينة الشهيدة منها : حدوث بعض المشاكل الداخلية في العاصمة المرابطية مراكش ، ويظهر أن هذه الأضطرابات كان محورها ابن

(1) المغرب في حلى المغرب ، ج٢ ، ص ٤٣٨ .

(2) عصر المرابطين والموحدين ، ص ٩٩ .

تومرت الداعية الجديد الذي وصل في هذه الفترة إلى مراكش وأخذ يبث أفكاره ومبادئه ، مما أحدث بلبلة في المدينة ودعا ذلك أمير المسلمين علي بن يوسف إلى جمع العلماء إليه ومناظرته كما بينا في الفصل الخاص بثورة ابن تومرت . وهذا أيضاً ما أشار إليه حسين مؤنس[١] عندما ذكر أن تميماً اشتبك مع النصارى المحاصرين لسرقسطة إلا أنه لم يستطع الاستمرار في القتال لأن أمور المرابطين اضطربت في مراكش فاضطر الى العودة اليها .

على أي حال اتخذ الفونسو المحارب من مدينة سرقسطة عاصمة له وأخذ ينظم شؤونها ، وحول المسجد الجامع فيها إلى كنيسة سميت لاسيو (Laseo) أو سان سالبادور (San Salvador) ، وجعل من سرقسطة مركز أسقفية ومنح سكانها النصارى امتيازات الأشراف كما عين جاستون دي بيارن سيداً ـ للمدينة المفتوحة في ظل الفونسو [٢] واستطاع النصارى باجراءاتهم هذه التي قاموا بها في المدينة المفتوحة أن يمسخوا صورتها الإسلامية في فترة مبكرة وأن يطبعوها بالطابع النصراني [٣] .

وعلى الرغم من هذه الاجراءات وما كان يعانيه المرابطون من مشاكل داخلية في الأندلس والمغرب فقد بقي السرقسطيون طامعين في نجدة اخوانهم ، فتوالت رسائلهم على أمير المسلمين علي بن يوسف في مراكش مصورين فيها ما يعانونه من ظلم وعسف حاضين على المسارعة في نجدتهم . ومن هذه الرسائل تلك الرسالة التي تفيض ألماً ولوعة ممزوجة بجور الأسر وذلك التي كتبها ثابت بن عبد الله على لسان قاضي سرقسطة والجمهور إلى الأمير أبي طاهر تميم بن يوسف بن تاشفين عامل الأندلس لأمير المسلمين علي بن يوسف ، ومما جاء فيها « .... وعظم الخطب ، وأظلنا الهلاك والعطب فياغوثاه ثم ياغوثاه الى الله . . . ويا حسرتاه على حضرة قد أشفت على سفر الهلاك ، طالما عمرت بالإيمان وازدهت بإقامة الصلوات ، وتلاوة القرآن ترجع

---

(١) الثغر الأعلى ، مج١١ ، ق ٢ ، ص ١١٥ .

(٢) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ١٠١ .

(٣) محمد عبد الله عنان : الآثار الأندلسية الباقية ، ص ١٠٤ .

مراتع للصلبان ومشاهد ذميمة لعبدة الأوثان ، ويا ويلاه على مسجد جامعها المكرم ، وقد كان مأنوساً بتلاوة القرآن المعظم تطؤه الكفرة الفساق بذميم أقدامها . . . ويعمروه بعبادة أصنامها ويتخذوه معاطن لخنازيرها ومواطن لخماراتها ومواخيرها »[١] . ثم يختم رسالته بتأكيده على أن سرقسطة ثغر من ثغور المسلمين الهامة التي يترتب على ضياعها ضياع بلاد المسلمين في الأندلس .

لقد جاءت هذه الرسالة بعد فوات الأوان ، فالنصارى استثمروا فوزهم في سرقسطة وتمكنوا عقب استيلائهم عليها بثلاث سنوات من احتلال طركونه ، وقلعة أيوب ، ودرقة ، وتجردوا على بقية حصون الثغر الأعلى واستولى خلفاء الفونسو المحارب على أفراغه[٢] ، وبذلك أحكم تحصين سرقسطة ولم يعد من اليسير على المرابطين استردادها . وإذا أضيف إلى ذلك ما كانت تعانيه دولة المرابطين من مشاكل داخلية خاصة من قبل محمد بن تومرت لأدركنا استحالة تلبية نداء أهالي سرقسطة .

وبسقوط سرقسطة وما ترتب عليه من سقوط الثغر الأعلى كله فقد المرابطون خطاً دفاعياً من أهم خطوطهم الدفاعية في الزاوية الشمالية الشرقية من جبهتهم الأندلسية مع النصارى في الوقت الذي ارتفعت فيه معنويات النصارى ، فقد شجعهم سقوط معاقل الثغر الأعلى على الاندفاع نحو الأراضي الإسلامية لالتهام المزيد منها . لقد كان جنودهم يقاتلون بروح معنوية عالية وحماس ديني منقطع النظير تذكيه وتؤججه مشاركة الأساقفة ورجال الدين في هذه المعارك الفاصلة مع المسلمين .

وانعكس سقوط سرقسطة في يد النصارى سلباً على المرابطين ، فخسروا الأرض وخسروا ثقة الرعية الأندلسية فيهم والتي أخذت تتمرد على سلطانهم محبذة إخراجهم من الأندلس . وقد تجسد ذلك من خلال الثورات

---

(١) حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، مج١١ ، ق٢ ، ص ١٣١ ـ ١٣٦ .

(٢) المقال السابق نفسه ، مج١١ ، ق٢ ، ص ١٢٠ ـ ١٢١ .

المتوالية التي قاموا بها في هذه الآونة والتي تحدثنا عنها في الباب الأول .

وبحق يعتبر سقوط سرقسطة بيد الفونسو المحارب عام ٥١٢ هـ/ ١١١٨ م نقطة تحول في تاريخ المرابطين في الأندلس في الوقت الذي أصبح فيه نفس التاريخ (٥١٢ هـ/ ١١١٨ م) نقطة تحول خطيرة في تاريخهم في المغرب بظهور محمد بن تومرت ، فبعد هذا التاريخ أخذ نجم المرابطين في الأفول وأخذ نفوذهم في الانحسار تحت مطارق النصارى من جانب ومطارق الموحدين من جانب آخر . فلم تمض سوى ثلاثين عاماً على سقوط سرقسطة في يد النصارى حتى سقطت مراكش في يد الموحدين وانطفأت بذلك شعلة المرابطين التي اتقدت أكثر من ثمانين عاماً . لقد كانت مأساة سرقسطة بداية لسلسلة من الهزائم التي مني بها المرابطون على أيدي خصومهم في بلاد العدوة والأندلس .

بنو هود في روطة :

ونعود الآن إلى الحديث عن بني هود في روطة التي لجأ إليها عماد الدولة بعد سقوط سرقسطة في يد المرابطين عام ٥٠٣ هـ/ ١١١١م ، وان كان ابن الكرديوس [١] يذكر أن عماد الدولة لجأ إلى روطة بعد دخول النصارى لسرقسطة عام ٥١٢ هـ/ ١١١٨ م ، وهي رواية فريدة لم تؤيدها أي رواية أخرى لذا لا يمكن الأخذ بها .

على أي حال كان بنو هود أيام عز دولتهم قد بنوا حصن روطة على بعد خمسة وثلاثين كيلومتراً من سرقسطة ، وحصنوه وزودوه بالأقوات والسلاح والمياه الدائمة عن طريق حفر قناة تتصل به من الوادي . وكان المستعين (الصغير) يقصد من تحصينه أن يكون ملجأ لبني هود عند الضرورة [٢] .

---

(١) تاريخ الأندلس ، ص ١١٩ .

(٢) ابن الكرديوس : المصدر السابق ، ص ١١٩ ـ ١٢٠ ؛ محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ١٢٧ .

وأقام عماد الدولة من عام ٥٠٣ حتى عام ٥٢٤ هـ/ ١١١١ حتى ١١٣٠ م في روطة بعد سقوط عاصمته سرقسطة يرقب التطاحن بين المرابطين والنصارى على امتلاك سرقسطة ، فلما سقطت في يد الفونسو المحارب عام ٥١٢ هـ/ ١١١٨ م وضع نفسه في خدمته واستمر على ذلك حتى وفاته [١] .

وكان عماد الدولة هذا ضعيفاً شديد الحرص على أن يبقى حاكماً لمنطقته ، ولو كان ذلك على حساب كرامة المسلمين ، فحالف الفونسو المحارب ملك أرغونة [٢] دون أن يفكر في نتائج هذا التحالف واضراره على الجبهة الإسلامية ، ولم يفكر في أن الفونسو لن يقنع منه بالمال بل أن أهدافه أبعد من ذلك ترمي الى امتلاك جميع الأراضي الإسلامية في الأندلس لتعود إلى نصرانيتها القديمة وهذا ما حدث بالفعل فيما بعد .

وتضطرب الروايات حول تطور العلاقات بين حكام بني هود في روطة والممالك النصرانية ، وبالتالي تختلف في كيفية انتهاء ملكهم في هذه الإمارة التي كانت تشغل مساحة لا بأس بها تمتد شمالاً حتى برجة الواقعة على مقربة من تطيلة .

لقد استمر عماد الدولة في حكم إمارته نحواً من عشرين عاماً حتى توفي في حصن روطة في شعبان عام ٥٢٤ هـ [٣] ، وخلفه في حكمها ابنه أبو جعفر أحمد الملقب بسيف الدولة ثم المستنصر بالله ثم المستعين بالله وهو آخر حكام بني هود فيها [٤] .

ويذكر ابن سعيد [٥] أن المستعين بالله لما شعر بعدم استطاعته حماية إمارته سلمها إلى النصارى وعلى الرغم من إجماع المصادر على هذا التسليم

---

(١) محمد عبد الله عنان : دولة الطوائف ، ص ٢٨٢ .

(٢) ابن الآبار : الحلة السيراء ، ج٢ ، ص ٢١٢ - ٢١٣ حاشية رقم ٣ .

(٣) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ١٢٧ .

(٤) عبد الرحمن الحجي : المرجع السابق ، ص ٣٥٧ .

(٥) المغرب في حلي المغرب ، ج٢ ، ص ٤٣٨ .

إلا أنها تختلف فيما بينها حول ظروف هذا التسليم وتاريخ هذا التنازل .

فبعض الروايات تذكر أن الحاكم الجديد لروطة قد ضاق ذرعاً من حليف والده الفونسو المحارب صاحب أرغونة فتركه ودخل في تبعية خصمه الفونسو السابع ملك قشتالة وتنازل له عن روطة مقابل منحه بعض الأراضي المجاورة لطيطلة بصفة اقطاع فيما بين ٥٢٥ و ٥٢٦ هـ/ ١١٣٠ - ١١٣١ م [١] ، ولكن ابن الأثير[٢] يذكر لنا ظروف التنازل بتفاصيل تختلف عما تقدم ويحدد تاريخ التنازل بعام ٥٢٩ هـ/ ١١٣٤ م ، كما يذكر أن الفونسو السابع داوم على غزو أراضي سيف الدولة في روطة حتى دوخها ، فأضعف سيف الدولة الذي عجز عن رد عاديته ، فاستقر رأيه على مصالحته ، فسعت الرسل بينهما واستقر الأمر على أن تضع الحرب أوزارها مدة عشر سنوات وأن يسلم سيف الدولة إلى الفونسو السابع روطة ، فسلم الحصن له عام ٥٢٩ هـ / ١١٣٤ م .

ويضع ابن الأبار[٣] ضمن شروط هذا الصلح تعويض سيف الدولة عن روطة من قبل الفونسو السابع بنصف مدينة طليطلة التي انتقل إليها بحشمه وأمواله وأقام بها إلى أن هلك [٤] .

وينقل لنا محمد عبد الله عنان [٥] عن بعض الروايات اللاتينية والتي تعرف سيف الدولة معرفة جيدة وتسميه اسفادولا ما نصه أن سيف الدولة عندما اشتد عليه ضغط المرابطين أرسل الرسل إلى ملك قشتالة يعرض عليه فكرة التحالف والانضواء تحت لوائه ، وأنه قام بزيارة الملك النصراني في طليطلة الذي عامله معاملة الملوك فتنازل له عن روطة وغيرها من المواقع المنيعة وأعطاه مقابل ذلك عدة أماكن في قشتالة وليون عام ٥٢٧ هـ/ ١١٣٢ م .

---

(١) حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، مج١١ ، ق٢ ، ص ١١٨ - ١١٩ .

(٢) الكامل ، ج١١ ، ص ٣٣ .

(٣) الحلة السيراء ، ج٢ ، ص ٢٤٩ .

(٤) رزق الله الصدفي : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٧٨ .

(٥) عصر المرابطين والموحدين ، ص ١٢٨ - ١٢٩ .

أما ابن الكرديوس [١] فيذكر أن الفونسو السابع اتصل بسيف الدولة في روطة وعرض عليه أن يرحل من روطة ويعوضه بدلاً عنها أراضي في قشتالة فقال له : « ارحل عن روطة وأعوضك عنها بقشتالة ما هو أحسن وأفيد وتقرب من غرب الأندلس ، وأخرج معك بنفسي وأجنادي ، وأبطالي وأطوف معك على تلك البلاد وندعوهم الى طاعتك فمن أجابك ودخل في جماعتك تركت عنده ثقاتك واستعملت عليه ولاتك وأمنته أنا من غارات الروم ، وكنت لهم كالأب المشفق الرحيم فأرجو أن لا يتوقف عن إجابتك أحد إذ قد أذاقهم المرابطون العذاب الأشد فكرههم الجميع وبودهم أن يضحي ملكهم وهو صريع ، ولو ظفرت بك ما أبقوا منهم بشراً في ناديهم إذ لم يبق لهم في أبناء الأملاك أحد سواك » . فأجابه سيف الدولة لذلك وتنازل له عن روطة وأمر له بقشتالة من قرى ومزارع وأرضين ذات مراجع ثم خرج معه إلى غرب الأندلس في جيوشه فما استجابت لدعوة سيف الدولة أية قرية لأنهم خافوا ان أطاعوه أن يغلبه العدو ويمتلكهم فرجع خاسر الصفقة .

ويرى محمد عبد الله عنان [٢] في ضوء الرواية السابقة أن الفونسو السابع كان يقصد من وراء تشجيع سيف الدولة في إقامة دولة له في غرب الأندلس متاخمة لقشتالة من ناحية الجنوب الغربي أن يجعل منها قاعدة أمامية لعدوانه على الأراضي الإسلامية ، وأن تكون هذه الدولة رأس رمح موجه إلى الجبهة الإسلامية .

ويضع ابن الآبار [٣] تاريخ تنازل سيف الدولة عن روطة لألفونسو السابع في شهر ذي القعدة عام ٥٣٤ هـ . ولكن يبدو أن التنازل عن روطة حدث في السنوات الأولى من حكم سيف الدولة لأننا نجد اسمه قلئداً لأحد جيوش

---

(١) تاريخ الأندلس ، ص ١٢٠ ـ ١٢١ .

(٢) عصر المرابطين والموحدين ، ص ١٣٠ .

(٣) الحلة السيراء ، ج٢ ، ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج٣ ، ص ٤٣٤ ، حاشية رقم ١ ؛ محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ، ص ٢٨٣ ؛ الآثار الأندلسية الباقية ، ص ١١٣ .

الفونسو السابع التي قامت بحملتها المخربة في الأندلس عام ٥٢٧ هـ/ ١١٣٣ م والتي وصلت إلى أحواز إشبيلية [١] .

ومن البدهي أن لا يركن الفونسو السابع لسيف الدولة وأن يوكل إليه قيادة إحدى حملاته إلا بعد أن اختبره خلال مدة لا بأس بها ، ومن ثم فمن المرجح أن يكون تاريخ التنازل ما بين ٥٢٤ و ٥٢٩ هـ/ ١١٢٩ و ١١٤٤ م .

وبقي سيف الدولة بعد أن فشل هو وسيده الفونسو السابع في إقامة إمارة في غربي الأندلس يشتغل الأراضي التي اقطعت له في نواحي طليطلة لمدة عشر سنوات انتهت في عام ٥٣٩ هـ/ ١١٤٤ م [٢] وفي عام ٥٤٠ هـ/ ١١٤٥ م قتل سيف الدولة في موقعة اللّج قرب جنجالة في شرق الأندلس عند بلنسية في إحدى معاركه مع الروم المغيرين على تلك النواحي [٣] .

وبوفاة سيف الدولة وتنازله عن روطة لألفونسو السابع يسدل الستار على دولة بني هود في الثغر الأعلى ليعودوا الى الثورة من جديد في عهد الموحدين [٤] .

وهكذا عشنا مع أحداث الثغر الأعلى في أوج سلطان بني هود فيه ، وفي مرحلة الضعف والعمالة مع النصارى ، ورأينا تذبذب العلاقات المرابطية مع حكام بني هود حتى انتهى الأمر الى احتلال المرابطين لسرقسطة ، ثم رأينا كيف ان المرابطين لم يستطيعوا حمايتها فترة طويلة فسقطت في يد النصارى عام ٥١٢ هـ/ ١١١٨ م ، وما تلا ذلك من انحسار النفوذ المرابطي في الثغر الأعلى حتى خرجوا منه ، وكيف أن المرابطين بسبب مشاكلهم الداخلية في

---

(١) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ١٤١ - ١٤٢ ، (نقلاً عن ابن عذارى وروايات نصرانية) .

(٢) ابن الأبار : الحلة السيراء ، ج٢ ، ص ٢١٢ ا ٢١٣ ، حاشية رقم ٣ .

(٣) عبد الرحمن الحجي : المرجع السابق ، ص ٣٥٧ - ٣٥٨ ، ويجعل رزق الله الصدفي (تاريخ دول الإسلام ، ج٢ ، ص ٧٨ - ٧٩) تاريخ وفاته عام ٥٣٦ هـ .

(٤) رزق الله الصدفي : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٧٨ - ٧٩ ، (ظهر منهم محمد بن يوسف بن محمد بن عبد العظيم بن أحمد بن سليمان المستعين بن هود) .

المغرب لم يستطيعوا إجابة استغاثات أهل سرقسطة بعد أن ملكهم الفونسو المحارب ، ثم رأينا أخيراً عمالة سيف الدولة الذي أصبح عبداً طائعاً للنصارى يشترك معهم في غاراتهم المخربة على أراضي المسلمين .

ومن المصادفات الغريبة أن يوافق مقتل سيف الدولة في عام ٥٤٠ هـ/ ١١٤٥ م نفس الفترة التي كانت فيه الدولة المرابطية تلفظ أنفاسها الأخيرة ، إذ بعد عام واحد سقطت مراكش في يد الموحدين وكأن القدر قد أنزل عقابه على بني هود - والمرابطين لتفرقهم وتنازعهم وتناحرهم مما كان سبباً لبوارهم وانتثار عقدهم .

الفصل الثاني

العلاقات السياسية للمرابطين مع الدول الاسلامية في المغرب والمشرق

١ ـ العلاقات المرابطية مع إمارة بني زيري في أفريقية (تونس)

كانت الظروف مواتية في عهد يوسف بن تاشفين لضم إمارة بني زيري في افريقية الى دولة المرابطين ولكنه فضل سياسة المهادنة مع أمرائها لعدة اعتبارات منها : كون بني زيري سنة على المذهب المالكي ، ومن ناحية أخرى انهم ينحدرون من صنهاجة القبيلة الأم أيضاً للمتونة [١] .

هذا وقد تفرع من دولة بني زيري في عهد أميرها المنصور بن يوسف بلكين دولة بني حماد في الجزائر ، وذلك بعد ان استقل بها أخوه حماد بن يوسف بلكين بها في عام ٣٩٨هـ / ١٠٠٧م وكون بها إمارة مستقلة نسبت اليه . وغالباً ما اتسمت العلاقات بين الإمارتين بالعداء الا ان أواصر القربى والانتماء الأسري كانت كثيراً ما تخفف من حدة هذا العداء . وكان حماد قد سبق بني زيري في خلع طاعة الفاطميين وإقامة الخطبة باسم الخليفة العباسي القادر بالله أبي العباس وأعلن العودة الى مذهب مالك وذلك في سنة ٤٠٥هـ / ١٠١٤م . وأما بنو زيري فقد عادوا الى مذهب مالك بعد ان خلع أميرهم

(١) خليل ابراهيم صالح البشير : علاقات المرابطين بالممالك النصرانية بالأندلس والدول الإسلامية ، ص ٣٥٤ ـ ٣٥٧ (رسالة دكتوراه لم تطبع) .

المعز بن باديس في عام ٤٤٣هـ / ١٠٥٣م طاعة الخليفة الفاطمي المستنصر بالله ، وأقام الخطبة باسم الخليفة العباسي القائم بأمر الله [١] .

وقد اتسمت علاقات المرابطين بالحماديين بالعداء على الرغم من صلة الجوار التي تجمع بينهما ، بينما اتسمت علاقاتهم ببني زيري في تونس بالود . وكيفما كانت طبيعة هذه العلاقات بين بني زيري في تونس ، وبنو حماد في الجزائر فان انشغال المرابطين في عهد يوسف بن تاشفين بحروب الأندلس وبتوطيد نفوذهم فيها وكذلك في الجنوب المغربي هو الذي حال دون توسع المرابطين في المغربين الأوسط والأدنى على حساب الصنهاجيين ، وجعلت علاقات المرابطين بالصنهاجيين عامة تتسم بالود . وفي المقابل فان هذه السياسة الودية هي التي جعلت الصنهاجيين يمدون المرابطين بالعون عندما طارد قواتهم عبد المؤمن بن علي في نواحي وهران وتلمسان ، ولكن هذه المساعدات لم تؤثر على مجرى الأحداث ولم تحل دون الانتصار النهائي للموحدين على المرابطين [٢] .

وفيما يختص ببني زيري في تونس فقد كانت علاقات يوسف بن تاشفين بهم طيبة ، وقد تجلى ذلك في تبادل الرسائل بينهم والتي كانت تحمل أنباء انتصارات المرابطين على الأسبان النصارى ، فبعد انتصار يوسف بن تاشفين في موقعة الزلاقة سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م أرسل الى الأمير تميم بن المعز بن باديس (٤٥٣ ـ ٥٠١هـ / ١٠٦١ ـ ١١٠٧م) يخبره بذلك [٣] .

ويبدو ان هذه العلاقات الطيبة استمرت حتى وفاة يوسف بن تاشفين عام ٥٠٠هـ / ١١٠٦م على أفضل ما يكون ، بل وتوثقت اكثر في عهد علي بن يوسف خاصة بعد أن فشلت الحملة البحرية التي جردها روجر الثاني ملك النورمان في عام ٥١١هـ / ١١١٧م لمساعدة رافع عامل الأمير علي بن يحيى

(١) خليل ابراهيم صالح : المرجع السابق ، ص ٣٥٤ ـ ٣٥٧ .
(٢) ابراهيم حركات : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٨٥ ـ ١٨٦ .
(٣) خليل صالح البشير : المرجع السابق ، ص ٣٧١ .

(٥٠٩ ـ ٥١٥هـ / ١١١٥ ـ ١١٢١م) على مدينة قابس ، والذي كان قد خرج عليه . فقد قام الأمير علي بن يحيى بالاتصال بعلي بن يوسف لوضع الخطط المشتركة ، لمواجهة الخطر النورماني (١) .

كما أدت هذه الحملة الى ان يدرك المرابطون مدى الخطر المترتب على دولتهم ، من وجود النورمان وقوتهم البحرية الضخمة في صقلية ، ولذلك وجه المرابطون أسطولهم بقيادة أبي عبد الله محمد بن ميمون عام ٥١٦هـ / ١١٢٢ م الى جزيرة صقلية فافتتح منها مدينة نقوطرة وعاد محملاً بالكثير من الغنائم والسبايا . وقد أيقن روجر الثاني أن هذه الغزوة لصقلية ، هي من تحريض صاحب المهدية الأمير الحسن بن علي ، عندها قام بإعداد حملة ضخمة بقيادة جرجي بن ميخائيل الأنطاكي بقصد احتلال المهدية ، وقد وصل الأسطول النورماني المكون من ثلاثمائة سفينة تحمل على ظهرها نحو ألف فارس ، في أواخر جمادى الأولى من عام ٥١٧هـ الى ساحل أفريقية . وبعد ان فتح النورمان جزيرة قوصرة (٢) قصدوا المهدية حيث حققوا بعض النجاحات الا ان الدائرة دارت عليهم وعاد من سلم الى صقلية (٣) .

وبعد عام ٥١٧هـ/ ١١٢٣م أصبحت دولة المرابطين عاجزة عن تقديم أية مساعدة لصاحب المهدية ، وكان من نتيجة ذلك أن تعرضت السواحل التونسية الى هجمات متكررة من الأسطول النورماني الذي توج انتصاراته بدخول جزيرة جربة عام ٥٣٠هـ / ١١٣٥م ، والمهدية عام ٥٤٣هـ / ١١٤٨م (٤) .

---

(١) خليل ابراهيم صالح البشير : المرجع السابق ص ٣٧١ .

(٢) جزيرة صغيرة لا تزيد مساحتها على ١٠٠كم تقع بين صقلية وتونس ، وتبعد عن الأولى ١٠٠كم ، وعن الثانية ٧٠كم ، فتحها المسلمون أيام عبد الملك بن مروان ، وهي اليوم تتبع لايطاليا رغم قربها من تونس وتعرف باتنيليرا : انظر : الحميري : المصدر السابق ، ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦ ؛ محمود شاكر : المسلمون تحت السيطرة الرأسمالية ، ص ٢٥ .

(٣) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٦٥ ـ ٦٨ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٦١١ ـ ٦١٢ ؛ السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ج ٢ ، ص ٦٧٨ ـ ٦٧٩ ؛ خليل ابراهيم صالح البشير : المرجع السابق ص ٣٧٢ ـ ٣٧٥ .

(٤) خليل ابراهيم صالح البشير : المرجع السابق ، ص ٣٧٥ ـ ٣٧٦ .

اما بالنسبة للعلاقات المرابطية الحمادية ، فكان يغلب عليها طابع العداء حتى وفاة يوسف بن تاشفين عام ٥٠٠ هـ/١١٠٦م ، ومن أبرز الأمثلة على سوء العلاقات في هذه الفترة ان الحماديين استغلوا انشغال يوسف بن تاشفين بالنصارى في معركة الزلاقة ، وتحالفوا مع قبائل بني هلال لمهاجمة الأراضي المرابطية . الا ان يوسف فوت عليهم ذلك برجوعه بسرعة متناهية بعد انتهاء المعركة ، وقام بتحصين المغرب الأوسط والأقصى ، ثم بعث برسالة الى الأمير الحمادي الناصر بن علناس (٤٥٤ ـ ٤٨١هـ / ١٠٦٢ ـ ١٠٨٨ م) يعاتبه على فعلته ، وفي عام ٤٩٦هـ / ١١٠٢م حاول المنصور بن الناصر الحمادي (٤٨١ ـ ٤٩٨هـ / ١٠٨٨ ـ ١١٠٤م) ان يسترجع مدينة تلمسان من يد المرابطين الا انه فشل في ذلك ، ولكن بعد عام ٥٠٠هـ / ١١٧٦م تحسنت العلاقات بين الطرفين خاصة بعد ظهور محمد بن تومرت لشعور الطرفين بالخطر المشترك ، لذا نجد ان المرابطين يستنجدون بالحماديين لصد هجمات الموحدين عندما اشتد خطرهم فلم يتوان الحماديون في إرسال قواتهم لمساعدة تاشفين بن علي ، الذي اشتبك مع القوات الموحدية في معركة عنيفة الا انه هزم فيها ويبدو ان سبب الهزيمة كان بسبب تواطؤ قائد القوات الحمادية طاهر بن لباب مع عبد المؤمن بن علي قائد الموحدين ، إذ اتصل الأول بالثاني بطريقة سرية وأدّى له الولاء [1] ، وبعد هذا الحادث بقليل سقطت الدولة المرابطية .

ب ـ علاقات المرابطين مع الدولة العباسية

رأينا في التمهيد ، كيف كان العالم الإسلامي منقسماً على نفسه ، يعتريه الضعف وتفرق الكلمة نتيجة للصراعات المذهبية ، خاصة بين الشيعة والسنة ، وكيف أضحت الخلافة العباسية أسيرة لسلطان السلاجقة ، وغدا الخليفة العباسي مسلوب السلطة . الا انه مع ذلك بقي رمزاً للخلافة الإسلامية

(١) ابراهيم صالح البشير : المرجع السابق ، ص ٣٦٠ ـ ٣٧٠ .

السنية تتجه اليه الأنظار وتقام باسمه الخطبة من فوق المنابر .

وكذلك كانت الخلافة الفاطمية قد دخلت دورها الثاني وهو دور الضعف والانحلال ، وانتقلت السلطة من الخلفاء الى الوزراء ، وانقسم البيت الفاطمي على نفسه ، ودخلوا في صراعات مريرة [١] .

ولكن على الرغم من وهن الخلافتين العباسية والفاطمية ، في الفترة المعاصرة لدولة المرابطين فقد كانت الدعوة لإحداهما تعني تبني اتجاه مذهبي معين واتباع سياسة تتمشى والاعتراف بالتبعية لهذه الخلافة او تلك ، وان كانت هذه التبعية أمراً صورياً بحتاً لم يكن له اية قيمة من حيث تمتع الدول الإسلامية التي استقلت عن سلطان العباسيين او الفاطميين بسلطانها الفعلي في بلادها .

وكان المغرب كما هو معلوم مركز الخلافة الفاطمية الأول الذي انتقلت منه الى مصر ، ولذلك كان أهل المغرب منقسمين على أنفسهم فقسم منهم يؤيد الخلافة العباسية وهم السنة المالكية ، وقسم آخر يؤيد الخلافة الفاطمية ، وهم الشيعة الذين تأثروا بالدعاة الفاطميين خلال اقامتهم بين ظهرانيهم . فخطب حكام دولة بني زيري ، وبني حماد للخلافة الفاطمية فترة من الزمن ثم تخلوا عن الخلافة الفاطمية وأعلنوا ولاءهم للخلافة العباسية كما أشرنا من قبل ، وكان انقسام أهل المغرب الى سنة وشيعة يعني من الناحية السياسية ان قيام دولة قوية في بلاد المغرب على مذهب السنة او الشيعة ، انما كان يعني تغييراً كبيراً في ميزان القوى المذهبية والسياسية في بلاد المغرب .

وفعلاً عندما قامت دولة المرابطين السنية مالت بصورة تلقائية الى جانب الخلافة العباسية ، وأخذت تعزز علاقاتها معها باعتبارها رمزاً للخلافة الإسلامية السنية ، وفي المقابل كان الاعتراف بالخلافة العباسية يكسب حكام الدولة المرابطية احتراماً وتقديراً من قبل رعاياهم .

---

(١) انظر : التمهيد .

أما عن أقدم إشارة عن العلاقات العباسية المرابطية فهي موضع خلاف بين المؤرخين ، فقسم منهم ذهب الى انها تعود الى فترة مبكرة من حياة الدولة المرابطية ، وعلى رأس هؤلاء ابن تغري بردى [١] الذي أشار الى انها تعود الى عهد الأمير المرابطي أبي بكر بن عمر (٤٥١ - ٤٨٠هـ / ١٠٥٩ - ١٠٨٧) الذي خطب في عهده للخليفة العباسي ، وتؤيد السكة المرابطية رواية ابن تغري بردى في أن العلاقات بين الطرفين قد بدأت في فترة مبكرة ، وهذا ما دلت عليه بعض الدنانير المرابطية المضروبة في سنة ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م . بمدينة سجلماسة والتي ذكر عليها اسم أمير المؤمنين عبد الله [٢] .

الا ان هذه المسألة الأخيرة موضع خلاف بين المؤرخين وعلماء السكة ، ففريق يرى ان المقصود بأمير المؤمنين هو عبد الله بن ياسين ، وفريق آخر يرى ان المقصود بذلك هو الخليفة العباسي ، ولكن الفريق الأول يعوزه الدليل ، أما الفريق الثاني فلديه الأدلة المنطقية التي تؤكد على ان الخليفة العباسي هو المقصود بأمير المؤمنين الذي ضرب اسمه على سكة سجلماسة ، لأن عبد الله بن ياسين لم يلقب الا بالألقاب التالية : (الإمام ، والشيخ ، والفقيه) ، وكذلك خلفاؤه لم يلقبوا بأمير المؤمنين بل لقبوا ، بالأمير ، وأمير المغرب ، وأمير المسلمين [٣] ، في حين أن عدداً لا بأس به من خلفاء الدولة العباسية قد تلقبوا او سموا بعبد الله ومن أمثلة ذلك : (السفاح : عبد الله بن محمد بن علي ، والمهدي : أبو عبد الله محمد بن المنصور ، والأمين : محمد أبو عبد الله ، والمأمون أبو عبد الله ، والمنتصر بالله : محمد أبو عبد الله ، والمعتز بالله : أبو عبد الله ، والمهتدي بالله محمد أبو عبد الله ، والمستكفي بالله عبد الله) ، بل ان الخلفاء المعاصرين للدولة المرابطية كانت أسماؤهم عبد الله او كانوا يكنون بأبي عبد الله ، فالقائم بأمر الله عبد الله

---

(١) النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٢٦ .

(٢) محمد ولد داداه : مفهوم الملك في المغرب ، ص ١١٣ ؛ عبد النبي محمد : المرجع السابق ، ص ٨٦ دينار رقم ١ .

(٣) خليل ابراهيم صالح البشير : المرجع السابق ، ص ٣٨٤ .

(٤٢٢ ـ ٤٦٧هـ / ١٠٣٠ ـ ١٠٧٤م) ، والمقتدي بأمر الله عبد الله بن محمد المتوفي عام ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م [١] .

ومما يدعم ما ورد على السكة من أن المقصود هو الخليفة العباسي ان الخليفة المستظهر بالله لقب نفسه بعبد الله في الرسالة التي بعثها الى علي بن يوسف[٢] على الرغم من ان اسمه المستظهر بالله أبو العباس أحمد بن المقتدي بالله [٣] .

ويتصدر ابن الأثير [٤] والمراكشي [٥] والسلاوي [٦] الفريق الذي يؤكد على أن الاعتراف بالخلافة العباسية من قبل حكام المرابطين لم يتم الا في عهد يوسف بن تاشفين الذي استجاب لرغبة علماء وفقهاء ووجهاء رعيته الذين خاطبوه بوجوب الاعتراف بالخليفة العباسي لتجب طاعته .

وتختلف الروايات حول بداية العلاقات بين يوسف بن تاشفين والخلافة العباسية ، ولكنها تجمع على أنها كانت علاقات طيبة . وهذا ما أكده ابن عذارى [٧] عندما أورد رفض يوسف لاقتراح أشياخ القبائل عليه في عام ٤٦٦ هـ / ١٠٧٣م بأن يلقب بأمير المؤمنين فرد عليهم بقول : « . . . حاشا لله أن أتسمى بهذا الاسم انما يتسمى به الخلفاء وأنا راجل الخليفة العباسي والقائم بدعوته في بلاد المغرب » .

وفي عام ٤٦٧هـ / ١٠٧٤م وصل الى يوسف بن تاشفين خبر وفاة الخليفة العباسي القائم بأمر الله وبيعة الخليفة المقتدر بالله في الثالث عشر

(١) خليل ابراهيم البشير : المرجع السابق ، ص ٣٨٧ .
(٢) ابراهيم حركات : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٠٠ ـ ٢٠١ .
(٣) السيوطي) تاريخ الخلفاء ، ص ٦٧٨ .
(٤) الكامل ، ج ١٠ ، ص ١٥٥ ، ٤١٧ .
(٥) المعجب ، ص ١٤٧ .
(٦) الاستقصا ، ج ٢ ، ص ٥٨ .
(٧) البيان المغرب ، ج ٤ ، ص ٢٧ .

لشعبان من السنة المذكورة [1] ، ويحدد السيوطي [2] ، تاريخ بداية الصلات بين الطرفين بعام ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م فيذكر انه في هذه السنة بعث صاحب سبتة ومراكش الى الخليفة العباسي يطلب منه أن يسلطنه على ما تحت يده من البلاد فرحب الخليفة العباسي بذلك وبعث إليه بالخلع والأعلام ، والتقليد ولقبه بأمير المسلمين ففرح بذلك وسر به فقهاء المغرب . . وهناك من يحدد بداية هذه العلاقات بعام ٤٨١هـ / ١٠٨٨م [3] ، ومن يحددها بعام ٤٩٠هـ / ١٠٩٨م عندما بعث يوسف بن تاشفين بعثة دبلوماسية مكونة من عبد الله بن العربي ونجله القاضي أبي بكر إلى أبي العباس أحمد المستظهر بالله الخليفة العباسي في بغداد الذي استقبل الوفد في عام ٤٩١هـ / ١٠٩٨م [4] بحضور الوزير العباسي ابن جهير [5] ، وقد أسفرت المقابلة عن اعتراف الخليفة العباسي بشرعية إمارة يوسف بن تاشفين وعاد الوفد يحمل التقليد له وحاملاً إليه أيضاً رسائل من أبي حامد الغزالي ، والطرطوشي يحثانه فيها على مواصلة خدمة الإسلام والمسلمين ويفتيانه في الحكم على ملوك الطوائف بوجوب الخلع [6] .

ولما ورد التقليد الى يوسف بن تاشفين من الخليفة المستظهر بالله ضرب السكة باسمه [7] ، واتخذ السواد شعاراً للمرابطين في ملابسهم وأعلامهم كما

---

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٨ .

(٢) تاريخ الخلفاء ، ص ٦٧٥ .

(٣) حسين مؤنس : سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ، ج ٢ ، ع ١ - ٢ ، ١٩٥٤ ، ص ٦٣ - ٦٥ .

(٤) خليل ابراهيم صالح البشير : المرجع السابق ، ص ٣٩٠ - ومن الجدير بالذكر ان رحلة ابن العربي بدأت في يوم الأحد مستهل ربيع الأول من سنة ٤٨٥هـ وانتهت عام ٤٩٣هـ ، انظر : عبد الجليل الطيار : الدراسات اللغوية في الأندلس ، ص ١٦ .

(٥) عبد الهادي التازي : جامع القرويين ، ج ١ ، ص ١٤٣ ، حاشية رقم ١٠٥ .

(٦) ابراهيم حركات : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٠١ - ١٠٢ .

(٧) عبد النبي محمد : المرجع السابق : انظر (الجداول) - سرهنك : دول البحار ، ج ١ ، ص ٢٩٠ .

أقام الخطبة له على منابر بلاده (١) .

وبقيت العلاقات المرابطيّة العباسية طيبة طوال حياة يوسف بن تاشفين ، وآخر إشارة تدل على ذلك تعود الى عام ٤٩٨هـ / ١١٠٤م عندما بعث يوسف بن تاشفين رسالة الى المستظهر بالله العباسي يخبره فيها أنه خطب له على منابر مملكته ويطلب منه الخلع والتقليد فبعث إليه بما طلب (٢) .

ويظهر من الرواية السابقة ان يوسف بن تاشفين كان يرسل بين الفينة والفينة رسائله الى الخليفة العباسي لتجديد العهد له وتوكيد أواصر العلاقات الطيبة بينهما .

وفي عهد علي بن يوسف غلب على العلاقات المرابطية العباسية طابع الود والألفة وهذا يتضح من خلال الرسائل المتبادلة بين الطرفين التي كان يؤكد فيها أمير المسلمين علي بن يوسف على حرصه على التبعية للخليفة العباسي وإخباره بأوضاع بلاده وما يقوم به من جهاد ضد الأعداء وحرصه على نشر العدل والمساواة بين رعيته .

وقد دأب الباحثون عند الإشارة لهذه العلاقات على الاستشهاد بالردود العباسية دون إيراد أية رسالة صادرة عن أمير المسلمين علي بن يوسف الى الخليفة العباسي ، ولكن البحث بحمد الله أسفر عن العثور على رسالة موجهة من علي بن يوسف الى الخليفة المستظهر بالله العباسي والتي يمكن ان نعتبرها نموذجاً لرسائلة للحضرة العباسية .

ويبدو أن المكاتبات بين أمير المسلمين علي بن يوسف والخلافة العباسية تعود الى فترة مبكرة من حكمه ، وهذا ما يرجحه الدكتور حسين مؤنس مستشهداً برسالة موجهة من الخليفة العباسي المستظهر بالله الى علي بن يوسف ، وهي بدون تاريخ ، ولكنه يرجح انها كتبت في السنة الأولى

---

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ، ج ٤ ، ص ٣١٤ .

(٢) ابن تغري بردى : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١٩١ .

من حكم علي بن يوسف سنة ٥٠٠هـ / ١١٠٦م ، وهي جواب على كتاب أرسله علي بن يوسف يطلب فيه التقليد فرد عليه الخليفةالعباسي بما طلب ، وأوصاه بالاستمرار في الجهاد في سبيل الله ، ومن فصول هذه الرسالة . « من عبد الله أبي العباس المستظهر بالله أمير المؤمنين الى مقيم الدولة العباسية وزعيم جيوشها المغربية علي بن يوسف بن تاشفين .. أما بعد فالحمد لله مقدماً على كل مقال .. وعرض بحضرة أمير المؤمنين كتابك الموضح لاخلاص عقيدتك ، المطبوع بطابع الدين المعربة عن تمسك بحبل الله المتين ... وتجرد للدفاع عن الإسلام والمسلمين ، وعن اعراض العاجلة بالمغفرة من رب العالمين ، وأعلن بالدعاء لأمير المؤمنين على ذوائب المنابر تكن الظافر بالأعداء والظاهر ... »[1] .

ومن الرسائل التي بعث بها علي بن يوسف الى الخليفة العباسي المستظهر بالله رسالة يبدو أنها كتبت بعد أن جاءه التقليد من بغداد ، فهو يؤكد فيها على تمسكه بولائه للخلافة العباسية ومخبراً اياه بحال بلاده واستمراره في إقامة الحق ومقارعة الأعداء عن ثغور المسلمين والرسالة غير مؤرخة ، ويظهر انها أرسلت بين عامي ٥١١هـ و٥١٢هـ / ١١١٧م و١١١٨م ، وذلك على ضوء رسالة أرسلت من قبل الخليفة العباسي المستظهر بالله عام ٥١٢هـ / ١١١٨م يظهر انها كانت رداً على الرسالة تلك والتي سنورد بعضاً من فصولها بعد رسالة أمير المسلمين علي التي من فصولها : (... ونسأله الصلاة على محمد رسول الله المنتخب اللباب من أكرم الأنساب وأن يختص حضرة أمير المؤمنين سليل الخلائف بصفايا العوارف ويجمع على الأقدار بحقها والاعتراف بفضلها كلمة المخالف والمحالف وعقيدة المتجانف والموالف عن أوفى عهد وأقوى عقد في التمسك بعلائق طاعتها والتقليد لقلائد إمامتها بعد ان وصل اليه كتابها العزيز من مراسمها العالية ... على أنه ما زال يحمل مشايعتها ومبايعتها معتصماً وبعلامة إمامتها وخلافتها معلماً والأحكام سنتها العادلة متقلداً ملتزماً وفي مجاهدة أعداء الدين وحماية أرجاء المسلمين

---

(١) حسين مؤنس : سبع وثائق جديدة عن دول المرابطين وأيامهم في الأندلس ، ص ٦٦ ـ ٦٨ .

مجتهداً . . . يشيد بالدعاء لها على منابر بلاده . . . »[1] ، ثم يوضح اليه انه جعل تقوى الله تعالى أساساً لسياسته ومعاملاته وجعل القرآن والسنة دستوراً لدولته ، وأنه قطع دابر الظلم وضبط أعمال مملكته ، ووفر الجند من أجل الجهاد في سبيل الله فقضى على أطماع الكفار في بلاد المسلمين عازياً ما تتمتع به بلاده من أمن وقوة الى بركة تبعيته الى الخلافة العباسية .

وفي عام ٥١٢هـ / ١١١٨م رد الخليفة العباسي فيما يبدو على رسالة أمير المسلمين السابقة ومما جاء فيها بعد المقدمات التقليدية : « . . . وأما ما أنهيته من توفر الأجناد ومثابرتك على الجهاد لدفع ادناس الكفرة فيما يليك من البلاد فانك وطائفتك من « حزب الله وحزب الله هم الغالبون » . . . وتجرد للدفاع عن الإسلام والمسلمين وحطم صاعدك في نحور أعداء الله الكافرين ، وأعلن بالدعاء لأمير المؤمنين على المنابر تكن الظافر بالأعداء . . »[2] .

ويبدو ان تلك العلاقات التي رأيناها نقية صافية بين الدولة المرابطية والدولة العباسية في عهد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وبداية عهد علي بن يوسف قد طرأ عليها بعض التغيير في أواخر عهد علي بن يوسف اذ اننا لم نجد اسم الخليفة العباسي على دينار ضربه الأمير تاشفين ولي عهد علي بن يوسف[3] ، وهذا ما أكده المراكشي[4] عندما قال : « وانقطعت الدعوة بالمغرب لبني العباس بموت أمير المسلمين وابنه » .

جـ ـ علاقات المرابطين مع الدولة الفاطمية

لم يفكر المرابطون في الاعتراف بالخليفة الفاطمي في القاهرة لسوء

---

(١) محمد بن ابراهيم بن خيرة المواعيني الإشبيلي : ريحان الألباب وريعان الشباب في مراتب الآداب ، ورقة ٣٥ب ، ١٣٦ (انظر الرسالة في الملاحق ملحق رقم ٣ .

(٢) مؤلف مجهول : الحلل الموشية ، ص ٨٨ ـ ٨٩ .

(٣) محمد ولد داداه : المرجع السابق ، ص ١١٣ .

(٤) المعجب ، ص ٢٧٢ .

اعتقادهم في الفاطميين ولعداوتهم لهم ، وهذا يتفق مع موقف الدولة العباسية التي يخطبون باسمها في المغرب فقد كانوا ينظرون الى الخليفة العباسي على انه الخليفة الشرعي الذي يجب ان يخطب له على منابرهم ، وفي المقابل كانوا لا يعترفون بشرعية خلافة الفاطميين (١) .

وحاول أمير الجيوش بدر الجمالي تحسين علاقاته مع المغاربة الا انهم لم يميلوا إليه ، وعندها أمر بقتل من ظفر به منهم ، ولكن ابنه الأفضل بن بدر الجمالي نجح في استقطاب المغاربة الى بلاده ، ولحسن معاملته لهم أخذ العديد منهم يرحلون الى مصر ، وقد شارك بعضهم في حروب الأفضل ضد الصليبيين ، فيذكر في هذا الصدد ان رجلين أحدهما يلقب بالفقيه قد حضرا مع الأفضل بن بدر الجمالي أمير الجيوش بمصر موقعته مع الافرنج(٢) في عام ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م ، وأبليا بلاء حسناً ثم توجه الفقيه الى بغداد فوعظ في جامع القصر واجتمع له العالم العظيم وكان يعظ وهو متلثم (٣) لا يظهر منه غير عينيه(٤) .

ويظهر ان هيمنة الفاطميين في مصر على طريق حجيج المغرب والأندلس الى مكة وخاصة بعد نجاح الصليبيين في إقامة مملكة بيت المقدس والسيطرة على الكرك إضافة لسيطرة الفاطميين على الحجاز في فترات متقطعة (٥) ، جعل المرابطين يجنحون الى سياسة مسالمة الخلافة الفاطمية ليضمنوا سلامة حجاجهم ، وهذا ما دلت عليه إحدى الوثائق التي عثرت عليها وهي عبارة عن رسالة موجهة من قبل علي بن يوسف بن تاشفين الى الأفضل بن بدر الجمالي يخبره فيها عن أحوال الدولة المرابطية ، وما حققه من انتصارات على الممالك النصرانية خاصة مملكة برشلونة ثم يثني على

---

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٤١٤ .

(٢) محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ١٥٩ .

(٣) هذا يعني انه من المرابطين لأنه من عاداتهم التلثم .

(٤) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٤١٤ .

(٥) محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ٣٠ - ٣٦ .

الأفضل بن بدر الجمالي وعلي خدماته التي يقدمها للحجيج المارين في مصر ويوصيه على شخصية كبيرة من المرابطين اشتهرت في الجهاد تريد الحج الى بيت الله الحرام ، وزيارة المدينة المنورة ، وتعود أهمية هذه الوثيقة الى أنها الوحيدة التي نملكها عن العلاقات المرابطية الفاطمية .

ومن فصول رسالة أمير المسلمين علي بن يوسف الى الأفضل بن بدر الجمالي ، « . . . الى الأفضل صاحب مصر . . . من حضرة المغرب مقر سلطاننا . . . اثر قفولنا من الغزوة الصافية وقد حسنت لنا آثار . . . وأناخت جيوشنا بمدينة برجلونة أعز ، بلادهم داراً وأجلها مقداراً . . . ولما كان بيننا وبين حضرته الكريمة . . . وجب ان تهدي اليها حتى أمكننا رسول وتأتي لنا في مطالعتها سؤل جملاً من أخبارنا ولمعاً من آثارنا . . . ويتأدى كتابنا غداً الى حضرته العزيزة . . . من يد فلان . . . وأحد كبراء اسرتنا وأعيانها . . . رأى ان ينتقل من حسن الى حسن وأن يجمع بين الغزو والحج . . . [1] » .

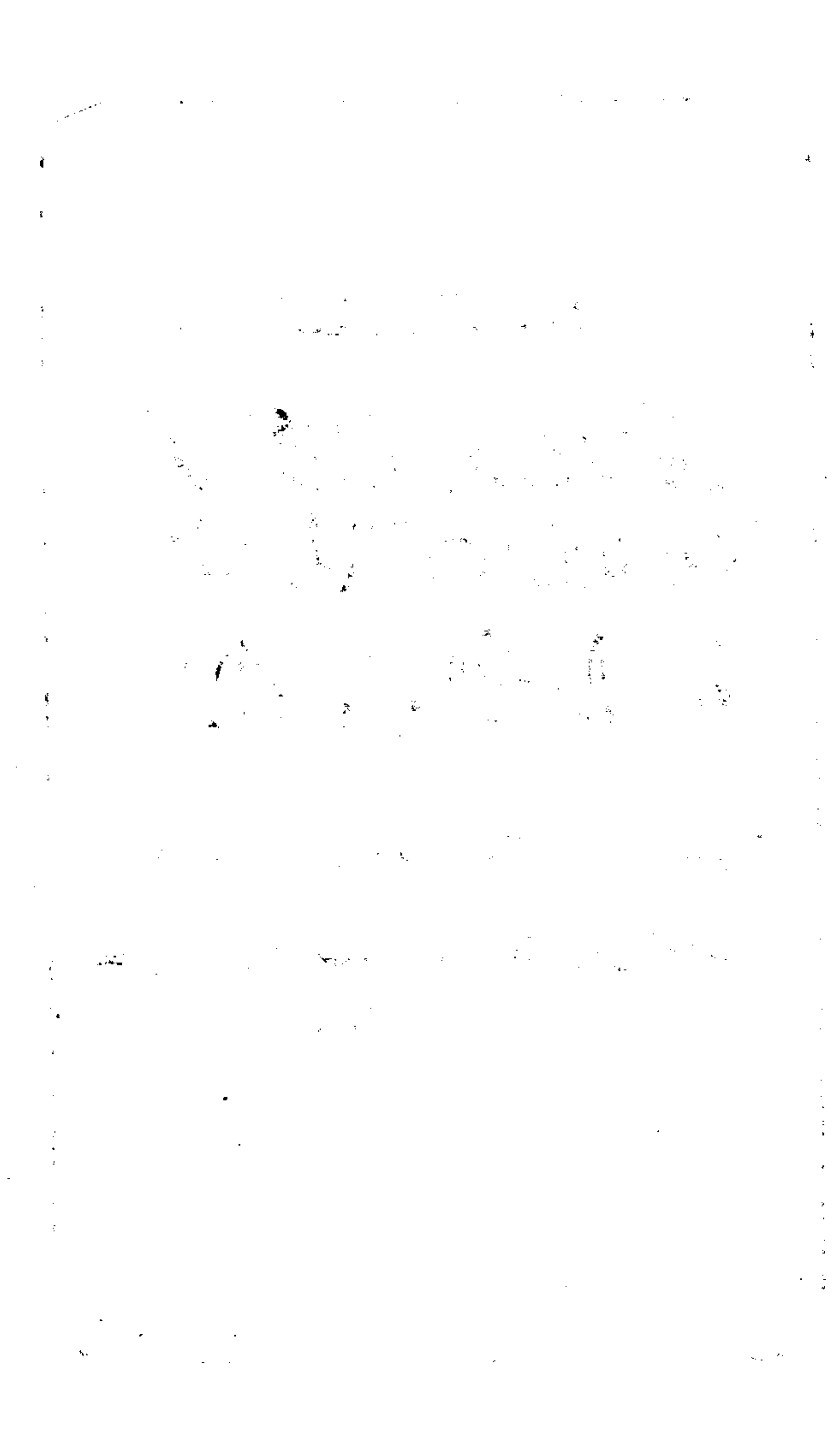
(١) ابن خيرة المواعيني : المصدر السابق ، ورقة ٣٦ ، انظر الرسالة كاملة في الملاحق ، ملحق رقم ٢ .

الباب الثالث

جهاد علي بن يوسف بن تاشفين ضدّ الممالك والإمارات الإسبانية النصرانيّة

الفصل الأول : جهاده ضد مملكة قشتالة وقلمرية

الفصل الثاني : جهاده ضد مملكة أرغونة وإمارة برشلونة



الفصل الأول
جهاده ضد مملكة قشتالة وقلمرية

لقد اتخذ الصراع بين النصارى والمسلمين في شبه الجزيرة الإيبيرية صفة الجهاد المقدس من قبل المسلمين ، وصفة حركة الاسترداد من قبل النصارى ، وكان كل طرف يطمع بأن يسود دينه في هذه الرقعة ، وقد استطاع الهلال ان يرتفع على الصليب عدة قرون بفضل جهود حكام الأندلس المخلصين . وكان الأمير هشام بن عبد الرحمن (١٧٢ ـ ١٨٠هـ / ٧٨٩ ـ ٧٩٦م) أول من بدأ حركة الجهاد ضد الجليقيين فكان أول من جهز الصوافي والشواتي ضدهم ، وانزل بهم في سنة ١٧٥هـ/ ٧٩١ م هزيمة منكرة وألحق بهم خسائر كبيرة في الأرواح والعتاد في معركتين كبيرتين [١] . وتمكن ابنه الحكم بن هشام الربضي (١٨٠ ـ ٢٠٦هـ / ٧٩٦ ـ ٨٢٢م) من تحقيق انتصارات رائعة عليهم عام ١٩٢هـ / ٨٠٨م ، وكذلك نجح في التصدي لجيوش الفرنجة بقيادة لويس بن شارلمان عام ١٩٣هـ / ٨٠٩م عندما حاولت احتلال مدينة طرطوشة وفي عام ١٩٧هـ / ٨١٣م ، افتتح عدة حصون ، وفي العام التالي أغار على أراضي برشلونة [٢] ، أما عبد الرحمن الأوسط فلم يكن

---

(١) كانت الموقعة الأولى عند ألبة ، والثانية مع برمودا الكبير ملك استوريش عند نهر بوربيا انظر السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٢١٦ .

(٢) المرجع السابق نفسه ، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ .

أقل حماساً للجهاد من سابقيه ، فتصدى للنورمان في عام ٢٢٩هـ / ٨٤٤م بكل بسالة واجلاهم عن الأندلس ، وقام أيضاً بعدة حملات ناجحة في أعوام ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢٢٤ ، ضد الأسبان النصارى وكبدهم خسائر فادحة [١] .

وتابع الخليفة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٣٠هـ / ٩١٢ - ٩٦٢م) جهاده للممالك الاسبانية النصرانية بحماس منقطع النظير فبعد ان نجح في توحيد جبهته الداخلية ، أخذ يجيش الجيوش ويقودها في بعض الأحيان بنفسه ضد هذه الممالك حتى دوخها وأذعنت له بالطاعة ، وهادنته ، وبعثت اليه بالسفارات والهدايا لخطب وده ليكف عن غزو بلادها [٢] .

أما المنصور بن أبي عامر فلم تشغله أمور الدولة عن الجهاد ، فقام بخمسين غزوة ضد الممالك النصرانية لم تنكس له فيها راية ، فغرس في قلوب أعدائه الذعر والهلع وشرد جيوشهم ، وهدم حصونهم ومعاقلهم ، وأذلهم بانتصاراته العديدة وغزواته المتكررة ، ففي عام ٣٧١هـ / ١٠١١م تمكن من اسقاط سمورة في جنوب مملكة ليون ، وكذلك تمكن من الاستيلاء على برشلونة وأحرقها ، وفي عام ٣٨٧هـ / ٩٩٧م وصل الى شنت ياقوب في كومبوستلا ، والتي تعتبر ثالثة المواضع التي يقصدها الحجاج النصارى بعد بيت المقدس وروما ، ولكنه لم يتعرض للكنيسة نفسها التي يدعي الأسبان النصارى ان القديس يعقوب مدفون بها . وفي عام ٣٩٠هـ / ٩٩٩م اقتحم قشتالة وهزم النصارى هزيمة نكراء [٣] .

وبعد وفاة المنصور بن أبي عامر عام ٣٩٢هـ / ١٠٠١م تابع خليفته عبد الملك بن المنصور الجهاد ضد الممالك النصرانية فأوغل في عام ٣٩٣هـ / ١٠٠٢م في أراضي برشلونة وفي عام ٣٩٤هـ / ١٠٠٣م احتكمت اليه ملوك

---

(١) السيد عبد العزيز سالم ، ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .

(٢) المرجع السابق نفسه ، ص ٢٩٠ - ٢٩١ .

(٣) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ١٣٤ ؛ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٣٣١ - ٣٣٢ - وعن شنت ياقوب انظر : شكيب ارسلان : الحلل السندسية ، ج ٢ ، ص ٦١ - ٦٢ .

النصارى فيما شجر بينهم من خلافات حول العرش ، فتوسط عبد الملك بين قومس قشتالة شانجة بن غرسية وبين قومس غليسية مندس جنثالث (Menen-do Gonzalez) الوصي على الفونسو الخامس ملك ليون الصغير ، وقصد قومس قشتالة شانجة بن غرسية قرطبة لطلب مودة عبد الملك وعرض خدماته للتحالف معه ضد الممالك النصرانية الأخرى [١] .

ولكن بعد وفاة عبد الملك بن المنصور في عام (٣٩٩هـ / ١٠٠٨م) تغيرت الأوضاع لصالح الممالك النصرانية . وتوقف الزحف الإسلامي نحو الشمال الاسباني فترة وجيزة من الزمن [٢] ، فبعد هذا التاريخ انتثر عقد الأندلس ، خاصة بعد سقوط الخلافة الأموية في الأندلس عام ٤٢٢ هـ / ١٠٣٠م ، اذ انتزى المنتزون الطامعون في السلطة كل في منطقته واذا بنا أمام مجموعة كبيرة من دويلات الطوائف ديدنها التنافس والتناحر على السلطة ، وأعماها هذا التنافس عن رسالتها الجهادية ، فأخذت كل دويلة تستعين بالنصارى على اختها ، ودفع معظمهم الأتاوات لملوك النصارى بكل خسة ونذالة كما أوضحنا في التمهيد .

وفي هذا الوقت الذي كان يعاني فيه الأندلس ويلات التفكك والتخبط في حمامات دماء الحروب الأهلية كانت الممالك النصرانية في الشمال الأسباني وأوروبا تعد نفسها للقيام بعمليات منظمة ضد المسلمين في المشرق والأندلس . ووضع بابوات اوروبا خططهم لاحتواء الصراع الدائر بين الممالك النصرانية الشمالية والمسلمين وصبغه بالصبغة الصليبية بدلاً من الصبغة القومية ، واستغلوا مكانتهم لالهاب عواطف النصارى الأسبان والأوروبيين ضد المسلمين في الأندلس ، وممن ساهم بشكل جدي في هذا المجال البابا ايربان الثاني الذي أصدر فتواه للحجاج الأوروبيين العازمين على التوجه لأداء فريضة الحج الى بيت المقدس بأنه خير لهم ان ينفقوا أموالهم في عمارة

---

(١) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ٣٣٦ - ٣٣٩ .

(٢) ستيفن رنسيمان : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٣٤ - ٣٥ .

المدن الاسبانية التي خربها المسلمون . وبادر البابا الاسكندر الثاني الى إصدار صك غفران لكل من قاتل من أجل الصليب في اسبانيا ، وقام بتجنيد الجيوش لمواصلة قتال المسلمين في الأندلس ، وأخذت جموع المتطوعة من الاوروبيين خاصة من الفرنسيين تتدفق على الممالك النصرانية الشمالية .

وأصدر البابا جريجوري السابع نداء الى اوروبا يذكر فيه ان اسبانيا تنتمي الى المقر المقدس ، وان المسيحيين سوف ينعمون بما يفتحونه من أيدي المسلمين من الأراضي ، وأخذ يؤيد ويشجع كل حملة تتوجه من أوروبا الى اسبانيا [1] .

وأتت هذه الجهود ثمارها برفع معنويات نصارى الشمال الأسباني ، ونجح الفونسو السادس في احتلال مدينة طليطلة عام ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م ، عندها استيقظ ضمير ملوك الطوائف فانطلقت صرخات الاستغاثة منهم تطلب العون والمساعدة من دولة المرابطين فلم يتوان يوسف بن تاشفين عن مساعدتهم وتقدم بجحافله الى الأندلس ليقهر النصارى في موقعة الزلاقة في عام ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م ، ثم يعود الى بلاده غانماً كما أوضحت في التمهيد .

وبعد هذا النصر المؤزر الذي أحرزه يوسف بن تاشفين على النصارى ، انطلقت صرخات الاستغاثة من نصارى الشمال الأسباني مدوية في أنحاء أوروبا داعية الى حرب صليبية جديدة ضد المسلمين فتدفقت المتطوعة من أوروبا الى الشمال الأسباني منذ عام ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م [2] مما ألهب نفوس نصارى الشمال حماساً لمواصلة محاربة المسلمين ، في الوقت الذي يئس فيه يوسف بن تاشفين من توحيد كلمة ملوك الطوائف لمواجهة الحلف الصليبي ؛ عندها لم يجد بداً من إسقاط ملوك الطوائف ليحبط مخططات النصارى التي كانت تهدف الى طرد المسلمين من الأندلس ، فتم له ذلك ، وأصبح وجهاً لوجه معهم كما أوضحت في التمهيد .

---

(١) رنسيمان : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٨٤ .

(٢) نفس المرجع السابق والصفحة .

لقد حمل المرابطون راية الجهاد وخاضوا معارك مشرقة ساهمت في تأخير سقوط الأندلس عدة قرون ، وفي نفس الوقت كان الحماس الديني قد وصل الى القمة عند النصارى خاصة بعدما نجح الصليبيون في احتلال بيت المقدس عام ٤٩٢هـ / ١٠٩٨م (١) ذهب الأسبان للانضمام الى الحملات الصليبية المتوجهة الى الشرق للمشاركة في شرف القتال (٢) ، ولكن رجال الكنيسة الأوروبية رفضوا مشاركة الأسبان في هذه الحملات لإدراكهم خطورة الجبهة الأسبانية مع المسلمين ، لأن المعارك الدائرة في اسبانيا تدور على أبواب أوروبا ذاتها وكان من الممكن ان تتغير الخارطة السياسية ، والاجتماعية والاقتصادية لو قدر للمجاهدين المسلمين ان ينجحوا في اختراق الممالك النصرانية الشمالية في اسبانيا ، أما في الشرق فكان الحال مختلفاً فلو لم يحالفهم الحظ قنعوا بالعودة الى ديارهم (٣) ، ويظهر أيضاً ان الصليبيين كانوا يهدفون من وراء إشعال حرب في شبه الجزيرة الايبيرية اشغال مسلمي الأندلس عن إخوانهم في المشرق فلا يقدمون لهم أية معونة (٤) ، أجل لقد تحولت الدعوة البابوية لحرب صليبية في أسبانيا الى اتجاه عملي ، وتجسدت تلك الدعوة بشكل جلي عندما حشد الفونسو المحارب حملة صليبية ضخمة شارك فيها عدد كبير من الأوروبيين أمام سرقسطة لاسقاطها فكللت جهودهم بالنجاح وأمن بابا روما بعد ذلك على سلامة الحجاج المتوجهين لزيارة كنيسة شانت ياقوب (٥) .

بهذه الروح المجبولة بالتعصب والحقد كانت الممالك النصرانية تحارب المسلمين في الأندلس وتسعى لطردهم من ديارهم إلا انه يجب عدم تجاهل

---

(١) ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٢ ، ص ١٥٦ .

(٢) عبد الكريم التواتي : مأساة انهاء الوجود العربي في الأندلس ، ص ٦٠٠ .

(٣) حسن محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ٢٤٧ .

(٤) عبد الكريم التواتي : المرجع السابق ، ص ٦٠٠ .

(٥) رنسيمان : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٣٥ ـ الفصل الخاص بعلاقات المرابطين مع بني هود في سرقسطة .

دور العامل الاقتصادي في تحريك نصارى الشمال نحو الجنوب الإسلامي ، فقد كان سكان الشمال الأسباني جفاة غير مثقفين ، وقليل من أمرائهم من كان له حظ من مبادىء العلم ، وكانوا من الفقر وعسر الحال أعجز من أن يتمتعوا بفنون الرخاء والدعة التي كان يتمتع بها أهل الأندلس الإسلامي ، غير انهم كانوا رجال حرب وجلادة، وكانوا يبيعون شجاعتهم لمن يدفع أغلى ثمن لأنهم كانوا يحاربون ليعيشوا تحت وطأة هذه الظروف الاقتصادية الممزوجة بالروح الصليبية كان النصارى يحاربون المسلمين في الأندلس (١) .

ولقد استجاب المرابطون للتحدي الصليبي وأحبطوا الكثير من مخططاتهم التوسعية في الفترة الأولى من حكمهم للأندلس فقد حقق يوسف بن تاشفين انتصارات رائعة عليهم ولما قضى نحبه سار ولده علي بن يوسف على خطاه في الجهاد فخاض سلسلة من المعارك الحاسمة مع أعداء أمته ربح بعضاً منها وخسر بعضها الآخر .

ولكن أوضاع المرابطين بدأت تضطرب بعد خروج محمد بن تومرت عليهم مما أدى الى رجحان كفةالنصارى ونشاط حركة الاسترداد ، وأخذ المرابطون يفقدون الكثير من مواقعهم الاستراتيجية في الأندلس وكان ذلك بداية لأفول نجم المسلمين في هذه البلاد ، ولنتحدث بشيء من التفصيل عن جهاد علي بن يوسف ضد هذه الممالك الاسبانية النصرانية .

جهاده ضد مملكة قشتالة

لقد حالت الظروف دون توغل الجيوش الإسلامية في المناطق الشمالية الغربية من شبه الجزيرة الإيبيرية والمعروفة باسم اشتوريس (Asturias) ، مما أتاح للنصارى فرصة لاقامة مملكة لهم في منطقة ليون ، وحتى تحمي هذه المملكة الناشئة نفسها من غارات الجيوش الإسلامية قامت بانشاء حزام من

---

(١) لين بول : قصة العرب في اسبانيا ، ص ١٧٣ .

القلاع والحصون خاصة من جهة الشرق والجنوب ، وقد عرفت هذه القلاع والحصون في المصادر الاسلامية باسم القلاع بينما سماها الاسبان كاستيلوس (Castellos) أي الحصون . وقد تمتعت هذه القلاع بشبه استقلال ذاتي عن مملكة ليون للتمكن من اتخاذ التدابير السريعة لمواجهة أي هجوم يقع فجأة ودون الرجوع للحكومة المركزية في ليون [١] .

وفي القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي اتحدت هذه القلاع تحت قيادة فرنان جونثالث (Fernan Gouzalez) ! الذي كان مقتنعاً بضرورة تحرير قشتالة من سلطان ليون ، وفعلاً أعلن الحرب على ملك ليون راميرو الثاني ، وانتهى الأمر باستقلال فرنان في قشتالة [٢] .

وتنقسم مملكة قشتالة الى قسمين ، قشتالة القديمة وهي المنطقة الشمالية التي نشأت فيها والمقاطعات التي حولها مثل برغش ، وشقوبية [٣] . وقشتالة الجديدة التي تتكون معظمها من أراضي مملكة طليطلة بعد سقوطها عام ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م والتي تمتد جنوباً الى جبال الشارات [٤] .

ثم ما لبثت قشتالة ان التهمت مملكتي أرغونة ونبرة وبسطت نفوذها ولغتها رسمياً على جميع اسبانيا فيما بعد، وكذلك امتدت لغتها جنباً الى جنب مع حركة الكشوف الجغرافية [٥] وقد وصفها القلقشندي [٦] بأنها مملكة عظيمة ذات عمالات متسعة.

وحسن تقديره ان دب الشقاق بين النصارى

ومن حسن حظ أمير المسلمين علي بن يوسف أنه ما أن ارتقى عرش

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ق ٣ ، ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩ ، حاشية رقم ١ .

(٢) Abdurrahman Ali El-Hajji, Andalusian Diplomatic relations with Western Europe During the Umayyad period, A.H. 138-366/A.D. 755-976, P.49.

(٣) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ق ٣ ، ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩ ، حاشية رقم ١ .

(٤) أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٢٨٢ .

(٥) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٣ ، ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩ ، حاشية رقم ١ .

(٦) صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٧٠ .

دولته حتى كان نجم ألفونسو السادس قد أفل فجأة في عام ٥٠٢هـ/١١٠٨م [١] ، ولم يترك الفونسو السادس خليفة له الا ابنة واحدة تسمى أوراكا (Urraca) التي لم تلبث ان تزوجت من الفونسو الأول المعروف بالمحارب وبذلك اتحدت قشتالة وأرغونة تحت سيادته . ولكن هذه الوحدة لم تدم طويلاً إذ سرعان ما دب الشقاق بين الزوجين ، واستمر عدة سنوات ، واستقر الأمر على فسخ زواجهما عام ٥٠٨هـ / ١١١٤م على أن يكون الفونسو المحارب ملكاً لأرغونة وقشتالة ، وتكون أوراكا ملكة لليون وجليقية [٢] .

وقد منحت النزاعات الداخلية في مملكة قشتالة أمير المسلمين علي بن يوسف فرصة طيبة ليسدد ضرباته الى أعماق هذه المملكة التي كانت تترنح في عباب حروبها الأهلية والتي قضت على أفذاذ أبطالها أمثال البارهانس [٣] ، قائد قشتالة الكبير الذي كان صنواً للقائد الشهير القمبيطور [٤] .

وقبل ان يقدم أمير المسلمين علي بن يوسف على تنفيذ جهاده ضد الممالك الاسبانية النصرانية أراد ان يطمئن على الجبهة الأندلسية التي ستكون مركز انطلاقه نحو الشمال ، وخطاً من خطوط تموينه الهامة في حملاته تلك - ولذلك جاز الى الأندلس بعد توليه السلطة بمدة يسيرة في منتصف عام ٥٠٠هـ / أوائل ١١٠٧م ، وبادر الى نقل العاصمة الأندلسية من قرطبة الى غرناطة . ويبدو أن ذلك يعود لأسباب استراتيجية وأمنية أهمها : ان معظم سكان غرناطة كانوا من البربر فهم أكثر انقياداً وتعاطفاً مع أبناء جلدتهم من الأندلسيين ، وانها من الناحية العسكرية أقرب الى مسرح العمليات العسكرية

---

(١) ابن عذاري : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٥٠ .
(٢) حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، ص ١٠٦ - ١١١ .
(٣) اسمه البارفانييث ابن أخي السيد القمبيطور كان من أكبر قواد الفونسو السادس وقد توفي عام ٥٠٨هـ انظر : ابن أبي زرع : روض القرطاس ، ص ١٤٥، حاشية رقم ٨٦ ،حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، ص ١٢٧ ، حاشية رقم ٢ .
(٤)محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ٧٣ .

التي كانت تقوم بها القوات المرابطية في شرق الأندلس ، كما انها أقرب الى بلاد العدوة مصدر التموين والامداد للمرابطين في الأندلس [1] .

وقد نبه قائد المرابطين الشهير يحيى بن غانية [2] لأهمية غرناطة قائلاً : « وهي دار منعة وكرسي ملك ومقام حصانة » كما ذكر المرابطين بأهميتها وهو على فراش الموت قائلاً : « الأندلس درقة وغرناطة قبضتها فاذا جشتم يا معشر المرابطين القبضة لم تخرج الدرقة من أيديكم » [3] . لكل هذه الاعتبارات كانت غرناطة عاصمة ملائمة للمرحلة المقبلة .

كما قام أمير المسلمين علي بن يوسف بتعيين شقيقه تميم والياً للعاصمة الجديدة غرناطة ، وجعله قائداً عاماً للقوات المرابطية في الأندلس ، وعين محمد بن أبي بكر اللمتوني على قرطبة . ثم ما لبث أن عين محمد بن الحاج على ولاية بلنسية وشرق الأندلس ، حيث استطاع منها ان يدخل مدينة سرقسطة ، كما تقدم في الباب السابق [4] وبعد ان اطمئن أمير المسلمين علي بن يوسف على الجبهة الأندلسية ، أعطى في عام ٥٠١هـ / ١١٠٨م إشارة البدء بالجهاد لأخيه تميم ضد مملكة قشتالة [5] .

ولم يكن اختيار هذا التاريخ المبكر من بداية حكمه اختياراً عشوائياً بل كانت له مبرراته . فبالاضافة للاعتبارات التي ذكرناها وهي تمزق الجبهة الداخلية القشتالية كان علي بن يوسف يتوق للرد على غارات الفونسو السادس الذي أخذ يعيث في أراضي المسلمين في الأندلس ، وخاصة بعدما شاع خبر

---

(١) حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، ص ١٠٧ .

(٢) هو أبو زكريا بن غانية من كبار قواد المرابطين في الأندلس وقد بقي على ولائهم حتى بعد سقوط دولتهم . فعندما سقطت مراكش بيد الموحدين امتنع في غرناطة فلم يدخلوها الا على أشلائه عام ٥٤٣هـ / ١١٤٩م انظر ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ٩٧ ـ ٩٨ .

(٣) نفس المصدر السابق والصفحات .

(٤) انظر : الباب الثاني الفصل الأول .

(٥) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٤ ، ص ٤٩ ـ ٥٠ ؛ محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ٦٠ ـ ٦١ .

مرض أمير المسلمين يوسف بن تاشفين عام ٤٩٨هـ / ١١٠٤م . ففي هذا التاريخ أرسل الفونسو السادس حملة مكونة من ثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل وصلوا في غاراتهم الى أحواز إشبيلية . فلما ارتقى علي بن يوسف عرش دولة المرابطين لم ينس هذه الأعمال التي قام بها الفونسو السادس وأراد ان يبادره بالهجوم معاقبة له على ما فعله في ديار المسلمين [١] .

وربما هناك اعتبارات أخري جعلت أمير المسلمين علي بن يوسف يقوم بإعلان الجهاد في هذه الفترة المبكرة ضد الممالك النصرانية. ويبدو أن أهم هذه الاعتبارات هي محاولته صرف الجهود والطاقات نحو الجهاد بدلاً من ان تستغل في النزاعات الداخلية ، فقد لاحظنا انه منذ اللحظات الأولى لتوليه للحكم عارضه يحيى بن أبي بكر ، وابن الحاج ، ومن ثم فمن المرجح انه رأى ان انصراف المرابطين للجهاد خير موحد للأمة بدلاً من الشحناء والبغضاء .

موقعة اقليش (Ucle) :

وبدأ تميم يعد العدة للغزو واستطاع أن يجهز جيشاً جيد الاعداد والعدة . وخرج من غرناطة في العشر الأواخر من رمضان عام ٥٠١ هـ / العشر الأوائل من مايو ١١٠٨ م متوجهاً لغزو أراضي قشتالة ، فتوجه إلى جيان [٢] ولبث فيها أياماً قلائل . وكانت الامدادات تتوالى على قواته خلال الطريق فالتحقت بها قوات من قرطبة بقيادة أبي عبد الله محمد بن رنق . ثم سار تميم من جيان الى بياسة في الشمال الشرقي ، ومنها تابع مسيرته شمالاً صوب أراضي قشتالة ، وفي الطريق إليها وافته حشود مرسيه بقيادة فاتحها المشهور ابن عائشة شقيق علي بن يوسف ، ثم لحقت به قوات بلنسية بقيادة واليها محمد بن فاطمة [٣] .

---

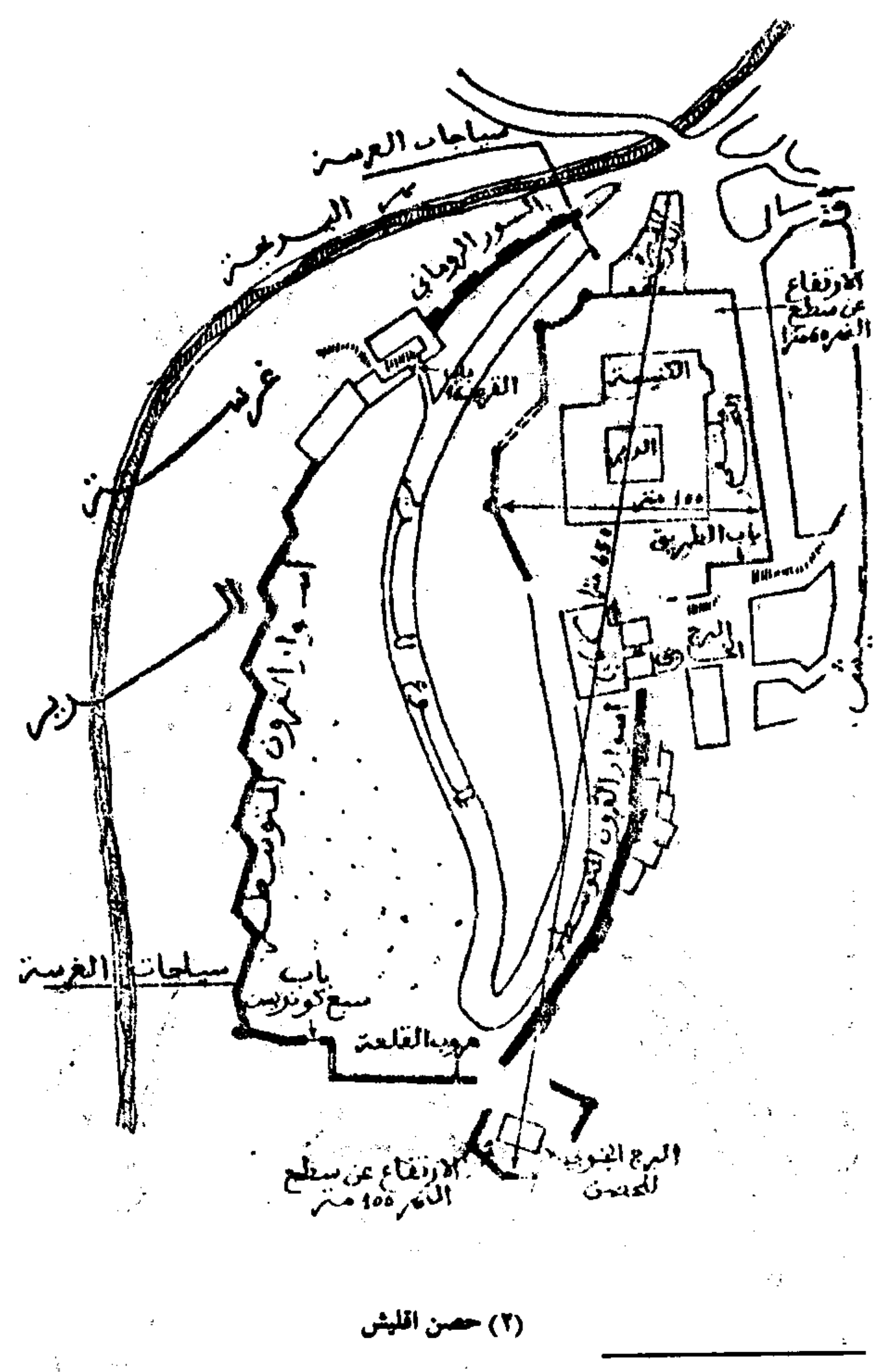
(١) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ٦٠ ـ ٦١ .

(٢) ميراندا : وقعة اقليش ومصرع الأمير ضون شانجه ، مجلة تطوان ، ع ٢ ، ص ١٢٢ ـ ١٢٣

(٣) المقال السابق نفسه ، ص ١٢٢ ـ ١٢٤ .

اقليش وضواحيها

(١) ميراندا : وقعة اقليش ومصرع الأمير ضون شانجة : ص ١٢٠ .



(٢) حصن القليش

---

(٢) ميراندا : المقال السابق ص ١٢١ .

وبعد مسيرة عشرين أو خمسة وعشرين يوماً وصلت كل تلك القوات أمام أقليش [1] في يوم ١٤ شوال/ ١٦ مايو . وحاصرت القوات المرابطية المدينة ثم اقتحمتها دون كبير عناء . ولجأ بعض المدافعين عنها إلى قصبة المدينة وتحصنوا فيها وانتهى خبرهم إلى الفونسو السادس [2] .

فبعث لاغاثتهم ولده شانجه(Sancho) البالغ من العمر أحدى عشر عاماً يساعده القائد الكبير البرهانس (Alvarhanes) ، وقادة آخرين أمثال ، غرسية أوردونيت، ووالي قلعة النسور، وقلعة عبد السلام في سبعة آلاف [3] .

ولما علم تميم بقدوم جيش الفونسو السادس لنجدة أقليش شاور قادة قواته لمواجهة المرحلة المقبلة ، وكيفية مواجهة زحوف قوات الفونسو المتوجهة لفك الحصار عن أقليش ، ويبدو انهم اتفقوا على تنظيم القوات المرابطية على النحو التالي : قوات قرطبة رأس حربة للجيش ، وأهل مرسية وبلنسية في الجناحين ، وتميم مع قواته الغرناطية في القلب . وبهذا التنظيم خرج الجيش المرابطي في ساعة مبكرة من صباح يوم الجمعة ١٧ شوال/ ٢٩ مايو لمواجهة القشتاليين على مسافة قريبة من أقليش [4] .

واستطاع الجيش الإسلامي قبيل الصدام المسلح ان يحصل على معلومات غاية في الخطورة عن قوات العدو القادمة عندما تمكن أحد المسلمين الذي كان قد أسر وقدم مع الحملة النصرانية الفرار من الجبهة النصرانية إلى

---

(١) مدينة لها حصن في ثغر الأندلس وهي قاعدة كورة شنتبريه (Santaven) وهي محدثة بناها الفتح بن موسى بن ذي النون ، وفيها كانت ثورته وظهوره عام ١٦٠ هـ ، وهي على نهر منبعث من عين على راس المدينة : انظر الحميري : المصدر السابق ، ص ٥١ ـ ٥٢ ؛ شكيب أرسلان : الحلل السندسية ، ج٢ ، ص ٤٥ ـ ٤٧ .

(٢) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٥٩ ؛ السلاوي : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٦٣ ـ ٦٤ ؛ ابن عذارى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٤٩ ـ ٥٠ .

(٣) عبد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص ٤٢٥ .

(٤) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٤٩ ـ ٥٠ ؛ ميراندا : وقعة أقليش ، ص ١٢٣ .

الجبهة الإسلامية ، وأخبرهم عن القوات القادمة لنجدة أُقليش . فهذا ما يتضح من رسالة تميم لأخيه علي بن يوسف بعد الانتصار في أقليش حين قال : « ونزع[1] الفتى الينا من معسكرهم منبئاً بهم دالاً عليهم »[2] .

فعلى ضوء هذه المعلومات نظم المرابطون جيوشهم واستعدوا للقتال وهم على بصيرة بحقيقة عدوهم المندفع نحوهم . وقد بدأت المعركة بانقضاض القوات القشتالية على قوات قرطبة التي كانت رأس حربة الجيش الإسلامي ، فتخلخلت صفوفها وتضعضع رجالها ، إلا أن جناحي الجيش الإسلامي المكونين من قوات مرسية وبلنسية قاما بعملية التفاف حول القوات المهاجمة ودخلوا عليها معسكرها مما أربك قوات العدو وأتاح لقوات قرطبة فرصة طيبة لإعادة تنظيم صفوفها ثم للهجوم على القشتاليين مما اضطرهم إلى التراجع ليجدوا أنفسهم محاصرين من قوات جناحي الجيش الاسلامي[3] .

وعمل السيف عمله في رقاب النصارى وتبدد شملهم . وقد حاول سبعة من كونتات النصارى ومنهم غرسية أوردونييث الإلتجاء إلى حصن بلشون القريب للاختفاء فيه فهب المسلمون المتواجدون فيه عليهم واستأصلوا شافتهم ، بينما نجح ـ الفارقانييث في الانسحاب مع بعض قواته الى مدريد وطليطلة ، ثم جمعت رؤوس ـ القتلى فكانت ثلاثة آلاف قتيل [illegible] اذن من فوقها للصلاة كما هو معهود[4] [illegible]

(١) لفظ نزع مستعمل هنا استعمالاً خاصاً لأن النازع في الاصطلاح الأندلسي هو الجندي الذي ينـدس في جيش الأعداء أو يدخل معهم حصنهم متنكراً في زيهم حتى يتعرف أخبارهم أو يثبط هممهم ، ثم ينزع إلى قومه ساعة الحاجة إليه ، وكان في الأنظمة الحربية الأنـدلسية ديـوان خاص لهؤلاء يعـرف بديـوان النزاع . انظر حسين مؤنس : الثغر الاعلى ، ص ١٢٧ ، حاشية رقم ٤ .

(٢) المقال السابق نفسه ، ص ١٢٧ ـ ١٢٨ .

(٣) ميراندا : وقعة أقليش ، ص ١٢٣ .

(٤) حسين مؤنس : الثغر الاعلى ، ص ١٣٠ يحدد ابن أبي زرع (روض القرطاس ص ١٥٩ ـ ١٦٠) عدد القتلى بحوالي ٢٣ الف قتيل وهذا مبالغ فيه لأن ابن عذارى (البيان المغرب ، ج٤ ، ص ٤٩ ـ ٥٠) : يذكر أن مجموع من قدم مع شانجه كان سبعة آلاف .

وكان من بين جثث القتلى جثة الأمير شانجة بن الفونسو السادس وولي عهده ، فكان ذلك انتصاراً رائعاً يذكرنا بنصر الزلاقة (١) . وكأن القدر شاء ان يجعل الفونسو السادس يتجرع كأس هزيمته في الزلاقة ويرى ابنه في أُقليش يتجرع كأساً أمر من كأسه ، لأن كأس أقليش مضاف إليها دماء ابنه ودماء سبعة من خيرة قادته وهم الكونتات السبعة (٢) .

وبعد أن جمعت الغنائم من ساحة المعركة من مال وخيل وسلاح وغيرها (٣) ، وبعد أن أعيد لأقليش طابعها الإسلامي بإعادة تعمير مساجدها ، وتحويل بعض كنائسها إلى مساجد (٤) ، بعد ذلك كله غادر الأمير تميم ساحة المعركة إلى غرناطة . وكان قبل أن يغادر أقليش قد طير لأمير المسلمين علي بن يوسف خبر هذا النصر مبيناً له كيف دارت المعركة ، وما أن غادر تميم أقليش حتى تمكن والي مرسية وبلنسية من دخول قلعة أقليش التي استعصت عليهم في بداية الأمر (٥) .

وبعد هذا العرض الموجز لموقعة أقليش يتساءل الباحث لماذا لم يكن الفونسو السادس كعادته على رأس الجيش القشتالي المتوجه لفك الحصار عن أقليش ؟ وهل عدم خروجه لقيادة الجيش كان بناء على نصيحة زوجته ، التي أشارت عليه بالاكتفاء بإرسال ابنه شانجة بدلاً منه لأن قائد المرابطين ابن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ؟ ثم كيف نفسر احجام تميم عن مطاردة فلول القشتاليين في قلب قشتالة وعدم محاولته بعد هذا النصر الأنقضاض على طليطلة لإعادتها إلى الحظيرة الإسلامية ؟ وأخيراً ما هي أهم نتائج هذه الموقعة ؟ .

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ق٣ ، ص ٢٥٣ .

(٢) عبد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص ٤٢٥ ؛ حسين مؤنس : الثغر الاعلى ، ص ١٠٧ - ١٠٨ .

(٣) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ٦٣ - ٦٤ .

(٤) ميراندا : وقعة أقليش ، ص ٢٢ . (يتوقع أن هذه الكنائس كانت أصلاً مساجد وحولها النصارى إلى كنائس) .

(٥) المقال السابق نفسه ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .

أما بالنسبة للتساؤل الأول فيبدو أن السبب الرئيسي لعدم خروج الفونسو السادس على رأس جيشه هو أن العظم قد وهن منه ولم يعد بمقدوره قيادة الجيوش لكبر سنه ، فقد توفي في سنة ٥٠٢ هـ/ ١١٠٩ م السنة التالية لموقعة أقليش .

أما عن نصيحة زوجته له بأرسال ولده شانجة [١] فيبدو أن هذه القصة يغلب عليها طابع الأسطورة ، لأنه لو كان بمقدور الفونسو السادس قيادة الجيش لما توانى لحظة واحدة عن ذلك ويظهر أن الدافع لإرسال شانجة كان خطة من الفونسو لبث الحماس في نفوس جنده وقادته في المعركة ولكي يستميتوا في الدفاع عن الأمير الصغير .

ويمكن تفسير إشراك شانجة في هذه الموقعة على أن الأمر كان مؤامرة دبرت بإحكام من قبل بعض أعيان بلاط الفونسو السادس المتشوفين إلى السلطة ، لأنه إذا قضي على شانجة في المعركة خلا لهم الأمر ، ولا سيما أن الفونسو السادس كان في آخريات حياته وكان شانجة وحيده .

ومن المرجح أن المؤامرة قد دبرت من بعض عملاء الفونسو المحارب الذين اقنعوا الفونسو السادس بإرسال ولي عهده إلى ساحة أقليش ليتخلصوا منه ليخلو الجو لالفونسو المحارب فيضم قشتالة إلى ملكه بعد وفاة الفونسو السادس . وإلا كيف نفسر سعي أعيان ووجهاء قشتالة بعد فترة وجيزة من وفاة الفونسو السادس لزواج الفونسو الأول المحارب من اوراكا ولية عهد الفونسو السادس وبعد إتمام الزواج اتحدت أرغونة وقشتالة . فهل كان هذا الزواج فصلاً من فصول مؤامرة دبرت ضد مملكة قشتالة كان أحد فصولها التخلص من ولي عهد الفونسو السادس الأمير شانجة ؟ .

أما عن إحجام الأمير تميم عن التوغل في أعماق قشتالة ، وإحجامه عن محاصرة طليطلة العاصمة القشتالية فأمر يثير الاستغراب والحيرة في آن واحد .

---

(١) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٥٩ ـ ١٦٠ ؛ السلاوي : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٦٣ .

فهذا الموقف لم يكن الأول في تاريخ المرابطين ، فقد رأينا مثل هذا الموقف بعد انتصارهم في موقعة الزلاقة ، وقد فسر وقتها سبب إحجام يوسف بأسباب عسكرية ، ولكن تكرار الموقف في أقليش امر يلفت الانتباه . فيبدو أن ضراوة المعركة وتكبد الطرفين خسائر فادحة قد حال دون المرابطين وإعادة تنظيم قواتهم قبل أن يقوموا بمطاردة فلول قشتالة .

على أي حال من أهم نتائج هذه الموقعة أنها فتحت أمام المرابطين الطريق إلى بلنسية وسرقسطة ، لأن اقليش كانت على الطريق تحول بينهم وبين القيام بأي عمل حاسم في هذه الناحية[1] . وترتب أيضاً على سقوط أقليش بيد المرابطين الاستيلاء على عدة حصون ومدن منها وبذة ، وقونقة ، وقونية وغيرها[2] . كما أسهم هذا النصر إسهاماً فعالاً في رفع معنويات المسلمين وشجع ذلك أمير المسلمين علي على معاودة غزو قشتالة ومحاصرة عاصمتها طليطلة كما سنرى .

ومن نتائج هذه الموقعة بالنسبة للقشتاليين ، إضافة إلى خسائرهم الفادحة في الأرواح ، انهم خسروا بعض المناطق . كما لم يتحمل الفونسو السادس هول تلك الفاجعة ومنظر ولده وهو يتجرع كأس الهزيمة والموت في آن واحد فتسارعت دقات قلبه واضطربت أحشاؤه ، ولم يلبث سوى مدة قصيرة حتى توفي في عام ٥٠٢ هـ/ ١١٠٩ م[3] .

وإذا كان الفونسو السادس خسر ولده وبعض أملاكه . فقد خسر أيضاً بعض قواده بعض أراضيهم ، فمثلاً خسر البرهانس بعد أن سيطر المسلمون على قونقه (Cuenca) اقطاعيته في قرية توريتا (Zonita)[4] .

---

(١) حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، ص ١٠٧ ـ ١٠٨ .

(٢) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ٦٦ ـ ٦٧ ؛ السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ج٢ ، ص ٧٣٤ ـ ٧٣٥ .

(٣) ابن عذاري : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٥٠ .

(٤) حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، ص ١٢٧ ، حاشية رقم ٢ .

ومن آثار وقعة أقليش في الأدب الإسباني كثرت الأهازيج والأغاني التي تشيد ببطولات النصارى في هذه الموقعة وبشكل خاص الأمير شانجة والكونت غرسيه . وقد قام الأسقف (ضون رودريغو) بجمع هذه الأهازيج في كتابه « التاريخ » [(١)]

ويمكن اعتبار وقعة أقليش نقطة تحول في تاريخ الممالك النصرانية الشمالية . إذ بعد هذه الموقعة ، وبعد وفاة الفونسو السادس بدأت أحوال هذه الممالك تضطرب ، فقد اندلعت الحرب الأهلية بين الفونسو المحارب وزوجته أوركا . كما أن السنوات الثلاث التي تلت وقعة أقليش تمثل قمة الانتصارات التي حققها المرابطون في الأندلس ، إذ بعد عام ٥٠٣ هـ/ ١١٠٩ م بدأ النفوذ المرابطي ينحسر في الأندلس تحت مطارق الممالك النصرانية .

لقد كان انتصار المسلمين في أقليش بداية لخطة منظمة وضعها علي بن يوسف لغزو الممالك النصرانية ، ويبدو أنه كان يقصد من هذه الخطة أن يبر بوعد والده لرعيته عندما قال بعد إخضاع ملوك الطوائف « ..... ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التي ملكها الروم ..... » [(٢)] ، فقد أخذ علي بن يوسف بعد هذه الموقعة يبث جيوشه لتحرير الأرض الإسلامية التي استولى عليها النصارى في فترات سابقة ، ولم يكتف بذلك بل كان يجوز إلى الاندلس ويقود بنفسه الحملات ضد هذه الممالك .

غزو أراضي قشتالة عام ٥٠٣ هـ/ ١١٠٩ م

تشجع أمير المسلمين علي بن يوسف بعد نصر أقليش للقيام بحملة يقودها بنفسه ضد مملكة قشتالة ، ويظهر أنه كان يود استعادة طليطلة منهم ، خاصة

(١) ميراندا : علي بن يوسف وأعماله في الأندلس ، مجلة تطوان ع٣ ـ ٤ ، ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩ م ، ص ١٥٧ .
(٢) المراكشي : المصدر السابق ، ص ٢٢٦ .

انه رأى أن الوقت مناسبٌ جداً للقيام بهذه الخطوة في سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م لانشغال الفونسو المحارب بحربه الأهلية مع زوجته أوراكا(١) .

واستنفر أمير المسلمين قواته في المغرب والأندلس لهذا الغرض ، وفي منتصف محرم من السنة المذكورة عبر من سبتة إلى الأندلس في جيش جرار تقدره بعض الروايات بما يزيد على مئة ألف (٢) . وبعد أن مكث فترة وجيزة في غرناطة تحرك إلى قرطبة وأقام بها أياماً (٣) ، ومن قرطبة تختلف المصادر في تحديد المنطقة التي قصدها أمير المسلمين أولاً . فيذكر ابن عذارى (٤) أنه تحرك من قرطبة إلى مدينة طلبيرة (٥) ففتحها ودخل قصبتها ، وطهرها من براثن الشرك ، وترك عليها حامية من المشاة وحاملي السهام وعين عليهم أحد المرابطين ورحل عنها ، ويمم شطر طليطلة فحاصرها ثلاثة أيام ثم بدأ بالقفول محملاً بالغنائم بعد أن قضى أربعين يوماً في تلك الغزوة .

هذا وتذكر بعض الروايات الإسلامية والنصرانية أن هدف أمير المسلمين علي بن يوسف من هذه الغزوة كان محاولة استعادة طليطلة . فيذكر صاحب الحلل الموشية (٦) أن أمير المسلمين جاز في عام ٥٠٣ هـ/ ١١٠٩ م برسم الجهاد ونصر الملة ، فقصد طليطلة ونزل على بابها ، وحاز المنية المشهورة

---

(١) اشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ص ١٤٠ - ١٤١ .

(٢) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٦١ ؛ مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٨٥ - ٨٦؛ ابن خاقان : المصدر السابق ، ص ٢٠١ ؛ ابن عذارى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٥٢ ؛ ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٣٨٦ - ٣٨٧ ؛ السلاوي : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٦٥ .

(٣) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٥٢ ؛ ويذكر السلاوي : (الاستقصا ، ج١ ، ص ١٢٥) ، ورزق الله الصدفي (تاريخ دول الإسلام ، ج٢ ، ص ٥٦) أنه أقام في قرطبة شهراً .

(٤) البيان المغرب ، ج٤ ، ص ٥٢ .

(٥) يوجد في الأندلس ثلاث مدن بهذا الإسم الأولى : مدينة كبيرة حصينة على نهر تاجه غربي طليطلة وهي المقصودة في المتن . والثانية قرية إلى الجنوب منها يقال لها طلبيرة المرج ، والثالثة قرية بالقرب من بطليوس على ضفة وادي أنه يقال لها طلبيرة أيضاً انظر ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ق٣ ، ص ٢٥٤ ، حاشية رقم ١ .

(٦) مؤلف مجهول ، ص ٨٥ - ٨٦ .

بخارجها ، وانتشرت جيوشه على تلك الأقطار ودوخ بلاد المشركين فلاذوا بالفرار الى المعاقل ، واعتصموا بالحصون المنيعة ونزل على طليرية وافتتحها عنوة .

وينقل لنا محمد عبد الله عنان [١] الرواية القشتالية عن هذه الغزوة ، والتي يفهم منها أن أمير المسلمين كان معداً نفسه لدخول طليطلة ، ويتضح ذلك من خلال جلبه لأدوات الحصار . وتذكر الرواية أيضاً بأنه ضرب الحصار حول أسوارها مدة سبعة أيام [٢] . ضرب المرابطون خلالها الأسوار بالمجانيق ضرباً شديداً ، وحاولوا إحراق بعض أبراجها ، ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل لحصانة المدينة وقوة الحامية المتواجدة داخلها والتي كان يقودها البارهانس الذي ما لبث أن خرج واصطدم مع المرابطين في معركة حامية الوطيس اضطرتهم إلى فك الحصار والرحيل عنها بعدما أحرقوا أدوات الحصار . ومنها ساروا الى طلبيرية ـ فاقتحموها ، ثم ساروا بعدها شمالاً واستولوا على مدريد ، ووادي الحجارة ، وهنا دب الوباء بالجيش المرابطي فاضطر إلى مغادرة أرض العدو والعودة إلى قرطبة .

ويمكن قبول منطقية الرواية التي تقول أن الهدف من هذه الغزوة هو الاسيتلاء على طلبيرية ، لتضيق الحصار على طليطلة من جهة الغرب بعدما نجح المرابطون في الاسيتلاء على أقليش من جهة الشرق حتى يتسنى لهم استعادة طليطلة [٣] أي أن محاصرة طليطلة لم يكن إلا نتيجة حتمية لسقوط طلبيرية .

ويمكن أيضاً قبول رواية صاحب الحلل الموشية والرواية القشتالية والتي تنص على أن أمير المسلمين علي قصد أول ما قصد طليطلة إذا ما افترضنا أنه

---

(١) عصر المرابطين والموحدين ، ص ٦٨ ـ ٦٩ .

(٢) يذكر السلاوي (الاستقصا ، ج٢ ، ص ٦٥) ، وابن أبي دينار (المؤنس ، ص ١٠٩) ، وابن أبي زرع (روض القرطاس ، ص ١٦١) أن الحصار دام شهراً ونيف .

(٣) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٨٥ ـ ٨٦ ؛ ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص ١٠٩ ؛ ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٦١ .

قد استفاد درساً عملياً من وقعة أقليش . فقد سبق أن رأينا أنه عندما قصد تميم أقليش وحاصرها . هب القشتاليون من طليطلة لنجدة مدينتهم .

ويمكن الذهاب أبعد من ذلك إذا ما افترضنا أن الأخبار التي وصلت إلى أمير المسلمين في مراكش عن الأوضاع الداخلية لقشتالة خاصة بعد وفاة الفونسو السادس وزواج للفونسو المحارب من أوراكا ، وما نتج عن هذا الزواج من حروب أهلية هي التي شجعته على الخروج بنفسه على رأس هذه الغزوة بقصد استعادة ـ طليطلة من القشتاليين .

على أي حال لقد كانت حملة أمير المسلمين علي بن يوسف حملة موفقة ، فقد تمكن خلالها من العيث في أحواز قشتالة [١] ، كما أخضع ٢٧ حصناً ، ومدينة مجريط (Madrid) ، ووادي الحجارة ، وقلعة هنارس وغيرها [٢] .

ولم ينس القشتاليون هذه الغزوة التي لاقوا خلالها العذاب والدمار ، فما أن انسحب أمير المسلمين من أراضيهم وعاد إلى بلاده حتى قاموا بحملة انتقامية قتلوا فيها ألفاً من المسلمين ، كما دمروا إحدى وستين قرية [٣] . وقصدوا مدينة سرقسطة وهاجموها وفي هذا الهجوم هزم حماتها من المسلمين وسقط صاحبها ابن هود شهيداً [٤] .

غزو الأمير سير بن أبي بكر لغرب الأندلس

يبدو أن أمير المسلمين خلال غزوته لطلبيرة وفشله في اقتحام طليطلة

---

(١) نفس المصادر السابقة والصفحات .

(٢) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٦١ ؛ السلاوي : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٦٥ ؛ ميراندا : علي بن يوسف وأعماله في الأندلس ، ص ١٥٧ ـ ١٥٨ .

(٣) ميراندا : علي بن يوسف وأعماله في الأندلس ، ص ١٥٧ ـ ١٥٨ .

(٤) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج٦ ، ص ٣٨٦ ـ ٣٨٧ ـ (وقد تحدثنا عن هذه الموقعة في الباب السابق) .

رأى أنه لا يمكن أن يتسنى له الاستيلاء على طليطلة إلا بعد تجريدها من كل معاقلها ، ومن كل ناحية يتوقع أن يأتيها منها مدد . ولذلك نجده يوجه قائده سير بن أبي بكر إلى قلمرية [1] ، التي كانت تتمتع بحماية قشتالة لأن أميرها هنري البرجوني كان زوجاً لأتريسا الأبنة غير الشرعية لألفونسو السادس [2] .

واستطاع سير في شهر ذي القعدة من عام ٥٠٤ هـ / ١١١٠ م أن يفتح من غرب الأندلس برتقال [3] ويابرة [4] ، وأشبونة [5] وشنترين [6] وغيرها من المواقع [7] .

وكانت شنترين من أحصن المواقع التي اعترضت القائد سير ، إذ يتضح من الرسالة التي بعث بها إلى أمير المسلمين علي بن يوسف والتي يخبره فيها كيف أن المسلمين اتخذوا شتى الوسائل من حيل وحرب نفسية وغارات على هذه المدينة حتى تمكنوا من فتحها . ومما جاء فيها (.... وكانت قلعة شنترين - أدام الله أمر أمير المسلمين من أحصن المعاقل للمشركين ، وأثبت المعاقل على المسلمين.. فنزلنا بساحة القوم فساء صباحهم ذلك اليوم فلم نزل نطاولهم مطاولة المحتسب المؤتجر ... ونشن الغارات على جميع الجهات فترد جيوشنا عليهم خفافاً وتصدر إلينا ثقالاً وامرنا بإقامة سوق سبيهم وأموالهم على مرأى ومسمع من نسائهم ورجالهم فازدادت ريحهم بذلك

---

(١) وهي تعني مملكة البرتغال انظر : ابن عذارى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٦٤ ، حاشية رقم ١ .

(٢) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ٦٩ - ٧٠ .

(٣) تقع في أقصى شمال قلمرية انظر المرجع السابق نفسه ، ص ٧٠ .

(٤) مدينة من كورباجة انظر الحميري : المصدر السابق ، ص ٦١٥ .

(٥) من كورباجة المختلطة بها تقع إلى الغرب من باجة ، وهي مدينة قديمة على سيف البحر انظر المصدر السابق نفسه ، ص ٦١ .

(٦) مدينة معدودة من كورباجة وهي على جبل عال بينها وبين بطليموس ثلاث مراحل انظر المصدر السابق نفسه ، ص ٣٤٦ .

(٧) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٦١ ؛ السلاوي : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٦٥ ؛ رزق الله الصدفي : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٥٦ ؛ حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، ص ١٠٨ - ١٠٩ ؛ محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ٦٩ - ٧٠ .

ركوداً . . ولما ضمهم لضيق ولاجة الحصار . . . أختاروا الدنية على المنية ورضوا بالاستسلام للعبودية . . . واستولينا على أقطارها . . » [1] .

وبعد غزوة الأمير سير للغرب وفد على إشبيلية المنصور بن عمر المتوكل بن الأفطس قادماً من قشتالة التي كان قد سار إليها بأمواله وذخائره عندما دخل عليه المرابطون بطليوس سنة ٤٨٨ هـ/ ١٠٩٥ م وقتلوا أباه عمر المتوكل وأخويه . ولما وصل إلى إشبيلية أرسل إلى أمير المسلمين في مراكش فكانت له عنده منزلة جيدة [2] .

- غزوات المرابطين لأراضي قشتالة
(٥٠٤ - ٥٢٦ هـ/ ١١١١ - ١١٣٢ م) .

وفي نفس العام الذي قام به الأمير سير بغزو الغرب الأندلسي قام الأمير يحيى بن أبي بكر ومعه عز الدولة أبو مروان عبد الله بن المعتصم بغزو طليطلة ، ولكن هذه المحاولة لم توفق لتطير الجيش الإسلامي من سقوط أحد الوتية وانكسار أحد الرماح [3] . وفي رأيي أن هذا السبب غير مقنع لأن الجيوش المرابطية كانت دوماً تحوي بين صفوفها مجموعة من الفقهاء والمرشدين للجيش فلا بد أنهم أوضحوا لهم بأنه لا طيرة ولا تطير في الإسلام ، ولا بد أن هناك أسباباً أخرى أدت إلى فشل هذه المحاولة لم تكشف عنها المصادر التي بين أيدينا .

وتمكن الأمير مزدلي في عام ٥٠٦ هـ/ ١١١٢م من اكتساح منطقة وادي - الحجارة وما حولها ، وأن يضيق على قاعدتها . وقد حصل في هذه الغزوة على غنائم وفيرة عاد بها إلى مقره في مدينة قرطبة [4] .

---

(١) المراكشي : المصدر السابق ، ص ٣٢٨ - ٣٣٢ .

(٢) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ٧٠ .

(٣) ابن الأبار : الحلة السيراء ، ج٢ ، ص ٩٠ - ٩١ .

(٤) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٥٦ .

وبعد هذه النجاحات التي أحرزتها الجيوش المرابطية ضد الممالك النصرانية خاصة ضد مملكة قشتالة صمم الأمير مزدلي على توجيه ضربة قوية للعاصمة القشتالية طليطلة فأعد حملة ضخمة من القوات الأندلسية والمغربية مع أعداد من المطوعة ثم ما لبث أن انضم اليه الأمير سير بن أبي بكر اللمتوني وسارا على رأس هذا الجيش الضخم في عام ٥٠٧ هـ/ ١١١٣ م نحو طليطلة فبالغا في نكايتها وشنا على جميع تلك الجهات الغارات المخربة والمدمرة [١] .

وخرج البرهانس في عشرة آلاف من جنده لمدافعة المرابطين عن طليطلة فوقعت معركة حامية الوطيس دارت الدائرة فيها على البرهانس وسقط من جنوده سبعمائة فارس [٢] .

غير ان السلاوي يذكر [٣] انه لم يحدث صدام بين البرهانس والمرابطين ، وما أورده في هذا الصدد يتلخص في أنه بينما الجيوش المرابطية تفتح حصن أرجنة او أرلبة ويقتلون ويسبون اتصل الخبر بالبرهانس فأقبل لنصرتهم واستنقاذهم فصمد القائد مزدلي للقائه ففر البرهانس أمامه ليلاً وعاد مزدلي الى قرطبة .

ويظهر أن صاحب وادي الحجارة الكونت رود ريجونو نيذ (Rodrigonunez) والذي يسميه ابن أبي زرع (بني الزند غرسيس) [٤] أراد أن يقوم بعمليات انتقامية رداً على أعمال المرابطين في الأراضي النصرانية فقام بالانقضاض على مدينة سالم وضرب عليها الحصار فهب اليه مزدلي ، فلما سمع الزندغرسيس بمقدمه ولى هارباً تاركاً جميع أثقاله ومضاربه فغنمها مزدلي [٥] . وفي عام ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م توفي الأمير مزدلي [٦] فخلفه على

---

(١) ابن عذاري : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٥٧ ـ ٥٨ ؛ ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص ١٢١ .

(٢) ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ص ١٢١ .

(٣) الاستقصا ، ج ٢ ، ص ٦٥ .

(٤) حسين مؤنس ، الثغر الأعلى ، ص ١١٣ .

(٥) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٦٢ .

(٦) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ٣ ، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥ .

قرطبة ابنه محمد الذي أقام والياً عليها ثلاثة أشهر [1] .

ورد النصارى على غارات المرابطين على عواصمهم وثغورهم . فأغاروا في عام ٥٠٩هـ / ١١١٥م على قرطبة ، فتصدى لهم واليها محمد بن مزدلي بجيشه ، ودارت رحى معركة دامية بين الطرفين سقط خلالها محمد بن مزدلي شهيداً ، ومعه الأمير أبو إسحاق وابناه ، والأمير ابو بكر بن واسنيو ، كما استشهد معهم نحو الثمانين من وجوه المرابطين ، وجملة كبيرة من الحشم وأهل الأندلس ، وذلك يوم الخميس مستهل صفر ٥٠٩هـ / ٢٧ يونية ١١١٥م [2] .

لقد كانت الفاجعة مروعة ثأر فيها النصارى لقتلاهم في أقليش . وقد بادر أمير المسلمين علي بن يوسف بتعيين أبي بكر يحيى بن تاشفين وهو ابن عم له على قرطبة خلفاً لواليها الشهيد وبعد أيام من وصوله اكتسح النصارى أصحاب الجولة على قرطبة أراضي ولايته ، فاستنفر جيوشه واستنجد بالأمير عبد الله بن مزدلي والي غرناطة ، واصطدما مع العدو في منطقة قريبة من بياسة [3] فدارت الدائرة على المسلمين واستشهد منهم خلق كثير ، وذلك في يوم الأربعاء ٢٨ جمادى الثاني من عام ٥٠٩هـ [4] .

وفي أواخر محرم عام ٥١١هـ / مايو ١١١٧م قرر أمير المسلمين علي بن يوسف أن يجوز الى الأندلس ليتجه منه الى الغروب. فجاز البحر واستراح في إشبيلية برهة من الوقت حتى تكاملت عساكره القادمة من العدوة ، كما أتاح للعساكر الأندلسية فرصة الاستعداد لمشاركته في غزوته تلك . وهب الفقهاء والعلماء لتلبية نداء الجهاد ، وأقبل المطوعة من جميع أرجاء الأندلس خاصة من غرناطة وإشبيلية . وقصد أمير المسلمين علي بن يوسف بهذه

(١) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٦٢ ؛ السلاوي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٥ .

(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٦١ .

(٣) بينها وبين جيان عشرون ميلاً وهي على كدية من تراب مطلة على النهر الكبير المنحدر الى قرطبة انظر الحميري : المصدر السابق ، ص ١٢٠ ـ ١٢١ .

(٤) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٦١ .

الجموع قلمرية وضرب حولها الحصار عشرين يوماً وضيق عليها ثم انصرف عنها الى إشبيلية . كما استطاع عبد الله بن فاطمة ، والمنصور بن الأفطس أن يغيرا على بعض النواحي النصرانية وأن يعودا إلى إشبيلية محملين بالغنائم والأسرى [١] .

ويفهم من الرواية السابقة أن أمير المسلمين قد فشل في دخول قلمرية ، ولكن صاحب الحلل الموشية [٢] يذكر انه افتتح مدينة قلمرية ، كما تؤيد الرواية النصرانية رواية صاحب الحلل الموشية وتذكر انه دخلها عنوة [٣] . ويعلل محمد عبد الله عنان [٤] أن سبب عدم احتفاظ أمير المسلمين علي بن يوسف بقلمرية هو موقعها البعيد والمتوسط بين النصارى .

وبعد تسع سنوات من غزو أمير المسلمين لغرب الأندلس عبر ابنه تاشفين [٥] في عام ٥٢٠هـ / ١١٢٦م الى الأندلس في خمسة آلاف جندي ، ثم استصرخ أهل الأندلس فأتوه مسرعين فسار بهم الى طليطلة ففتح بعض حصونها بالسيف وقام بالعيث في أحوازها ، وفي نفس السنة فتح تاشفين ثلاثين حصناً من حصون غرب الأندلس وكتب بالفتح الى أبيه [٦] .

كما تمكن المرابطون بقيادة عبد الله بن ورقا من استرداد حصن كوالية

---

(١) ابن عذاري : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٦٤ .

(٢) مؤلف مجهول ، ص ٨٦ .

(٣) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ٨١ .

(٤) نفس المرجع السابق والصفحة .

(٥) انظر عن حياة تاشفين : ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ٤٥٤ ؛ أعمال الأعلام ، ق ٣ ، ص ٢٥٦ - ٢٥٧ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٥٨ - ٢٥٩ ؛ عبد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص ٢٤٧ - ٢٤٨ ؛ محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ١٣٢ - ١٣٣ ، ١٤٥ .

(٦) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٦٤ ؛ السلاوي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٩ ؛ ومن الجدير بالذكر انه في ٢٧ صفر من هذه السنة عين الأمير أبي بكر بن علي بن يوسف والياً عاماً للأندلس وقائداً لجيوشها ، انظر عبد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص ٤٣٨ - ٤٣٩ .

في عام ٥٢٢هـ / ١١٢٨م [١] . وفي نفس السنة تقدمت جيوش قشتالة الى الأندلس ووصلت في زحفها الى مقربة من قلعة رباح ، فخرج الأمير تاشفين للقائها فارتدت الى بلادها [٢] .

وفي عام ٥٢٣هـ / ١١٢٩م سار واجدي بن عمر بن سير اللمتوني في جيش إشبيلية الى أطراف قشتالة ، وبالغ في النكاية فيها ، ولكن تهاونه أدى الى هزيمته فألزمه أمير المسلمين بدية من أسر وأنفذ عزله [٣] وولى مكانه أبا زكريا يحيى بن علي بن الحاج [٤] .

وتمكن القشتاليون في عام ٥٢٤هـ / ١١٣٠م من التوغل في الأراضي الإسلامية حتى غدوا على مشارف مدينة قرطبة ، فاستغاث واليها عبد الله بن تينغمر بالأمير تاشفين الذي هب مسرعاً لنجدته عندها آثرت القوات القشتالية الانسحاب على الاشتباك مع القائد الفذ تاشفين [٥] .

وبدأت القوات القشتالية تضايق المسلمين بإنشاء الحصون وشحنها بالمقاتلة الذين كانوا يداومون على الإغارة على الأراضي الإسلامية والعبث فيها . ومن هذه الحصون التي تضرر منها المسلمون حصن السكة التابع لطليطلة ، فقد شحنه القشتاليون بعدد جم من المقاتلة على رأسهم قائد مشهور اسمه فرند .

ولم يجد تاشفين بداً من التخلص من هذا الحصن ، فخرج في رمضان من عام ٥٢٤هـ بجيش غرناطة ، وانضم إليه والي قرطبة في الطريق ، وهرع المطوعة للالتحاق بالقوات المتقدمة نحو حصن السكة من عمل طليطلة ، فحاصره تاشفين ، وتمكن من دخوله عنوة وقتل من كان فيه وأسر قائده تليوفر

---

(١) حسين مؤنس : نصوص سياسة عن فترة الانتقال من المرابطين الى الموحدين ، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ، مج ١ ، ع٣ ، ١٩٥٥م ، ص ١٢٠ ـ ١٢١ .

(٢) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ١٣٣ .

(٣) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٨٠ .

(٤) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ١٣٣ .

(٥) المرجع السابق نفسه ، ص ١٣٤ .

نانديث [1] ، ثم عرج تاشفين على حصن بارجاس فقتل من رجاله خمسين ، واستمر في تقدمه حتى وصل الى سان سرفادور من ضواحي طليطلة ، وبعدها ارتد بقواته جنوباً عائداً الى غرناطة ليجد حشود المستقبلين في انتظاره [2] .

وتواترت الأخبار في ١٥ رجب عام ٥٢٤هـ [3] إلى والي إشبيلية أبو حفص عمر بن الحاج اللمتوني ببدء قشتالة بقيادة ردويجو جمثالث تحركاتها لغزو إشبيلية ولم يشعر الا وقوات العدو تعيث في الشرف [4] . فخرج عمر بن الحاج لمدافعة العدو ووقف على ضفة الوادي وبعث سراياه لتناوش العدو فعادت ببعض الأسرى فقام عمر بن الحاج بعملية استفزازية للعدو بتنفيذه حكم الإعدام بالأسرى على مرأى من اخوانهم في الضفة الأخرى من الوادي فثارت حميتهم واقتحموا الوادي وأطبقوا على المرابطين ، فسقط عمر بن الحاج شهيداً وتبدد شمل المسلمين ، وتقدم القشتاليون نحو إشبيلية وهم ينهبون ويسبون ويقتلون واستمروا في السير على هذه الحال حتى غدوا على فرسخين منها ، فهب تاشفين لانقاذ إشبيلية وجد السير إليها بعد أن قتل زعيمها وفض جمعها [5] . ولكن القشتاليون عدلوا عن مهاجمة إشبيلية وعادوا من حيث أتوا محملين بالغنائم ، عندها سار تاشفين نحو الغرب ومعه ابن قنونة والي قرطبة والتقوا بقوة من النصارى كانت قد أغارت على أحواز يابرة فهزمها المرابطون وقتلوا معظم رجالها وأنقذوا منها الغنائم والأسرى [6] .

وفي عام ٥٢٥هـ / ١١٣١م أحدقت القوات النصرانية بحصن أرنيط (أرنبة) [7] بهدف الاستيلاء عليه عن طريق التجويع بمنع الميرة عنه ،

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ٤٥١ .

(٢) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ١٣٤ .

(٣) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ث ٨٢ - ٨٣ .

(٤) وهو جبل خصب التربة بينه وبين إشبيلية ثلاثة أميال وسمي بذلك لأن مشرف من ناحية إشبيلية وهو ممتد من الجنوب الى الشمال انظر الحميري : المصدر السابق ، ص ٣٤٠ .

(٥) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٨٢ - ٨٣ .

(٦) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ١٣٤ - ١٣٦ .

(٧) وهو حصن منيع عظيم بينه وبين تطلية ثلاثون ميلاً . انظر الحميري : المصدر السابق ، ص ٢٧ .

لمضايقة هذا الحصن لهم ، فاستنجد والي قرطبة المعين في هذه السنة ابو محمد عبد الله بن أبي بكر بتاشفين بن علي لفك الحصار عن الحصن فأسرع إليه بقوة يقودها بنفسه . كما سارع يحيى بن علي بن غانية بالالتحاق بالقوات المتوجهة إلى الحصن . فلما علم النصاري بذلك أرسلوا صرخات الاستغاثة فجاءتهم النجدات ، فاستعد تاشفين وابن غانية لمواجهتها وما أن جن المساء حتى كانت الدائرة على النصارى ، وبعد هذا النصر المؤزر عاد تاشفين الى غرناطة في ربيع أول من عام ٥٢٦هـ / يناير ١١٣٢م (١) .

وما أن عاد تاشفين من غزوة حصن أرنيط حتى علم أن القشتاليين قد خرجوا من عاصمتهم طليطلة قاصدين قرطبة فأسرع الى قرطبة لصدهم قبل وصولهم اليها ، ورأى أن الأمر لا بد له من خفة حركة فترك أثقاله بأرجونة (٢) ، وخلال ذلك نجح الجيش القشتالي في احتلال شنت اسطبين ، والوادي الأحمر ، إلا أن تاشفين استطاع ان يلحق بالعدو في قرية براشة حيث دارت رحى معركة حامية الوطيس بين الطرفين استؤصلت فيها شأفة النصارى (٣) . ولمسر قائد القوات القشتالية مع عشرين من زعمائهم وامتلأت أيدي المرابطين بالغنائم من أسلحة ودواب وثياب . وسار تاشفين بالأسرى والغنائم الى قلعة رباح القريبة من ميدان المعركة فأصلح أحوالها وسد خللها وترك الأسرى لدى أهلها ليفتدوا بهم من يستطيعون من أسراهم ، ثم عاد في قواته غانماً الى غرناطة (٤) .

موقعة قرب الزلاقة

وفي عام ٥٢٧هـ / ١١٣٣م جاس القشتاليون في الأراضي الإسلامية ،

---

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٨٤ ـ ٨٥ .

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ٤٥١ .

(٣) نفس المصدر السابق والصفحة .

(٤) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٨٥ ـ ٨٦ ؛ محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ١٣٤ ـ ١٣٦ .

فنهبوا وقتلوا [1] . وقام الفونسو السابع المعروف بالسليطين في هذه السنة مع ابن هود بغزو الأراضي الإسلامية حتى وصلا إلى إشبيلية ، وتمكنا من الوصول الى شريش [2] فاقتحموها وقتلوا من وجدوا فيها واستباحوا وبالغوا في النكاية بالمسلمين ثم قفلوا راجعين إلى بلادهم دون أن يعترضهم أحد من المسلمين [3] .

ويظهر أن الفونسو السابع تشجع بعد غزوته المشتركة مع ابن هود فبادر في جمادى الأولى من نفس العام [4] إلى تجهيز حملة ضخمة تضم بين صفوفها بعض مشاهير قادة النصارى وآلافاً عديدة من أبطالهم فعاثوا في أحواز بطليموس ، وباجة ، ويابرة ، ونكلوا وأرعبوا نواحي ما كان يصل إليها عدو وعادوا على مهل .

وعندما علم تاشفين بذلك أخذ يعد العدة للصدام مع هذا العدو المتعجرف الذي خرج يعيث في ديار المسلمين . ويبدو انه استصرخ أهل الأندلس للجهاد فتجمعت لديه الجيوش وسار بها على عجل متعقباً آثار العدو حتى ظفر به بفلاة قرب الزلاقة . ولما تراءى الجمعان نظم كل طرف صفوفه ، فنظم تاشفين قواته على النحو التالي ، هو في القلب مع وجوه المرابطين وكانت أعلامهم بيضاء ومطرزة بالآيات القرآنية ، وفي الجانبين الكفاة والحماة من أبطال الأندلسيين تتقدمهم حمر الرايات ، وفي الجناحين أهل الثغور من أصحاب الجلادة والصبر ، وكان رأس حربة الجيش الإسلامي مشاهير زناته والحشم بالرايات المطيفة [5] .

---

(١) المقري : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٢٠ .

(٢) من كورشذونة بينها وبين روطة ستة أميال انظر الحميري : المصدر السابق ، ص ٣٤٠ .

(٣) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٨٨ .

(٤) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٣ ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ - ويجعلها ابن عذارى (البيان المغرب ، ج ٤ ، ص ٨٨ - ٨٩) ، وصاحب الحلل الموشية (مؤلف مجهول ، ص ١٢٢) عام ٥٢٨هـ / ١١٣٤م .

(٥) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٣ ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ ؛ ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٨٨ - ٩٠ ؛ مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ١٢٢ .

ولا نعلم كيف نظم النصارى صفوفهم ، إلا أنه قياساً على تنظيماتهم في معاركهم السابقة ، فإنهم كانوا عادة يقسمون جيشهم الى قسمين يقود كل قسم قائد مشهور من قوادهم معتمدين في قتالهم على الشجاعة الفردية عكس المرابطين الذين كانوا يعتمدون في قتالهم على أساس جماعي كل فئة تقاتل تحت راية خاصة بها .

وما هي الا برهة من الوقت حتى التحم الطرفات في معركة دامية تبدد فيها شمل النصارى ، وكان يوماً مشهوداً للإسلام وفي ذلك يقول ابن الصيرفي :

أمــا وبيض الهــنــد خصــوم　　　فــالــروم تبــذل ما ظبــاك تــروم
خضعت ملوك الروم في تيجانها　　　لا غـزو قـام بتــاجـه التعميم [1]

ثم عاد تاشفين في جمادى الأولى سنة ٥٢٨هـ / ١١٣٣م الى قرطبة ومنها سار الى غرناطة[2] .

موقعة فحص البكار

وفي النصف الأول من شهر ذي الحجة من عام ٥٢٨هـ اكتسح القشتاليون الأندلس وعاثوا فيه ، فاستنفر تاشفين أهل الأندلس فجاءت إليه النجدات من غرناطة وقرطبة ، وجاءت جيوش إشبيلية بقيادة واليها ينتان بن علي ملبية النداء ولحقت بتاشفين بفحص الريحانة ، ومنها اتجه الاثنان يتعقبان العدو وأخذا ينتظرانه في فحص البكار[3] الواقع شمالي قرطبة في منطقة فحص البلوط وهي بدروش (Pedroches) حالياً . وكان هذا الحصن على درجة كبيرة من الأهمية لتحكمه في طريق وادي آنه المؤدي الى

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعمال ، ق ٣ ، ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨ .
(٢) نفس المصدر السابق والصفحة ؛ ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٨٨ ـ ٨٩ .
(٣) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٩٠ ـ ٩١ .

بطليموس [١] ، أي على طريق العدو التي لا محيص له عنها . ولما تقابل الجمعان عزم العدو على المكر والخديعة فانتظروا حتى اذا أرخى الليل سدوله وركن الجند الإسلامي الى الراحة ـ لأن التقليد المألوف في العصور الوسطى يحرم القتال في الليل إلا أن النصارى هذه المرة خالفوه لينتزعوا النصر من المسلمين ، فاختاروا أربعة آلاف من انجادهم ألفان من الفرسان ومثلهم من الرجالة وانقضوا على معسكرات المسلمين فبددوا شملهم وانهدمت الأخبية ، ونفرت الدواب وقطعت مقاودها فوقع القتل والنهب وفر الجند المرابطي عن أميرهم تاشفين [٢] .

ويبدو ان أحد قادة تاشفين قد نصحه بالهرب فبادر الرد عليه قائلاً : « لا أسلم وأسلم الأمة ولا أبرح أو تنجلي عما انجلت هذه الغمرة » ، عندها أحدق به عبيده ، ورجال من أهل الأندلس ، وأفذاذ من المرابطين دون الأربعين رجلاً فحالوا بينه وبين النصارى . واستطاع أحد عبيد تاشفين أن يغير مسيرة المعركة بطعنة وجهها الى قائد الجيش القشتالي فأرداه قتيلاً ، عند ذلك انتثر عقد محلة النصارى وما بان الفجر حتى دارت الدائرة عليهم [٣] .

وقبل أن يعود تاشفين الى مقره في غرناطة توجه الى حصن قشرش [٤] وهو من حصون المسلمين ثم رحل الى قرطبة حيث أقيم مهرجان شعري احتفالاً بالنصر وسلامة الأمير تاشفين ، فألقى الشعراء بين يديه عيون القصائد التي أشاد فيها أصحابها ببطولته [٥] ، ومن أبرز ما قدم قصيدة لأبي بكر يحيى بن الصيرفي يهنئه فيها على ما أحرزه من نصر ويحمد الله على سلامته. كما ضمنها نصائح قيمة في فنون الحرب وخدع الأعداء وكيفية تجنبها وهي

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٣ ، ص ٢٥٩ ، حاشية رقم ١ .

(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٩٠ـ ٩١ .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ج ٤ ، ص ٩٠ ـ ٩١ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٣ ص ٢٥٨ ـ ٢٦٠ ؛ عبد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص ٤٣٨ ـ ٤٣٩ .

(٤) قشرش او قاصرش يقع جنوبي نهر التاجة وشمالي شرقي بطليوس .

(٥) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٩١ .

نصائح مجرب وتقع هذه القصيدة في ستين بيتاً وتصلح أن تكون نموذجاً لفنون وضروب الحرب في عهد المرابطين ، ونقتطف منها الأبيات التالية :

يا أيها الملأ الذي يتقنع　　من منكم البطل الهمام الأروع
ومن الذي غدر العدو به دجى　　فانفض كل وهو لا يتزعزع

ثم يقول :

واحذر كمين الروم عند لقائها　　واخفض كمينك خلفها ان تدفع
لا تبقين النهر خلفك عندما　　تلقى العدو فأمره متوقع
وأصدمه أول وهلة لا تردع　　بعد التقدم فالنكوص تضعضع [١]

ولم يكف القشتاليون عن منازلة المرابطين في الأندلس على الرغم من الهزائم التي منوا بها، ويبدو أن ذلك ينبع من حماسهم الديني الذي أذكته في نفوسهم الكنيسة في روما ، إضافة إلى نجاحهم في تحقيق بعض المكاسب المادية في غاراتهم على أراضي المسلمين . فبعد موقعة فحص البكار بسنتين التقى تاشفين مع القشتاليين في مكان يعرف بفحص عطية حيث دارت الدائرة على النصارى وقتل منهم عدد كبير [٢] . وفي نفس السنة أيضاً هزمهم تاشفين في جبل القصر هزيمة نكراء [٣] .

وفي عام ٥٣١هـ / ١١٣٦م قصد تاشفين بن علي إحدى قلاع النصارى القريبة من قلعة رباح جنوب نهر وادي يانه تسمى كركي وفتحها عنوة [٤] . وفي السنة التالية قصد أشكونية أو شكلونة وفتحها أيضاً عنوة ، وامتلأت يداه بالغنائم التي حمل منها الى مراكش ستة آلاف سبية [٥] وبعد هذه الحملة

---

(١) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ١٢٤ - ١٢٩ .
(٢) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٦٤ ؛ السلاوي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٨ ؛ محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ١٤٢ .
(٣) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٩٤ - ٩٥ .
(٤) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ٢ ، ص ٣٩٣ ، حاشية رقم ١ .
(٥) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٦٤ ؛ السلاوي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٨ .

توقفت حملات الأمير تاشفين في مجاهدة النصارى إذ استدعاه في هذه السنة الى مراكش والده أمير المسلمين (١) .

وهكذا كانت الحرب سجالاً بين المرابطين والقشتاليين في الأندلس ، فكان كل طرف يعيث في أراضي الآخر ، مما كان له أسوأ الأثر على رعايا الطرفين . وقد أتت هذه الحرب الاستنزافية على أفذاذ الطرفين ، ففقد المرابطون عدداً كبيراً من مشاهير قادتهم أمثال مزدلي وولده محمد ، ومحمد بن الحاج ، وأبو بكر بن واسينو وغيرهم . وفقد النصارى أيضاً أعداداً كبيرة من قادتهم ، ففي موقعة أقليش فقط سقط سبعة من مشاهيرهم دفعة واحدة كما قتل الأمير شانـجة وعدد كبير من القشتاليين . ولكن النصارى كانوا يعوضون خسائرهم البشرية عن طريق السيل المتدفق عليهم من أوروبا ، أما المرابطون فكان المعين الممكن ان يعوضهم عن خسائرهم هو بلاد العدوة ، الا انها كانت في هذه الفترة عبارة عن حمام من الدم ، إذ كان المرابطون يخوضون ضد جيوش محمد بن تومرت معركة حياة أو موت مما قضى أيضاً على أفذاذ أبطالهم في المغرب . لكل هذه العوامل نجد الأوضاع تضطرب في الأندلس بعد استدعاء الأمير تاشفين الى مراكش .

(١) عن استدعاء الأمير تاشفين الى مراكش للاستعانة به في محاربة الموحدين انظر الفصل الخاص بثورة محمد بن تومرت .

الفصل الثاني
جهاده ضد مملكة أرغونة وإمارة برشلونة
وخضوع الجزائر الشرقية لسلطان المرابطين

جهاده ضد مملكة أرغونة وإمارة برشلونة

كانت مملكة نبرة (نافار) التي قامت منذ أواخر القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي في المنطقة الفاصلة بين مملكتي قشتالة وبرشلونة ، من أشد الإمارات الاسبانية النصرانية مقاومة للمسلمين ، غزاها المسلمون مراراً ، ودخلوا عاصمتها بنبلونة (Pamplana) (١) أكثر من مرة في القرنين الثالث والرابع الهجريين / التاسع والعاشر الميلاديين ، إلا انها استطاعت أن تحافظ على استقلالها وتدافع عنه سواء ضد المسلمين أو ضد الفيكنج أو ضد جيرانها من النصارى (٢) .

واستمرت نبرة على ما هي عليه من قوة ووحدة حتى نهاية حكم سانشوا الثالث الملقب بالكبير ٣٩١ ـ ٤٢٧هـ / ١٠٠٠ ـ ١٠٣٥م الذي قسم مملكته

---

(١) Abdurrahman Ali Hajji: Andalusian Diplomatic Relations With Western Europe During the Umayyad Period. (A.H. 138-336/ A. D. 755-976), P. 50-51.

محمد عبد الله عنان : الآثار الأندلسية الباقية ، ص ٣٠٧ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٣٤ .

(٢) محمد عبد الله عنان : الآثار الأندلسية الباقية ، ص ٣٠٧ .

قبيل وفاته بين أبنائه الأربعة فرناندو ، وغرسيه ، وراميرو ، وكونزالوا . فخص أكبرهم غرسيه بالوطن الأصلي نبرة وخص راميرو (أرجون) ـ ، وهي رقعة تمتد بحذاء نبرة ، وكانت قشتالة وجليقية وليون من نصيب فرناندو ، وكانت ولاية سوبرابي وريباجرسا ـ وهي منطقة ليست ذات شأن لصغرها في أواسط جبال البرتات من نصيب كونزالوا .

وكما هو معهود في مثل هذه الأحوال دب الخلاف والنزاع بين الأخوة الأربعة ، فاستعرت نيران حرب أهلية مريرة بينهم تمخضت عن تلاشي مملكة سوبرابي ، بمقتل أميرها عام ٤٣٠هـ / ١٠٣٨م وضم أخيه راميرو أراضيها الى مملكته أرغونة . وبعد كسب هذه الأراضي أخذ راميرو يسعى لضم نبرة الى مملكته ، فتحالف مع أمراء سرقسطة من بني هود من أجل تحقيق هذا الهدف ، إلا انه هزم في لقائه مع أخيه غرسيه عام ٤٣٤هـ / ١٠٤٢م .

ولم يمض وقت طويل حتى سقط ملك نبرة مضرجاً بدمائه في إحدى معاركه الأهلية مع أخيه فرناندو ملك قشتالة سنة ٤٤٦هـ / ١٠٥٤م [١] .

وإذا انتقلنا الى الركن الشمالي الشرقي مما يلي جبال البرتات وجدنا إمارة برشلونة ، ذلك الثغر الذي سلب من المسلمين في فترة مبكرة عندما انقض عليه شارلمان وضمه الى مملكته في عام ١٨٥هـ / ٨٠١م لتأمين حدود فرنسا الجنوبية من أخطار المسلمين [٢] .

وكان ملوك الإفرنج يعينون حكاماً من قبلهم لهذا الثغر ، فلما ضعف سلطانهم استقل هؤلاء الولاة بما تحت أيديهم ، وانقسم الثغر إلى عدة إمارات كان أهمها إمارة برشلونة التي كان يحكمها في أواخر القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي أسرة آل بوريل . وقد استطاع المنصور بن أبي عامر في عام ٣٧٥هـ / ٩٨٥م فتح برشلونة وتخريبها ، إلا أنه لم يحتفظ بها .

---

(١) محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ، ص ٣٦٤ ـ ٣٦٧ .

(٢) Abdurrahman Ali Hajji: Op. Cit, P.45.

ومنذ مطلع القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي خضعت برشلونة لحكم آل برنجير ، فحكمها مؤسس هذه الأسرة الكونت رامون برنجير الكبير حوالي أربعين عاماً ٤٢٧ - ٤٦٩هـ / ١٠٣٥ - ١٠٧٦م ، وقد نجح رامون برنجير خلال حكمه الطويل في ان يأخذ بيد هذه الإمارة نحو التقدم والازدهار ، وان يوسع رقعتها على حساب المناطق المجاورة له .

وقبيل وفاته أوصى بحكم إمارته الى ولديه برنجير ورامون على أن يحكموها في آن واحد ، ولكن ما أن أدركته الوفاة حتى اشتعلت نيران الحرب الأهلية بين الأخوين واستقر الأمر في النهاية على أن يحكم كل واحد منهم مدة بستة أشهر على التناوب ، ولكن بعد فترة قصيرة وجد رامون مقتولاً غيلة فخلا الجو لبرنجير وحكم الإمارة منفرداً الى ان تخلى عن حكمها علم ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م لابن أخيه المقتول رامون برنجير الثالث (١) .

وفي خضم هذه الصراعات والمنافسات والدسائس من أجل الفوز بالسلطة كانت تبرز بين الفينة والفينة بين ملوك وأمراء الأسبان النصارى زعامات ذات وزن كبير ، فقد رأينا في الفصل السابق كيف كان ملك قشتالة الفونسو السادس يصول ويجول في شبه الجزيرة الإيبيرية الى أن حلت الهزيمة بجيشه في أقليش والتي فقد فيها ولده الوحيد شانجة فمات غيظاً وحزناً .

وبعد أن غربت شمس الفونسو السادس ملك قشتالة القوي الذي عانى منه المسلمون في الأندلس معاناة قاسية تسلمت مملكة أرغونة راية حرب الاسترداد ضد المسلمين وخاصة بعدما تولى عرشها في عام ٤٩٨هـ / ١١٠٥م الفونسو الأول الملقب بالمحارب الذي كان لا نظير له في حماسه الديني في محاربة المسلمين ، والذي نبذ حياة النعومة ورخاء العيش ليتفرغ لقتال المسلمين (٢) .

---

(١) محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ، ص ٣٩٢ - ٣٩٤ - ومن الجدير بالذكر ان إمارة برشلونة دمجت في مملكة أرغونة في عام ٥٣٢هـ / ١١٣٧م انظر : Abdurrahman Ali Hajji: Op. Cit, P. 45.

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٣٣ - ٣٤ .

لقد كان الفونسو الأول فارساً جلداً عالي الهمة شديد الأطماع فيما جاوره من بلاد المسلمين . فبعد فترة قصيرة من ارتقائه لعرش أرغونة تزوج من أوراكا ابنة الفونسو السادس ملك قشتالة الوحيدة ، فضم اليه بهذا الزواج ليون وقشتالة ، ودخلت في طاعته جليقية والبرتغال ، وكانتا تؤديان اليه الأتاوة وأصبح بذلك سيداً لمعظم شبه الجزيرة الايبيرية لا يخرج عن سلطانه سوى الأراضي الإسلامية وقطالونية في الشرق (١) .

واستطاعت كنيسة روما ان تزيد من إلهاب حماس الفونسو المحارب ببشاراتها ومواعظها الدينية ، ومساعداتها المادية ومؤازرتها له بإرسال الحملات الصليبية من أوروبا ، ولذلك يمكن اعتبار مملكة أرغونة من الممالك الإسبانية النصرانية الرائدة بعد مملكة قشتالة لحركة الاسترداد النصرانية ، فقد استطاع الفونسو المحارب بحماسه الديني وطموحه القومي الذي يفوق الوصف لاسترداد الأراضي الاسلامية ان يصبغ الحرب بين المسلمين والنصارى في اسبانيا بالصبغة الصليبية . فبعد ارتقائه العرش بدأ الفونسو المحارب مشروعه في استرداد الثغور والمعاقل الإسلامية بمحاولة إلتهام سرقسطة . وزاد طمعه فيها خاصة بعد استشهاد ملكها المستعين بن هود ، ولم ينقذ سرقسطة من السقوط في يده سوى الحرب الأهلية التي نشبت بينه وبين زوجته أوراكا ، وفتح أهالي سرقسطة بعد استشهاد زعيمهم أبواب مدينتهم للمرابطين كما أوضحنا في الباب السابق . وما ان استقر المرابطون فيها حتى تجردوا للدفاع عن هذا الثغر الذي تتهدده الأخطار من قبل الممالك النصرانية المجاورة ، فاستطاعوا بقيادة محمد بن الحاج ومحمد بن عائشة من رد الفونسو المحارب وحليفه عماد الدولة اللذين جاءا لفتح سرقسطة عام ٥٠٤هـ / ١١١١م على أعقابهما (٢) .

وفي نفس الوقت كان المرابطون يقارعون رامون بيرنجير الثالث كونت

---

(١) حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، ص ١١٠ ـ ١١١ .

(٢) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ٧٤ .

برشلونة ، الذي كان كثير الإغارة على الأراضي الإسلامية . فبعد ان استقر المرابطون في سرقسطة شنوا حملة تأديبية ضد كونت برشلونة ، فخرج القائد المرابطي في سرقسطة محمد بن الحاج في جيش كثيف قيمّاً شطر برشلونة في عام ٥٠٨ هـ/ ١١١٤م. وفي طريقه اليها خرب حصن ثرفيرا (Cervera) [١] أو البرية [٢] ، ولما وصل الى ظاهر برشلونة وجدها قلعة حصينة لا يمكن فتحها بسهولة ، ومن ثم اكتفى بُشن الغارات عليها وتدمير كل شيء يمكن ان ينتفع به العدو ، ثم جمع أكبر قدر من الغنائم وأخذ طريقه عائداً الى سرقسطة .

موقعة البورت :

واستقر رأي ابن الحاج على ان يبعث الغنائم ومعظم الجيش عبر الطريق الروماني الكبير، أما هو فقد انتخب مجموعة من أنجاده وأراد اختصار الطريق عبر مفازة وعرة ومنعطفات خطرة . وخلال اجتيازه لهذه المسالك الوعرة كمن له الأرغونيون عند عقبة وعرة من حصن كونجست دل مارتوريل (Congost Del Martorrell) وهاجموه فقاتلهم قتال من رأى انه ملاق ربه فأراد ان يقابله على أفضل صوره وهو مدرج بدمائه فكان له ذلك واستشهد معه جماعة من المطوعة [٣] ، وكان من بينهم قاضي لأرده المعروف بابن قبروق [٤] ، وأما القائد محمد بن عائشة فقد تخلص من الكمين المنصوب بحيلة وعاد الى بلاد المسلمين ، الا انه ما لبث ان فقد بصره بعدها بمدة [٥] .

وتعرف هذه الموقعة باسم البورت وهي كلمة افرنجية تعني في اللغة

---

(١) محمد عبد الله عنان : المرجع السابق ، ص ٧٥ ؛ حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، ص ١١٢ - ١١٣ .

(٢) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٦٠ .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ١٦١ ؛ السلاوي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٥ - ٦٩ ؛ حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، ص ١١٢ - ١١٣ ؛ محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ٧٥ .

(٤) هو يحيى بن محمد الأموي المعروف بابن قبروق من أهل لاردة ، وسكن شاطبة وولي قضاءها ثم استعفى وانتقل الى بلنسية ، فشاور قاضيها حينئذ انظر : ابن الآبار : المعجم ، ص ٣٠٩ .

(٥) المصدر السابق نفسه ، ص ٥٥ .

العربية كلمة « الباب »[1] ، وقد اهتزت جنبات الأندلس لهذه الفاجعة التي حلت بالمرابطين الذين جاءوا للمحافظة على الديار وحماية الذمار في الأندلس .

وعندما علم أمير المسلمين علي بن يوسف بخبر هذه الفاجعة انتدب لولاية سرقسطة بدلاً من واليها الشهيد ابن الحاج ، أبا بكر بن ابراهيم بن تافلويت [2] ، الذي كان عاملاً على مرسية [3] . وقد صمم ابن تافلويت على الثأر لهزيمة ابن الحاج ، فسار في عام ٥٠٨هـ / ١١١٥م على رأس جيش ضخم مكوّن من قوات سرقسطة ، وبلنسية ، وكل من يستطيع حمل السلاح واتجه الى برشلونة ، وعاث في أحوازها ومزارعها [4] ، وضرب حولها الحصار عشرين يوماً ، فخرج أميرها رامون برنجير في قوات عظيمة مكونة من برشلونة واربونة ، ودارت رحى معارك عنيفة بين الطرفين قتل فيها عدد كبير من النصارى ، واستشهد من المسلمين سبعمائة [5] .

وفي الوقت الذي كان فيه ابن تافلويت يخوض غمار حرب دامية مع أمير برشلونة ، انتهز الفونسو المحارب غياب الجيوش عن سرقسطة وقصد دخولها ، فتصدى له عبد الله بن مزدلي ، الذي هب لنجدة المدينة واشتبك معه في معركة ضارية سقط فيها عبد الله بن مزدلي شهيداً [6] .

لقد صمم الفونسو المحارب على الإستيلاء على قواعد الثغر الأعلى ، وركز جهوده على سرقسطة ، وكما رأينا في الباب الثاني استطاع ان يجرد لهذا

---

(١) ابن الآبار : المصدر السابق نفسه ، ص ١٣٤ ؛ والعرب يطلقون كلمة الباب على بداية الدرب الذي يتحكم في عبور الجند له .

(٢) وهو ممدوح ابن خفاجة ومخدوم أبي بكر بن باجة ، توفي عام ٥١٠ هـ . انظر : السلاوي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٢٥ ؛ حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، ص ١١٣ ـ ١١٤ .

(٣) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٦١ ؛ السلاوي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٥ ـ ٦٦ .

(٤) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ٧٥ ؛ حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، ص ١١٢ ـ ١١٣ .

(٥) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٦١ .

(٦) حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، ص ١١٣ ـ ١١٤ .

الهدف حملة صليبية ضخمة نجحت في دخول سرقسطة عام ٥١٢هـ / ١١١٨م ، ولم تبذل جهود مكثفة من قبل المرابطين لإنقاذ هذه المدينة لانشغالهم بمحاربة الموحدين إذ لم يعد في قدرتهم إرسال حملات ضخمة إلى الأندلس لتحقيق مثل هذا الهدف .

ويظهر أن الفونسو المحارب أدرك وضع المرابطين الحرج فاستغل ذلك أحسن استغلال . كما أن انتصاره الكبير على المرابطين بدخول سرقسطة شجعه على السير قدماً في إسقاط بقية قواعد الثغر الأعلى ، ومما زاد في طموحه أيضاً تحسن علاقاته مع أمير برشلونة عن طريق المصاهرة التي أدت الى اتحاد أرغونة وبرشلونة (١) .

وحتى يضمن الفونسو المحارب خطاً دفاعياً جيداً لحماية عاصمته الجديدة سرقسطة كان عليه ان يستولي على كل القلاع ذات الموقع الاستراتيجي التي تهدده ، ولذلك اتجهت أنظاره الى قلعة أيوب وهي من أمنع معاقل بلاد شرق الأندلس فافتتحها عام ٥١٣هـ / ١١١٩م (٢) .

والغريب انه في هذه الفترة كان أمير المسلمين علي بن يوسف قد جاز من العدوة الى الأندلس ، بدل من أن يكثف جهوده لاستنقاذ سرقسطة ، أو قلعة أيوب ، او على الأقل تقوية الوسائل الدفاعية في منطقة الثغر الأعلى بزيادة عدد الجند ، وبتزويد المعاقل الحصينة بالمؤون والعدة والعتاد والرجال ، او ان يقوم على أقل تقدير بحملة استعراضية في الثغر الأعلى لرفع معنويات جنده ورعيته في تلك المناطق ، وبدلاً من كل ذلك فقد توجه الى غرب الأندلس ، حيث قام بعدة علميات عسكرية (٣) .

موقعة كتندة :

لقد أخذ الفونسو المحارب ينفذ مخططه التوسعي بكل دقة وإحكام ،

---

(١) ابراهيم حركات : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٧٩ .

(٢) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٦٣ - ١٦٤ ؛ السلاوي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٧ .

(٣) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٦٣ - ١٦٤ .

فبعد ان ملك قلعة أيوب الحصينة سار نحو كتندة من حيز دورقة (Daroca) من عمل سرقسطة [1] ، وضرب عليها الحصار وضيق على أهلها [2] ، فانطلقت صرخات الاستغاثة من أهل شرق الأندلس طالبة العون والمساعدة من المرابطين ، فهب إلى نجدتهم من قرطبة الأمير أبو إسحاق ابراهيم بن يوسف بن تاشفين على رأس قوة صغيرة وعلى الرغم من صغر هذه القوة الا ان أهل شرق الأندلس تحمسوا بمقدمها حماساً منقطع النظير ، فما ان وطأت حوافر خيول هذه القوة أرض شرق الأندلس حتى توافدت جماعات المتطوعة منضمة اليها ، ويادر العلماء والفقهاء أمثال أبي علي الصدفي [3] ، وأبي بكر بن العربي يلبسون دروعهم للمشاركة في شرف الجهاد [4] .

ويظهر ان الفقهاء المرافقين للقوة المرابطية أدركوا أهمية تعبئة الجند نفسياً قبل خوض المعركة الفاصلة مع العدو ، فكانوا لا يدخرون وسعاً في اغتنام الفرص لبث المواعظ والارشادات طوال مسيرة هذه القوة من مرسية الى كتندة . فكان أبو علي الصدفي يواظب على إلقاء دروسه في أوقات الاستراحة ، فعندما توقف الجيش بعض الوقت في شاطبة جنوب بلنسية ألقى هناك دروسه ، وربما في غيرها من مدن الطريق ، وحتى في مدينة المعركة او قربها ألقى عدة دروس [5] .

وفي يوم الخميس ٢٤ ربيع أول عام ٥١٤هـ / أواخر يونية ١١٢٠م [6] دارت رحى معركة عنيفة بين الجيش الإسلامي والفونسو المحارب عند كتندة، وفي هذه المعركة هزم المسلمون هزيمة نكراء وقتل عدد كبير من المتطوعة بلغ

---

(١) ابن الآبار : المعجم ، ص ٧ ـ ٨ ؛ المقري : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٠٥ .

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٥٨٦ ؛ الذهبي : المصدر السابق ، ج ٤ ، ورقة ١٣٣ ب .

(٣) هو حسين بن محمد بن فيرة بن حيون يعرف بابن سكرة الصدفي ، من أهل سرقسطة وسكن مرسية . انظر عبد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص ٤٢٩ ـ ٤٣٠ .

(٤) حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، ص ١١٥ ـ ١١٦ .

(٥) عبد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص ٤٣٠ ـ ٤٣١ .

(٦) ابن بشكوال : الصلة في تاريخ أئمة الأندلس ، ج ١ ، ص ١٤٤ ؛ ابن الآبار : المعجم ، ص ٧ ـ ٨ .

عدة آلاف بينما لم يتكبد الجند المرابطي خسائر جسيمة ، لأنهم فروا وتركوا المتطوعة يصلون نيران المعركة وحدهم . وممن سقط شهيداً في هذه المعركة أبو عبد الله بن الفراء قاضي المرية [١] ، وأبو عبد الله الصدفي [٢] ، هذا ويقدر ابن الآبار [٣] عدد القتلى من المتطوعة بنحو عشرين ألفاً ، وقد عاد من بقي منهم على قيد الحياة الى بلنسية .

وقد عبر ابن العربي بمثل مغربي دارج عن مدى خسائر المسلمين في هذه المعركة عندما سئل عن حاله فقال : « حال من ترك الخباء والعباء » ، أي أنه قد فقد جميع ما لديه [٤] .

وطارت أخبار هذه الهزيمة في أرجاء المغرب والأندلس ، ويبدو ان أمير المسلمين علي بن يوسف أدرك ما يترتب على هذه الهزيمة وما سبقها من هزائم من تضعضع لمركز المرابطين في الأندلس ، فأراد ان يعيد ثقتهم به ، فجاز عام ٥١٥هـ / ١١٢١م ليأخذ بثأر هزيمة كتندة ، إلا انه فشل في التقدم نحو سرقسطة لإحكام حراستها من قبل الفونسو المحارب ، بعد ان سيطر على معاقلها ، فاكتفى بمناوشة نواحي طليطلة والبرتغال [٥] .

ويظهر ان أمير المسلمين علي بن يوسف حمل أخاه ابراهيم بن يوسف مسؤولية هزيمة كتندة ، واعتبره مقصراً في اتخاذ التدابير والاستعدادات الكافية للمعركة ، ويبدو أيضاً انه استمع لشكاوى أهالي المتطوعة وبعض من حضر هذه الموقعة عن موقف الأمير ابراهيم والجيش المرابطي المزري ، حين

---

(١) هو محمد بن يحيى بن عبد الله بن زكريا المعروف بابن الفراء ، وهو من أهل المرية وقاضيها انظر : ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ٢ ، ٥٤٢ .

(٢) المقري : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص٢٠٥ ؛ ابن الآبار : المعجم ، ص ٧ ـ ٨ .

(٣) المعجم : ص ٧ ـ ٨ .

(٤) المقري : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٠٥ .

(٥) حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، ص ١١٥ ـ ١١٦ .

تركوهم نهباً لرماح وسيوف الأعداء، ولذلك أصدر أمره بعزل ومعاقبة أخيه إبراهيم[1] .

ومن النتائج التي ترتبت على هزيمة كتندة وسقوط المدينة بيد الفونسو المحارب أنه أصبح في مأمن في سرقسطة ، لأن ذلك أتاح له أن يستولي على القلاع والحصون التابعة لها . وهذا ما حدث فعلاً بعد موقعة كتندة ، فلم تجرؤ القوات المرابطية على الاقتراب من سرقسطة[2] .

غزوة الفونسو المحارب الكبرى للأندلس :

لقد لاقت انتصارات الفونسو المحارب المتلاحقة على الجيوش المرابطية واستمراره في التهام الأراضي الإسلامية ، اضافة لصرخات بابوات روما المدوية الداعية الى إحياء الروح الصليبية في نفوس الأسبان من أجل إجلاء المسلمين عن الأندلس أذناً صاغية من قبل رجال الدين النصارى ، الذين كانوا يعيشون تحت الحكم الإسلامي في الأندلس ، فرأوا من واجبهم الوطني الوقوف إلى جانب الممالك النصرانية التي تحاول طرد المسلمين من الأندلس . هذا بالاضافة الى استيائهم من وضع النصارى (المستعربين) الذي أقبلوا على الثقافة الغربية إقبالاً عظيماً ، ولذلك كانوا يحاولون إيقاف هذا الإقبال بأي ثمن[3] .

ولقد وجد المستعربون في شخصية الفونسو المحارب مطلبهم ليخلصوا

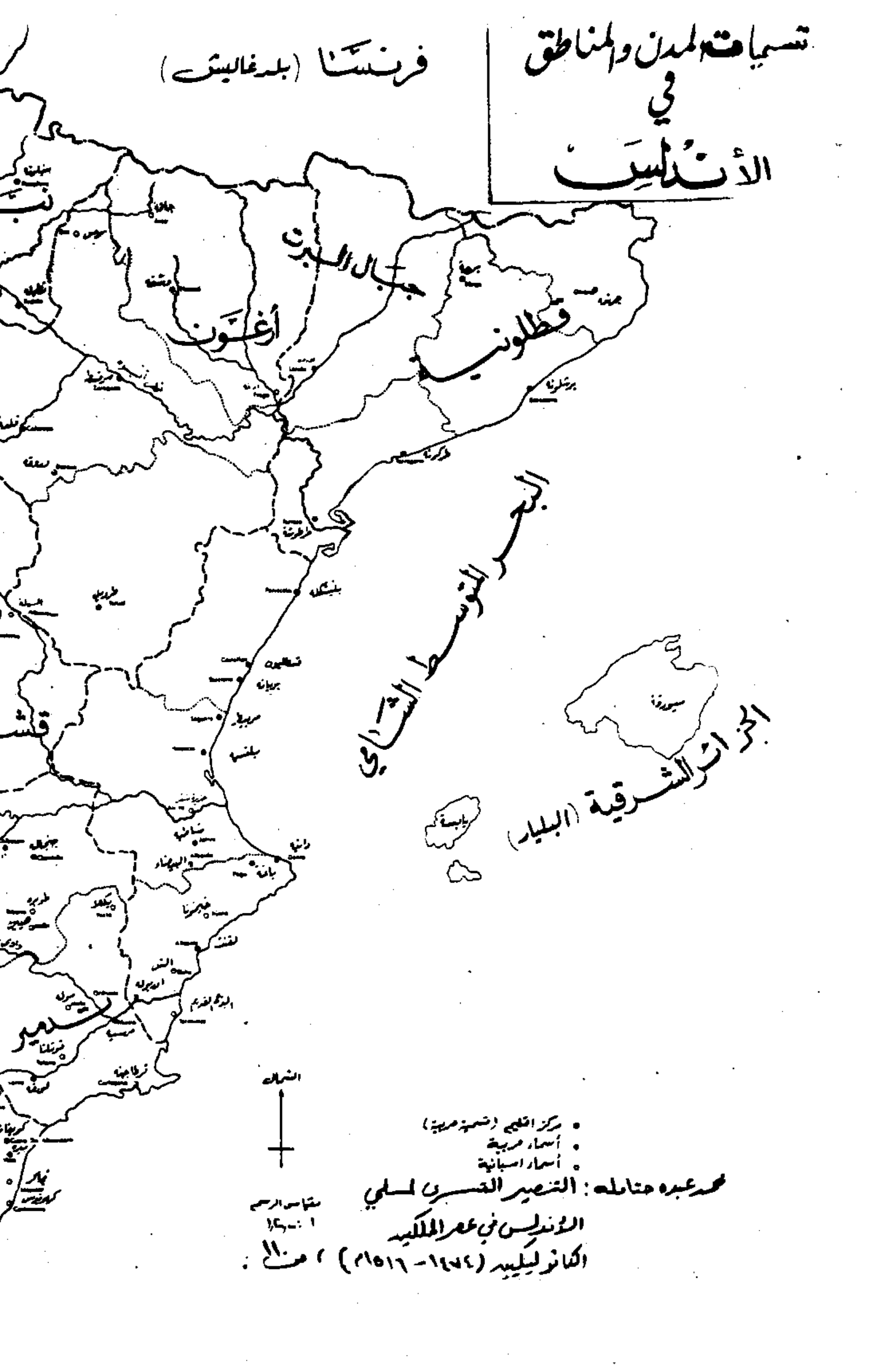
---

(١) ابن عذاري : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٠٦ ، حاشية رقم ٣ ؛ ابن الآبار : المعجم ، ص ٥٥ ـ ٥٦ .

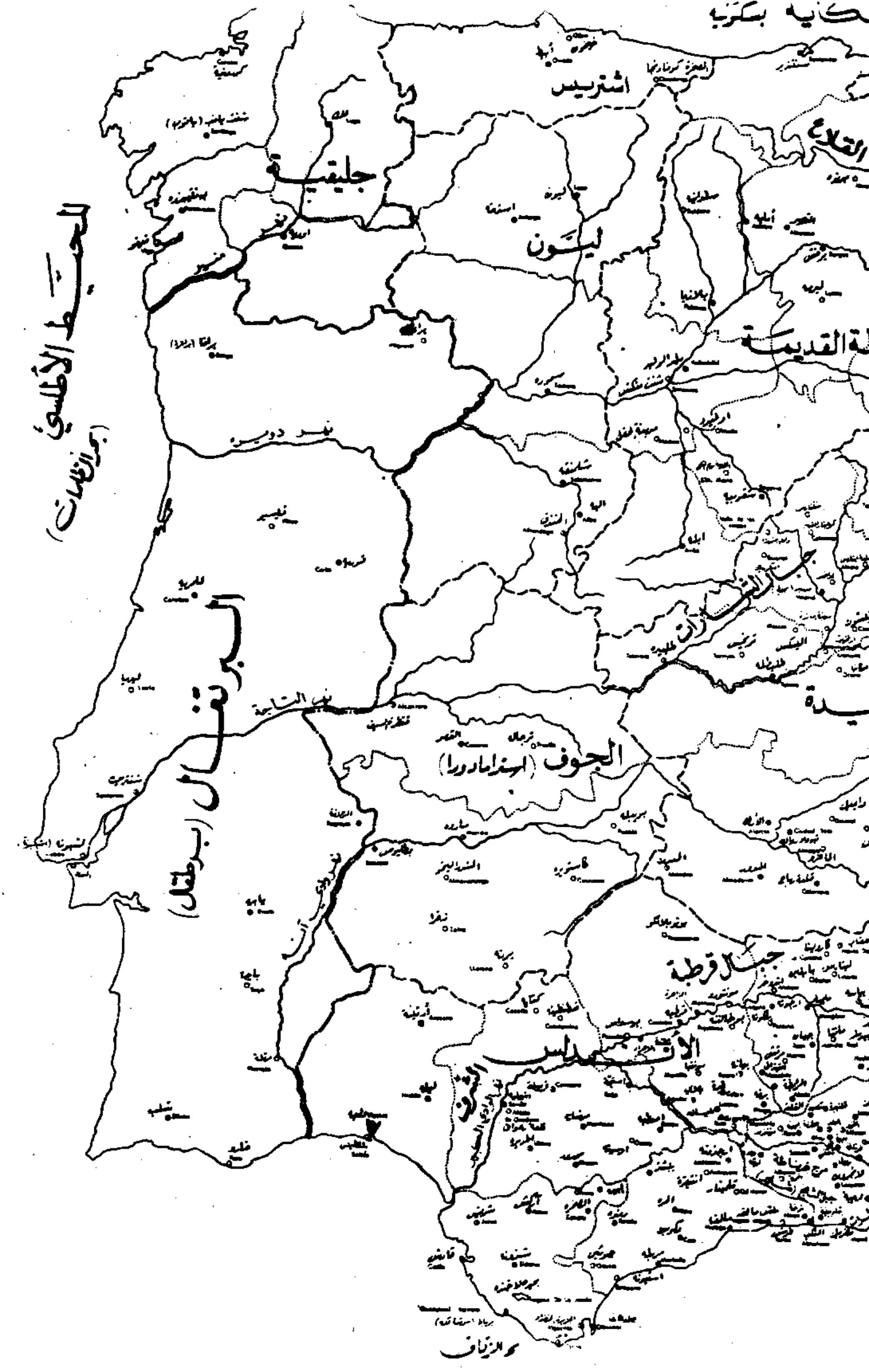
(٢) حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، ص ١١٧ ـ ١١٨ .

(٣) عن أوضاع أهل الذمة منذ الفتح الإسلامي حتى خروج المسلمين من الأندلس ، وعن بعض تحركاتهم ضد الدولة الإسلامية انظر : ارنولد : الدعوة الى الإسلام ، ص ١١٩ ـ ١٢٧ ؛ محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ص ٤١٠ ـ ٤١٢ ؛ عصر المرابطين والموحدين ، ص ١٠٧ ؛ دول الإسلام في الأندلس ، ج ١ ؛ ص ٢٦٤ ؛ لطفي عبد البديع : الإسلام في اسبانيا ، ج ٢ ، ص ٢٧ ـ ٢٩ ؛ لين بول : قصة العرب في اسبانيا ، ص ٧٢ ـ ٧٩ ؛ أحمد بدر : دراسات في تاريخ الأندلس ، ص ١٩٤ ـ ١٩٥ ، ٢٠٣ ـ ٢٠٥ ؛ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ١٣٠ ـ ١٣١ .





تسميات المدن والمناطق
في
الأندلس
فرنسا (بلد غاليش)
جبال البرت
أرغون
قطلونية
برشلونة
طركونة
طرطوشة
بلنسية
البحر المتوسط الشامي
الجزائر الشرقية (البليار)
ميورقة
يابسة
دانية
الشمال
مركز اقليمي (تسمية عربية)
أسماء عربية
أسماء اسبانية
محمد عبده حتاملة: التنصير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثوليكيين (١٤٧٤-١٥١٦م)، ص١١٠.



اشتريس
جليقية
ليون
المحيط الأطلسي
(بحر الظلمات)
البرتغال
(برتغال)
نهر دويره
نهر التاجة
الجوف (استرامادورا)
جبل قرطبة
الأندلس



أنفسهم من الانجراف في التيار العربي ، فبعثوا اليه مندوبين عنهم يطلبون منه القدوم الى غرناطة ليساعدوه في افتتاحها قاطعين له الوعود بأن يقدموا له كل عون ومساعدة من عدة ومؤنة ورجال [١] .

ويظهر أن سبب تزعم نصارى غرناطة لهذه المؤامرة دون غيرها من الحواضر، يعود لكونها أكبر حاضرة يتجمع فيها أكبر عدد من المستعربين، من حيث العدد والثراء والنفوذ [٢] كما انها أيضاً عاصمة المرابطين في الأندلس ، فسقوطها يعني ضربة قاصمة للظهر للوجود المرابطي في الأندلس ، لا بل للوجود الإسلامي ككل في الأندلس ، لما سيترتب على ذلك من انتشار الذعر والخوف في قلوب المسلمين ، كما ان سقوطها سيجعل المناطق التي لم تسقط بعد بين فكي كماشة الأعداء .

ويبدو ان الفونسو المحارب كان متردداً في تلبية نداء المستعربين في غرناطة من أجل فتحها ، لذا تكررت عليه وفودهم ملحة في طلبها ، وواصفة له خيرات غرناطة من محاصيل وثمار مختلفة من قمح وشعير . وكتان ، وكروم ، وزيتون ، وفواكه ، وكثرة عيونها وأنهارها المنبثقة من قصبتها ومرافقها وأنها بحكم موقعها الاستراتيجي وثرائها تعتبر سنام الأندلس. فلما لمسوا منه الابطاء بعثوا له بأسماء اثني عشر ألف من انجادهم الذين سيكونون تحت تصرفه عندما يتقدم إليهم[٣] .

وإزاء هذه الاغراءات عزم الفونسو المحارب على القيام بحملة ضخمة على الأندلس من أجل دخول غرناطة ، فانتخب من قواته أربعة آلاف فارس [٤] من أنجاده من ارغونة وتعاهدوا على الأنجيل أن لا يفر أحد منهم عن

---

(١) عبد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص ٤٣٢ ـ ٤٣٣ .

(٢) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ١٠٦ .

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ١٠٨ ـ ١٠٩ ؛ ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٦٩ ؛ مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٩٠ ـ ٩٢ .

(٤) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٩٠ ـ ٩٢ ، ويذكر ابن عذارى (البيان المغرب ، ج ٤ ، ص ٦٩) ان عدد الفرسان خمسة آلاف .

صاحبه [1] ، ثم ما لبث ان أضاف الى فرسانه خمسة عشر ألف راجل [2] ، وعزم على أن يحيط غزوته تلك والهدف الذي تسعى اليه بالكتمان الشديد [3] .

وفي أول شعبان عام ٥١٩هـ / سبتمبر ١١٢٥م [4] خرجت جحافل الفونسو المحارب من سرقسطة يتقدمها أسقفا سرقسطة ووشقة [5] ، واتجهت نحو بلنسية فوصلت في يوم الثلاثاء ٢٠ رمضان ٥١٩هـ [6] . وخلال تواجد الفونسو المحارب على أراضي بلنسية ، هرع اليه المعاهدون للانضمام اليه وتقديم المساعدة والعون له ، وأخذوا يدلونه على المسالك ، ويرشدونه الى عورات المسلمين وكل شيء يضربهم . ومن بلنسية تحرك نحو مرسية عن طريق بسطة[7] التي طمع فيها لكونها غير محصنة ، ولأن أكثر حاراتها غير مسورة . ثم سار حتى وصل الى وادي آش[8] يوم الجمعة أول ذي القعدة وأقام يقاتلها من الجمعة حتى الاثنين[9] ، وبعدها أخذ يكرر محاولاته لدخولها مدة شهر[10] .

---

(١) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٩٠ - ٩٢ .

(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٦٩ .

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ١٠٩ - ١١٠ .

(٤) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٧٠ - وهناك خلاف حول تحديد بداية الزحف فيذكر صاحب الحلل الموشية (مؤلف مجهول ، ص ٩٠ - ٩٢) انه في منسلخ شعبان عام ٥١٩هـ ، اما ابن الخطيب (الإحاطة ، ج ١ ، ص ١٠٩ - ١١٠) فيذكر انه بداية شعبان عام ٥١٥هـ .

(٥) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ١٠٧ - ١١٠ .

(٦) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٧٠ .

(٧) مدينة متوسطة تقع الى الشمال الشرقي من غرناطة وتبعد عنها نحو ١٢٥كم ، (انظر الحميري : المصدر السابق ، ص ١١٣ ؛ مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٩٢ ، حاشية رقم ٩١) .

(٨) من أعمال غرناطة ، وهي مدينة كبيرة تحيط بها البساتين ، ومن أعمالها حصن جليانة ، وهو حصن عظيم يبتعد عنها ١٢ ميل (انظر ابن الخطيب : معيار الاختيار ، ص ١١٢ - ١١٣ ؛ المقري : المصدر السابق : ج ١ ، ص ١٤٢ - ١٤٣) .

(٩) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٩٠ - ٩٢ .

(١٠) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

وتابع ألفونسو سيره في اتجاه غرناطة فسار حتى وصل الى قرية فنيانة الواقعة في الجنوب الشرقي من مدينة وادي آش وأقام عليها شهرين [١] ، وخلال ذلك أخذ المعاهدون في استدعائه فافتضح أمرهم [٢] ، وحاول الأمير تميم السيطرة عليهم إلا انه لم يستطع ذلك لكثرتهم ، فأخذوا يتسللون الى الفونسو من كل فج فكثر رجله وضخمت قواته ، وأخذ يضايق مدينة وادي آش والمحلات الأخرى في طريقه [٣] .

وفي هذا الوقت طارت أخبار هذه الغزوة الى أسماع أمير المسلمين علي بن يوسف فأنفذ أمره على الفور الى سائر أقطار العدوة بتوجيه الجيوش الى الأندلس ، فجدت جيوش العدوة السير لتحدق بالمدينة المستهدفة من قبل العدو وأعوانه من المعاهدين وأحدقت بها ، ثم أقبلت عساكر بلنسية ومرسية للغرض ذاته [٤] ، وصارت الجيوش المرابطية كالدائرة حول غرناطة وهي وسطها كالنقطة [٥] .

وتحرك الفونسو المحارب نحو قرية دجمة احدى قرى غرناطة [٦] يوم عيد الأضحى فصلى الناس بالمصلى صلاة الخوف [٧] وهم في كامل أسلحتهم واستعدادهم[٨] ولما وصل الفونسو المحارب الى مدينة غرناطة كانت

---

(١) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٩٣ - ٩٤ - ويذكر ابن الخطيب : (الإحاطة ، ج ١ ، ص ١٠٩ - ١١٠) أن المدة كانت شهراً .

(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٧٠ ؛ مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٩٥ .

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ١١٠ ؛ ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٧٠ .

(٤) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٧٠ .

(٥) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٩٥ - ٩٧ .

(٦) المصدر السابق نفسه ، ص ٩٤ .

(٧) فرضت صلاة الخوف يوم الخندق وتؤدى على النحو التالي : طائفة تصلي مع الإمام ركعة واحدة وطائفة تحرسهم وتواجه العدو ، ثم يقف الإمام فترجع الطائفة الأولى لتحل محل الثانية ويتابعوا مع الإمام حتى اذا جلس انتظر حتى يأتوا بالركعة الثانية ، ثم يسلم فيسلموا ، أما الطائفة الأولى فتتم وحدها . والصلاة تؤدى قصراً . (انظر محمد بن ادريس الشافعي : الرسالة ، ص ٢٤٤) .

(٨) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٧٠ .

قواته قد بلغت خمسين ألفاً حيث ضرب محلته بالقرب منها بضع عشرة ليلة لم يستطع فيها القيام بأي عمل عسكري ضد غرناطة لتوالي تساقط الأمطار وانخفاض درجات الحرارة . إلا ان المعاهدين كانوا يجلبون إليه المؤن [1] وخلال ذلك وصل اليه زعيم المعاهدين ابن القلاس ، وحدثت مشادة بين الفونسو المحارب وابن القلاس تبادل الطرفان فيها الاتهامات بالإخلال بالشروط التي تم الاتفاق عليها ، فقد اتهم الفونسو المحارب ابن القلاس بأنه لم يف بوعوده التي قطعها له ، ورد ابن القلاس الاتهام بأن الفونسو تأخر حتى أقبلت الجيوش الاسلامية من الشرق والغرب وبلاد العدوة ، ثم حمل ابن القلاس الفونسو مسؤولية هلاك المعاهدين اذا هو أقلع عن محاولة دخول غرناطة .

وفعلاً قرر الفونسو المحارب العودة الى بلاده بعد ان رأى حصانة غرناطة ، وكثافة الجيوش الإسلامية المحدقة بها ، فتحرك عائداً لأربع بقين من ذي الحجة عام ٥٢٠هـ / ٢١ يناير ١١٢٧م [2] ، وما أن تحرك عنها حتى تتبعت الجيوش الإسلامية أذياله تناوشه حتى إذا ما وصلت قواته حصن لسانه [3] ، تقابل الجيشان في منطقة تابعة لهذا الحصن تسمى الرنيسول ، وحدثت مناوشات أثناء النهار كان النصر فيها حليف الجيش الإسلامي ، ولكن ما أن أرخى الليل سدوله حتى قام قائد الجيش الإسلامي بتصرف غير حكيم عندما أمر بتغيير مقر قيادته من مكان منخفض الى آخر مرتفع ، دون ان يدرك ما لهذا الإجراء من خطورة على نفسية جنده الذين ظنوا ان أميرهم قد عزم علي الانسحاب فولوا مدبرين من معسكرهم فحدث الاضطراب والاختلال في

---

(١) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٩٤ ـ ٩٧ .

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ١١٠ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٦٣١ . مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٩٥ ـ ٩٦ .

(٣) حصن من حصون غرناطة الدفاعية يقع الى الشمال الغربي منها : (انظر مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٩٥ ، حاشية) .

المحلة الإسلامية [1] .

ولم يصدق العدو ما يسمع وما يرى في المحلة الإسلامية ، وعلى الفور قام الفونسو المحارب باستنفار جنده وقسمهم الى أربعة ألوية وحمل على المسلمين فكانت الدائرة عليهم ، كما استولى على محلتهم [2] يوم الأربعاء ١٣ صفر ٥٢٠هـ [3] .

وتشجع الفونسو المحارب بعد هذا النصر غير المتوقع وقرر العودة مرة أخرى الى غرناطة بقصد دخولها فوصل إليها بعد ان مر على عدة قرى ومدن وحصون دمرها جميعها وعاث فيها ، وخرب أرباضها ، وحرق زروعها وجمع سبيها . وعلى ثلاثة فراسخ من غرناطة ضرب الفونسو محلته ، وأقام بها ثلاثة أيام [4] ، ويبدو ان حصانة المدينة وقوة الحامية المحيطة بها ، خيبت رجاء الفونسو فحزم خيامه وقفل راجعاً الى بلاده وفي طريقه إليها كانت القوات المرابطية تتعقبه فنهبت وقتلت أعداداً كبيرة من جنوده . ومما زاد الأمر سوءاً بالنسبة له تفشي الوباء بين جنده فأخذ يطوي المسافات للحاق ببلاده تاركاً في كل موقع حل فيه هلكى ومرضى الى أن عاد الى بلاده [5] بعد أن عاث في الأراضي الإسلامية وجمع الغنائم الوفيرة منها [6] مدة سنة وثلاثة أشهر [7] .

لقد عاد الفونسو المحارب الى بلاده دون ان يحقق هدفه الذي خرج من أجله وهو الاستيلاء على مدينة غرناطة . ولولا تباطؤه في الوصول اليها أول مرة والذي مكن الجيوش الإسلامية من جمع حشودها واستقدام نجدات جديدة من

---

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٦٣١ ؛ مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٩٥ ـ ٩٦ .
(٢) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٩٥ ـ ٩٦ .
(٣) ابن رشد : مسائل أبي الوليد بن رشد ، ج ٥ ، ص ٩٦١ .
(٤) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٧١ ـ ٧٢ .
(٥) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ١١٠ ـ ١١٣ ؛ ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص٧٢ ؛ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٦٣١ .
(٦) الذهبي : المصدر السابق ، ج ٤ ، ورقة ١٤٠ ب .
(٧) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٩٧ .

سائر أنحاء الأندلس والعدوة ، ولولا أن أدركه فصل الشتاء لتمكن ألفونسو من تحقيق هدفه الكبير ، لأنه دخل الأندلس بجيوش جرارة ، إضافة لآلاف المعاهدين الذين انضموا إليه .

وكشفت هذه الحملة عن تدهور الأوضاع في الأندلس ، فقد أظهرت تمزق الجبهة الداخلية فيه . فالمعاهدون القاطنون في المدن الإسلامية أظهروا نواياهم الخبيثة تجاه المسلمين ، وأخذوا يحيكون الدسائس والمؤامرات ضدهم . غير ان هذه الحملة نبهت الدولة المرابطية والمسلمين في الأندلس الى خطورة المعاهدين ، فأخذت تحسب لهم حساباً كبيراً ، كما شددت المراقبة عليهم ، وأنزلت أشد العقوبات بالمتآمرين منهم .

كما كشفت هذه الحملة عدم كفاءة قائد الجيوش المرابطية في الأندلس تميم بن يوسف ، على أن أهم نتائجها بالنسبة للجبهة الإسلامية هو ما كشفت عنه من ضعف الوسائل الدفاعية في الأندلس ، وخاصة فيما يتعلق بالقلاع والأسوار .

كل هذه الأمور أدركها رجالات الأندلس من علماء وفقهاء، ويظهر أنه بعد مشاورات جرت بينهم استقر رأيهم على ندب ابن رشد للذهاب الى مراكش ليخبر أمير المسلمين علي بن يوسف بما آلت اليه حال الأندلس ، وما اكتشفوه من خلل بعد غزوة الفونسو المحارب .

وتوجه ابن رشد في يوم الثلاثاء أول ربيع أول ٥٢٠هـ الى مراكش وحدث أمير المسلمين بما يراه علماء الأندلس [١] من تغريب المعاهدين لموقفهم من الفونسو المحارب واستدعائهم له ومساعدتهم له [٢] ، وبما يرونه من عزل أخيه تميم وتقديم غيره [٣] ، كما اقترح ابن رشد أيضاً على أمير

---

(١) ابن رشد : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٩٦٣ .

(٢) ابن الآبار : المعجم ، ص ١٥٥ .

(٣) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٦٨ .

المسلمين ضرورة ترميم الأسوار والقلاع في الأندلس والمغرب ، وبناء سور لمدينة مراكش [1] .

وفعلاً قام أمير المسلمين بتنفيذ كل هذه الاقتراحات ، وكتب الى سائر أنحاء الأندلس بالنظر في الأسوار في جميع البلاد [2] ، فقام والي غرناطة الجديد بإصلاح أسوارها ، وقام أهل قرطبة بإصلاح سور مدينتهم ، وكذلك فعل أهل إشبيلية ، وأهل المرية ، كما قام بعزل أخيه تميم وعين بدلاً منه والياً جديداً اسمه عينعلو [3] ، وفي شهر رمضان من نفس السنة أصدر أمير المسلمين أمره بتغريب المعاهدين الى ناحية مكناسة وسلا وغيرهما من بلاد العدوة [4] .

ويظهر ان الذين غربوا هم الفئات التي اشتركت في المؤامرة بشكل فعلي ، ومما يبرهن على ذلك انه في عام ٥٢٢هـ/ ١١٢٨م جاءت شكوى من المعاهدين الى أمير المسلمين يشكون فيها ظلم واليهم عمر يناله [5] .

كما يبدو أن العدد الأكبر من المعاهدين الذين اشتركوا في المؤامرة قد انسحبوا مع الفونسو المحارب عندما ايقنوا فشل مخططهم [6] .

ولكن لماذا غرب هؤلاء المعاهدون الى سلا ومكناسة بشكل خاص ؟ بخصوبة أراضيها [7] ، أو بالاستفادة من بعضهم كجند مرتزقة ، فقد ضم أمير المسلمين عدداً منهم الى حرسه الخاص [1] .

---

(١) عبد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص ٤٣٤ .

(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٧٣ .

(٣) احسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ، ص ٣٠ .

(٤) عبد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص ٤٣٤ ـ هذا وقد عاد ابن رشد الى قرطبة يوم الأربعاء ٢٢ جمادى الأولى ، ٥٢٠هـ ، (انظر : ابن رشد : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٩٦٣ ؛ مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٩٠ ـ ٩١) .

(٥) ميراندا : علي بن يوسف وأعماله في الأندلس ، ص ١٧٥ .

(٦) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ١١٢ .

(٧) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٦٩ .

يبدو أن ذلك يعود الى أن الدولة المرابطية فكرت في الاستفادة منهم بإسكان قسم منهم في بعض المناطق الزراعية لاستغلالها كمدينة سلا مثلاً المشهورة

وأما الفونسو المحارب فقد استفاد فائدة كبيرة من غزوته تلك فقد تعرف على معاقل ومدن الأندلس عن قرب ، وعرف أماكن القوة والضعف فيها ، واستطاع ان يوجد له فيها عملاء دائمين من المعاهدين ، وان يكتسب أعداداً منهم انضموا الى جيشه ، كما توصل الى حقيقة هامة وهي ان أفضل طريقة لطرد المسلمين ، من الأندلس هي اجلاؤهم على مراحل بانتزاع معاقلهم الواحد بعد الآخر .

موقعة القلاعـة :

فبعد هذه الغزوة أخذ الفونسو المحارب يستكمل سيطرته على معاقل الثغر الأعلى التي لم يكن قد بقي منها في أيدي المسلمين سوى طرطوشة ولاردة ، وأفراغة ، فأخذ يعمل على الاستيلاء على طرطوشة الميناء الهام على البحر الأبيض المتوسط ، ولكن تحقيق هذا الهدف لم يكن بالأمر اليسير إذ لا بد له أولاً من الاستيلاء على لاردة وأفراغة ، وأن يخوض في سبيل ذلك عدة معارك مع المرابطين . ومن أجل ذلك خرج من عاصمته سرقسطة عام ٥٢٣هـ / ١١٢٩م وزحف في اتجاه أفراغة ولاردة ، وسار بقواته جنوباً نحو بلنسية .

وكان المرابطون بعد غزوة الفونسو الكبرى عام ٥١٩هـ قد كثفوا حامياتهم وبثوا عيونهم على حدودهم مع الفونسو المحارب . ولذلك استطاعوا ان يتعرفوا على نوايا الفونسو المحارب ، وانه يزمع القيام بحملة كبرى كتلك التي قام بها على الأندلس في عام ٥١٩هـ ، وبادروا بإرسال هذه المعلومات الى أمير المسلمين في مراكش ، طالبين منه المدد والعون . فبادر أمير المسلمين بإرسال جيش من السود إليهم ، وأوعز الى مدن الأندلس وحواضرها

---

(١) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ١١٤ .

بأن تتكفل بنفقات هذا الجيش كل ناحية حسب طاقتها . وقد وصلت هذه الحشود الى مرسية تعزيزاً للجيوش المرابطية في شرق الأندلس .

وتقابلت الجيوش الإسلامية مع جيوش الفونسو المحارب في منطقة يقال لها القلاعة او القليعة جنوبي بلنسية . وهناك دارت الدائرة على الجيش الاسلامي ،بعد ان فقد من أفراده اثنا عشر ألفاً بين قتيل وأسير ، واستولى الفونسو المحارب على القلاعة وأقطعها لأحد أتباعه (١) .

وعندما وصلت أخبار هذه الهزيمة إلى أسماع أمير المسلمين علي بن يوسف غضب لذلك غضباً شديداً ، وبادر بإرسال رسالة توبيخ لجنده وقادته محملاً إياهم عبء الهزيمة .

ويستفاد من هذه الرسالة ان جيش المرابطين في هذه الموقعة كان أكثر عدداً من جيش الفونسو المحارب ، وان قائد جيش المرابطين هو أبو محمد بن أبي بكر بن سير اللمتوني ابن اخت أمير المسلمين علي بن يوسف . كما يستفاد منها أيضاً ان هذه الموقعة وقعت في النصف الأول من عام ٥٢٣هـ / ١١٢٩م .

ومما جاء في هذه الرسالة التي كتبها ابن أبي الخصال على لسان أمير المسلمين علي بن يوسف الى قادة المرابطين في شرق الأندلس في السابع من شهر شعبان ٥٢٣هـ ما يلي : « واتوافقتم مع عدوكم ، وأنتم أوفر منه عدة ، وأكثر جمعاً . . . وكنتم في تلك الوقعة قرة عين الحاسد وشماتة العدو الراصد . . » (٢) .

ونستطيع على ضوء هذه الرسالة والرسائل التالية التي وصلت الى قادة الشرق الأندلسي من قبل أمير المسلمين أن نتعرف على أسباب هزيمة المسلمين في القلاعة على الرغم من كثرة عددهم .

---

(١) محمد عبد الله عنان : المرجع السابق ، ص ١١٤ - ١١٨ .

(٢) حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، ص ١٣٩ - ١٤٣ ؛ محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ٥٤١ - ٥٤٤ .

فيتضح أنه لم يكن هناك تنسيق بين القوات النظامية والمتطوعة ، فقد ترك النظاميون المتطوعة وهربوا تاركين اياهم نهباً لرماح وسيوف العدو ، وإذا علمنا ان المتطوعة يشكلون جزءاً لا بأس به من الجيش الإسلامي علمنا مدى خطورة مثل هذا التصرف على وجود المرابطين في الأندلس ، اذ سينظر إليهم أهل الأندلس نظرة حقد وعداء لتسليمهم إياهم للأعداء على هذا النحو ، وسيدفعهم هذا الحقد والعداء على المرابطين الى تحين الفرص للتخلص من حكمهم . ومما يؤكد فرار الجند النظامي عن المتطوعة ما جاء في رسالة أمير المسلمين الى قادة القلاعة حيث يقول : « .... فشغله عنكم من غررتموه من الرَّجل الذي أسلمتوه للقتل ، ونصبتموهم دريئة للرماح ثم طرتم ... »[1] .

كما يظهر ان الجيش الإسلامي كان منقسماً على نفسه قبل المعركة ، وهذا ما يلمح من خلال تركيز أمير المسلمين في رسائله على وحدة الصف واتفاق الكلمة فيقول : « فكونوا بعد هذه الهناة لداعي الرشد بين مطيع وسامع ومن كلمة الاتفاق والتآلف على أمر جامع فانكم لو حسنت سريرتكم واطمأنت على التقوى قلوبكم لظهر أمركم ... ولما ذهب ريحكم ... »[2] .

ومن الأسباب المهمة أيضاً لهذه الهزيمة إهمال قادة شرق الأندلس وعدم استعدادهم وتأهبهم لمواجهة أي طارىء يجد من قبل العدو ، فلم تكن لديهم العيون التي ترصد تحركاته بعد اشتباكهم معه لتزويدهم بالمعلومات ليكونوا على أهبة الاستعداد لمواجهة مكائد العدو خلال القتال . فمعرفة المعلومات الوافية عن العدو قبل هجومه أو أثناء تقدمه تتيح الفرصة للقادة المسلمين لوضع الخطط الكفيلة لصد هجومه ، وهذا ما نبه إليه أمير المسلمين في رسالته حين قال : « ... فلتضعوا على مسالكه عيوناً تكلأ ، ولتكن آذانكم مصغية لما يطرأ فان كان له مدد كما ذكر قطعتم به السبيل دون لحاقه ، وأقمتم الحزم على ساقه ... » .

---

(١) حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، ص ١٣٩ .

(٢) المقال السابق نفسه ، ص ١٤٠ .

ومن الأسباب العامة التي أدت الى هزيمة المرابطين طريقة الهجوم عندهم والتي كانت سبباً في كثير من هزائمهم . فقد كان المرابطون يندفعون على الأعداء في الساعات الأولى من المعركة بحماس منقطع النظير فيدفعون العدو أمامهم . ولما كانوا يحاربون من غير دروع ثقيلة في حين ان النصارى كانوا لا يدخلون أية معركة دون ان يلبسوا الدروع الثقيلة ، فكما هو معروف عند العسكريين ان القوات المتمركزة تكون خسائرها في الغالب أقل من خسائر القوات المهاجمة في الساعات الأولى ، وهذا ما كان يحدث فعلاً ، فقد كان يسقط من الجنود المسلمين المندفعين في هجومهم عدد كبير في بداية المعركة ، وبعد ان يمتص العدو قوة الصدمة الأولى يبدأ ميزان القوة يرجح لصالحه لأن صفوف المسلمين تكون قد تخلخلت لكثرة من سقط منهم (١) .

ويبدو أيضاً أن عدم تجانس القوات الإسلامية في معركة القلاعة كان عاملاً جوهرياً في هزيمة المسلمين فيها . فقد رأينا أن النجدة القادمة من بلاد العدوة كان أغلبها من السودان ، كما كانت هناك جيوش مرابطية من لمتونة وغيرها من قبائل البربر ، اضافة للعناصر الأندلسية . ان جيشاً يتكون من هذه العناصر غير المتجانسة التي تجمع على عجل ليدفع بها لخوض معركة دون سابق تخطيط وتدبير مع عدو له خبرة ومقدرة حربية فائقة سيكون مصيره الهزيمة حتماً وهذا ما حدث .

ويمكن إضافة عامل غير مباشر لهذه الهزيمة وهو تزعزع ثقة الأندلسيين في المرابطين الذين توالت هزائمهم ، ولذلك كان الأندلسيون يقاتلون بمعنويات منخفضة جداً مما قلل من حماسهم للقتال في هذه المعركة ، وفي نفس الوقت فقد حال اضطراب الأحوال في المغرب بسبب ثورة محمد بن تومرت وانشغال الدولة بمحاربته دون إرسال أعداد أوفر من النجدات التي ارسلت لشرق الأندلس .

وفي أوائل السنة التالية لمعركة القلاعة ، أي عام ٥٢٤ هـ/ ١١٢٩ م ،

---

(١) حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، ص ١٤١ .

توفي والي بلنسية محمد بن يوسف بن بدر بن ورقا ، فعين مكانه ينتان بن علي بن يوسف ، وهو الابن الأصغر لعلي بن بن يوسف . وما أن استقر الوالي الجديد في ولايته حتى وضع نصب عينيه الانتقام من مملكة أرغونة التي لا تتوقف عن الزحف على الأراضي الإسلامية . فخرج ينتان على رأس جيش بلنسية غازياً لأراضي أرغونة ، حيث التقي مع أحد قادتها الكونت جاستون دي بيارن والتي تسميه الرواية العربية غشتون ، فهزم الأرغونيون ، وقتل غشتون وحمل رأسه الى غرناطة في شهر جمادي الآخرة ، حيث رفع على رأس رمح وطيف به في الأسواق والطرقات على أصوات الطبول ، وبعد ذلك أرسل هذا الرأس إلى أمير المسلمين علي بن يوسف في مراكش [1] .

إلا أن النصر الذي أحرزه المرابطون بقيادة ينتان والي بلنسية كان محدود الأثر لأنه لم يقترن باستعادة بعض الممتلكات الاسلامية التي كان قد استولي عليها الأرغونيون ، بينما نجحوا هم في هذه السنة في الاستيلاء على مدينتي تطيلة وطرسونة من المسلمين[2] .

موقعة افراغـة :

وفي أواخر سنة ٥٢٧ هـ/ ١١٣٣ م استأنف الفونسو المحارب خطته التوسعية في الثغر الاعلى ، فاستولى على مدينة مكناسة [3] . ويبدو أن قيادة المرابطين قد وصلتها أنباء عن تحركات الفونسو المحارب وأنه مقبل على معركة حاسمة ، ولذلك قاموا بتكثيف الجهود وتسخير كل الطاقات لصده عن معاقلهم . وحتى يأمنوا غائلة أمير برشلونة ، ولكي لا يضطروا للقتال في أكثر من جبهة ، فقد عقدوا معاهدة مع أمير برشلونة رامون برنجير الثالث مقابل أن

---

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٨١ ؛ محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ١٣٤ .

(٢) المقري : المصدر السابق ، ج٦ ، ص ١٩٨ .

(٣) حصن بالأندلس من أعمال ماردة (انظر : ياقوت : المصدر السابق ، ج٥ ، ص ١٨١ . (ط . دار صادر - ١٩٧٧ م) .

يدفعوا له أتاوة سنوية مقدارها اثنا عشر ألف دينار ، وذلك بإيعاز من أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين ، ولما علم الفونسو المحارب بأخبار هذه المعاهدة استشاط غيظاً وأقسم أنه سوف ينتزع تلك البلاد ويقطع منفعتها عن الطرفين [١] .

وبدأ الفونسو المحارب عملياته العسكرية بالزحف على أفراغه (Fraga) [٢] . ولكن أفراغة لم تكن بتلك الغنيمة السهلة فقد كانت حصناً منيعاً لا يرام [٣] . ومما زاد من حصانتها موقعها الطبيعي فوق الربى العالية في نهاية وعر ضيق تصعب مهاجمته ويسهل الدفاع عنه [٤] . فسار الفونسو اليها بجمع كثيف وضرب الحصار عليها ، وكان بداخلها وقتذاك القائد سعد بن مردنيش [٥] الذي استغاث بالمسلمين [٦] .

ولما رأى الفونسو المحارب حصانة المدينة رأى أن يرفع من معنويات جنده حتى لا يدب اليأس في قلوبهم ، فتقدم أمام الجيش مع عشرة من خيرة رجاله وأقسموا على الموت أو الاستيلاء عليها ، وقام بتقديم عدد من القساوسة على بعض الصفوف حتى التهبت نفوس جنده حمية [٧] .

واستجاب المرابطون والأندلسيون لنداءات قائد المدينة المحاصرة ابن مردنيش ، فأرسلت قرطبة قائدها الزبير اللمتوني في ألفي فارس ، وسار يحيى ابن غانية من مشاهير قادة المرابطين ووالي مرسية وبلنسية في خمسمائة

---

(١) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ١٢١ - ١٢٢ .

(٢) مدينة في اقصى حدود دولة المرابطين جنوب غرب لاردة بينهما ثمانية عشر ميلاً . انظر الحميري : المصدر السابق ، ص ٤٨ .

(٣) نفس المصدر السابق والصفحة .

(٤) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ١٢١ - ١٢٢ .

(٥) هو سعد بن محمد بن احمد بن مردنيش الجذامي ، قال بعضهم أنه ينتمي الى تجيب انظر : ابن الخطيب : الإحاطة ، ج٢ ، ص ١٢١ .

(٦) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ق٣ ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥ ؛ الذهبي : المصدر السابق ، ج٤ ، ورقة ١٤٥ .

(٧) الحميري : المصدر السابق ، ص ٤٨ - ٤٩ ؛ حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، ص ١١٨ - ١١٩ .

فارس ، وتجهز والي لاردة عبد الله بن عياض وسار في مائتين ، واجتمع هؤلاء ـ وأولئك وحملوا الميرة إلى أفراغة [1] وغير ذلك من عدد القتال وأدوات الحرب [2] .

ويبدو أن المرابطين عملوا على استدراج قوات الفونسو المحارب للاشتباك معه في معركة محدودة حتى يتمكنوا من إيصال الميرة للمدينة المحاصرة واختار المرابطون القائد عبد الله بن عياض صاحب لاردة لشجاعته لتنفيذ هذه المهمة ، فلما برز للعدو الذي كان عدد جنده إثنا عشر ألفاً ، استهان به الفونسو المحارب وقال لأصحابه اخرجوا خذوا هذه الميرة ، فتقدمت قطعة من جيشه لمهاجمة ابن عياض إلا أن ابن عياض تمكن من هزيمتها : ولما رأى الفونسو المحارب هزيمة رجاله اندفع بقواته الرئيسة نحو ابن عياض [3] ، وبينما هو في طريقه لمواجهة ابن عياض وصلت قافلة الميرة إلى المدينة فارتفعت معنويات أهلها ، وصمموا على قتال العدو قتال الموت [4] .

كما استطاع المسلمون أن يستدرجوا الفونسو المحارب إلى كمين نصبوه له في الطريق ، ثم انقضوا عليه من كل ناحية ، وامتلكوا زمام المبادرة ومزقوا الجيش الأرغوني شر ممزق وكثر القتلى في صفوفه [5] . وخلال ذلك خرجت أفراغة بصغيرها وكبيرها من نساء ورجال إلى محلة العدو فاشتغل الرجال بتطهير المحلة من حراسها ، واشتغلت النساء بالنهب فحمل جميع ما في المخيم إلى المدينة من أقوات وعدد وآلات ، وسلاح وغير ذلك . وفي هذا الوقت وصل القائد الزبير اللمتوني في عسكره فانهزم الفونسو المحارب وولى هارباً [6] وسيوف المجاهدين تأخذ منه وعزيمتهم لا تقلع عنه حتى لجأ إلى

---

(١) الذهبي : المصدر السابق ، ج٤ ، ورقة ١٤٦ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج٢ ، ص ١٢١ .

(٢) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ق٣ ، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥ .

(٣) الذهبي : المصدر السابق ، ج٤ ، ورقة ١٤٦ .

(٤) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ق٣ ، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥ .

(٥) حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، ص ١١٨ ـ ١١٩ .

(٦) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج١١ ، ص ٣٣ ـ ٣٤ .

حصن خرب على رأس جبل شاهق مع بعض من نجا من أصحابه ، وأحدق المسلمون تلك الليلة بذلك الحصن يرقبونه ، ولما ايقن الفونسو المحارب انه محاصر قرر الهرب في هجعة الليل من ذلك الموضع ونجح في ذلك (١) .

وكان تاريخ هذه الملحمة الشهيرة التي حفظت رمق الأندلس مدة من الزمن في ٢٣ رمضان عام ٥٢٨ هـ/ ٧ يوليو ١١٣٤ م (٢) .

وقد اختلفت للروايات حول مصير الفونسو المحارب فيذكر الذهبي (٣) أنه نجا من القتل في ساحة المعركة ولكنه مات غما بعد عشرين يوماً منها على من فقد من جيشه وكبار قادته ، وهناك من يذكر أنه سقط خلال المعركة (٤) .

وكان لنصر المرابطين في أفراغه صدى عميق في سائر أرجاء الأندلس وفي اسبانيا النصرانية بنوع خاص . فقد عادت سمعة المرابطين العسكرية في الأندلس الى سابق عهدها ، وذاع صيت يحيى بن غانية قائد المرابطين في ذلك اليوم ، وقد قام شاعر الشرق الأندلسي أبو جعفر بن وضاح المرسي يمدح ابن غانية في قصيدة نقتطف منها ما يلي : ـ

شمرت برديك لما أسبل الواني	وشبّ منك الأعادي نار غّيانِ
عقرتهم بسيوف الهند مصلتة	كأنما شرقوا منها بغدرانِ
وقفت والجيش عقد منك منتشر	الا فرائد أشياخ وشبانِ
والخيل تنحط من وقع الرماح بها	كأن تصهالها ترجيع الحان (٥)

وبعد هذا النصر الذي حققه المسلمون في معركة أفراغة ارتفعت معنوياتهم وأخذوا ينتهزون الفرص للانقضاض على معاقل النصارى . ففي

(١) الحميري : المصدر السابق ، ص ٤٨ ـ ٤٩ .

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج٢ ، ص ١٢١ ، حاشية رقم ٣ ؛ حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، ص ١١٨ ـ ١١٩ ـ ويجعل ابن الأثير (الكامل ، ج١١ ، ص ٣٣ ـ ٣٤) تاريخها عام ٥٢٩ هـ .

(٣) تاريخ الاسلام ، ج٤ ، ورقة ١٤٦ ا .

(٤) حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، ص ١١٨ ـ ١١٩ .

(٥) الحميري : المصدر السابق ، ص ٤٩ .

عام ٥٣٠ هـ/ ١١٣٥ م خرج ابن مردنيش صاحب أفراغه وابن غانية صاحب بلنسية واستنفرا ـ القوات الإسلامية في طرطوشة ولاردة ، والحصون المجاورة لمداهمة مكناسة واستعادتها من الارغونيون ، بعد أن علموا بنفاذ المؤونة فيها ؛ وحاول الأرغونيون إرسال قوة من رجالهم لإيصال المؤونة إلى مكناسة ، إلا أن هذه القوة ما أن أشرفت على المدينة وشاهدت القوات الاسلامية تفرض عليها الحصار حتى قذف الله في قلوب رجالها الرعب ونجوا بأنفسهم . فانقضت القوات الإسلامية على المدينة ودخلتها ، ثم اتبعت ذلك بفتح عدة حصون منيعة أخرى [١] .

هذا ولم يقتصر جهاد المرابطين على مدافعة الأسبان النصارى في البر بل كانوا يقارعونهم في عباب البحر ففي علم ٥١١ هـ/ ١١١٧ م امر علي بن يوسف قائد أسطوله بتعمير السفن لغزو بلاد النصارى ، فأنشأ منها خمسة وعشرين ثم شن الغارة على مدينة قطرون ، فامتنع قسم من أهلها بقصبتها وهي وعرة المرتقى ، ولما أشرف المسلمون على افتتاحها حماهم الليل فانصرف عنها القائد المرابطي بأسطوله إلى مدينة المرية بعد أن حصل على خمسين سبية [٢] .

خضوع الجزر الشرقية لسلطان المرابطين

هذه الجزر هي : ميورقة ، ومنورقة ، ويابسة ، والتي يسميها الجغرافيون المحدثون جزر البليار [٣] . وقد امتازت هذه الجزر بخصوبة أرضها ووفرة انتاجها وطيب مناخها [٤] ، فجزيرة يابسة مثلاً اشتهرت بكثرة كرومها ، وبصناعة المراكب لكثرة الغابات في ربوعها [٥] .

---

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٩٥ ـ ٩٦ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ج٤ ، ص ٦٤ .

(٣) المراكشي : المصدر السابق ، ص ٢١٢ ، حاشية رقم ٢ .

(٤) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٤٣ .

(٥) ياقوت : المصدر السابق ، ج٥ ، ص ٤٢٤ .

على أن أهم هذه الجزر هي جزيرة ميورقة (Mollarca) ، فهي أكبر الجزر الثلاث مساحة [١] اذ يبلغ طولها أربعين ميلاً [٢] ، وكانت عاصمتها مدينة بالما (Palam) [٣] .

وعندما بدأ أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اخضاع ملوك الطوائف كان يحكم هذه الجزر مبشر بن سليمان الملقب بناصر الدولة (٤٨٦ ـ ٥٠٨ هـ/ ١٠٩٣ ـ ١١١٤ م) [٤] الذي كان غيوراً على الإسلام والمسلمين ، عاملاً على الذود عن بلادة بكل بسالة ضد النصارى الذين واظبوا على الإغارة عليه . كما كان عادلاً منصفاً بين رعيته فأجلوه واحترموه [٥] .

لقد كانت الجزر الشرقية بموقعها في البحر الأبيض المتوسط تجاه الجانب الشرقي من الأندلس شوكة في حلق الجمهوريات الإيطالية وإمارة برشلونة ، لأن المسلمين بهذه الجزر كانوا كثيراً ما يغيرون على شواطىء إيطاليا ، وعلى شواطىء إمارة برشلونة ، ولذلك حاولت الجمهوريات الايطالية وبرشلونة أكثر من مرة احتلال هذه الجزر ولكن دون جدوى [٦] . ولذلك لم يتعرض يوسف بن تاشفين لهذه الجزر لأنه وجدها تقوم بنفس الدور الذي كانت تقوم به مملكة بني هود في سرقسطة ، وهو مدافعة النصارى

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ق٣ ، ص ٢٥٥ .

(٢) ابن سعيد : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٤٦٦ .

(٣) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ق٣ ، ص ٢٥٥ ، حاشية رقم ٢ .

(٤) أصله من قلعة حمير من أعمال لاردة ، أسر في صباه من قبل نصارى برشلونة وعاش في كنفهم حتى تعرف عليه ذات مرة سفير عبد الله المرتضي (٤٤٢ ـ ٤٨٦ هـ) حاكم الجزر الشرقية إلى أمير برشلونة برنجير في بعض الشؤون فأعجب بمواهب مبشر فافتداه من الأسر وأخذه معه إلى ميورقة إلى المرتضى الذي اعجب به أيضاً واخذ يستعين به في تصريف شئون الحكم ، فلما توفي المرتضى خلفه في الإمارة . (انظر ابن الكرديوس : تاريخ الأندلس ، ص ١٢٢ ـ ١٢٣ ؛ محمد عبد الله عنان : دول الطوائف : ص ٢٠٠ ـ ٢٠١) .

(٥) محمود علي مكي : وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، مج ٧ ـ ٨ سنة ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠ م ، ص ١٥٨ .

(٦) محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ، ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ .

ومجاهدتهم ، ومن ثم فضل ان تبقى حاجزاً بينه وبين النصارى ، فقد كانت تقف بالمرصاد للطليان ولإمارة برشلونة في البحر الأبيض المتوسط . ومما دفعه إلى اتخاذ هذا القرار إدراكه لحاجته إلى أسطول قوي ليتمكن به من الحفاظ عليها ولتقوم بنفس الدور الذي تقوم به هذه الجزر في غربي البحر الأبيض المتوسط . فضلاً عن ذلك فقد كانت هذه الجزر في هذه الفترة في أوج ازدهارها في عهد أميرها مبشر الذي كان محبوباً من رعيته ، ومقصداً للشعراء والأدباء يشدون إلى بلاطه الرحال ليحظوا بعطاياه ، وممن جاز إليها الشاعر المشهور ابن اللبانـة الذي مدح مبشراً بقصيدة قال في مطلعها : -

ملك يروعك في حلى ريعانه راقت برونقه صفات زمانه (١)

ولكن النصارى أبوا إلا أن يحولوا أيام أعراسها إلى أيام مآتم . ففي أوائل عام ٥٠٨ هـ/ ١١١٤ م تعاقدت جمهورية بيزة وجنوة الايطاليتن مع إمارة برشلونة على احتلال الجزائر الشرقية ، وفعلاً خرج الغزاة بثلاثمائة سفينة من مياه جنوة متجهين صوبها (٢) .

وقصد الحلف النصراني أول ما قصد جزيرة يابسة فضرب الحصار حولها ، وضيق عليها . ورغم استبسال عاملها أبي نصر إلا أن كثرة جموع النصارى غلبته ودخلت الجزيرة فأمعنوا فيها نهباً وتخريباً ، وقتلاً بصورة مروعة . وبعد أن قرت اعينهم بما كسبوا تركوها على أبشع صورة متوجهين نحو جزيرة ميورقة فحاصروها (٣) .

واشتد الحصار على جزيرة ميورقة ، وصمم الأمير مبشر على ان لا يسلمها حتى يسلم روحه ، فدافع عنها دفاع من ايقن انه ميت . وعندما شعر أن النصارى مصممين على اقتحام جزيرته حاول الاتصال بهم من أجل عقد

---

(١) محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ، ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٢) الحميري : المصدر السابق ، ص ١٨٨ ؛ ابن الكرديوس : المصدر السابق ، ص ١٢٢ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٥ ، ص ٢٥٦ .

(٣) محمود علي مكي : وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، ص ١٥٩ .

صلح معهم يتعهد فيه بتحمل نفقات الحملة التي قدموا بها ، وان يدفع إليهم ما لديه من الأسرى ، ولكن النصارى رفضوا هذا العرض لأنهم لا يريدون بديلاً عن الجزيرة . عندها استعد ـ مبشر لحصار طويل المدى وقرر الاستنجاد بالمرابطين لتخليصه من كارثة الوقوع في قبضة الأعداء ، فبعث مستصرخاً بهم وحاثاً اياهم على القدوم إليه في أسرع وقت ممكن (١) .

وحمل رسالة مبشر إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين أحد القادة المرابطين اسمه أبو عبد الله بن ميمون الذي كان يقود غرابا (٢) راسياً في ميناء ميورقة حينما وقع الهجوم النصراني عليها . وقد نجح أبو عبد الله بن ميمون في التسلل إلى غرابة تحت جنح الظلام ، ومخربه عباب البحر ، فلما شعر به الأعداء كان قد قطع مسافة لا بأس بها في البحر ، فأرسلوا وراءه من يلاحقه فطاردوه نحو عشرة أميال إلا أنه ابتعد عنهم في ظلمة الليل فعادوا دون فائدة (٣) .

وفي أثناء فترة الحصار العصيبة تلك توفي الأمير مبشر ، ولكن ذلك لم يثبط من عزائم أهل الجزيرة . فحمل الراية على الفور أحد أقاربه المسمى أبي الربيع سليمان بن لبون الذي تسميه المراجع الأجنبية (Burabe) وواصل مدافعة الأعداء المحاصرين لجزيرته فلم يكن أقل بأساً وصلابة من سلفه (٤) .

وخلال ذلك استطاع المسلمون في الثغر الأعلى بقيادة ابن تافلويت والي سرقسطة من غزو أراضي برشلونة والعيث فيها (٥) . فلما جاءت هذه

---

(١) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج٦ ، ص ٥٠٥ ـ ٥٠٦ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٥ ، ص ٢٥٧ ؛ محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ .

(٢) والجمع أغربة ، وهو سفينة شراعية صغيرة من طبقة واحدة ذات صار أو صاريين وتستخدم عادة في الأغراض العاجلة لسرعتها . (انظر ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ص ١٢٣ ، حاشية رقم ٤) .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ١٢٢ ـ ١٢٣ ؛ محمود علي مكي : وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، ص ١٥٩ ـ ١٦٠ .

(٤) ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ص ١٢٢ ـ ١٢٣ .

(٥) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٦١ ؛ حسين مؤنس : الثغر الأعلى ، ص ١١٢ ـ ١١٣ ؛ محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ٧٥ .

الأنباء لقوات برشلونة المشتركة في حصار ميورقة أرادت الانسحاب قبل ان يتحقق هدف المتحالفين في الاستيلاء على ميورقة ، إلا أن هذه القوات تحت ضغوط حلفائها تخلت عن العودة وبقيت معها حتى النهاية (١) .

ويبدو ان طول الحصار الذي استمر عشرة أشهر (٢) قد افقد المحاصرين الأمل في وصول النجدات المرابطية إليهم . كما انه خلال هذه المدة نفذت المؤونة الموجودة في الجزيرة ، فغلب على أهلها اليأس وايقنوا انهم هالكون لا محالة . وفعلاً استطاع النصارى في ٢٧ ذي القعدة ٥٠٨ هـ/ ١٣ ابريل ١١١٥ م دخول الجزيرة فعاثوا فيها ، وقتلوا دون شفقة ودمروا واحرقوا بكل عنف (٣) .

طارت أخبار هذه المجازر والتدمير الذي لحق بهذه الجزيرة في آفاق البلاد الأندلسية والمغربية ، فقد أرسل القاضي أبو محمد عبد الحق بن عطية رسالة إلى الأمير مزدلي أوضح له فيها ما حل بأهل هذه الجزيرة قائلاً : « وأوجب أن ينادي كل مؤمن وأحر قلباه امر ميورقة . . . فيالله لما كان فيها من إعلان توحيدها عاد همساً . . . . . وبارقة كفر طلعت شمساً وصباح شرع أظلم بداجي الشرك وامسى . . . . ونجوم أصبح حرمها منتهباً وفرقتها يد الغلبة أيدي سبا . . . . والاوجه عفر منهم القتل سواعد وجباها ، ومزقهم السيف كل ممزق فالله هناك أرحام تشقق رحمهم الله ماتوا كراماً . . . . . » (٤) .

وبعد أن حلت المأساة بجزيرة ميورقة بدخول النصارى إليها ، وصل قائد البحر المرابطي تاقرطاس بثلاثمائة قطعة بحرية لانقاذها ، ولكن هيهات

---

(١) محمد عبد الله عنان : دول الطوائف ، ص ٢٠٣ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٥ ، ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

(٣) الحميري : المصدر السابق ، ص ٥٦٧ ؛ محمود علي مكي : وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، ص ١٦٠ - ١٦١ ؛ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الاسلامية ، ص ٢٤٣ ؛ خليل السامرائي : الجزر الشرقية في أيام الطوائف ، مجلة التربية والعلم ، كلية التربية ، جامعة الموصل ، ١٩٧٩ م .

(٤) ابن خاقان : المصدر السابق ، ص ٢٤٤ .

فقد قضي النصارى مأربهم وقرت أعينهم بما غنموا فلم يعد لهم مطمع بعد ذلك فلما شعروا بقدوم الأسطول الإسلامي لانقاذ الجزر آثروا الانسحاب ، ولما عزموا على ذلك أضرموا النيران فيها . وخلال رحلة العودة هبت عليهم ريح عاصف شتت شملهم فظفر المسلمون بثلاث سفن من سفنهم بينما غرقت سفينة أخرى أمام ناظريهم [١] .

ووصل الأسطول المرابطي إلى الجزيرة الكليمة فدخلها تاقرطاس مستقبلاً بالنواح والعويل بدلاً من الزغاريد والأهازيج ، وحط رحاله فيها في عام ٥٠٩ هـ/ ١١١٥ - ١١١٦ م ليضمد جراحاتها . فأخذ تاقرطاس يصلح مدنها ويجدد عمرانها ، ويشجع جنوده على الإقامة فيها ، فعاد إليها أهلها الذين كانوا قد فروا من وجه الغزاة النصارى الى الجبال والأودية هرباً من القتل والأسر [٢] لتعود للجزيرة نضارتها وبهجتها السابقة .

وبعد فترة قصيرة من وصول تاقرطاس للجزائر الشرقية بعث أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين والياً جديداً عليها هو واندين بن سير فحكمها نحو ثلاثة أشهر ، ثم خلفه أبو بكر تاكراتت الذي ما لبث أن عزله أمير المسلمين وبعث بدلاً منه والياً جديداً اسمه وانور بن أبي بكر من رجالات المتونة ومعه خمسمائة فارس، وقد كان هذا الوالي قاسياً في معاملة أهل الجزيرة عندما أراد استخدامهم في بناء مدينة أخرى [٣] ، واشتد في إرهاقهم ، وظلمهم ، والجور عليهم زهاء عشر سنوات [٤] ، إلا أنهم أصروا على عدم بناء مدينة أخرى غير مدينتهم ، فقام بقتل زعيمهم فثاروا عليه وحبسوه ومضوا إلى أمير المسلمين علي بن يوسف فأعفاهم منه ، وولى مكانه

---

(١) عبد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص ٤٢٧ .

(٢) ابن الكردبوس : المصدر السابق ، ص ١٢٣ - ١٢٤ ؛ ابن أبي زرع : المصدر السابق ص ٦٢ ؛ محمود علي مكي : وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، ص ١٦٠ .

(٣) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج٦ ، ص ٥٠٥ - ٥٠٦ .

(٤) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ١٥٣ .

أبا بكر علي بن ورقاء الذي توفي على الأرجح في عام ٥٢٠ هـ/ ١١٢٦ م [١] .

وبين أيدينا وثيقة تثبت ظلم وانور لرعيته التي حاول إجبارها على بناء مدينة جديدة بعيدة عن البحر والوثيقة عبارة عن رسالة وجهها أمير المسلمين علي بن يوسف الى أحد ولاته على الجزر الشرقية ، والذي يرجح أن يكون أبو بكر علي بن ورقاء يوصيه فيها باصلاح ما أفسده الوالي السابق واعادة الأهالي الى مدينتهم القديمة ، وقد جاء فيها : « واسع بحسن سياستك في استرجاع من خرج من جيرانهم ، واجتهد في صرفهم الى أوطانهم حتى يكثر فضل الله عددهم [٢] .

وبعد وفاة أبي بكر علي بن ورقاء في سنة ٥٢٠ هـ/ ١١٢٦م عين أمير المسلمين والياً عليها محمد بن علي بن يحيى المسوفي المعروف بابن غانية ، والذي ارتحل إليها مع أولاده (عبد الله ، وطلحة ، والزبير ، وعلي ، واسحاق ، وابراهيم) . وقد استمر ابن غانية في ولايتها عشر سنين [٣] ، وفي رأي آخر انه استمر في ولايتها حتى وفاة أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين عام ٥٣٧ هـ/ ١١٤٢ م [٤] .

---

(١) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج٦ ، ص ٥٠٥ ـ ٥٠٦ .

(٢) محمود علي مكي : وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، ص ١٦٣ .

(٣) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج٦ ، ص ٥٠٥ ـ ٥٠٦ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٥ ، ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧ .

(٤) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ١٥٣ ـ ١٥٤ ـ ومن الجدير بالذكر إنه لما سقطت دولة المرابطين على يد الموحدين لم يرضخ بنو غانية للموحدين واستقلوا بحكم الجزر الشرقية واستمروا على ولائهم للمرابطين والخلافة العباسية ، إلا أن النصارى الأرغون بقيادة خايمي الأول استطاعوا أن يدخلوا ميورقة عام ٦٢٧ هـ/ ١٢٢٩ م ويستولوا عليها انظر : ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ق٣ ، ص ٢٥٥ ، حاشية رقم ٢ .

الباب الرابع

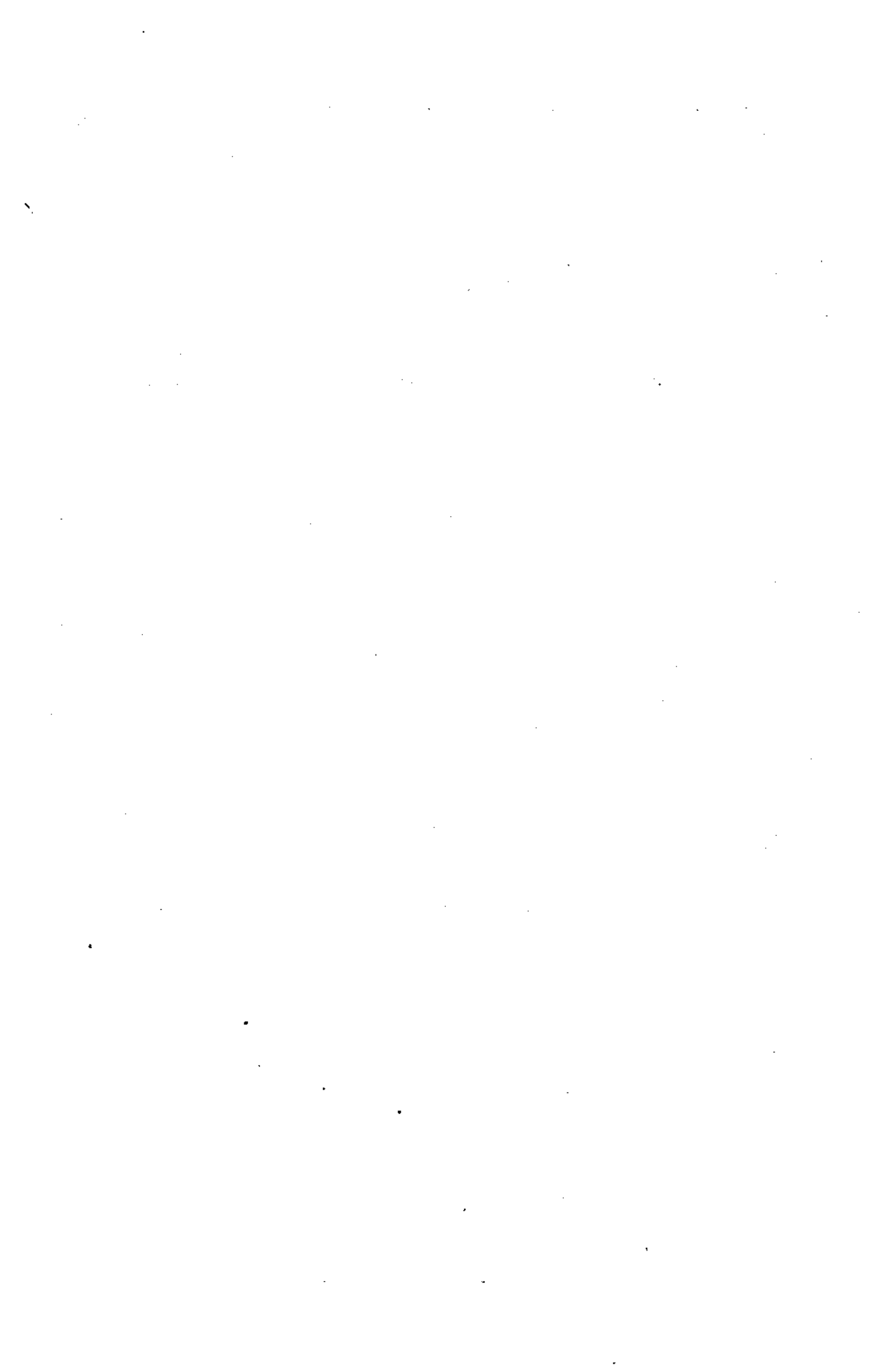
أهم مظاهر التطور الحضاري في دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين

الفصل الأول : نظم الحكم والإدارة .

الفصل الثاني : الحياة الاجتماعية والاقتصادية .

الفصل الثالث : الحركة الفكرية .

الفصل الرابع : العمارة والفنون الإسلامية .



الفصل الأول
نظم الحكم والادارة

ـ النظام السياسي والإداري

كما رأينا في التمهيد كانت دولة المرابطين بسيطة في نشأتها ، فهي كأي دولة ذات أصول بدوية كانت تعتمد في انتخاب زعمائها على أسس تعارفوا عليها منذ زمن ، مثل كبر السن ، والشجاعة ، والكرم ، والعصبية لمن ينتخب زعيماً لها دون حكر السلطة على أبناء الزعيم المنتخب ، فقد بايع عبد الله بن ياسين يحيى بن عمر بالإمارة لتحمسه للدعوة وصدق جهاده ، فلما انتقل الى الرفيق الأعلى خلفه أبو بكر بن عمر وهو من نفس البيت ومن نفس القبيلة . ولما تولى يوسف بن تاشفين الحكم بدأت مرحلة جديدة حيث جعل إمارة دولة المرابطين حكراً على أبنائه تنتقل بينهم عن طريق الوراثة [١] .

ولكن بما أن الدولة قامت من أجل رد الأمة الى تعاليم الإسلام الصحيحة فانها لا تستطيع ان تتغافل عن مكانة الشورى في اختيار الأمير ، ولذلك أضفى المرابطون على دولتهم نوعاً من الشورى في اختيار ولي العهد . فكانت تقام بيعة خاصة يبايع فيها أفراد الأسرة الحاكمة من بني ورتنطق ثم زعماء لمتونة ، ثم شيوخ القبائل الأخرى حتى إذا اكتملت أسباب هذه البيعة

---

(١) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٣٤٣ ـ ٣٣٤ .

تلي العقد في المساجد وقرىء على الرعية ، ثم بعد ذلك تطير الرسائل الى ولاة المرابطين في جميع أمصار دولتهم لاخبارهم باختيار ولي العهد الجديد مطالبين بأخذ البيعة العامة له (١) .

ويبدو من كلام ابن رشد (ت ٥٢٠هـ / ١١٢٦م) (٢) انه كان يطلب من المبايعين للأمير المرابطي أو لولي عهده أن يحلفوا بالإيمان اللازمة (٣) ، وهي إيمان مغلظة تشمل عدة أشياء كالطلاق ، والعتق ، وتحريم المال ، وبراءة الذمة من الله ورسوله ، ويظهر أن الهدف منها هو زيادة في الاستوثاق خوفاً من نكث البيعة . وكان اسم ولي العهد ينقش على السكة الى جانب والده(٤) .

ومن الجدير بالذكر أنه لم يحترم حق الابن الأكبر في ولاية العهد ، فاختار يوسف بن تاشفين ولده علي لخلافته ولم يكن أكبر أبنائه ، وسار على هديه ابنه علي الذي اختار في عام ٥٢٢هـ / ١١٢٨م ابنه أبا محمد سير ليكون ولياً لعهده على الرغم أنه لم يكن أكبر أخوته أيضاً (٥) .

ويفهم من استقراء بعض النصوص أن حكام المرابطين كانوا يؤمنون بنظرية الجبر (٦) في الحكم ويتضح ذلك من خلال محاورة دارت بين ابراهيم بن أبي بكر بن عمر الذي خرج من الصحراء يطلب ملك والده من يوسف بن تاشفين الذي بعث اليه قائده مزدلي لمفاوضته ، فعندما سأله مزدلي

---

(١) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٣٤٢ .

(٢) ابن رشد : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٧٤٠ .

(٣) الإيمان اللازمة : إيمان مبتدعة أحدثها الحجاج بن يوسف ، وأبو جعفر المنصور وقد وقف كبار الفقهاء ضد هذه اليمن ورأوها غير ملزمة شرعاً فقال مالك رضي الله عنه : ليس على مستكره يمين ، وقال داود : اليمين بغير الله لا قيمة لها انظر المصدر السابق نفسه ، ج ٣ ، ص ٤٧٠ .

(٤) لمزيد من التفاصيل عن النقود المرابطية انظر : ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤٦ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ٤٤٧ ؛ ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص ١٠٩ ؛ السلاوي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٦٠ ؛ عبد رب النبي : المرجع السابق ، ص ٢٢ - ٢٤ ؛ إبراهيم حركات : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٣٠ - ٢٣١ .

(٥) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٧٨ .

(٦) عن الجبرية انظر محمد خليل هراس : شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية ، ص ١٠٩ .

عن مطلبه أجاب : « أطلب ملك أبي الذي غصبنا فيه عمي يوسف » . فرد عليه مزدلي « ان الملك بيد الله يؤتيه من يشاء والله تعالى قد خص هذا الرجل بالملك دوننا . . » [1] .

وكان أمير المرابطين يرى أنه مسؤول أمام الله في اختيار ولي عهده ، وان هذا الأمر ليس من الأمور العامة . فهذا ما يفهم من كلام يوسف بن تاشفين عندما أراد أخذ البيعة لولده علي حين قال : « . . . فإن أمير المسلمين وناصر الدين أبا يعقوب ، يوسف بن تاشفين لما استرعاه الله على كثير من عباده المؤمنين خاف أن يسأله الله غداً عما استرعاه كيف تركه هملاً لم يستنب فيه سواه ، وقد أمر الله بالوصية فيما دون هذه العظيمة وجعلها أوكد الأشياء الكريمة كيف وفي عظائم الأمور ومصلحة الخواص والجمهور . . . » [2]

وكانت التقاليد المرابطية تتطلب من الأمير المرابطي الجديد إرسال الرسائل الى الخليفة العباسي والتي كانت تتضمن تأكيد الولاء له ، وكان الخليفة العباسي بدوره يبارك هذه البيعة [3] . ومن ضمن التقاليد المرابطقة أيضاً تجديد البيعة لولي العهد بعد وفاة والده وهذا ما قام به علي بن يوسف بعد وفاة والده ، والذي أوضحناه في الفصل الأول .

أما بالنسبة للقب الحاكم المرابطي ، فكما أوضحنا في التمهيد ان يوسف بن تاشفين اتخذ لنفسه لقب أمير المسلمين وناصر الدين ، وهذا اللقب حمله كل أمراء المرابطين من بعده . إلا انه بالإضافة الى هذا اللقب فقد وجدنا علي بن يوسف يتخذ لقباً آخر غير اللقب السابق وهو « ولي الله » ، وقد نقش هذا اللقب على بعض عملته [4] .

وكان الأمير المرابطي يتمتع بسلطة تنفيذية قوية ، إلا أنه كان يدير دفة

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٩ .
(٢) انظر الفصل الأول من الباب الأول ، ص ٦٤ .
(٣) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ، ج ٤ ، ص ١١٨ .
(٤) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٣٤١ .

الحكم من مقره في مراكش الذي كان يطلق عليه اسم بيت الأمة [1] بمساعدة بطانة من الفقهاء ، وكان لا يقطع في أمر من الأمور الا بمشورتهم حتى في بناء الأسوار والحصون وتوسعة المساجد [2] .

وكان يساعد أمير المسلمين علي بن يوسف في إدارة دفة الحكم مجموعة من الوزراء والكتاب وقد تمتع الوزير في عهد علي بن يوسف بمركز ممتاز ، فقد كان يأتي بعد أمير المسلمين مباشرة ، ويشاركه في تدبير شؤون الدولة . وقد وثق علي بن يوسف بوزرائه ثقة مطلقة ، وأطلق أيديهم في الشؤون المالية والإدارية ، فيذكر انه أطلق يد وزيره أبي محمد بن مالك وأقطعه مال أمير المسلمين في الأندلس [3] . كما تمتع الوزير عمر بن ينتان بسلطات واسعة حتى نجده يحول دون اعتقال أمير المسلمين علي بن يوسف للداعية الجديد ابن تومرت والذي استقر رأي الفقهاء على سجنه أو قتله وذلك كما أوضحنا في الفصل الخاص بثورة ابن تومرت .

ومن وزراء علي بن يوسف أيضاً محمد بن أبي الخصال الذي كان معروفاً بثقافته الموسوعية [4] ، وإسحاق بن ينتان بن عمر بن ينتان الذي تولى الوزارة ولم يكن عمره يزيد عن ثمانية عشر عاماً لما كان يتمتع به من ذكاء وقاد ، فمنحه علي بن يوسف صلاحيات واسعة ، وجعل له النظر في المظالم والشكايات [5] .

أما عن النظام الإداري لدولة المرابطين فقد كانت مقسمة الى ولايتين كبيرتين . الأولى ولاية المغرب ، والثانية ولاية الأندلس . وكانت كل ولاية منهما مقسمة الى ولايات أصغر منهما ، فكان المغرب مقسماً لعدة ولايات

---

(١) أرنست كونل : الفن الإسلامي ، ص ١٢٦ .

(٢) انظر الفصل الخاص بالعمارة والفنون الإسلامية .

(٣) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٣٦١ - ٣٦٢ .

(٤) انظر عن ابن أبي الخصال الفصل الخاص بالحياة الفكرية .

(٥) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٠١ .

صغيرة أهمها مراكش ، وفاس وتلمسان ، وسجلماسة ، وهذه كانت تتألف أيضاً من وحدات صغرى يتولاها رجال من قبل النواب والأمراء (١) .

وكان الأندلس أيضاً مقسماً الى ست ولايات هي : إشبيلية ، وغرناطة ، وقرطبة ، وبلنسية ، ومرسية ، وسرقسطة . وكانت عاصمة ولاية الأندلس في عهد يوسف مدينة قرطبة ثم انتقلت في أوائل حكم علي بن يوسف الى غرناطة ثم عادت في أواخر أيامه الى قرطبة (٢) .

وقصر علي بن يوسف حكم هذه الولايات على أبنائه وأقاربه ، وقد لاحظنا ذلك خلال حديثنا عن جهاد علي بن يوسف ضد الممالك النصرانية (٣) ، فقد كان معظم قواد الجيش ، وحكام الولايات من أبنائه وأقاربه أمثال تاشفين بن علي ، وتميم بن يوسف ، وابن عائشة ، وابن فاطمة ، وابن غانية . . . الخ .

وكان من عادة أمير المسلمين علي بن يوسف ان يكتب الى أهل الناحية المولى عليها الوالي الجديد موضحاً لهم المبررات التي دفعته الى اختيار هذا الوالي كتوفر الخبرة والذكاء ، ومؤكداً لهم استمراره في مراقبته خلال ولايته ، وطالباً منهم السمع والطاعة والنصح له (٤) .

وكان أمير المسلمين يضع للوالي الجديد الخطط التي يجب ان يسير عليها وكان على الوالي ان يقدم تقارير عن كل ما يجد في ولايته الى أمير المسلمين (٥) .

---

(١) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥ .

(٢) عبد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص ٤٤٩ ـ ٤٥٠ .

(٣) انظر الباب الثالث ـ ومن الجدير بالذكر ان الطرطوشي (سراج الملوك ، ص ٩٤) يضع وزناً كبيراً لعامل المحاباة في سقوط الدول فقد قال : « وقالت الحكماء أسرع الخصال في هدم السلطان وأعظمها في الفساد وتفريق الجمع عنه إظهار المحابة لقوم دون قوم ، والميل الى قبيلة دون قبيلة فمتى أعلن انه يحب قبيلة فقد برىء من قبائل وقديماً قيل المحاباة مفسدة » .

(٤) العماد الأصفهاني : المصدر السابق ، ق ٤ ، ج ٢ ، ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦ .

(٥) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨ .

وكانت ولاية الأندلس لا يتولاها الا أقرب المقربين من أقرباء أمير المسلمين وكثيراً ما كان ولاة العهد يتولونها ، فإذا اعتلى ولي العهد العرش ولى أخاه الأكبر هذا المنصب [1] وكان الوالي يعين بعهد مكتوب باسم أمير المسلمين يقرأ أمام الجمهور في المسجد الجامع [2] .

وكانت صلاحيات الوالي في عهد علي بن يوسف صلاحيات واسعة ، فقد كان يتمتع بشبه استقلال في ولايته ، كما كان يتمتع بنفوذ كبير عند أمير المسلمين ، وقد بلغ من قوة نفود بعض ولاة الأقاليم مثل مزدلي والي تلمسان أن يضمن العفو مسبقاً لثائر فاس عند أمير المسلمين علي بن يوسف عام ٥٠٠هـ / ١١٠٦م [3] .

وكان بلاط الولاة صور مصغرة عن بلاط أمير المسلمين علي بن يوسف في مراكش فكما لأمير المسلمين وزراء وكتّاب يحررون المراسيم الأميرية [4] ، وهيئة علمية تجالسه ليسترشد برأيها في بعض الأمور ، والتي كان يرأسها في بلاط علي بن يوسف العالم الكبير مالك بن وهيب [5] ، كذلك كان للولاة في المغرب والأندلس وزراء وكتّاب وعلماء يجالسونهم . بل أن عدداً كبيراً من الكتّاب والوزراء الذين خدموا بعض الولاة خدموا في بلاط أمير المسلمين علي بن يوسف ، فكان ابن أبي الخصال كاتباً لأمير بلنسية محمد بن الحاج ثم انتقل الى مراكش وغيره كثير [6] ، واستوزر أبو بكر بن إبراهيم أحد ولاة علي بن يوسف في الأندلس العالم المشهور ابن باجة الذي نظم عدة

---

(١) حسن محمود:المرجع السابق ، ص ٣٥٠ـ ٣٥٢ .

(٢) ابن خاقان : قلائد العقيان ، ص ١٢٧ .

(٣) ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ، ج ١ ، ص ٢١٢ ـ ٢١٣ .

(٤) من أشهر كتاب علي بن يوسف : أبو محمد بن اسباط ، وأبو بكر بن الصيرفي وغيرهم انظر : ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ٤٥٠ ؛ ابن أبي زرع : روض القرطاس ، ص ١٥٧ ؛ محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ٥٤ .

(٥) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٤٦١ ـ وانظر الفصل الخاص بالحياة الفكرية أيضاً .

(٦) ابراهيم حركات : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢١٣ .

قصائد في مدحه ، لأنه وجد في هذا الأمير الذي تشبه بملوك الطوائف في بذخ بلاطه في سرقسطة مبتغاه [1] .

ومن الكتّاب الذين اختصوا بالأمير أبي إسحاق ابراهيم بن يوسف الكاتب الكبير الفتح بن خاقان الذي ألف كتاب « قلائد العقيان » باسمه فجاء فيه ، « رأيت أن أخدم مجلسه العالي (أي الأمير ابراهيم) بزف الكتاب إليه ، وشرف محاسنه بمثوله بين يديه فرسمته باسمه وكسوته نور وسمة » [2] .

وكان من ضمن صلاحيات الولاة في عهد علي بن يوسف الاستعداد لرد عادية الأعداء في أي لحظة من اللحظات مما جعل من ضمن مسؤولياتهم الحرص على توفير السلاح والعدد للجيش ، وتقوية الحصون ، وسد الثغور ، وبث العيون لرصد تحركات الأعداء ، وتنشيط صناعة الأسلحة . ومن ضمن صلاحيات الوالي أيضاً الإشراف على دور الضرب ، وأن يضرب اسم أمير المسلمين على السكة . كما كان عليه مسؤولية رعاية مصالح رعيته والاستماع الى مظالمها وشكاياتها ، لذا كان يجلس للنظر في المظالم ، ويكتب التوقيعات ، ويتفرغ للمناظرة في يوم الجمعة ، وكان عليه ان يولي العمال على الأقاليم التابعة له [3] .

على أن أمير المسلمين علي بن يوسف لم يغفل عن تذكير ولاته ما بين الفينة والفينة بواجب التزام الحق والعدل في سياسة رعاياهم ، طالباً منهم مداومة السهر على مصالح الرعية . وهذا يتضح من خلال رسائله المتعددة الى ولاته في مختلف الأمصار ، ومن هذه الرسائل رسالته الى ولده تاشفين في عام ٥٢٦هـ / ١١٣١م والتي يوصيه فيها بتقوى الله والعدل بين الرعية ومما جاء فيها : « . . . ثم اعتمد المعدلة في عباد الله فانما أنت واحد منهم ، وكلنا

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٤ ، ص ٦١ ، حاشية ؛ ابن سعيد : المغرب في حلي المغرب ، ج ٢ ، ص ١١٩ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ٤٠٤ ـ ٤٠٠ ، ٤٠٨ .

(٢) ابن خاقان : المصدر السابق ، ص ٤٠٣ .

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ٤٥٠ ؛ حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٣٥٢ ـ ٣٥٣ .

عبيد الله الى تراب انتسابنا والى الحساب مآبنا ، والناس كلهم سواء . . . وإنما يتميزون بالمساعي والأعمال . . . »[1] . وتعدى الأمر في بعض الأحايين ان يتدخل أمير المسلمين في تعيين بعض الولاة التابعين لأعمال أحد ولاته ، وهذا ما يفهم من رسالة وجهها علي بن يوسف الى ولده تاشفين في رجب ٤٢٦هـ يطلب منه فيها ان يعين الزبير على غرناطة [2] .

ومن أشهر ولاة علي بن يوسف الأمير تميم بن يوسف الذي تنقل بين عدة ولايات في المغرب والأندلس . فقد عين على ولاية المغرب في عام ٥٠١هـ / ١١٠٧م ثم عزل عنها ، وتولى غرناطة[3] ، ونقل منها الى تلمسان في عام ٥٠٤هـ / ١١١٠م [4] . وفي عام ٥١٥هـ / ١١٢١م عين والياً عاماً للأندلس وبقي في هذا المنصب حتى وفلته عام ٥٢٠هـ / ١١٢٦م فتولى مكانه تاشفين بن أمير المسلمين علي [5] . وقد تولى تاشفين بن علي عدة ولايات في الأندلس قبل ان يتولاها كلها فيما بعد عدا الجزر الشرقية [6] . ومنهم أيضاً مزدلي بن تاشفين سولنكان ، وهو ابن عم أمير المسلمين يوسف [7] والذي تولى عدة ولايات كان من بينها قرطبة وغرناطة . وتولى الأمير سير بن أبي بكر (ت ٥٠٧هـ / ١١١٣م) إشبيلية [8] ، وتولى ابو بكر بن أبي يحيى إبراهيم المشهور بابن تيفلويت صهر علي بن يوسف (ت ٥١٠هـ / ١١١٦م) غرناطة ثم سرقسطة [9] . وتولى عبد الله بن فاطمة فاس ثم

---

(١) ابن خاقان : المصدر السابق ، ص ١٢٧ - ١٢٨ ؛ ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٨٧ - ٨٨ .

(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٨٧ .

(٣) السلاوي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٣ .

(٤) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٥٥ .

(٥) المصدر السابق نفسه ، ج ٤ ، ص ٦٧ ؛ ابن أبي زرع : المصدر السابق ج ٤ ، ص ١٦٤ .

(٦) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٨٧ ؛ ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٣٨٧ ؛ السلاوي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٨ .

(٧) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٦٠ ، حاشية رقم ١ .

(٨) المصدر السابق نفسه ، ج ٤ ، ص ٥٦ - ٦٠ .

(٩) المصدر السابق نفسه ، ج ٤ ، ص ٦١ ، حاشية رقم ٢ .

إشبيلية [1] . وتولى أبو حفص عمر بن سير قرطبة عام ٥١٩هـ / ١١٢٥م [2] . وتولى أبو زكريا يحيى بن علي عام ٥١٥هـ / ١١٢١م مرسية [3] . وتولى ابن غانية الجزائر الشرقية [4] ومن الذين تولوا قرطبة واجدي بن عمر بن سير [5] . وتعاقب محمد بن يوسف بن بدر وينتان بن علي على ولاية بلنسية . وهناك ولاة غيرهم أقل شهرة ذكرت كتب التراجم والتاريخ أسماءهم [6] .

ـ الجيش والأسطول

أما بالنسبة للجيش في عهد علي بن يوسف فقد تعددت عناصره واستحدثت أساليب جديدة في تنظيمه وطريقة قتاله . فقد استخدم علي بن يوسف في جيشه لأول مرة في المغرب الأقصى الروم الذين لعبوا دوراً بارزاً في مقارعة الموحدين [7] ، وبرز منهم قادة لعبوا دوراً مشرفاً في الدفاع عن حياض دولة المرابطين ، ومن أشهر هؤلاء الروبرتير (Reverter) [8] .

ومن العناصر المكونة للجيش المرابطي في عهد علي بن يوسف أيضاً السودان او العبيد كما كانوا يسمون في بعض الأحيان ، الذين كانوا يخدمون

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٦٢ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ج ٤ ، ص ٥٦ .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ج ٤ ، ص ٦٧ .

(٤) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٣٨٧ .

(٥) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٨٠ .

(٦) المصدر السابق نفسه ، ج ٤ ، ص ٨١ ـ ٨٣ .

(٧) محمد ولد داداه : مفهوم الملك في المغرب ، ص ١٢٠ ـ ١٢١ ، يرى المستشرق فرنشيسكو كوديرا أن استخدام النصارى في الجيش المرابطي كان أحد عوامل سقوط دولة المرابطين لأن هذا الإجراء ساء الرعية الأندلسية فأخذت تعمل على التخلص من سلطان المرابطين وربما كان تذمر الرعية ناتج عن محاباة بعض الولاة للجند النصراني اذ يذكر ابن الخطيب : (الإحاطة ، ج ٢ ، ص ١٢٢ ـ ١٢٥) أن والي بلنسية محمد بن سعد بن محمد بن مردنيش قد صانع النصارى وابتنى لجيشه من النصارى منازل وحانات للخمور ـ انظر حسين مؤنس : نصوص سياسية عن فترة الانتقال ، ص ١٠٠ ـ ١٠١ .

(٨) عن هذا القائد انظر الفصل الخاص بثورة محمد بن تومرت ، ص ١٢٨ ، حاشية رقم ٤ .

في الحرس الخاص للأمير المرابطي ، كما كانوا يشاركون في الحروب . كما ضم الجيش المرابطي بين صفوفه الصقالبة النصارى[1] الذين استخدموا في حماية الحصون التي أقامها المرابطون لحماية أراضيهم[2] .

ويبدو ان أغلب العناصر النصرانية التي كانت تعمل في الجيش المرابطي بقيت متمسكة بنصرانيتها بدليل ما يروى من أن المرابطين قد تركوا لهم حرية العبادة وأباحوا لهم بناء الكنائس[3] .

وممن دخل في صفوف الجيش المرابطي فرقة من الغز الأتراك إضافة الى قبائل البربر المتعددة التي كانت تخضع لسلطان المرابطين[4] . كما شارك عرب بني هلال في معارك الجهاد التي خاضها المرابطون ضد الممالك النصرانية[5] . كذلك اشتركت بطون من بعض القبائل العربية الأخرى في

---

(١) الصقالبة : كان الجغرافيون العرب يطلقون هذه التسمية على سكان البلاد المتاخمة لبحر الخزريين القسطنطينية وبلاد البلغار ثم اكتسب اللفظ مدلولاً خاصاً في إسبانيا فصار أولاً يطلق على أسرى الحرب الذين كانوا يقعون في أيدي الجرمان ويباعون الى المسلمين في الأندلس . ثم صار لفظ الصقلبي ينسحب في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي على الرقيق الذي من أصل أجنبي سواء في ذلك من كانوا من أوروبا أو من إسبانيا ذاتها ، وكان لتجار اليهود معامل للخصي أهمها معمل فردان في فرنسا ، فكانوا بعد خصيهم يجلبون الى الأندلس ، ويباعون فيها ويربون تربية خاصة ، ويعلمون العربية ، وفنون الفروسية ويستخدم قسم منهم لحراسة الحريم ، وقسم آخر في الإدارة ، وقد بلغ عددهم في عهد عبد الرحمن الناصر (١٣٧٥٠) . ولما توزعت الأندلس الى طوائف استأثر الصقالبة بشرق الأندلس وأنشأوا فيه ممالك لهم في طرطوشة ، ودانية ، والمرية . ويذكر المستشرق خليان ريبرا ان الصقالبة يمثلون العنصر الأوروبي في المجتمع الأندلسي وعن طريقهم انتقلت بعض الصور الشعرية التي شاعت في البيئات الأوروبية وأثرت فيها .

انظر : لطفي عبد البديع : المرجع السابق ، ص ٣٦ ـ ٣٨ ؛ خالد الصوفي تاريخ العرب في إسبانيا ، ص ٣٢ .

(٢) إبراهيم حركات : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ .

(٣) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٣٧٩ ـ ٣٨١ ـ ومن الجدير بالذكر ان الشريعة الإسلامية لا تبيح لأهل الذمة بناء كنائس جديدة او ترميم القديم منها لحديث رسول الله ﷺ ـ (لا تحدثوا كنيسة في الإسلام ولا تجددوا ما ذهب منها) ، انظر اسماعيل بن محمد الأنصاري : حكم بناء الكنائس والمعابد الشركية في بلاد المسلمين ، ص ١١ .

(٤) إبراهيم حركات : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ .

(٥) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٣٧٩ ـ ٣٨١ .

جيش علي بن يوسف الذي كان يقارع جيوش الممالك الإسبانية النصرانية في الأندلس ، وهذا ما أشارت اليه بعض الروايات التاريخية من اعتماد أمير المسلمين علي بن يوسف على العرب في معركة جبل القصر عام ٥٣٠هـ / ١١٣٥م (١) .

وكان الجيش المرابطي بشكل عام مقسم الى قسمين سمي الأول منهما بالحشم والثاني بالداخلين . فكان جيش الحشم يتألف من جنود قبائل جزولة ، ولمطة ، وزناتة ، ومصمودة ، أما جيش الداخلين فيتألف من قبائل صنهاجة ومن الأعلاج ، والعبيد السودان (٢) .

أما بالنسبة لعدد أفراد الجيش المرابطي ، فكان يزيد أو ينقص بحسب الظروف . فإذا كانت الدولة تتعرض للأخطار أو كانت تنوي الغزو عندها يرتفع عدد أفراد الجيش وتحشد الجيوش بواسطة العمال ، ويهرع آلاف المتطوعة من مختلف الفئات ، وعلى رأسهم الفقهاء . فقد رأينا في الباب الثالث كيف أن أبا علي الصدفي ، وأبا بكر بن العربي كانا في مقدمة الجيوش المقاتلة في موقعة كتندة عام ٥١٤ هـ/ ١١٢٠ م . إلا أنه كان هناك جيش نظامي مستعد لحماية الثغور والمدن عندما تدعو الضرورة إلى ذلك ، وفعلاً حافظ هذا الجيش على الأمن في الداخل حتى أن قطاع الطرق واللصوص الذين كانوا منتشرين في العهد السابق انقطع دابرهم في عهد المرابطين (٣) .

ويظهر أنه كان هناك ديوان خاص بالجند النظامي ، إذ كانت تصرف لهم رواتب شهرية مقدارها خمسة دنانير للفارس مع نفقته وعلف فرسه (٤) ، على أن الجند كانوا يعتمدون بشكل أكبر على ما يغنمونه من الأعداء لاستمرار حركة الجهاد في عهد علي بن يوسف . إلا أن الدولة كانت تلجأ في بعض الحالات

---

(١) خليل إبراهيم صالح البشير : المرجع السابق ، ص ٣٦٤ .

(٢) محمد ولد داداه : المرجع السابق ، ص ١١٩ ـ ١٢٠ .

(٣) إبراهيم حركات : المرجع السابق ، ج١ ، ص ٢٢٢ .

(٤) المرجع السابق نفسه ، ج١ ، ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ .

إلى منح الجند إقطاعات زراعية يستثمرونها مقابل رواتبهم [1] ، كما كانت الدولة تزود أهل الثغور التي أوكلت حمايتها إلى أهلها لمعرفتهم بمواطن الضعف والقوة لدى الأعداء ، بالخيل والسلاح كلما توفر شيء منها [2] .

أما فيما يختص بقيادة الجيوش المرابطية فقد كانت حكراً على أبناء وأقارب أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين امثال تاشفين بن علي ، وتميم بن يوسف ، ومزدلي بن تاشفين ... الخ . ولما تعددت الجيوش المرابطية المشتركة في معركة الجهاد ضد النصارى في الشمال الاسباني ، كانت الضرورة تحتم في بعض الاحيان توحيد القيادة في الاندلس لقائد واحد هو حاكم الاندلس من قبل امير المسلمين علي ابن يوسف ، مثلما حدث لتميم بن يوسف عام ٥١٥ هـ/ ١١٢١ م ، ولتاشفين ابن علي عام ٥٢٠ هـ/ ١١٢٦ م ، [3] وكانت لقائد الجيوش الاندلسية الموحدة حرية توجيه القوات التي تحت امرته في الاندلس الى اي جهة يريدها . وكان قادة الجيوش المكونة للجيش الموحد بمثابة مجلس حرب القائد العام للجيش يجتمعون معه للمشورة في مختلف القضايا ويرسمون معه خطة الهجوم او الانسحاب .

وكانت عادة أمير المسلمين علي بن يوسف ان يجري تنقلات مستمرة لقادة جيشه [4] ، ويبدو أنه كان يقوم بذلك من اجل الا يتيح لأي واحد منهم بأن يستبد ويؤلب الجند عليه أ و يشجعه النفوذ الواسع على الانفصال .

وكان المغرب يمثل العمق الاستراتيجي بالمفهوم الحديث للجيوش المرابطية حيث كان بمثابة معسكر كبير يغذي حركة الجهاد في الأندلس ضد الاسبان النصارى بما تحتاجه من جند ونجدات . وكانت سبته وطنجة بمثابة قواعد متقدمة ترابط فيها قوات مرابطية على اهبة الاستعداد لتلبية نداء الواجب

(١) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٤١٢ .

(٢) إبراهيم حركات : المرجع السابق ، ج١ ، ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ .

(٣) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص٦٧ ؛ ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٦٤ .

(٤) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٥٥ ، ٨٧ ؛ السلاوي : المصدر السابق ، ج٢ ، ص٦٣ ؛ ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج٦ ، ص ٣٨٧ .

اذا طلب منها التدخل من قبل القيادة الاندلسية لرد عادية الاسبان النصارى [1] .

وكان الفقهاء والقضاة يشاركون الجند في الجهاد ويواصلون اذكاء حماسهم . وتشويقهم للشهادة . وينتهزون كل فرصة لحثهم على بذل النفس من اجل رفع راية لا اله الا الله [2] .

وعلى نطاق التسليح والتعبئة وتطوير نظم الهجوم والدفاع في عهد علي بن يوسف فقد حدث بها بعض التطور لكثرة الاحتكاك مع النصارى في معارك دامية ساعدت على تفتق العبقرية العسكرية . فقد عمل القادة جل جهدهم لتطوير جيوشهم من اجل احراز النصر على اعدائهم ، واستعملوا معظم الادوات والاسلحة التي تمكنوا من الحصول عليها بمهارة فائقة ، فكانت الابل والخيل تشكل العناصر الرئيسية في اي جيش يجهز للاغارة على اراضي الاعداء او لصد اي هجوم على اراضيهم ، اما افراد الجيش فكانوا مجهزين بسيوف الهند ومزاريق الزان[3] ، والسهام ، والمطارد[4] ، والرعدات ، والدروع ، والتروس ، والزرود[5] .

اما بالنسبة لطريقة قتال الجند المرابطي والسمات العامة لتنظيماته قبيل الاشتباك وخلاله فقد وصفها الطرطوشي (ت ٥٢٠ هـ/ ١١٢٦ م) [6] ، أحد معاصري علي بن يوسف بن تاشفين خير وصف ، ومما جاء في وصفه لذلك : « واما صفة اللقاء وهو احسن ترتيب رأيناه في بلادنا وهو ارجى تدبير نفعله في لقاء عدونا ان نقدم الرجالة بالدرق الكاملة ، والرماح الطوال ،والمزاريق المسنونة النافذة فيصفوا صفوفهم ويركزون مركزهم ورماحهم خلف ظهورهم

(١) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٣٨٣ ـ ٣٨٦ .

(٢) ابن الأبار : المعجم ، ص ٢٤٦ ـ وانظر موقعة كتنده (٥١٤ هـ) في الباب الثالث .

(٣) المزراق رمح تعلوه حربة قد يقذف بها .

(٤) المطرد : رمح قصير يضربه ولا يقذف به .

(٥) محمود : المرجع السابق ، ص ٣٨٢ ـ ٣٨٣ ـ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ، ج٤ ، ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩ .

(٦) سراج الملوك ، ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩ .

في الارض وصدورهم شارعة على عدوهم جثيا في الارض وكل رجل منهم قد القم الارض ركبته اليسرى وترسه قائم بين يديه وخلفهم الرماة المختارون ، التي تمزق سهامهم الدروع ، والخيل خلف الرماة ، فاذا حملت الروم على المسلمين لم تزحزح الرجالة عن هيئاتها ولا يقيم رجل منهم على قدميه فإذا قرب العدو رشقهم الرماة بالنشاب ، والرجالة بالمزاريق وصدور الرماح تتلقاهم فأخذوا يمنة ويسرة فتخرج خيل المسلمين بين الرماة والرجالة فتنال منهم ما شاء الله تعالى » .

وكان من ضمن التقاليد العسكرية في عهد علي بن يوسف ان يقوم الجند باستعراض عسكري قبل انطلاقه نحو أهدافه ، وبعد العرض يتحركون وهم بكامل أهبتهم نحو الهدف الذي انتدبوا إليه . وكانت الأقوات والخيام تحمل على ظهور الإبل التي كانت تسير في مؤخرة الصفوف يتلوها الرماة يقودون قطعان الماشية من كل صنف ، فاذا حط الجيش رحاله أقاموا معسكراً تحف به الخنادق والتحصينات [1] . وعندما يقتربون من العدو تنشر الرايات ذات الألوان المختلفة والممثلة لقطاعات الجيش، ويظهر أنه كانت هناك راية كبرى أثناء الحرب . وكانت بعض هذه الرايات التي كان عددها سبع رايات في عهد علي بن يوسف موشاة بالذهب [2] وكانت الجيوش المرابطية تسير على دوي الطبول التي كان مسمعها يدخل الذعر والرعب في قلوب الأعداء [3] .

إلا اننا يجب أن لا نغفل عن العوامل التي كانت تتحكم في ترتيب وتنظيم الجيش قبيل الصدام والتي يمكن حصرها في عاملين : هما طبيعة الأرض التي تم عليها الصدام ، ونوعية العدو الذي يواجهه . لذا كان لكل معركة ظروفها التي تحكمت فيها ، فتارة هي كما وصفها الطرطوشي ، وأخرى

---

(١) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٣٨٩ ـ ٣٩١ .

(٢) ابراهيم حركات : المرجع السابق ، ج١ ، ص ٢٢٦ .

(٣) محمد ولد داداه : المرجع السابق ، ص ١١٩ ـ ١٢٠ .

يرتب فيها الجيش على شكل خماسي على النحو التالي : المقدمة والتي كانت تتكون من جند المشاة أما الميسرة والميمنة اللذان يؤلفان جناحي الجيش فيتألفان من وحدات الفرسان الخفيفة وحملة القسي والنبال ، وكان القلب يتألف من وحدات الفرسان الثقيلة التي يرجع إليها الفضل غالباً في إحراز النصر في المعارك الحاسمة . أما القوى الخفيفة أو الإحتياطية فكان يقودها القائد العام للجيوش المرابطية ، وتتألف من نخبة ممتازة من الجند المدرب المتميز بالشجاعة [1] ، والتي كانت ترقب سير المعركة حتى إذا تمكن الأعياء من العدو انقضت عليه وانتزعت النصر منه .

واعتمدت الجيوش المرابطية أيضاً في قتالها على نظام الكمائن لمناسبة طبيعة البلاد الوعرة مع هذا الأسلوب من أساليب القتال [2] .

وفي عهد علي بن يوسف برع المرابطون في فنون الحصار التي كانوا يجهلونها في بداية قيام دولتهم ، وقد اتضحت هذه البراعة خلال حصارهم لعدة مدن في غرب الأندلس واستيلائهم عليها [3] .

أما فيما يتعلق بالروح القتالية عند الجند المرابطي فكانت تشبه الروح القتالية عند الجند الإسلامي في صدر الإسلام ، لانهم كانوا يقاتلون من أجل إعلاء كلمة لا اله إلا الله ، فكانوا لا يبدأون قتالهم إلا بعد ان يؤدون الصلاة واذا كتب الله لهم النصر أذاعوا هذا النبأ من أعلى المآذن في جميع أنحاء الدولة [4] .

وقد اثنى صاحب الحلل الموشية [5] على الجند المرابطي فقال : « فكانوا يختارون الموت على الانهزام » ، لانه يجد في الفرار عاراً فما بالك اذا اعتقد ان الثبات سبيله إلى الشهادة في سبيل الله ؟ .

---

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ، ج٤ ، ص ٣٦٨ - ٣٦٩ .

(٢) انظر الباب الثالث (موقعة أفراغة ٥٢٨ / ١١٣٤ م) .

(٣) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٥٥ .

(٤) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، ج٤ ، ص ٤٦٨ - ٣٦٩ .

(٥) مؤلف مجهول : ص ٢٢ .

وكانت عزة نفس الجندي المرابطي البدوية تأنف تعقب العدو الفار أمامها [1] وهذا ما رأيناه في أكثر من معركة في الزلاقة عام ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦ م وفي أقليش عام ٥٠١ هـ/ ١١٠٧ م وفي غيرها .

ومن التطورات التي جدت في مجال الاستراتيجية العسكرية في عهد علي بن يوسف التوسع في بناء الأسوار والحصون . فعندما شعر أمير المسلمين علي بعدم ـ فعالية التحصينات التي أقامها والده ، والتي لم تعد تجدي في صد غارات المصامدة في المغرب والنصارى في الأندلس أقام أعداداً كبيرة منها في المغرب والأندلس [2] .

أما بالنسبة للأسطول فقد أشرنا إلى نشاطه في الباب الثالث عند حديثنا عن الجزر الشرقية ، إلا أن الذي أود أن أشير إليه هو أن الأسطول قد تضخم في عهد علي بن يوسف ليصل إلى عشرة أساطيل في عهد ابنه تاشفين عام ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م[3] .

ويبدو ان من عوامل ازدهار الاسطول المرابطي سيطرة المرابطين على دور الصناعة ذات الشهرة العالمية في صناعة السفن ، ومن أهم هذه الدور دار الصناعة في مدينة المرية [4] . كما كان للأندلسيين أصحاب الخبرة في فنون البحرية دور كبير في ازدهاره وسيطرته على مياه البحر الأبيض المتوسط [5] .

ويظهر أن الأسطول المرابطي في عهد علي بن يوسف كان مقسماً لعدة وحدات ترابط في موانىء الدولة وقواعدها البحرية المختلفة ، فهذا ما يتضح من رواية الإدريسي التي جاء فيها [(أن أحمد بن عمر المعروف برقم الأوز كان

---

(١) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٣٨٩ ـ ٣٩١ .

(٢) انظر عن هذا الموضوع الفصل الخاص بالعمارة والفنون الاسلامية .

(٣) السلاوي : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٧١ ؛ ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج٦ ، ص ٤٧٦ ـ ٤٧٧ .

(٤) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٣٩٢ .

(٥) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية الإسلامية ، ص ٤٨ ـ ٥٠ .

والياً لأمير المسلمين علي بن يوسف على جملة من أسطوله)][1]. ومما يؤيد تقسيم الأسطول إلى وحدات منتشرة في مياه الدولة الإقليمية ان جملة من هذا الأسطول كانت ترابط في دانية ، ويتضح ذلك من خلال رسالة وجهها أمير المسلمين علي بن يوسف إلى عامل هذه المدينة ، والتي من فصولها : « وانظر في أمر الأسطول والمستخلص لدانية حرسها الله واستنب في ذلك من ترضاه . . »[2] ويبدو أيضاً أن الأسطول بوحداته المتعددة التي وصلت إلى عشرة أساطيل كانت تخضع لقيادة موحدة ، فهذا ما يفهم من الرواية التي تقول بأن محمد بن ميمون قد حضر في عام ٥٣٩ هـ/ ١١٤٤ م لمساعدة تاشفين بن علي بعشرة أساطيل [3] .

القضـــاء

يعتبر عصر المرابطين بعامة وعهد علي بن يوسف بن تاشفين بخاصة من العهود التاريخية النادرة التي تمتع فيها القضـاة بالسطوة والجاه ، إذ لم يكن منصب القضاء في هذا العهد مجرد منصب ديني فحسب بل ارتبط بالسياسة ، فقد تمتع القضاة بسلطات واسعة أغرت بعضهم في أواخر عهد المرابطين بالإستقلال عن دولة المرابطين أمثال قاضي قضاة قرطبة ابن حمدين الذي أعلن انفصاله في عام ٥٣٩ هـ/ ١١٤٤ م ، وتلقب بنفس ألقاب أمراء الدولة المرابطية (أمير المسلمين ، وناصر الدين) ، وقام بتدوين الدواوين ، وتنظيم الجيش واستمر في عمله هذا ما يقرب من العام [4] .

وكان لا يتولى منصب القضاء في عهد المرابطين إلا من ثبتت جدارته ونزاهته ، وتمتع بحظ وافر من العلم . واشتراط الكفاءة ليس غريباً على تاريخ

---

(١) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٣٩٤ .

(٢) محمود مكي : وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، ص ١٨٥ ـ ١٨٦ .

(٣) السلاوي : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٧١ ؛ ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج٦ ، ص ٤٧٦ ـ ٤٧٧ .

(٤) ابراهيم حركات : المرجع السابق ، ج١ ، ص ٢١٨ ـ ٢١٩ .

القضاء الإسلامي فقد تنبه فقهاء المسلمين لخطورة هذا المنصب فاشترطوا عدة شروط لمن يتولاه تتفق وشروط من يتولى حكم الامة ، ومن هذه الشروط : الاسلام ، والعقل ، والذكورة ، والحرية ، والبلوغ ، والعدالة ، والعلم ، وسلامة الحواس ، إضافة للذكاء والفطنة والاناة [1] ، إلى غير ذلك من الشروط التي ترمي إلى اختيار أفضل الناس لهذا المنصب الخطير لتعلقه بأمور الدين ، ولأن أمير المسلمين معرض للمثول بين يديه لو توجب عليه حكم [2] . وقد نبه النباهي[3] لخطورة خطة القضاء فقال : « خطة القضاء من أعظم الخطط قدراً واجلها خطراً » . وكانت الأندلس مقسمة إلى ثلاث مناطق قضائية كبرى هي : الشرق ، والغرب ، والموسطة ، وفي كل منها قاض للجماعة [4] . وهذا ما يفهم من الرسالة التي وجهها علي بن يوسف في عام ٥٠٦ هـ/ ١١١٢ م إلى أهل شرق الأندلس لاعتراضهم على أحكام الفقيه قاضي القضاة عندهم مشيراً إلى وجود منصب قاضي قضاة الشرق ، ومما جاء فيها : « . . . وصح عندنا ان الفقيه الجليل الحافظ قاضي القضاة بالشرق . . » [5] .

ومن المحتمل ان يكون المغرب مقسماً إلى مناطق قضائية تشبه ذلك التقسيم الذي رأيناه في الاندلس . وكانت أهم المناصب القضائية في المغرب والأندلس هي منصب قاضي قضاة مراكش لقربه من السلطان ، وقاضي قضاة قرطبة مركز والي الأندلس من قبل أمير المسلمين ، فكان الأول يستفتي في كل

---

(١) النباهي : المرقبة العليا ، ص ٣ ـ ٤ .

(٢) المقري : المصدر السابق ، ج١ ، ص ٢٠٣ .

(٣) المرقبة العليا ، ص ٦ .

(٤) قاضي الجماعة : هو أعلى منصب قضائي في الدولة ، ومصطلح قاضي الجماعة مستحدث في الأندلس يعود لقاضي قرطبة يحيى بن يزيد التجيبي المتوفي عام ٢٤٢ هـ إذ ان قاضي قرطبة قبله كان يسمى قاضي الجند ، والمقصود بالجماعة جماعة القضاة ، ويستمد قاضي الجماعة اختصاصاته من الخليفة أو الأمير انظر : ابن رشد : المصدر السابق ، ج١ ، ص ١٥ .

(٥) محمود علي مكي : وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، ١٦٣ ـ ١٦٤ .

ما يتعلق بالمغرب والثاني في كل ما يتعلق بالاندلس [1] .

وكانت سياسة أمير المسلمين علي بن يوسف في تعيين القضاة لا تستند الى عصبية قبلية كما فعل في تعيين الولاة وقادة الجيش ، وهي سياسة حكيمة برهنت على رغبة أمير المسلمين علي في تحقيق العدالة بين جميع أفراد الرعية من غير محاباة لأحد [2] .

ويظهر ان اختيار قاضي الجماعة كان في بداية عهد المرابطين يسير على ضوء التقاليد التي كانت متبعة في العهود السابقة ، فقد كان يعين من قبل أمير المسلمين بعد استشارة الوزراء وكبار الشخصيات في بلاطه [3] . إلا أن هذا الوضع قد طرأ عليه تعديل في عهد علي بن يوسف وأصبحت الرعية هي التي تنتخب القضاة ثم يبارك هذا الاختيار أمير المسلمين ، وهذا منتهى شورية حكم المرابطين أو ما يعبر عنه بالمصطلح الحديث « بغاية الديمقراطية » ، كما يدل على استقلالية السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية . وعند تعذر اختيار الجماعة لقاضيها كان يترك أمر الاختيار لأمير المسلمين ، ومما يؤ يد ما ذهبنا إليه رد امير المسلمين علي بن يوسف على الجماعة بأحدى النواحي التي ارسلت اليه باسماء رجلين رشحوهما للقضاء ليختار أمير المسلمين واحد منهما ، فقد جاء في رد علي بن يوسف عليهم « ...... وصلت إلينا مراجعتكم عما كنا خاطبناكم فيه من اختيار رجل منكم يصلح لولاية القضاء عندكم ووقفنا منها على اختلافكم في الرجلين المذكورين في العقدين الواصلين من قبلكم فرأينا التوقف في الأمر حتى يقع اتفاقكم .... وان استمر الخلاف أخرجنا الأمر عنكم واجتهدنا في الاختيار لكم ان شاء الله تعالى والسلام » [4] .

وقد انحسرت سلطات قاضي الجماعة في العهود السابقة لقيام دولة

---

(١) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٣٦٥ - ٣٦٦ .

(٢) ابراهيم حركات : المرجع السابق ، ج١ ، ص ٢١٥ - ٢١٦ .

(٣) ابن رشد : المصدر السابق ، ج١ ، ص ١٥ .

(٤) محمود مكي : وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، ص ١٦٣ - ١٦٤ .

المرابطين في الأمور التالية : قطع التشاجر والخصام بين المتنازعين ، واستيفاء الحق لمن طلبه ، والزام الولاية للسفهاء والمجانين ، والتحجر على المفلس حفظاً للأموال والنظر في الاحباس ، وتنفيذ الوصايا ، وتزويج الايامي من الاكفاء ، وإقامة الحدود ، والنظر في المصالح العامة من كف التعدي في الطرقات والافنية (١) . ولكن ما إن جاء المرابطون حتى توسعت صلاحياته ، ففي عهد يوسف بن تاشفين أصبح قاضي القضاة الرجل الأول في منطقته الذي يرجع إليه ، وأصبحت سلطته تفوق سلطة نائب أمير المسلمين على الامصار ، وهذا هو الذي يتضح من خلال رسالة وجهها يوسف بن تاشفين إلى قاضي قرطبة ابن حمدين والتي من ضمن فصولها : « . . وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين ان يسلموا لك في كل حق تمضيه ولا يعترضوا عليك في قضاء تقضيه ، ونحن أولاً وكلهم آخر مذ صرت قاضياً سامعون منك غير معترضين في حق عليك ، والعمال والرعية كافة سواء في الحق ، فان شكت إليك بعامل وصح عندك ظلمه لها ، ولا يتجه في ذلك عمل غير عزله فأعزله ، وان شكا العامل رعيته خلافاً في الواجب . . . . فقومها له ومن استحق من كلا الطرفين الضرب والسجن فأضربه واسجنه ، وان استوجب الغرم في ما استهلك فأغرمه واسترجع الحق شاء أو ابى من لديه . . . » (٢) .

وتعززت هذه السلطات أكثر في عهد علي بن يوسف واضيفت إلى قاضي الجماعة مهام أخرى عززت من مكانته ، وأصبح علي بن يوسف لا يقبل شكاية أحد من رعاياه إلا إذا كانت مؤيدة بشهادة من قاضيه تؤيد ظلامته . وما لبث علي بن يوسف ان أوكل النظر في الظلامات الى قضاة البلدان حتى لا يتجشم المظلومون مشقة السفر الى العاصمة لعرض شكاواهم على السلطان ، وهذا ما اوضحه علي بن يوسف من خلال رسالته إلى قاضي مالقه أبو محمد عبد الله بن أحمد بن عمر القيسي المالقي المتوفى عام ٥٤٣ هـ/ ١١٤٨ م ، وهي مؤرخه في ذي الحجة سنة ٥٢٣ هـ/ ٢٨ ديسمبر ١١٢٩ م ، ومما جاء

(١) النباهي : المصدر السابق ، ص ٥ ـ ٦ .

(٢) ابن بسام : الذخيرة ، ق٢ ، ج١ ، ص ٢٦١ ـ ٢٦٢ .

فيها : « وقد قلدناك تقليداً تاماً ان تنظر بجهتك من شكاوى العامة في اللطيف والجليل . . . واي عذر لك وقد شددنا من أزرك . . . . . واي عامل من عمال الرعية قامت الشهادة عندك بتعدية وعلمت صحة استهدافه وتصديه فانه امره الى صاحب البلد مستعمله ومؤليه ، واشعره بما ثبت عندك فيه فان غل يد اذيته وانفذ عزله عن رعيته ، والا فأخف ذلك الينا في سائر ما يتوقف لديك من الامور التي تقصر عنها يدك . . » [١] .

وكان امير المسلمين علي بن يوسف وولي عهده تاشفين يؤكدان على عمالهما بحماية جانب القاضي وعدم السماح للرعية بالاعتراض على احكامه ، كما كانا يؤكدان عليهم باستمرار على واجب الاحتفاء بالقضاة حينما يمرون في اعمالهم ، وكانا يوبخان الوالي الذي لم يحتفل ببعض القضاة الذين مروا في اعماله ولم يكترث بهم ، وهذا ما تبين من خلال رسالة بعث بها تاشفين الى احد ولاته حول هذا الموضوع [٢] .

ولم تكن تلك السلطات مجرد امور نظرية بل كانت تمارس عمليا ، وقد رأينا في الباب الثالث كيف طالب ابن رشد امير المسلمين علي بن يوسف بعزل واليه على الأندلس تميم فاستجاب له [٣] .

وكان من ضمن صلاحيات قاضي الجماعة تعيين قضاة الأقاليم . وبشكل إجمالي لم يكن يخرج عن سلطان قاضي الجماعة إلا إعداد الجيوش وجباية الخراج ، فقد كانت اختصاصاته تشمل ما يسمى في العصر الحاضر بالقضايا المدنية والتجارية والجنائية والإدارية [٤] .

وكان يشرف على بيت المال ، ويصلح المساجد ، ويقيم الصوامع ، ويصنع المنابر ، وإذا ما دعا داعي للجهاد نجده في مقدمة الصفوف [٥] .

---

(١) محمود علي مكي : وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، ص ١٧١ ـ ١٧٤ .
(٢) محمود علي مكي : المرجع السابق نفسه ، ص ١٤٤ ـ ١٤٦ .
(٣) انظر الباب الثالث ، ص ٢٣١ .
(٤) ابن رشد : مسائل ابن رشد ، ج ١ ، ص ٩٥ .
(٥) المقري : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦ ـ حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٣٦٩ ـ ٣٧١ .

وكان يساعد القضاة مجموعة من الكتّاب ، وهذا ما أشارت اليه كتب التراجم بإيرادها مجموعة من أسماء ممن اشتهر بالكتابة للقضاة أمثال : محمد بن اسماعيل بن عبد الملك الجمحي المتوفي عام ٥٤٣هـ / ١١٤٨م الذي عمل كاتباً للقضاة في شاطبة ، وبلنسية [١] ، وعبد العزيز بن علي بن عيسى أبو الأصبغ المعروف بالشقوري المتوفي عام ٥٣١هـ / ١١٣٦م [٢] ، وعبد العزيز بن خلف بن ادريس السلمي المتوفى عام ٥٤١هـ / ١١٣٦م وغيرهم [٣] .

وكان يشترط في الكتّاب الذين يكتبون للقضاة أن يكونوا على قسط وافر من الثقافة ومعرفة بالقضاة والأحكام والشروط [٤] . وكان لقاضي الجماعة منذ عهد علي بن يوسف مستشارون من الفقهاء عددهم أربعة اثنان منهم يلازمان القاضي ليستشيرهم في إصدار الأحكام ، والإثنان الآخران يختصان باصدار المشورة للمتنازعين [٥] ، وكان للفقهاء المشاورين رئيس منهم ينظم شؤونهم [٦] .

واتخذ القضاة الحجاب على أبوابهم ليحولوا بين الناس وبين أن ينالوا من هيبة المجلس ووقاره ، وكانوا يستعينون بطائفة من الشرطة يسمون الأعوان في بعض الأحيان [٧] .

وكان كاتب الأمير او وزيره حلقة الاتصال بينه وبين القاضي ، وكان اتفاق القاضي والأمير يعني الهدوء والدعة ، واختلافهما يعني الاضطراب والفوضى [٨] .

---

(١) ابن الأبار : المعجم ، ص ١٥٧ .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٥٥ .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٥٦ .
(٤) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦ .
(٥) المراكشي : المعجب ، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦ ؛ ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ، ج ١ ، ص ٢١٦ .
(٦) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩ .
(٧) المرجع السابق نفسه ، ص ٣٦٩ ـ ٣٧١ .
(٨) المرجع السابق نفسه ، ص ٣٧١ ـ ٣٧٢ .

وعلى الرغم من هذه السلطات الواسعة التي كان يتمتع بها القضاة في عهد علي بن يوسف إلا أنه لم يغفل عن مراقبتهم ، وعزل المقصر منهم . فقد كانت تصله تقارير مفصلة عن جميع قضائه في الأمصار ، وهذا يتضح من خلال رسالته الى أهل فاس في عام ٥٢٨هـ / ١١٣٣م والمتعلقة بعزل قاضيهم ابن مـجلوم ، ومما جاء فيها : « . . . وقد انهي الينا وتحقق لدينا ان الجهول ابن العجلوم ، أجهل بأحكام القضاء من العلجوم . . . فقد وليناه خطة الملوم ونبذناه بالعراء وهو مذموم وجعلنا شهب العزلة الشيطانية كالرجوم . . . » [1] .

ومن أشهر من تولى منصب قاضي الجماعة في عهد علي بن يوسف ، محمد بن أحمد بن رشد (٤٥٠ ـ ٥٣٠هـ / ١٠٥٨ ـ ١١٣٥م) قاضي الجماعة بقرطبة [2] . وهو من كبار فقهاء الأندلس وقضاتها ، وكانت ولايته لقضاء الجماعة بقرطبة عام ٥١١هـ / ١١١٧م ، ثم استقال منها في عام ٥١٥هـ / ١١٢١م [3] ، وهو الذي أفتى بتغريب النصارى جزاء غدرهم بالمسلمين عام ٥١٩هـ / ١١٢٥م ، لمساعدتهم الفونسو المحارب ، وهو أيضاً الذي أشار على علي بن يوسف بتسوير مراكش ، وعزل تميم عن ولاية الأندلس [4] .

وألف ابن رشد مجموعة قيمة من المؤلفات أهمها : البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل ، وكتاب المقدمات لأوائل كتاب المدونة ، واختصار كتاب المبسوط ، واختصار كتابي أبي جعفر الطحاوي [5] .

(١) ابن عذاری : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٩٢ .
(٢) ابن قنفذ : الوفيات ، ص ٢٧٠ ؛ الضبي : بغية الملتمس ، ص ٥١ .
(٣) ابن رشد : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٧ ؛ ابن عذاری : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٦٤ ؛ ابراهيم حركات : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٢١ ـ ٢٢٢ .
(٤) انظر الباب الثالث ، والفصل الخاص بالعمارة والفنون الإسلامية .
(٥) الضبي : المصدر السابق ، ص ٤٠ ؛ ابن القاضي : جذوة الاقتباس ، ج ١ ، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥ ؛ ابن عذاری : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٧٤ ؛ ابن قنفذ : المصدر السابق ، ص ٢٧٠ .

ومنهم أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرون بن موسى بن عياض اليحصبي [1] ، المتوفي عام ٥٤٤هـ / ١١٤٩م [2] . وهو سبتي الدار والميلاد أندلسي الأصل [3] ، وكان من أئمة وقته في الحديث ، والفقه ، والنحو ، والشعر ، خطيباً فصيحاً صاحب ثقافة موسوعية [4] . ولي الشورى في بلدة سبتة ثم تولى القضاء في عام ٥١٥هـ / ١١٢١م فقام بعمله أحسن قيام ، وبنى الزيادة في جامع سبتة ، وبنى بجبل الميناء الرابطة ، وفي عام ٥٣١هـ /١١٣٦م تقلد خطة قضاء غرناطة الا أنه فصل عنها في عام ٥٣٢هـ / ١١٣٧م ، ثم ولي قضاء سبتة مرة ثانية في أواخر عام ٥٣٩هـ / ١١٤٤م [5] ، وفي عام ٥٤٢هـ / ١١٤٧م انتفضت سبتة بقيادته ، ولكن الأمر انتهى باستيلاء الموحدين عليها ، وعفا عبد المؤمن بن علي عن القاضي عياض الذي ما لبث أن توفي في مدينة مراكش عام ٥٤٣هـ / ١١٤٨م [6] أو في قول آخر في مدينة فاس [7] .

ومن أشهر مؤلفات عياض كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، وهو مطبوع ، وكتاب إكمال المعلم في شرح مسلم ، وكتاب التنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة والمختلطة (مخطوط) ، وكتاب ترتيب المدارك وتعريف المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك (مطبوع) ، وكتاب الأعلام بحدود قواعد

---

(١) أبو عبد الله محمد بن عياض : التعريف بالقاضي عياض ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج ٢ ، ص ٤٦ - ٤٨ .

(٢) العماد الأصفهاني : المصدر السابق ، ق ٤ ، ج ٢ ، ص ٥٥٠ ؛ ابن فرحون : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥١ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٨٣ - ٤٨٥ ؛ أبو عبد الله محمد بن عياض : المصدر السابق ، ص ٣ .

(٣) ابن فرحون : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٦ .

(٤) أبو عبد الله محمد بن عياض : المصدر السابق ، ص ٤ وما بعدها .

(٥) المصدر السابق ، نفسه ، ص ١٠ - ١١ .

(٦) ابن فرحون : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٦ - ٤٨ ؛ ابراهيم حركات : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

(٧) العماد الأصفهاني : المصدر السابق ، ق ٤ ، ج ٢ ، ص ٥٥٠ .

الإسلام (مطبوع) ، وكتاب الإلماع في ضبط الرواية وتقييد السماع (مطبوع) ، وكتاب الفنون الستة في أخبار سبتة (مفقود) ، وغيرها [1] .

ومن مشاهير القضاة أيضاً خلوف بن خلف الصنهاجي المتوفى عام ٥١٥هـ / ١١٢١م الذي تولى قضاء الجماعة في مراكش بعد أن تولى قضاء غرناطة عام ٥٢٠هـ / ١١٢٦م ثم قضاء فاس [2] . ومنهم أبو عمران موسى بن حماد الذي تولى القضاء بجهات شتى ثم عين بمرسوم من أمير المسلمين علي بن يوسف في أوائل رمضان عام ٥٢٤هـ [3] . وعبد الحق بن عطية المتوفى عام ٥٤٦هـ / ١١٥١م والذي ولي قضاء قرطبة او المرية عام ٥٢٩هـ / ١١٣٤م [4] . وأحمد بن ابراهيم بن أحمد المتوفى عام ٥١٤هـ / ١١٢٠م والذي استقضى بشلب [5] . وأحمد بن الجحاف المتوفى عام ٥٤٧هـ / ١١٥٢م والذي تولى قضاء بلنسية [6] . ومحمد بن هشام الأموي المتوفى عام ٥٣٠هـ / ١١٣٥م وهو من مشاهير قضاة غرناطة [7] . وعبد الله بن مروان بن عبد العزيز المتوفى عام ٥٣٥هـ / ١١٤٠م ، والذي تولى قضاء بلنسية عشر سنوات [8] . وأبو الحسن علي بن أضحى الهمداني قاضي قضاة غرناطة المتوفى عام ٥٤٠هـ / ١١٤٥م [9] . وأبو بكر بن العربي الذي

---

(١) أبو عبد الله محمد بن عياض : المصدر السابق ، ص ١١٥ - ١١٨ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٨٣ - ٤٨٥ ؛ ابن فرحون : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٨ - ٤٩ .

(٢) ابن القاضي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٩٣

(٣) النباهي : المصدر السابق ، ص ٩٧ - ٩٨ .

(٤) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ٣ ، ص ٥٣٩ - ٥٤١ ؛ المقري : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

(٥) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٧٧ ؛ ابن الأبار : المعجم ، ص ٧ .

(٦) ابن الأبار : المعجم ، ص ٣٦ .

(٧) المصدر السابق نفسه ، ص ١١٨ .

(٨) المصدر السابق نفسه ، ص ٢١٢ - ٢١٤ .

(٩) ابن خاقان : قلائد العقيان ، ص ٢٤٨ - ٢٤٩ ؛ ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، ج ٢ ، ص ١٠٨ - ١٠٩ ؛ ابن الأبار : الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ٢١١ ، ٢١٥ - ٢١٦ .

تولى قضاء إشبيلية عام ٥٢٨هـ / ١١٣٣م . ومن قضاة إشبيلية أيضاً أبو الحسن شريح بن محمد بن شريح الرعيني [١] . ومن القضاة المشهورين أيضاً محمد بن أحمد بن خلف التجيبي المعروف بابن الحاج المتوفى عام ٥٢٩هـ / ١١٣٤م [٢] . وقاضي الجماعة بقرطبة محمد بن أصبغ المعروف بابن الناصف المتوفى عام ٥٣٦هـ / ١١٤١م [٣] ، وقاضي الجماعة بمراكش عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللخمي المتوفى عام ٥١٣هـ / ١١١٩م [٤] ، وقاضي الجماعة أبو القاسم أحمد بن محمد بن علي بن حمدين المتوفي عام ٥٢١هـ / ١١٢٧م [٥] .

ومن الخطط المهمة التي كانت تخضع لقاضي الجماعة خطة قضاء الكور ، فكان يعين عليها قضاة يمثلونه في النواحي التابعة له ، والذين كانوا بدورهم يعينون من ينوب عنهم في القرى التابعة لنواحيهم . وكانت اختصاصات قضاة النواحي محدودة في قرية أو في حي كبير من أحياء المدينة وتسند إليه بمقتضى توكيل خاص من لدن قاضي الكورة [٦] .

ومن الخطط التي كانت تخضع لسلطان قاضي الجماعة أيضاً . خطة الأحكام ، والشورى ، والإفتاء ، والمظالم ، والحسبة ، والرد .

وكانت خطة الأحكام من أهم خطط القضاء في المغرب والأندلس ، ويطلق على صاحبها لقب « صاحب الأحكام » . ويرجع وجود هذه الخطة الى أواخر عهد الخلافة الأموية في الأندلس ، إلا أن أول إشارة لهذه الخطة في عهد الدولة المرابطية تعود الى عهد علي بن يوسف وذلك من خلال رسالة بعث بها إلى قاضيه الوحيدي يبين له أحكام هذا المنصب وصلاحيات

---

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٦٥ ، ٩٢ - ٩٣ .

(٢) النباهي : المرقبة العليا ، ص ١٠٢ .

(٣) ابن الأبار : المعجم ، ص ١٣٠ .

(٤) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٠٤ .

(٥) ابن سعيد : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٦٢ .

(٦) ابن رشد : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٥ - ١٦ .

صاحبه ، محدداً له الشروط التي ينبغي أن تتوفر في قضاة الأحكام ، من ثقة ، وديانة وعفاف ، وزهد وتحفظ ، كما يعطي لقاضي الجماعة سلطة مطلقة في تعيين قضاة الأحكام وعزلهم وعقابهم دون الرجوع الى أمير المسلمين . ومن فصول هذه الرسالة المؤرخة في ذي الحجة ٥٢٣هـ / ٢٨ ديسمبر ١١٢٩م الى قاضي مالقة أبو محمد عبد الله بن أحمد بن عمر الوحيدي (ت في ٢٦ محرم عام ٥٤٣هـ) : « . . . ومدار هذا الأمر اختيار الحكام الذين استنبتهم في اقطارك القاصية ، ونصبتهم في الجهات النائية ، فشرطهم الثقة والديانة والصون والأمانة . . . وبعد توليتك إياهم فأشرف عليهم اشرافاً يتعقب أحوالهم . . . »[1] .

وممن تولى خطة الاحكام في عهد علي بن يوسف محمد بن عمر بن محمد (كان حياً عام ٥١١هـ / ١١١٧م) من أهل مرسية وصاحب الأحكام فيها ، والذي كان من العلماء المشهود لهم بسعة الاطلاع[2] ، ومنهم محمد بن عبد الغفور بن أحمد الكلابي المعروف بابن زغيبة المتوفي عام ٥٢٨هـ / ١١٣٣م والذي تولى الأحكام في مدينة المرية[3] .

أما خطة الشورى فهي خطة قديمة ، فالفقهاء المشاورون هم جماعة من كبار العلماء يختارهم الأمير ليسترشد برأيهم في أمر القضاة والأحكام . ولم يكونوا هيئة بمعنى الكلمة تجتمع معا في مجلس خاص ، بل كانوا فرادى يختار الأمير من يراه صالحا للشورى ثم يبعث إليه بما يريد ليفتي فيه ، وقد يستقدمه الى القصر ، وكان المشاورون لأمير المسلمين أعلى مرتبة من القضاة بل كانوا في مراتب الوزراء من حيث المكانة والجاه[4] إلا أن خطة الشورى في الأقاليم كانت أقل مرتبة من القضاء ، إذ أننا نلاحظ أن عدداً من القضاة تولى منصب الشورى قبل توليه منصب القضاء . ومن الأمثلة على ذلك

(١) محمود مكي : وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، ص ١٧١ - ١٧٤ ، ١٤٠ .

(٢) ابن الأبار : المعجم ، ص ١٢٢ - ١٢٣ .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ١١١ .

(٤) ابن الأبار : الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ ، حاشية رقم ١ .

عاشر بن محمد بن عاشر بن خلف بن مرجي بن حكم الأنصاري المتوفي عام ٥٦٢هـ / ١١٦٦م والذي تولى خطة الشورى ببلنسية ثم قلد قضاء مرسية واستمر في هذا المنصب حتى سقطت دولة المرابطين[١] . ومنهم أحمد بن طاهر بن علي بن عيسى الأنصاري المتوفي عام ٥٢٠هـ / ١١٢٦م والذي تولى أيضاً الشورى بدانية ثم عرض عليه قضاؤها فرفض[٢] .

وكان يجمع في بعض الأحيان بين القراءة والخطبة والصلاة في جامع قرطبة والمشورة في الأحكام ، فقد كان عبد الرحمن بن أحمد بن خلف بن أحمد بن رضا المقري المتوفي عام ٥٤٠هـ / ١١٤٥م خطيباً بجامع قرطبة ، وصاحب صلاة الفريضة به والمشاور في الأحكام[٣] .

أما خطة الإفتاء : فكان يشترط فيمن تناط به أن يكون ذا خبرة ومعرفة بالمسائل والنوازل والفتاوى ، بصيراً بعقد الشروط[٤] . ويظهر أنه كانت هناك هيئة من الفقهاء يتولون الإفتاء في عهد علي بن يوسف ، لأنه كان يوجد رئيس للمفتين[٥] . وممن تولى منصب الإفتاء في هذا العهد محمد بن حكم بن محمد بن أحمد الجذامي المتوفي عام ٥٣٣هـ / ١١٣٨م ، والذي كان يمارس مهامه في مدينة فاس[٦] .

أما فيما يختص بالمظالم فقد كان يعين بواسطة أمير المسلمين شخصياً من بين الفقهاء المشاورين عنده ، وكان يطلق عليه صاحب المظالم ، وقد

---

(١) ابن الأبار : المعجم ، ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩ .

(٢) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٧٨ ـ ٧٩ ـ وعن خطة الشورى انظر : هشام سليم عبد الرحمن أبو رميلة : نظم الحكم في الأندلس في عصر الخلافة ، ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ ـ (رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الآداب ـ قسم التاريخ ، كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ١٩٧٥ : وهي مطبوعة على آلة كاتبة) .

(٣) ابن الأبار : المعجم ، ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨ .

(٤) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٧٨ ـ ٧٩ .

(٥) ابن الأبار : المعجم ، ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩ .

(٦) ابن القاضي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ .

عرف المقريزي هذه الخطة قائلاً: [(أعلم أن النظر في المظالم عبارة عن قود المتظالمين الى التناصف بالرهبة ، وزجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبة . . . وهي خطة حدثت لفساد الناس وهي كل حكم يعجز عنه القاضي فينظر فيه من هو أقوى منه يداً)](١)- وممن تولى أحكام المظالم محمد بن أصبغ الأزدي المتوفي عام ٥٣٦هـ / ١١٤١م قاضي الجماعة بقرطبة وصاحب صلاة الفريضة بجامعها ، وكان قد تولى خطة أحكام المظالم بقرطبة قديماً مع شيخه قاضي الجماعة ابن رشد (٢) .

ومن الخطط التي تذكرها كتب التراجم في هذا العهد خطة الإشراف على المدن فقد ذكر ابن خاقان (٣) ان ابن أبي الخصال كتب الى الوزير أبي بكر بن رحيم يهنئه بولاية خطة الإشراف وذلك في شوال عام ٥١٥هـ . ويبدو أن صاحب هذه الخطة كان يعين من قبل أمير المسلمين مباشرة وهو بمثابة المسؤول الأول عن كل ما يحدث في المدينة واتصاله مباشرة مع أمير المسلمين ، وهذا ما يفهم من رسالة ابن أبي الخصال الى صديقه الذي تولى هذه الخطة .

ومن الخطط القضائية التي تميز بها الأندلس ، خطة الرد إذ أنها لم تظهر في المشرق الإسلامي ، وكان يحكم فيما استرابه الحكام وردوه عن أنفسهم ، ويبدو أنه كان له حق مطالعة رعايا الكور والوقوف على أحوالهم ، وقد أطلق على من يتقلد هذه الخطة اسم صاحب الرد لأن إليه كانت ترد بعض الأحكام (٤) . وممن تولى الخطة في عهد الدولة المرابطية عبد الله اللخمي الإشبيلي (٥) .

---

(١) هشام سليم عبد الرحمن أبو رميلة : المرجع السابق ، ص ٢٨٣ .

(٢) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٥٤ ـ ٥٥٥ .

(٣) قلائد العقيان : ص ٢٠٥ .

(٤) هشام أبو رميلة : المرجع السابق ، ص ٢٨٠ .

(٥) إبراهيم حركات : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢١٨ .

ويظهر ان أحوال أهل الذمة بقيت على سالف عهدها في العصور السابقة لقيام دولة المرابطين ، إذ تركت لهم الحرية في التحاكم إلى قضاتهم . ومن أشهر قضاتهم في عهد علي بن يوسف ديان قاضي اليهود في قرطبة والمتوفي عام ٥٤٣هـ / ١١٤٩م[1] .

(١) بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٤٩٨ .

الفصل الثاني

الحياة الاقتصادية والاجتماعية

الحياة الاقتصادية

لقد ازدهرت الحياة الاقتصادية ازدهاراً عظيماً في عهد المرابطين وبشكل خاص في عهد علي بن يوسف بن تاشفين ، فكانت أيامهم أيام دعة ورفاهية ، ورخاء ، وعافية ، فكثرت الخيرات ، ورخصت أسعار الحبوب والثمار وعمت الغبطة رعاياهم [1] .

وشهد هذا العهد نهضة صناعية مباركة وبخاصة بعدما اتحدت الأندلس مع المغرب ، وتبادل الطرفان الخبرات الصناعية [2] ، فازدهرت الصناعة وتخصصت بعض المدن الأندلسية والمغربية في بعض الصناعات ، فالمرية في المنسوجات [3] ، وشاطبة في الورق [4] ، ومراكش في المغازل [5] ،

---

(١) ابن ابي زرع : روض القرطاس ، ص ١٦٧ .

(٢) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ، ج ، ص ٢٧ ؛ الجزنائي : جني زهرة الآس ، ص ٣٢ .

(٣) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية الإسلامية ، ص ١٥٦ .

(٤) أحمد مختار العبادي : الحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية ، مجلة عالم الفكر ، مج١١ ، ع١ ، ابريل ـ مايو ـ يونية ١٩٨٠ م ، ص ١٥٣ .

(٥) إبراهيم حركات : المرجع السابق ، ج١ ، ص ٢٣٨ .

علماً بأن هذه المدن كانت لها عراقة في الصناعات المذكورة في العهود السابقة .

وراجت التجارة رواجاً واسعاً سواء على مستوى التبادل الداخلي أو على المستوى الخارجي مع الدول الاسلامية والدول الأوروبية ، فازدحمت الموانىء المرابطية بالسفن التجارية القادمة من الشرق ومن الدول الأوروبية .

ومن العوامل الهامة التي ساعدت على هذا الازدهار ما كانت تتمتع به الدولة المرابطية من ثقة وسمعة في الأوساط العالمية لحرصها على تطبيق تعاليم الاسلام السمحة ، فلا مكوس جائرة [١] ، ولا فوضى واضطراب ، فالدولة ساهرة دوماً على حماية التجار ، وحريصة على تأمين طرق تجارتهم [٢] . كما ساعد ارتفاع مستوى دخل الفرد وثراء الدولة على تنشيط عملية البيع والشراء مما شجع التجار على إغراق الأسواق بالبضائع المختلفة [٣] .

ولم تطغ الصناعة والتجارة على الزراعة ، فقد راجت المنتوجات الزراعية المختلفة ، وأخذ المزارعون يصدرون منتوجاتهم من المغرب إلى الأندلس وبالعكس وأسهمت الدولة إسهاماً فعالاً في تشجيع الزراعة وذلك عن طريق توفير المياه وبناء القنوات [٤] .

وانعكس ثراء الدولة في عهد علي بن يوسف على حياة الحكام والرعية على حد سواء ، فغلبت حياة الترف والبذخ على سلوك الناس . فهذا والي سرقسطة من قبل أمير المسلمين علي بن يوسف ، الأمير ابن تيفلويت يعجب في إحدى ـ سهراته باداء ابن باجه (ت ٥٣٣ هـ/ ١١٣٠ م) ، فيأمر له بمبلغ

---

(١) الأمير عبد الله بن بلقين : التبيان ، ج١ ، ص ١٢٠ .

(٢) أحمد لياس حسين : الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى حتى مستهل القرن السادس عشر كما عرفها الجغرافيون العرب ، رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة ١٩٧٧ م .

(٣) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٤٠٢ ـ ٤٠٣ .

(٤) احمد مختار العبادي : الحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية ، مج١١ ، ع١ ، ص ١٤٨ ـ ١٥٠ .

طائل من المال [1] . ومن مظاهر ثراء الرعية في عهد علي بن يوسف استخدامها للرخام الفاخر والزخارف ذات التكاليف الباهظة في عمائرها [2] .

ويمكن اعتبار ارتفاع عطاء الجند في عهد علي بن يوسف مؤشراً آخر من مؤشرات ذلك الازدهار ، فقد أورد ابن خاقان[3] رسالة كتبت على لسان أمير المسلمين إلى صاحب قلعة حماد يقول فيها : « وتمنح أهل العشرات مئين ، وأهل المئين آلافاً »[4] .

ونتج عن قوة اقتصاد دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين ان أصبحت عملتها عملة عالمية يتم التعامل بها في الأسواق العالمية في الشرق والغرب في ذلك الوقت [5] .

وحتى نقف على مدى تقدم دولة المرابطين من الناحية الاقتصادية في عهد علي بن يوسف سنعرض بشيء من الإيجاز لاهم مظاهر التقدم في مجالات الزراعة ، والتجارة ، والصناعة ، والنقود ، ثم نعرج بالحديث على موارد بيت المال

١ ـ الزراعة

ساعدت رقعة دولة المرابطين الشاسعة بما تحويه من بيئات جغرافية متباينة ، من صحراوية وجبلية ، وسهلية على تنوع المنتوجات الزراعية ، كما كان للدولة دور كبير في دفع عجلة النهضة الزراعية إذ عملت جهدها من أجل توفير المياه عن طريق حفر الآبار ، ومد القنوات والمحافظة على الأمن [6] .

وأدى التشجيع من قبل الدولة للمزارعين في عهد علي بن يوسف إلى

(١) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية ، ص ١٦٣ ـ ١٦٤ .

(٢) ابن الأبار : المعجم ص ٩٨ ـ ٩٩ ؛ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية ، ص ١٦٣ ـ ١٦٤ .

(٣) قلائد العقيان : ص ١١٩ .

(٤) المقصود بأهل العشرات : القائد المسؤول عن عشرة جنود ، وأهل المئين : اي القائد المسؤول عن مئة .

(٥) عبد رب النبي بن محمد : المرجع السابق ، ص ٧٧ .

(٦) احمد مختار العبادي ؛ الحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية ، ص ١٤٩ ـ ١٥٠ .

زيادة المحاصيل الزراعية المعروضة في السوق فرخصت الأسعار وتناهى سعر القمح الى أن بيع كل أربعة أوسق[1] بنصف مثقال ، والثمار ثمانية أوسق بنصف مثقال ، والقيطاني[2] لا تباع ولا تشترى[3] .

ومن أهم المحاصيل الزراعية التي راجت في عهد علي بن يوسف الزيتون[4] والتين[5] والزعفران الذي كان يتوفر في بياسة[6] ، اما سجلماسة فاشتهرت بالتمور التي بلغت أصنافها ستة عشر صنفاً ، والفواكه ، والقطن ، والكمون ، والحناء[7] . كما ازدهرت زراعة الحبوب من قمح وقيطاني[8] ، وشعير[9] ، واشتهرت اغمات بأصناف الفواكه المختلفة[10] وفي نواحي السوس ازدهرت زراعة السكر[11] ، وغيرها من المنتوجات التي كانت تنتشر في اصقاع الدولة المرابطية .

ولكن الذي كان يحد من استمرار هذا التقدم هو تعرض المحاصيل الزراعية للآفات ، وبشكل خاص الجراد ، علاوة على انحباس المطر وتوالي سني الجفاف ، أو انهمار الأمطار الشديد في بعض السنوات والذي كان يؤدي إلى تدمير المزروعات عن طريق الفيضانات .

ففي عام ٥٢٦ هـ/ ١١٣١ م اشتدت المجاعة بقرطبة ، وانتشر الوباء

---

(١) الوسق يساوي ستون صاعاً أنظر : ابن زكريا : معجم مقاييس اللغة ، ج٦ ، ص ١٠٩ .

(٢) لفظ القيطاني يطلق على العدس والكرسنة والحمص .

(٣) ابن ابي زرع : المصدر السابق ، ص ١٦٧ .

(٤) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٤١٠ .

(٥) ابن رشد : المصدر السابق ، ج٥ ، ص ٧٩٢ - ٧٩٣ .

(٦) عبد رب النبي : المرجع السابق ، ص ٦٥ .

(٧) الحبيب الجناحاني : الحياة الاجتماعية والاقتصادية في سجلماسة ، مجلة المؤرخ العربي ، ع٥ ، ص ١٤١ .

(٨) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٦٧ .

(٩) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٩٩ .

(١٠) الحميري : الروض المعطار ، ص ٤٦ .

(١١) إبراهيم حركات : المرجع السابق ، ج١ ، ص ٢٣٧ .

بين الناس ، وكثر الموتى ، وبلغ سعر مدّ القمح خمسة عشر ديناراً ، وكانت هذه الكارثة مشجعة على انتشار الفوضى (١) .

وفيما بين سنتي ٥٢٧ - ٥٣١ هـ/ ١١٣٢ - ١١٣٦ م عانت الأندلس من ويلات الجراد ، فأكل الجراد في عام ٥٢٩ هـ/ ١١٣٤ م ما على الأرض من زرع وكلأ ، وأمر الناس بالخروج إليه فساقوا منه خمسة آلاف وثلاثمائة عدلاً (٢) .

وأدركت الحكومة المركزية خطورة هذه الحشرة فأخذ أمير المسلمين علي بن يوسف يرسل رسائله إلى عماله حاضاً أياهم على الجد في القضاء على هذه الآفة . ومن هذه الرسائل تلك التي كتبها أبو بكر بن القبطرنة على لسان علي بن يوسف إلى أهل الأندلس والتي من فصولها « . . . . . وانظروا اليه وبالله العون . . . . . فأخرجوا إليه الجم الغفير ولا يتخلف الكبير منهم ولا الصغير . . . فجدوا في إطفاء هذا الجمر (أي الجراد . . . . » (٣) .

وقبل وفاة علي بن يوسف بعام واحد دمرت الفيضانات بعض نواحي فاس ، وجزيرة مليلة ، وطنجة ، واشتد الغلاء حتى بلغ ثمن سطل الشعير ثلاثة دنانير (٤) .

لقد جاءت هذه الكوارث الطبيعية من فيضانات ، وجفاف ، وتسلط الجراد على المحصولات في وقت كانت فيه الدولة المرابطية تلفظ أنفاسها الأخيرة من جراء ضربات المصامدة بشكل خاص ، وثورات الأندلس ، وضغط الاسبان النصارى من جانب آخر ، مما حال دون تقديم الدولة المساعدات اللازمة للمزارعين والعمل على ترميم ما دمرته الفيضانات .

---

(١) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ١٣٥ .

(٢) محمود علي مكي : وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، مج٧ - ٨ ، ١٩٥٩ - ١٩٦٠ م ، ص ١٦٤ ، حاشية رقم ١ .

(٣) محمود علي مكي : وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، ص ١٨٧ - ١٨٨ .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج٤ ، ص ٩٩ ؛ ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج٦ ، ص ٤٧٤ .

٢ ـ التجارة

أ ـ التجارة الداخليــة : ـ

لقد كان لتوحيد المغرب والأندلس تحت راية الدولة المرابطية نتائج بعيدة الاثر على مستقبل التجارة الداخلية والخارجية فيها ، إذ أخذت الدولة تضم بين جناحيها مناطق ذات أهمية إقتصادية فائقة . ففي الجنوب كانت تخضع لسيادتهم مدينة سجلماسة ، وأودغشت اللتان تعتبران مفتاحاً لسوق الذهب القادم من السودان ، وفي الشمال خضعت لنفوذهم موانىء البحر الأبيض المتوسط التي كانوا عن طريقها يتصلون بالعالم الخارجي .

وساعدت سعة رقعة دولة المرابطين ايضاً في تنوع الانتاج وتنشيط عملية تبادل المنتوجات والسلع بين شمال وجنوب المغرب من جانب ، وبين المغرب ـ والأندلس من جانب آخر ، وبين المغرب والأندلس والعالم الإسلامي والعالم الأوروبي من جانب ثالث .

ومما سهل عملية التبادل الداخلي وجود شبكة من الطرق التجارية التي اعتادت القوافل ان تسلكها منذ فترات طويلة خاصة التي كانت تنطلق من مناطق الإنتاج فكانت سجلماسة ترتبط مع وجدة وفاس وتلمسان بطرق تجارية تسلكها القوافل حاملة البضائع من وإلى سجلماسة (١) .

وأهم السلع المتبادلة داخلياً هي : القمح ، والتمور ، والزبيب ، والمنسوجات والمعادن المصنعة ، والخرز ، والملح ، والذهب ، والعنبر ، والصمغ والفواكه .

فكانت سجلماسة على عادتها في الفترات السابقة تصدر إلى جميع أنحاء المغرب الذهب والزبيب ، والقطن ، والحناء ، والتمور (٢) . وتصدر

---

(١) الحبيب الجنحاني : المغرب الإسلامي ، ص ١٧٨ ـ ١٧٩ .

(٢) المرجع السابق نفسه ، ص ١٨١ ؛ الحبيب الجنحاني : الحياة الاقتصادية والاجتماعية في سجلماسة ، مجلة المؤرخ العربي ع٥ ، ص ١٤١ .

أودغشت الصمغ عن طريق سجلماسة إلى الأندلس[1] ، كما كانت أيضاً مركزاً تجارياً هاماً لتجارة الذهب والرقيق والعنبر ، والذهب الابريز الخالص الذي كان يصدر على شكل خيوط مفتولة .

ويظهر أن انوال المرية في عهد علي بن يوسف كانت تستورد هذه الخيوط ـ لادخالها في خيوط منسوجاتها الفاخرة ، وكانت تستورد النحاس المصنوع والثياب[2] .

وكانت تجلب إلى المرية الفواكه من وادي بجانة ، ومن بلاد العدوة[3] ومن نواحي السوس كان يجلب قصب السكر ويباع في المغرب ، وكانت الأندلس في عهد علي بن يوسف تزود المغرب ببعض محصولاتها الزراعية التي كان يأتي على رأسها الفواكه ويشكل خاص التين الذي كان يصدر من مدينة إشبيلية إلى المغرب[4] .

ب ـ التجارة الخارجية :

لقد تضافرت عدة عوامل ساعدت على ازدهار التجارة الخارجية ، فبالإضافة للعوامل التي شجعت التجارة الداخلية ، كان لنمو البحرية المرابطية في عهد علي بن يوسف وسيطرتها على موانىء شرقي الأندلس وجزر البليار دور في تشجيع التجارة الخارجية ، فاستطاع المرابطون ان يحكموا سيطرتهم على الحوض الغربي للبحر المتوسط ، وأصبح الأسطول المرابطي منافساً خطراً للأساطيل النورمانية والايطالية كما ساهمت قوة الدولة وحمايتها للطرق التجارية الداخلية والعالمية في تشجيع الرواج التجاري وزيادة السلع المعروضة في الأسواق[5] .

---

(١) الحبيب الجنحاني : الحياة الاقتصادية والاجتماعية في سجلماسة ، ص ١٤٧ .

(٢) الحبيب الجنحاني : المغرب الإسلامي ، ص ٢٧ .

(٣) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية ، ص ١٦٨ .

(٤) ابن رشد : المصدر السابق ، ج٥ ، ص ٧٩٢ ـ ٧٩٣ .

(٥) حسن محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ٤٠١ .

كما كان لتسامح وعدالة الدولة المرابطية وتخلقها بخلق الاسلام بمعاملة الجميع بالمساواة ، وما شاع عن امرائها من أمانة واستقامة وعدل كل ذلك جعل التجارة يثقون بها ، فأخذوا يجلبون بضائعهم إلى الأندلس والمغرب دون ان يخشوا ظلماً أو عدواناً[1] . فوفد تجار العراق خاصة من البصرة والكوفة ببضائعهم إلى سجلماسة للاتجار[2] ، وأصبحت المرية مرفأ مزدحماً بالسفن القادمة من شرقي البحر الأبيض المتوسط ، ومحطاً لمراكب تجار النصارى القادمين من جنوه ، وبيزة ، والبندقية ، وقطلونية ، وأرغونة حاملين بضائعهم[3] ، والتي كانت تتكون في الغالب من الرقيق ، والفراء ، والقصدير [4] .

وكانت المراكب الشامية والمصرية تقصد موانىء الأندلس ببضائعها المتنوعة[5] ، ولا أدل على ذلك من ذكر بعض المراجع لأسماء بعض التجار الشاميين والمصريين الذين قدموا ببضائعهم الى مدينة المرية ووافاهم الأجل هناك . فيذكر انه في عام ٥١٩هـ / ١١٢٥م توفى تاجر مصري اسمه ابن حليف الأسكندري[6] ، وفي عام ٥٢٥هـ / ١١٣٠م توفي تاجر شامي اسمه أبو عمرو عثمان بن محمد بن بقي الشامي [7] .

ويجب على الباحث خلال حديثه عن العلاقات التجارية للمغرب والأندلس مع المشرق إلا يغفل عن الإشارة إلى قافلة الحج المغربي التي

---

(١) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٤٠٢ .

(٢) ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ، ج١ ، ص ٢٣٧ .

(٣) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية ، ص ٨٩ .

(٤) مارك بلوك : مشكلة الذهب في العصر الوسيط (في كتاب بحوث في التاريخ الاقتصادي ترجمة توفيق اسكندر) ، ص ٨ ـ لومبارد : الذهب الإسلامي منذ القرن الثامن حتى القرن الحادي عشر الميلادي ـ (ضمن كتاب بحوث في التاريخ الاقتصادي ، ترجمة توفيق اسكندر ، ص ٧١ .

(٥) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية ، ص ٨٨ .

(٦) المرجع السابق نفسه ، ص ١٧٠ ؛ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ، ج ٤ ، ص ٤٠٩ .

(٧) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية ، ص ١٧٠ .

كانت عبارة عن مدينة متنقلة اينما نزلت يكون السوق ويحدث التبادل بين الحجاج وأهالي المناطق التي كانوا يمرون بها .

ولا توجد إشارة في المصادر التي بين أيدينا تدل على أن العلاقات التجارية بين المغرب وبلاد السودان قد فترت في عهد علي بن يوسف ، فيبدو أن القوافل المغربية المحملة بالملح لم تنقطع عن الدخول إلى بلاد السودان لتعود محملة بالذهب[1] . ويبدو أيضاً أن تجار أغمات استمروا على عادتهم في العهود السابقة في جلبهم النحاس الملون ، والأكسية ، والزجاج ، والأحجار الكريمة ، والعطور الى بلاد السودان والعودة بالأرياح الوفيرة[2] . ولم تشر المصادر كذلك في هذه الفترة الى ما يعكر صفو العلاقات التجارية بين سجلماسة وبلاد غانة ، ويظهر أن تجار سجلماسة استمروا في تسويق بضائعهم في أسواق غانة والعودة بالتبر والرقيق[3] .

وساعد الرواج التجاري وما صحب ذلك من تكديس السلع التجارية ان أخذت المدن المغربية والأندلسية تكيف وضعها مع هذه النهضة الاقتصادية لتتخذ معظمها سمات العواصم التجارية الكبرى[4] . فقد تعددت أسواقها المتخصصة ، فهناك سوق للكتانيين ، وآخر للبز [5] ، وثالث للدخان ، ورابع للمغازل[6] ، ومن المرجح انه كان للبضائع الأخرى أسواق خاصة بها .

وحتى تحافظ الدولة على الأمن وتمنع استغلال التجار للرعية وضعت

---

(١) الحبيب الجنحاني : المغرب الإسلامي ، ص ٢٥ .

(٢) الحميري : المصدر السابق ، ص ٤٦ .

(٣) الحبيب الجنحاني : الحياة الاقتصادية والاجتماعية في سجلماسة ، ص ١٤٨ ؛ في المغرب الإسلامي ، ص ١٦ .

(٤) لمعرفة سمات المدينة الاسلامية من حيث الشكل والتخطيط وتعدد الأسواق ، انظر : المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ج ٢ ، ص ١٧٨ ، وما بعدها ؛ البغدادي : تاريخ مدينة بغداد ، ج ١ ، ص ١١٣ ـ ١١٤ ؛ صالح العلي : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية لمدينة البصرة في القرن الأول الهجري ؛ سعيد الأفغاني : أسواق العرب في الجاهلية والاسلام ، ص ٤٠٧ .

(٥) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ١ ، ص ١٣٤ .

(٦) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٤٠٢ ، حاشية رقم ٣ .

قائمين على الأسواق لحراستها ومراقبتها (١) .

واستجابت الموانىء المغربية والأندلسية لهذه النهضة الاقتصادية ، فقامت بإنشاء عشرات الفنادق لاستقبال التجار الأوروبيين وبضائعهم ، ومن أشهر الموانىء التي لعبت دوراً رئيسياً في حركة التجارة بين المرابطين وتجار الإفرنج مدينة المرية التي كان يوجد فيها (٩٧٠ فندقاً)(٢) . ومن هذه التجارة الخارجية الواسعة جنى أهل هذه المدينة أموالاً طائلة جعلتهم يتصدرون بقية أهل الأندلس في الثراء(٣) ، في الوقت الذي تصدرت فيه مدينة سجلماسة مدن المغرب في الثراء(٤) .

وحتى تواكب الدولة المرابطية التطور الاقتصادي الهائل قامت بإنشاء عشرات دور الضرب في المدن الرئيسية لتوفير العدد الكافي من النقود التي تتناسب مع حجم التبادل التجاري ، فأنشأت عدة دور ضرب في عهدي يوسف بن تاشفين وولده علي كان من أهمها : دار الضرب في مراكش ، وتلمسان ، وسبتة ، وسجلماسة ، وسلا ، ومرسية ، وشاطبة ، وشريش ، وقرطبة ، وغرناطة ، والمرية ، وبلنسية ، وجيان ، ودانية ، وسرقسطة ، وطنجة وغيرها(٥) .

ولتوفر الذهب والفضة في مناجم المرابطين بكميات كبيرة في عهد يوسف بن تاشفين وعهد ولده علي فقد فاق وزن الدينار المرابطي الوزن الشرعي للدينار في فجر الإسلام ، وكذلك بالنسبة للدرهم المرابطي الذي فاق أيضاً الوزن الشرعي في فجر الإسلام (٦) .

---

(١) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ١ ، ص ١٣٤ .

(٢) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية ، ص ١٦٩ .

(٣) المرجع السابق نفسه ، ص ٨٧ ـ ٨٨ .

(٤) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٤٠٠ .

(٥) عبد رب النبي : المرجع السابق ، ص ٥٩ ـ ٦٠ ؛ محمد باقر الحسيني : الكنى والألقاب على نقود المرابطين والموحدين في شمال افريقيا والأندلس ، مجلة سومر ، مج ٣٠ ، ١٩٧٤م ، ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ .

(٦) تراوحت أوزان الدنانير المرابطية ما بين ٤,٠٥ و ٤,٣٠غم ، بينما بلغ وزن الدينار في فجر الإسلام =

وتحقيقا لمرونة العمليات التجارية قامت دور الضرب بسك أجزاء صغيرة من الدينار والدرهم للوفاء بالدفع وتبرئة الذمة ، فقسم الدينار الى أنصاف وأرباع ، وقسم الدرهم الى وحدات صغيرة أيضاً كان من بينها القيراط (١) . ويبدو انه كان من ضمن هذه الأجزاء في عهد علي بن يوسف القطع الثمنية ، والقطع الثلثية ، وهذا ما تبين من خلال سؤال وجه الى ابن رشد حول فضة القطع الثمنية والقطع الثلثية (٢) .

ولقوة اقتصاد دولة المرابطين خاصة في عهد علي بن يوسف احتفظت السكة المرابطية بقيمة مرتفعة ، وكسبت احترام دول العالمين الإسلامي والأوروبي حتى كاد النقد المرابطي ان يصبح نقداً دولياً . فقد عرفت أسواق القسطنطينية العملة المرابطية (٣) ، كما تدل الكثير من النصوص اللاتينية على أن الأوروبيين كانوا يتعاملون فيما بينهم بالعملة المرابطية التي كانوا يحصلون عليها من بلاد الدولة المرابطية نتيجة لتعاملهم التجاري معها فقد كانوا يصدرون لها الرقيق الأبيض ، والفراء ، والقصدير والحديد ويحصلون منها في المقابل على الذهب (٤) .

٤,٢٥غم . وبلغ وزن الدرهم المرابطي ما بين ٣,٩٢ و ٦,٢٠ غم فضة في الوقت الذي كان فيه وزن الدرهم في فجر الإسلام ٢,٩٧غم .

لمزيد من التفاصيل عن السكة المرابطية ، وما تمتاز به من صفات وما يثبت عليها من عبارات انظر ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤٦ ؛ ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ١ ، ص٤٤٧ ؛ ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص ١٠٩ ؛ السلاوي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٠ ؛ عبد رب النبي : المرجع السابق ، ص ٢٢ ـ ٢٤ ، ٣٠ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٧٠ ، ١٤٢ ـ عبد الرحمن فهمي : موسوعة النقود العربية ، ص١٤٢ ؛ ابراهيم حركات : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٣٠ ـ ٢٣١ .

(١) عبد رب النبي : المرجع السابق ، ص ٣٨ .

(٢) ابن رشد : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩ .

(٣) ابراهيم حركات : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٣١ .

(٤) ومن الأمثلة الدالة على تعامل الأوروبيين فيما بينهم بالعملة المرابطية ان بعض الرهبان فرض على زملائه الذين تصرفوا في ممتلكات الطائفة دون حق غرامة قدرها عشرون مرابطية . ومنها أيضاً انه قبل عام ٥٦٣هـ / ١١٦٧م بقليل تزوج أمير نصراني بفتاة شريفة من بيروت ، ولكي يدبرا أمر معاشهما باع الزوجان لفرسان المعبد أراض كانت لهما في ضواحي مدينة عكا بمبلغ مئتي دينار مرابطية ، كما كانت

ولكن على الرغم من هذه المكانة المرموقة التي احتلتها العملة المرابطية في الأسواق العالمية إلا أن بعض المصادر تشير إلى أن النقود المرابطية بدأت تفقد قيمتها الشرائية بالتدريج في أواخر عهد علي بن يوسف بن تاشفين لانتشار الغش فيها حتى ان قضية المعاملة بالدنانير والدراهم المغشوشة بالنحاس أصبحت من القضايا التي تشغل بال الناس في هذا العهد ، وهذا يتضح من خلال الأسئلة التي كانت تطرح على الفقهاء بهذا الخصوص [1] .

ويبدو أن هذا ناتج عما كانت تعانيه الدولة المرابطية في أيامها الأخيرة من مشاكل داخلية، من ثورات قام بها الأندلسيون، وأخرى قام بها المصامدة

= البابوية تفرض على الأديرة غرامات بالدنانير المرابطية ـ وليس أدل على قوة العملة المرابطية في الأسواق التجارية العالمية حتى بعد سقوط دولة المرابطين اننا نجد ملك قشتالة الفونسو الثامن (٥٥٣ ـ ٦١١هـ / ١١٥٨ ـ ١٢١٤م) يسك عملة تحمل اسمه وانما على نمط السكة المرابطية بعد ان استبدل الآيات القرآنية ، وشهادة الإسلام ، وبقية الألقاب والشعارات المرابطية بشعارات وألقاب نصرانية ، وذلك حتى تحتفظ عملته بما كان للعملة المرابطية من قوة التعامل في الأسواق التجارية لا سيما الأسواق الأوروبية وقد استطاعت هذه العملة القشتالية ان تحتفظ في أسواق أوروبا في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي بقوتها لدرجة ان الفرنسيين ظلوا يسمون الدنانير القشتالية بالدنانير المرابطية اي المرابوتا (Marabotins)ـ انظر عبد رب النبي : المرجع السابق ، ص ٧٧ ؛ فيليب حتي : تاريخ العرب مطول ، ج ٢ ، ص ٦٤٥ ؛ مارك بلوك : مشكلة الذهب في العصر الوسيط (في كتاب بحوث في التاريخ الاقتصادي) ، ص ٤ ـ ٥ . ومن الأمثلة الأخرى أيضاً على قوة العملة المرابطية ان كونت برودانس في عام ١١٦١م وعد ان يدفع للامبراطور ١٢,٠٠٠ Marabotins (أي دينار مرابطي) . لا بل ان الدنانير المرابطية ذاتها جرى تداولها في أوروبا الغربية فقد عثر على دنانير مرابطية في دفائن في دير Del Camp جنوب مدينة طولوز ، وفي فيرنو (Vernoux) ، وفي سانت رومان ، لا بل ان سمعة العملة المرابطية تعدت أوروبا الى الصين وهذا ما أكدته وثيقة صينية تعود الى عام ١١٨٧م . ومن الجدير بالذكر ان موزمبيق اتخذت في منتصف يونيو ١٩٨٠م عملة جديدة بدلاً من عملة ايسكودو البرتغالية ، وتعرف العملة الجديدة باسم Metical وهو اسم عرف عن (مثقال) الدينار المرابطي الذي ذاع تداوله في اسبانيا حتى القرن السادس عشر الميلادي ، أي حين بدأ استعمار البرتغال لموزمبيق . انظر : أمين توفيق الطيبي : النقود العربية غزت أوروبا القرون الوسطى ، مجلة العربي ، ع ٢٧٦ ، نوفمبر ١٩٨١م ، ص ١١٢ ـ ١١٣ .

(١) ابن رشد : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩ .

بقيادة المهدي بن تومرت ، إضافة لغزوات الأسبان النصارى المتكررة للأندلس الإسلامي الأمر الذي ترتب عليه إنعدام الأمن ، والذي كان له اسوأ الأثر على حركة التجارة والصناعة والزراعة وأدى الى حرمان الرعية والدولة على حد سواء من تلك الأموال الضخمة التي كانت تحصل عليها من جراءالرواج التجاري مما دفع بعض الأفراد إلى استغلال هذه الفرصة فأخذوا يتلاعبون بالعملة عن طريق غشها بالنحاس وتشير بعض المراجع إلى أن الدولة نفسها عندما قل احتياطيها من الذهب الخالص قامت بسك عملة نحاسية لتسديد نفقات تجهيز الجيوش ودفع مرتبات الجند [1] .

٣ ـ الصناعـة :

ولم تكن الصناعة أقل تقدماً وازدهاراً من الزراعة والتجارة فقد راجت صناعات مختلفة في عهد علي بن يوسف كان من أهمها الصناعات النسيجية ، والورقية ، وصناعة الزجاج والصابون .

أما صناعة المنسوجات فقد اشتهرت بها مدينة المرية ذات الشهرة القديمة في هذا الحقل ، إذ كانت أنوالها تنتج ثمانمائة طراز من الحرير تصنع منها الملابس الفاخرة التي كان يدخل في بعض خيوطها في بعض الأحيان خيوط ذهبية ، وكان يضاف إلى ذلك زخارف متنوعة باهظة التكاليف ، ولم تجد مصانع النسيج في هذه المدينة ضيراً في تقليد بعض الطرز المشهورة في المشرق ، فأخذت تنتج الأصبهاني والجرجاني ، كما اخذت أيضاً تقلد بعض المنسوجات اليونانية القديمة مثل السقلاطون الذي كان ينسج من الحرير المطرز بالذهب [2] .

ولم يستطع نصارى الشمال الأسباني مقاومة إغراء الملابس الحريرية المرابطية فأقبلوا على شرائها والتباهي بارتدائها في الاحتفالات الرسمية . فقد

---

(١) عبد رب النبي : المرجع السابق ، ص ٣٩ .

(٢) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية ، ص ١٥٦ ـ ١٥٨ ؛ عبد الرحمن الحجي : التاريخ الاندلسي ، ص ٤٥٠ .

كان القديس خوان دي أوتيجا يرتدي ثوباً عليه طراز علي بن يوسف بن تاشفين في الاحتفالات الدينية ، والثوب لا يزال محفوظاً في كنيسة كنيتا أورتونيو (برغش) . وهناك مجموعة من المنسوجات التي صنعت في عهد الدولة المرابطية محفوظة بكاتدرائية شلنقة وشغونة (١) . ويحتفظ متحف فينا أيضاً بعباءة نسجت في صقلية للملك روجر الثاني في عام ٥٢٨هـ / ١١٣٤م تظهر عليها المؤثرات العربية بوضوح ويرجح ان هذه المؤثرات تسربت عن طريق الأندلس ، فزخارفها مشتقة من الزخارف العربية فضلاً عن انه نسجت عليها كتابة باللغة العربية ، وسجل فيها تاريخها الهجري ، وعبارات التبجيل والدعاء وفقاً للتقاليد الإسلامية (٢) .

وازدهرت صناعة الورق إزدهاراً فائقاً خاصة في مدينة شاطبة التي كانت مصانعها تنتج أفضل أنواع الورق الذي لا يباريه نوع (٣) . أما مدينة فاس فكانت مصانعها تنتج الورق ولكنه لم يكن بشهرة الورق الشاطبي (٤) .

وكذلك ازدهرت صناعة تجليد الكتب المطلية بالذهب ، والكتابة على

---

(١) بالباس : الفن المرابطي والموحدي ، ص ٦٢ ـ ٦٣ .

(٢) احمد فكري : العمارة والتحف الفنية (في كتاب اثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية) ، ص ٤٤٤ .

(٣) أحمد مختار العبادي : الحياة الاقتصادية في المدينة الاسلامية ، مجلة عالم الفكر، مج ١١ ، ع ١ ، ابريل ـ مايو ـ يونيو ١٩٨٠م ، ص ١٥٣ .

(٤) ابراهيم حركات : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٣٨ ـ ومما يستحب ان يلفت النظر اليه انه بينما كان المغرب والأندلس في هذا التاريخ يشهد نهضة صناعية رائعة خاصة في مجال الصناعات الورقية منها كانت أوروبا كلها بدون استثناء ليس بها مصنع واحد للورق وانما دخلت اليها هذه الصناعة بعد هذا الوقت بزمن . فيرجع عهد ايطاليا بالورق الى أواخر القرن الثالث عشر الميلادي وفي عام ١٣٩٠م انشيء مصنع للورقة بمدينة نور مبيرغ بالمانيا ، أما فرنسا فأقدم المصانع فيها يعود الى منتصف القرن الرابع عشر الميلادي ، وبدأ أول مصنع للورق انتاجه في انجلترا في عام ١٥٨٨م ، في حين ان صناعة الورق وصلت الى القمة في العهدين المرابطي والموحدي . فيذكر انه كان في مدينة فاس وحدها ٤٠٠ مصنع للورق أيام المنصور والناصر الموحدين (٥٨٠ ـ ٦١٠ هـ / ١١٨٤ ـ ١٢١٣ م) ـ انظر المنوني : العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين ، ص ٢٥٦ .

الجلد وخاصة بأداة محماه . وهناك دليل دافع يؤكد على اسبقية المسلمين على أوروبا في هذا الفن إذ يظهر أول ذكر لعملية تذهيب من هذا النوع في كتاب مغربي يعود الى عهد الدولة المرابطية يتناول فنون صناعة الكتب ، وقد ألف في الفترة الواقعة بين سنتي (٤٥٤ و٥٠٢هـ / ١٠٦٢ و١١٠٨م) في حين نجد أقدم استعمال غربي لهذا الفن كان في ايطاليا ويعود تاريخه الى عام ٨٦٣هـ / ١٤٥٩م [١] .

أمّا صناعة الصابون والزجاج فقد اشتهرت بهما مدينتا مراكش وفاس [٢] ، وكذلك راجت الصناعات النحاسية والحديدية في مدينة المرية [٣] .

٤ ـ موارد بيت المال :

لقد اقتصرت موارد بيت المال في عهد دولة المرابطين على الزكوات والأعشار ، وأخماس الغنائم ، وجزية أهل الذمة ، ومع ذلك كانت موارد الدولة من هذه الموارد عظيمة . وقد كلف أهل الذمة بجمع هذه الموارد المالية في عهدي يوسف بن تاشفين وابنه علي [٤] . فعهد المرابطون الى اليهود في الأندلس بأعمال الجباية ، كما جعلوا أعمال الجباية في المغرب للنصارى المقيمين في البلاد [٥] . ويبدو أن استخدام أهل الذمة في أعمال الجباية يعود لما كانوا يتمتعون به من خبرة ودراية في هذا المجال .

---

(١) شاخت وبوزورث : تراث الإسلام ، ق ٢ ، ص ١٢٧ ـ ١٢٨ ، (نشر ضمن سلسلة عالم المعرفة ، ذو القعدة / ذو الحجة ١٣٩٨هـ .

(٢) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٤٠٦ ، ابراهيم حركات : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٣٨ .

(٣) عبد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ، ص ٤٥٠ ؛ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية ، ص ٨٩ ؛ حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٤٠٦ ؛ ابراهيم حركات : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٣٨ .

(٤) السلاوي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٩ ؛ ابراهيم حركات : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ .

(٥) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٤١٠ ـ ٤١١ .

ولم يغفل المرابطون في عهد علي بن يوسف عن مراقبة ومحاسبة القائمين على أعمال الجبايات ، فكانوا يراقبونهم مراقبة الفاحص المدقق المتشدد ويحاسبونهم حساباً عسيراً ، ويعملون على معاقبة المقصر ، وحتى إذا عزل عامل الجبايات لم يكن يسلم من المحاسبة ، بل كان عرضة للسجن ومصادرة أمواله إذا رأوا منه تفريطاً أو تقصيراً. وإذا قصى عامل الجبايات نحبه وهو على رأس عمله كان يلجأ المرابطون الى محاسبة الورثة ويثقلون عليهم ويصادرون تركة المتوفي إذا لزم الأمر. ويظهر أن هذا الخوف من الحساب العسير هو الذي دفع عامل الخراج في مدينة قرطبة حين حضرته الوفاة الى أن يحضر ما كان عنده من مال ويشهد الحاضرين على دفعه ، ثم أبرأ ذمة جميع عماله وكتابه لأنه خشي أن يصيب ورثته مكروه اذا مات دون أن يبرىء ذمته [1].

وكانت الدولة المرابطية في عهد علي بن يوسف تلجأ في بعض الأحيان الى جباية ضرائب إضافة تقتضيها الحال الراهنة كما حدث عندما جاز ابن رشد الى مراكش وأصدر فتواه بتغريب النصارى والعمل على التعتيب ، ففرض في عام ٥٢٠ هـ / ١١٢٦م ما يسمى بضريبة التعتيب على أصحاب البيوت ويبدو أن بعض الولاة قد تشددوا في تحصيل هذه الضريبة من بعض المدن مما دفع الرعية الى التذمير وعدم الإخلاص في العمل[2].

وفي أواخر عهد علي بن يوسف فرضت مكوس على أكثر الصناعات والسلع التي كانت تباع في مراكش من صابون ، ومغازل ، ودخان ، وكانت المكوس على كل شيء يباع دق او جل كل حسب قيمته [3].

فيبدو أن اضطراب الأحوال الداخلية والخارجية في أواخر عهد علي بن

---

(١) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٤٠٦ ـ ٤٠٧ .
(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٧٣ ـ ٧٤ .
(٣) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٤٠٦ ـ ٤٠٧ ؛ محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ١ ، ص ٤٢١ .

يوسف وما نتج عن ذلك من اضطراب للأحوال الاقتصادية وفراغ الخزينة المرابطية من الأموال التي تحتاج اليها لمواجهة الظروف الصعبة التي تمر بها الدولة هو الذي اضطر علي بن يوسف لاتخاذ مثل هذا الإجراء [١] .

الحياة الاجتماعية

لقد كان من نتائج سيادة الدولة المرابطية على الأندلس دخول عناصر جديدة الى المجتمع المرابطي لها عاداتها وتقاليدها الخاصة بها . وكما هو معروف ان الشعوب الأقل تحضراً إذا انتصرت عسكرياً على شعوب أكثر منها تحضراً لا تلبث ان تأخذ عنها مظاهر حضارتها وبخاصة ما كان يتصل منها بحياة الترف والبذخ . وهذا ما حدث بالفعل بالنسبة للمرابطين الذين تمكنوا من فرض سيطرتهم على الأندلس الذي كان يتقدم في ذلك العصر على المغرب في مجال الحضارة ، فما هي إلّا برهة من الزمن حتى أخذ حكام لمتونة يفتنون بما وصل إليه ذلك القطر من حياة ترف وبذخ ، فأخذوا يقلدونهم في حياتهم الباذخة تلك .

فقد كانت لمتونة تمتاز بما يمتاز به البدو من قيم وعادات نبيلة من شهامة وشجاعة وصبر على الظروف البيئية ، القاسية ، ومقارعة الأعداء معتمدين في

---

(١) هناك بعض القواعد الفقهية التي يستند إليها الفقهاء لحل ما يعترضهم من المشكلات ، ومن تلك القواعد مثلاً رأيهم بأن : « ما لا يتم الواجب الا به فهو واجب » ، فواجب الدولة حماية البلاد وواجب الأفراد المساهمة في ذلك . فإذا لم يفعل الأفراد ما وجب عليهم ، فانه يجب على الدولة ان تحصل منهم ما يكفي لحماية البلاد من الأخطار ، وبذلك تستطيع الدولة ان تؤدي واجبها . وكذلك قولهم بأنه : « يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام » فإذا أحاطت الأخطار بالبلاد ، وهددتها وأمكن تلافي هذا الضرر العام بأخذ جزء من أموال الناس جاز لولي الأمر ذلك حتى لو ترتب عليه ضرر بأصحاب الأموال .
فربما أن الفقهاء في عهد علي بن يوسف قد اعتمدوا على هذه القواعد عندما أشاروا عليه بفرض جبايات إضافية (انظر ضيف الله يحيى الزهراني : موارد بيت المال في العراق خلال العصر العباسي الأول ، ص ٣٨ ـ ٣٩ ـ رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الحضارة والنظم الإسلامية ـ جامعة الملك عبد العزيز ـ مكة المكرمة ، ١٩٨١م ، مطبوعة على آلة كاتبة) .

حياتهم تلك على الإبل فمنها ركوبتهم ، وطعامهم وكساؤهم . ولكن هذه الخشونة ما لبثت أن تلاشت شيئاً فشيئاً حتى اختفت كلياً في عهد علي بن يوسف بن تاشفين حيث أقبل المرابطون على بناء القصور والعمائر الفخمة مقلدين بذلك أهل الأندلس في طريقة معيشتهم فغلب عليهم طابع البذخ والإسراف ، وهذا الذي اتضح من خلال مخلفاتهم الأثرية والتي سنعرض لها في الفصل الأخير .

وقد تمتعت المرأة بمكانة مرموقة في عهد علي بن يوسف ، فكانت مكرمة الجانب تتمتع بقسط وافر من السلطة والنفود ، واقتناء الثروة ، بل إننا نلمح كثيراً من أسماء مشاهير قادة أمير المسلمين علي بن يوسف ينتسبون إلى أمهاتهم أمثال ابن غانية ، وابن فاطمة ، وابن عائشة . . الخ [1] .

ومن الأمثلة الدالة على قوة نفوذ النساء في هذا العهد خضوع أمير المسلمين علي بن يوسف لضغوط زوجته قمر في تعيين ولده سير ولياً للعهد على الرغم من وجود من هو أكبر وأجدر منه بهذا المنصب [2] .

ويلغ من قوة نفوذ بعض الأميرات المرابطيات في عهد علي بن يوسف أن أصبحن مقصد الشعراء يمتدحونهن بعيون القصائد ويتقربون اليهن ، كما جاء الى أعتابهن أصحاب الحاجات يطلبون العون والشفاعات ، وممن قصدهن للشفاعة الشاعر المشهور ابن خفاجة الذي كتب الى الأميرة مريم بنت إبراهيم يستشفع بها إلى الأمير أبي طاهر تميم بن يوسف [3] .

---

(١) عبد الحق حموش : ابن تاشفين ، ص ٩ ؛ محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ١ ، ص ١٤٩ .

(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٧٨ ، ٩٧ ، ١٠١ - (أولاد علي بن يوسف هم : عمر الصغير ، وأبو بكر ويدعى بيكور ، وأبو عمر الكبير ، وابراهيم ، واسحاق ، وتميم ، وداود ، وسير انظر الحميدي : جذوة الاقتباس، ج٢، ص ٤٥٩ - ٤٦٠ ؛ ابن أبي زرع : المصدر السابق ص ١٥٧؛ مؤلف مجهول : المصدر السابق، ص ٨٤ ؛ ابن عذارى: المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٠٠ - ١٠١ ؛ محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ١ ص ٥٨ .

(٣) حسن محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ٤١٦ .

ولم تقف المرأة في عهد علي بن يوسف موقف المتفرج من تلك التطورات التي طرأت على الدولة وبخاصة في مجال النهضة العلمية . فقد كانت تميمة بنت يوسف بن تاشفين تطلب العلم وتحفظ الشعر ، وتتخذ الموكلين والكتّاب ، وتبرز إليهم وتحاسبهم دون أن تجد في ذلك حرجاً (١) .

وكانت هذه المشاركة من جانب النساء في الحياة العلمية تحدث دون أي معارضة من رجال الدولة في عهد علي بن يوسف .

وكانت نساء الطبقات العليا في المجتمع المرابطي لا يتزوجن إلا من مستوى طبقاتهن من أبناء عشيرتهن ، وهذا يتضح من خلال رواية مفادها ان كاتباً دخل على إحدى بنات أمير المسلمين ، وكانت سافرة على عادة لمتونة ، فظل يلحظها طويلاً مندهشاً من روعة ما يرى من جمال آخاذ فظنت أنه يرغب في زواجها فأنشدت :

هي الشمس مسكنها في السما
فعـز الفؤاد عـزاء جميـلا
فلن تستـطيـع إليهـا الصعـود
ولن تستطيع إليك النزولا (٢)

وترفعت النساء المرابطيات ذوات الشأن عن أعمال البيت ، وتركن القيام بها للعبيد (٣) ، بينما كن في سابق عهدهن قبل قيام دولة المرابطين يرعين الإبل والغنم ويربين الأولاد ويحكن الثياب (٤) . ولكن على الرغم من هذه الحياة المترفة التي كانت تحياها المرأة في عهد علي بن يوسف فانها لم تتخلف عن تلبية نداء الواجب عندما كان يطلب منها ذلك ، فنجدها تحمل

(١) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٤١٦ .
(٢) ابراهيم حركات : المرجع السابق ، ج . ، ص ٢٣٥ .
(٣) عبد الحق حموش : المرجع السابق ، ص ٩ .
(٤) عبد الله علام : المرجع السابق ، ص ٢٤٣ ، حاشية رقم ١ .

السلاح عندما هدد المصامدة مدينة مراكش ، ولم يدخل عبد المؤمن هذه المدينة إلا على جثة الأميرة فانو بنت الوزير عمر بن ينتان التي قاتلت المصامدة بحد السيف حتى استشهدت [١] .

وكان من عادة لمتونة أن النساء يكشفن وجوههن وأن يتلثم الرجال [٢] ، وكان النبلاء يتخذون لثاماً مغايراً للثام العبيد [٣] ، كما كانوا يلبسون الثياب البيضاء [٤] .

أما بالنسبة لوضع العلماء في عهد علي بن يوسف فقد تمتعوا بمكانة مرموقة ، فقد كان لا يصدر أي حكم إلاّ عن طريق فتوى شرعية من الفقهاء . ومن الأمثلة الدالة على ذلك أخذ أمير المسلمين علي بفتوى ابن حمدين في إحراق كتاب إحياء علوم الدين [٥] ، وبفتوى ابن رشد في تغريب النصارى الذين تعاونوا مع الفونسو المحارب عام ٥١٩هـ / ١١٢٦م إلى المغرب ، وكذلك أخذ بفتواه بواجب الاعتناء بالأسوار والحصون في المغرب والأندلس ، وبوجوب عزل أخيه تميم عن ولاية الأندلس [٦] .

وعومل أهل الذمة في عهد علي بن يوسف وفقاً لتعاليم الكتاب والسنة . ولم يكن المرابطون بتلك الغلظة التي وصفهم بها خصومهم في معاملة أهل الذمة ، إذ أشركهم علي بن يوسف في الجيش ، وعينهم على الجبايات [٧] . بل تعدى الأمر الى أن وصل بعضهم الى مركز القيادة في الجيش مثل الربرتير

---

(١) ابراهيم حركات : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٣٥ .

(٢) المراكشي : المعجب ، ص ٢٥٢ ، حاشية رقم ١ ؛ ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٤٦٨ .

(٣) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٥١ .

(٤) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ١ ، ص ٦٦ ، حاشية رقم ٢ .

(٥) انظر الفصل الخاص بالحياة الفكرية .

(٦) محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ١ ، ص ٤١٦ ، انظر الباب الثالث .

(٧) ابراهيم حركات : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٣٢ ؛ محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ق ١ ، ص ٤٢١ .

الذي ابلى بلاء حسناً في الذود عن حياض دولة المرابطين في هذا العهد مما جعل شهرته تطبق الآفاق [1] .

ولم يجد أمير المسلمين علي بن يوسف ، وأعيان بلاطه ضيراً في الزواج من نصرانيات ، فتزوج علي بن يوسف من جارية نصرانية [2] ، وكان أمير المسلمين علي لا يبالي في إنزال أشد العقوبات على الوالي الذي يثبت لديه بأنه قام بإيذاء المعاهدة [3] .

وعلى الرغم من هذه المعاملة المتسامحة مع النصارى في المغرب والأندلس إلا أنهم لم يفتأوا أن أخذوا يتآمرون على المسلمين وذلك بتعاملهم مع نصارى الشمال الأسباني ، وأصبحوا عيوناً لهم على المسلمين يبذلون لهم أقصى مساعدة يستطيعون تقديمها لهم عند خروجهم في غزوات مخربة في أرض المسلمين [4] . وقد اتضح ذلك بشكل جلي في غزوة الفونسو المحارب للأندلس عام ٥١٩هـ / ١١٢٥م ، وترتب عليه كما تقدم تغريب المشتركين في تلك المؤامرة إلى أرض العدوة بفتوى ابن رشد . ولم يكن ذلك التغريب بالعقوبة القاسية إذا ما قيست بما كان سينتج عن مؤامرتهم لو قدر لألفونسو المحارب دخول غرناطة ، بل اننا رأينا المعاهدين الذين غربوا إلى المغرب لم يسجنوا وينكل بهم جزاء خيانتهم بل اشتركوا في الحرس الخاص للأمير علي وعمل قسم منهم في الجيش ، وآخر في الجباية ، ولم يهضم حق من حقوقهم ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى ما كانت تتمتع به الدولة المرابطية من روح المسامحة معهم .

وبصفة عامة عامل المرابطون اليهود الذين يتركزون في المنطقة الممتدة

---

(١) ابن الأبار : الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ١٩٣ - ١٩٤ .

(٢) ابن القاضي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٦٠ ؛ ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٥٧ ؛ ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٧٨ ، ٩٧ .

(٣) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٧٨ .

(٤) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٤١٧ - ٤١٨ .

من سلا في أقصى المغرب وحتى تاهرت في أدناه [١] ، وبشكل خاص في مدينة أغمات هيلانة معاملة حسنة [٢] . وليس أدل على ذلك من أنه عندما عزم أمير المسلمين علي بن يوسف على توسعة مسجد القرويين قام قاضية ابن معيشة بشراء بيوت اليهود المجاورة للمسجد والتي تدخل ضمن التوسعة بأثمانها دون بخس [٣] . أما في الأندلس فكما هو معروف فإن وجودهم كان يتمركز في المدن الرئيسية وبشكل خاص في غرناطة التي كانت تسمى مدينة اليهود [٤] ، وقد عاملهم المرابطون أيضاً معاملة حسنة وأوكلوا إليهم أمور الجباية في الأندلس [٥] ، وسمحوا لهم بإقامة شعائرهم بكل حرية [٦] ، بل ان أحدهم كان كاتباً لوالي غرناطة أبي عمر يناله [٧] .

ولكن المستشرق كارل بروكلمان [٨] ينقل لنا صورة مغايرة لتلك الصورة التي قدمت فيذكر أن اليهود كانوا يشترون حرية العبادة بجزية ثقيلة في حين آثر غيرهم الهجرة كما فعل والد الفيلسوف ابن ميمون ، وان النصارى المستعربة كانوا في حالة أمر من حالة اليهود ، ولذلك رحبوا بالغارات المتكررة التي كان أمراء النصارى يقومون بها على الديار الإسلامية في الأندلس [٩] .

وقد شجع الرخاء الاقتصادي في دولة المرابطين الحكام والرعية على

(١) آرثر كوستلر : أمبراطورية الخزر وميراثها ، ص ٢٧٢ .

(٢) أحمد مختار العبادي : دراسة حول كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، مجلة تطوان ، ع ٥ ، ١٩٦٠م ، ص ١٤٤ ، حاشية .

(٣) ابن القاضي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٦٨ - ٦٩ .

(٤) الحميري : المصدر السابق ، ص ٤٥ .

(٥) حسن محمود : المرجع السابق ، ٤١٠ - ٤١١ .

(٦) ابراهيم حركات : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٣٢ - ٢٣٣ .

(٧) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٧٧ .

(٨) تاريخ الشعوب الإسلامية ، ج ٢ ، ص ١٨٨ - ١٨٩ .

(٩) يبدو ان بروكلمان متأثر برأيه هذا بالدعاية الصهيونية في العصر الحاضر ، وما تروجه عن معاناة اليهود في مختلف أنحاء العالم، وفي مختلف حقب التاريخ من ظلم واضطهاد. ويظهر أنه اتخذ من بعض إجراءات الدولة المرابطية التي كانت تقضي بمنع اليهود من دخول مدينة مراكش ليلاً وتحريم المبيت عليهم فيها ركيزة لذلك الاتهام ، الا أن الباحث لا يجد في هذه الإجراءات اجحافاً بحق اليهود لأنهم كانوا يعيشون

حد سواء على جلب الرقيق الى المغرب والأندلس لاستخدامهم في مجالات متعددة من الخدمة في المنازل ، أو في الجيش ، أو في أي أعمال أخرى يريدها السيد [1] .

وقد انصهرت تلك العناصر في المجتمع المرابطي اما عن طريق المصاهرة او المجاورة او المعاشرة ، فحدث تزاوج بين ثقافات هذه العناصر نتج عنه طابع حضاري فريد .

كما انعكس الرخاء الاقتصادي على حياة المجتمع المرابطي في عهد عليٍ بن يوسف في المأكل والملبس . فقد تفنن المرابطون في اعداد موائدهم ، وتأنق الرجال والنساء في ملابسهم ، فارتدت النساء الملابس الحريرية الفاخرة المطرزة بالذهب في بعض الأحيان [2] . وكان علية القوم من

شبه منعزلين عن العناصر الإسلامية في المغرب فغلب عليهم طابع الإنزواء والتآلف فيما بينهم ، عاملين جهدهم على احتكار التجارة والزراعة بشتى الطرق المشروعة وغير المشروعة حتى نجحوا في ذلك ، ومن أمثلة ذلك امتلاكهم لبساتين أغمات . هذا إضافة لما كانوا يقومون به من احاكة للدسائس والمؤامرات ، وتعاملهم مع النصارى ضد المسلمون ، فكانت هذه التصرفات وغيرها مجلبة لنقمة الرعية المسلمة عليهم والتي أخذت تنظر إليهم نظرة ازدراء واحتقار ، إلا أن هذه النظرة لم تكن مبرراً لظلمهم وحرمانهم من حقوقهم إذ لم يرد في المصادر التي بين أيدينا أية إشارة لاضطهاد اليهود من قبل المرابطين في عهد علي بن يوسف . أجل لقد كانت نفسيات اليهود والنصارى المجبولة على الحقد والكراهية للمسلمين تقوي عدوانيتها خلال فترات الحكم المتسامحة ، وهذا ما لاحظه المستشرق أوليري حين قال : (ان النظام الإداري للدولة الإسلامية قد أمد بعض أهل الذمة بفرص أظهروا فيها مدى ما انطوت عليه نفوسهم من الظلم والخيانة ، وهي تلك الأخلاق التي لم يستطيعوا كبح جماحها) . وقد اوضح رب العزة هذه الحقيقة حين قال : ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدي الله هو الهدي ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير﴾ . (البقرة ، آية ١١٩) ـ انظر سعيد عاشور : بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ، ص ٩٩ ـ أحمد مختار العبادي : دراسة حول كتاب الحلل الموشية ، ص ١٤٤ ؛ حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٢١٨ ـ ٢٢٠ ؛ إبراهيم حركات : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣ ؛ أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٣٢٠ ، حاشية رقم ٣ .

(١) انظر الفصل الخاص بنظم الحكم والإدارة .

(٢) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية ، ص ١٥٦ ـ ١٥٩ ؛ ابراهيم حركات : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٣٦ .

المرابطين يتخذون اللثم السوداء ، بينما كانت الطبقة الدنيا تتلثم باللثم البيضاء . أما عامة الناس من غير المرابطين سواء في المغرب او الأندلس فلم يكن لباسهم يختلف عن اللباس التقليدي الذي كان شائعاً . وكانت السمة العامة التي تغلب على الأزياء في ذلك العصر هي السعة المفرطة [١] .

ومن أنواع الأطعمة المشهورة في عهد علي بن يوسف وفي العهود السابقة المجبنات ، وهي نوع من أنواع القطائف يضاف اليها الجبن في عجينها ، وتقلى بالزيت الطيب . وقد اشتهرت مدينة شريش بهذا النوع من الأطعمة ، وكان أهل الأندلس يقولون من دخل شريش ولم يأكل بها المجبنات فهو محروم [٢] ، وقد مدح الشعراء هذا الصنف من الأطعمة فقال عبد الرحمن السّهيلي المتوفى عام ٥٨١هـ فيها :

أذكى من المِسك العتيق لنا
نَشْقاً وألذُّ من صباً حين تُدار
وكأنّ من صافي اللُّجين بطونها
وكأنّما ألسوانهن نضار [٣]

ومن دلائل الرخاء الاقتصادي الذي كان ينعم به المجتمع المرابطي في عهد علي بن يوسف استعمال بعض الفئات الثرية منه للسباني ، وهي عبارة عن مناديل كبيرة تستعمل أثناء الطعام . وكانت أثمن أنواع السباني تتخذ من رفيع القطن والكتان [٤] .

---

(١) ابن خاقان : المصدر السابق ، ص ٢٦٦ ؛ المقري : المصدر السابق ج١ ، ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨ ؛ ابراهيم حركات : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٣٦ .

(٢) ابن الأبار : الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ٢٩١ ، حاشية رقم ٤ ؛ المقري : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٧٢ .

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج ٣ ، ص ٤٨١ .

(٤) ابن الأبار : الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ١٨٥ ، وانظر الحاشية أيضاً .

واذا القينا نظرة سريعة على الأحوال الاجتماعية في الدولة المرابطية في أواخر أيام علي بن يوسف ، لرأينا صورة غير مشرفة فنجد حوانيت عديدة من ضمن معروضاتها أدوات اللهو والغناء [١] ، كما نجد انتشار بعض المفاسد التي لا يقرها الشرع [٢] . فقد أخذ الراعي والرعية يعيشون حياة باذخة أدت الى المجون والإسراف في تعاطي الملذات . فأمراء المرابطين قلدوا أهل الأندلس في الأخذ بأسباب الحياة المترفة والمسرفة في المجون واللذات ، وفي تزيين مجالسهم بما يمحو بساطة الصحراء . كما قوى المرابطون عند الأندلسيين احترام المرأة فأنشدت القصائد في مدحها[٣]، وظهرت المرأة على مسرح الحياة باعتبارها عضو فعال في مختلف مجالات الحياة حتى أن الشاعرة نزهون بنت القلاعي كانت تجتمع مع الشعراء في عهد علي بن يوسف ، وكانت لها مساجلات مع الزجال المشهور ابن قزمان [٤] . وهذا مغاير لما عرفناه عن المرأة المرابطية المحتشمة ودليل على أن الدولة بدأت تدخل في دورها الثاني ، دور الضعف والسقوط ، الا أننا يجب ان لا نسلم بكل ما يذكر عن دور النساء في إفساد الدولة المرابطية وتسلطهن على كل شيء لأن ذلك لا يتفق مع سير الأحداث التي رأيناها من استمرار حركة الجهاد ضد النصارى ومحاولاتهم الجادة في المحافظة على الأمن الداخلي واستمرار النهضة الحضارية في مختلف مجالاتها حتى سقوط دولة المرابطين . فلو أن الأمور وصلت الى ما وصلت اليه كما يصورها المراكشي مثلاً لكانت الدولة قد سقطت منذ زمن طويل ولم تستطع الصمود إلى سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م . وهي السنة التي سقطت فيها ، فالمراكشي يقول بالحرف الواحد : « واستولى النساء على الأموال وأسندت إليهن الأمور وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة

---

(١) البيذق : أخبار المهدي بن تومرت ، ص ٦٤ - ٦٥ ؛ الحسن السائح : الحضارة المغربية عبر التاريخ ، ج ١ ، ص ١٦٩ .

(٢) البيذق : أخبار المهدي بن تومرت ، ص ٣٦ - ٣٧ ؛ ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ج ٢ ، ص ٦٢ .

(٣) احسان عباس : المرجع السابق ، ص ٣١ .

(٤) ابن سعيد : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٢١ .

مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور . . . » [1] .

الا اننا لا ننكر أن النساء قد لعبن دوراً في الحياة السياسية في بعض فترات حكم علي بن يوسف . فقد رأينا كيف خضع لضغوط زوجته قمر في اختيار ولده سير لولاية عهده وهناك من هو أفضل منه بين أخوته ، وكيف ألحت عليه بعد وفاة سير من أجل اختيار ولده الصغير إسحق بدلاً من تاشفين لولاية عهده خلفاً لسير [2] وباستثناء هذه الإشارة لا نجد للنساء ذلك التأثير الخطير في سياسة الدولة علماً بأن تقاليد لمتونة منذ القدم قد حفظت للمرأة مكانة مرموقة .

وهكذا قامت دولة المرابطين في بداية أمرها على تعاليم عبد الله بن ياسين القائمة على تعاليم الإسلام النقية فحملها رجال لمتونة ونشروها في معظم أرجاء المغرب ثم ما لبثوا بعد فترة وجيزة أن دخلت خيولهم أرض الأندلس . ولكن هؤلاء الجند العتاة ما لبثوا أن ضعفوا أمام مغريات الحياة الأندلسية فاندفعوا الى حياة الترف وأخذوا يفقدون خشونة الجندية ، وأخذت تخبو روح القتال في نفوسهم على مرّ الزمن حتى رأيناهم في نهاية الأمر يرتعون في أحضان مجتمع باذخ مترف متناسين رسالتهم التي من أجلها جاءوا الى الأندلس . ومن ثم كان عجزهم عن صد زحف نصارى الإسبان الذين نجحوا في التهام رقعة واسعة من الأندلس ، كما تعاظم عليهم خطر المصامدة في المغرب الذين نجحوا في نهاية الأمر في القضاء على دولة المرابطين وهي ما تزال في مقتبل العمر .

(1) المعجب ، ص ٢٤١ .

(2) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٧٨ ، ٩٧ ، ١٠١ .

الفصـل الثالث

الحركـة الفكريـة

لقد رسم بعض الباحثين المحدثين صورة قاتمة للحياة الفكرية في عهد المرابطين ، مؤكدين على أن نهاية عصر الطوائف هو نهاية للتقدم والازدهار في المغرب والأندلس ، فبقيام دولة المرابطين دالت دولة الأدب ، وخبت شعلة العلم لإهمال المرابطين للعلماء والأدباء .

وينقل عباس الجراري[1] عن المستشرق دوزي قوله : [(بأن المرابطين كانوا بدواً اجلافاً لا يعرفون لرغد الحضارة قيمة ، فحاربوا أهل الفكر ، وأصبح كبار العلماء ألعوبة بأيدي الفقهاء المتعصبين ، والقواد الجفاة فحلت الهمجية محل التقدم وتلاشت كل الأصوات التي تتغنى بالشعر والأدب ، وفنون العلم الأخرى أمام صليل السيوف وأصوات الفقهاء)] .

أما المستشرق اشباخ فيؤكد أيضاً على أن المرابطين اضطهدوا كل ما عنيت به الدولة العربية من قبل ، وأن دولتهم كانت كريح الصحراء اللافح حين يهب على المروج الخضراء ، وانهم عملوا على تحطيم جميع العلوم

(١) الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه ، ج ١ ، ص٩٦ ؛ حسن محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ٤٤٣ - ٤٤٤ .

والفنون ، عاملين على سحق الثقافة العربية بكل عنف لحقدهم على القبائل العربية [1] .

ولم يكن المستشرق غومث أقل اجحافاً من زميليه السابقين في حكمه على عصر المرابطين ، فعباس الجراري ينقل لنا رأيه في هذا العصر بانه [(عصر هبط فيه الذوق هبوطاً بالغاً)] وأنه عصر الميل إلى كل ما هو شعبي سوقي خال من الحشمة والتوقر [2] .

ويرى جودت الركابي [3] ان النهضة الفكرية والأدبية توقفت عقب سقوط دول الطوائف في الأندلس لشدة تعصب المرابطين وتزمتهم ، فهم قوم لا يعرفون الا الحرب وخشونتها ، ولذلك لم تجد دولة الفكر والأدب في ظلهم مرتعاً خصباً .

وحذا محمد عبد الله عنان [4] حذو من سبقوه من أعداء دولة المرابطين وتفنن في وصف هذه الدولة بأقذع الأوصاف ، فقد قال عن المرابطين بالحرف الواحد « وكان أولئك البربر الصحراويون قوماً غلاظاً ، يؤثرون مهاد الجندية والخشونة ، وتغلب عليهم الأفكار الرجعية العتيقة ، لم تأخذهم مظاهر الحضارة الأندلسية المصقولة . . . ولم تكن تهزهم أصداء الشعر والآداب الرفيعة . . . فقد طوردت في ظلهم ـ فضلاً عن الكتب الفلسفية والعلمية ـ كتب الأصول المشرقية . . وترتب على ذلك أن ركدت في ظلهم دولة التفكير والأدب وذوي بهاء الحضارة الأندلسية . . » .

ويدلل بعض الدارسين على جهل حكام المرابطين بالعربية وعجزهم عن تذوق صورها البلاغية وتشبيهاتها الرائعة بحادث حدث لأمير المسلمين

---

(١) يوسف اشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ص ٤٨٣ ـ ٤٩٣ .

(٢) عباس الجراري : أثر الأندلس على أوروبا في مجال النغم والايقاع ، مجلة عالم الفكر ، مج١٢ ، ابريل ـ مايو ـ يونيو ١٩٨١م ، ص ٤٠ ـ ٤١ .

(٣) في الأدب الأندلسي ، ص ٥٥ ـ ٥٦ .

(٤) نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، ص ٤٣٦ .

يوسف بن تاشفين مع ابن عباد عندما هرع الشعراء لمدحهما بعد موقعة الزلاقة الشهيرة . فقد سأل ابن عباد يوسف بن تاشفين عما فهم من الشعر الملقى فرد عليه بقوله : « لا أعلم لعلهم يطلبون الخبز » ، ولما انصرف يوسف الى بلاده ، واستقر في عاصمته مراكش كتب إليه ابن عباد رسالة تضمنت بيتين من الشعر من نونية ابن زيدون هما :

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا ... شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت ... سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا

فلما قرئت على يوسف بن تاشفين قال للقارىء يطلب منا جواري سوداً وبيضاً [1] .

ويبدو أن بعض الدارسين انساق وراء ما قرأه في بعض الكتب الموحدية مثل كتب البيذق ، وابن تومرت ، والمراكشي وغيرهم ممن صوروا المرابطين بأبشع الصور ، وما قرأوه من أشعار تعرض بالمرابطين والفقهاء فتأثروا بآرائهم وأصدروا حكمهم الجائر[2] .

هكذا صوروا حال الفكر في عهد المرابطين فلم تعد الدنيا هي الدنيا فقد خلت الا من الغربان التي تنعق فوق إطلال دولة الأدب والعلم الذاوية .

لقد صعب على هذه العقول المتعصبة أن تستسيغ الواقع المتمثل في قيام دولة المرابطين القوية في الأندلس التي وقفت عائقاً في وجه حرب الاسترداد ، والتي ترتب على دفعها حركة الجهاد ضد نصارى الأسبان تأخير سقوط الأندلس في يدهم لمدة أربعة قرون أخرى .

أما المحدثون من العرب فيمكن ان يشفع لهم جهلهم لتاريخ دولة

---

(١) مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي ، ص ٤٤٨ .

(٢) ابن سعيد : المغرب في حلي المغرب ، ج ١ ، ص ١٠٠ ـ ١٠١ ؛ الأعمى التطيلي : الديوان ، ص ف ، ص ق ؛ أبو الطاهر محمد بن يوسف التميمي : المقامات اللزومية ، ورقة ٦٤ ، ٦٧ ، ٧٥ (حيث أوضح حال الفقهاء المزرية ؛ احسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ، ص ٧٧ ـ ٧٩ .

المرابطين ، فقد اتخذوا من جهل يوسف بن تاشفين باللغة العربية نموذجاً ينسحب على جميع حكام المرابطين وهذا فيه إجحاف في حق الحقيقة العلمية .

ان الدارس لتاريخ المغرب والأندلس لا ينكر ان دولة المرابطين دولة مجاهدة عملت على نشر الإسلام في أنحاء مختلفة من المغرب ، ثم تقدمت إلى الأندلس لتقف في وجه النصارى . وربما كانوا لا يستمتعون في فترة حكمهم الأولى الا بصليل السيوف التي كانت تجتث البدع والخرافات والظلم . ولكن الحال تبدلت عما كانت عليه بعد ان انتهت فترة التأسيس ، واستقرت الدولة ، وتمتعت بالأمن والرخاء ، فقد جذبتهم الحضارة الى جانبها ، فإذا بنا أمام دولة تحمل مشعل حضارة زاهرة لا على مستوى المغرب والأندلس فقط بل على المستوى العالمي في ذلك الوقت ، وحتى الوقت الحاضر في بعض المجالات خاصة في مجال الطب ، فأصبح أمراؤهم يتعشقون الأدب ، ويستمتعون بسماع الشعر ، ويكلأون العلماء بعين رعايتهم ، ويغدقون عليهم الصلاة بسخاء .

فأمير المسلمين علي بن يوسف جعل من نفسه مثالاً لرعيته في الإقبال على العلم وتشجيعه ، مما كان له أطيب الأثر على ازدهار الثقافة . فقد اجتمع إليه من الكتّاب وفرسان البلاغة ما لم يجتمع في عصر من الأعصار [١] ، واستقدم طائفة ممتازة منهم الى مراكش ، واتخذ من بعضهم كتاباً ومن بعضهم الآخر وزراء [٢] .

وقد نوه ابن الآبار [٣] بازدهار العلوم في عهد علي بن يوسف فقال : « وفي دولة علي بن يوسف بن تاشفين نفقت العلوم والآداب ، وكثر النبهاء وخصوصاً الكتّاب » .

---

(١) المراكشي : المعجب ، ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ .

(٢) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٤٢٨ ـ ٤٢٩ .

(٣) المعجم ، ص ٥٦ .

وتعدى الأمر الى اشتغال أمير المسلمين علي بن يوسف بالعلم(١) حتى غدا عالماً ، مشهوراً بصدق روايته(٢) . ولم يكتف بذلك بل عكف على أخذ العلم من العالم الفقيه والمحدث الأديب الشاعر أبي مروان عبد الملك بن ملحان (٣) .

وحرص أمير المسلمين أيضاً على تنشئة أبنائه تنشأة علمية طيبة ، وهذا ما دلت عليه إحدى رسائله الموجهة الى ولده الذي كان يتولى تأديبه العالم الكبير ابن زهـر ، والتي يوصيه فيها بعدم التشغيب على مؤدبه والا نفاه الى جزيرة ميورقة . ومما جاء في هذه الرسالة قوله اليه : « بعد وصول الوزير الجليل أبي مروان بن الوزير الأجل والفقيه الأفضل أبي العلاء بن زهر محل ابينا برد الله ضريحه وقدس روحه يشكو ما يكابده من تشغيبك ، ويقاسيه من تضريبك فأمسك عليك رمقك . . . وخذ من الأمور ما يسر والا انفذناك الى ميورقة . . . » (٤) .

وقلد الأمراء والقواد أميرهم في طلب العلم وتشجيعه ، وظهر منهم فريق عرف بالتقوى والعلـم الغزير ، وقد تحدثت عنهم كتب التراجم وسجلت أعمالهم في تقدير وإكبار (٥) . ومن هؤلاء الأمراء والقواد عامل دكالة المرابطي الذي ضمن لأحد العلماء المسمى أحمد بن عبد الرحمن بن الصقر الأنصاري ألف دينار ذهب مرابطية مقابل اصطحابه له إلا انه رفض طلبه مفضلاً معاشرة العلماء على معاشرة الأمراء ، وقال له : « والله لو اعطيتني ملك الأرض على أن أخرج عن طريقتي ، وأفارق ديدني من خدمة أهل العلم ومداخلة الفقهاء

---

(١) الحنبلي : شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ١١٥ .
(٢) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٤٤١ .
(٣) ابن سعيد : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٧٨ ؛ ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ، ج ١ ، ص ٢٤٦ .
(٤) حسين مؤنس : سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ، مج ٢ ، ع ١ - ٢ ، ١٩٥٤م ، ص ٦٨ - ٧٠ .
(٥) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٤٣٩ - ٤٤٠ .

والانخراط في سلكهم ما رضيت »[1] .

وتتلمذ أمير المرية عمر بن إمام بن المعتز الصنهاجي على الشيخ أبي علي الصدفي ، وبلغ من علمه بان سمي بالفقيه القائد[2] .

ورحل ميمون بن ياسين الصنهاجي الى مكة المكرمة ، واخذ عن أبي عبد الله الطبري ، وسمع صحيح مسلم ، وبعد عودته الى الأندلس أخذ يحدث في مدينة إشبيلية[3] .

وأقبل المنصور بن محمد بن الحاج ، وأبو بكر الصنهاجي على العلوم[4] وتفوق زاوي بن مناد بن عطية بن المنصور الصنهاجي المعروف بابن تقسوت في دانيه حتى أصبح من أعلام شيوخها ، وذاع صيت أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجي في المرية . ووصل خلوف بن خلف الله الصنهاجي بعد ان تلقى العلم بمدينة قرطبة الى قضاء غرناطة . كما نبغ موسى بن حماد الصنهاجي بالعلم حتى اشتهر[5] .

ومن أمراء المرابطين الذين اشتهروا بقرض الشعر الأمير ابراهيم بن يوسف ، إلا أننا لم نعثر له إلا على قصيدة واحدة ألقاها في مدينة شاطبة عام ٥١٥هـ / ١١٢١م[6] .

وأخذ بعض أمراء المرابطين وقوادهم ممن لم تسمح له الظروف بالتفرغ للعلم والرحيل من أجله في استقدام كبار العلماء الى بيته ليتلقى العلم على أيديهم ومما يروى في هذا الصدد ان أحد أمراء المرابطين طلب العالم الكبير

(١) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج ١ ، ص ٢١١ - ٢١٤ .

(٢) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٤٣٩ - ٤٤٠ .

(٣) ابن سعيد : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٧٨ .

(٤) الحسن السائح : الحضارة المغربية عبر التاريخ ، ج ١ ، ص ١٥٢ .

(٥) عبد الله بن العباس الجراري : الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه ، ج ١ ، ص ١٠٥ ؛ حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٤٣٨ - ٤٣٩ .

(٧) ابن خاقان : قلائد العقيان ، ص ٢٧٥ .

علي بن اسماعيل بن محمد بن عبد الله بن حرزهم الى مراكش ليأخذ العلم عنه ، فلما دخل العالم عليه وجده جالساً على سريره فجلس علي تحته ثم قال له : أهكذا تفعل مع من كنت تتعلم منه ؟ قال : نعم فقال له علي : انزل انت الى مكاني وأكون انا مكانك ، فأجابه الأمير الى ذلك ولازمه . وكان الأمير ابراهيم بن يوسف بن تاشفين يرسل في طلب الفقيه أبي علي الصدفي لينتفع بعلمه . كما اختير العالم الجليل أحمد بن عبد الجليل بن عبد الله التدميري ليؤدب أبناء السلطان [1] . وعندما تولى الأمير تاشفين الحكم بعث ولده ابراهيم الى معاهد مدينة قرطبة لإتمام دراسته فيها [2] .

ومن العلماء الكتّاب الذين أخذ عنهم أبناء أعيان المرابطين في مراكش أبو عيسى لب بن عبد الوارث اليحصبي وهو من مشاهير العلماء في عصره [3] .

وكنتيجة لشغف أمراء المرابطين بالعلم والعلماء وتنافسهم في تقريبهم أصبحت مجالسهم مقصداً لمشاهير العلماء والأدباء . ومن مشاهير أمراء المرابطين الذين غصت مجالسهم بأعلام العلماء الأمير ابراهيم بن يوسف ، وابو بكر بن تافلويت وعبد الله بن مزدلي . فابن خاقان يذكر في مقدمة كتابه قلائد العقيان الذي ألفه باسم الأمير المرابطي ابراهيم بن يوسف ، فضل هذا الأمير على الأدب والعلم ، ويذكر أيضاً ان الأمير عبد الله بن مزدلي كان يعمل جهده من أجل تشجيع العلماء والأدباء لذا كان بلاطه قبلة للشعراء والأدباء ، فقصده أبو محمد بن عطية ، وأبو عامر بن أرقم ، وأبو جعفر بن مسعدة الذي اتخذه كاتباً له . كذلك كان الأمير بن تافلويت على رأس المشجعين للعلماء خاصة للأدباء : منهم لكونه شاعراً مجيداً ، فازدحم بلاطه بالأدباء وعشاق الشعر ، وكان على رأس ندمائه كاتبه ومادحه العالم الموسوعي أبو بكر بن باجة [4] .

---

(١) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٤٣٩ - ٤٤١ .

(٢) عبد الله علام : الدولة الموحدية بالمغرب ، ص ١٢٧ ، حاشية رقم ٤ .

(٣) ابن سعيد : المغرب في حلي المغرب ، ج ٢ ، ص ١٨٠ - ١٨١ .

(٤) الجراري : الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه ، ج ١ ، ص ٩٧ - ٩٨ .

ولم يقتصر الإقبال على العلم وتشجيعه على أمراء المرابطين فقط بل تعداه الى الأميرات المرابطيات اللواتي أخذن يتذوقن الأدب ويقرضن الشعر ، أمثال تميمة بنت يوسف بن تاشفين التي اشتهرت بالأدب والشعر [١] ، والأديبة الشاعرة ورقاء بنت ينتان [٢] ، وحواء بنت ابراهيم بن تافلويت ، واختها زينب اللائي كان لهن مجالس أدب [٣] . ففي هذا الصدد يذكر ابن عذارى [٤] ان الحرة حواء كان لها مجلس أدبي يحضر فيه لفيف من كبار العلماء أمثال ابن القصيرة وابن المرضي ، وانه كان لها مساجلات مع بعضهم .

ولم يكتف أمراء المرابطين بمشاركتهم في العلوم وتشجيعها في عهد علي بن يوسف بل أخذوا يشجعون على بناء عشرات المدارس والمساجد لنشر الوعي والثقافة بين الرعية ، فظهرت في عواصم دولتهم مساجد ومدارس طارت شهرتها ، وقصدها العلماء من الشرق والغرب . فقد اشتهرت مدرسة سبتة ، وطنجة ، وأغمات ، وسجلماسة ، وتلمسان ، ومراكش على حداثة نشأتها لوجود مقر السلطان فيها ، فأصبحت قبلة القصاد ، وورد إليها العلماء من كل فج لينعموا بالحياة قريباً من الأمراء . كما نهضت مدارس الأندلس نهضة موفقة فاشتهرت عدة مدارس منها : مدرسة قرطبة ، ومرسية ، والمرية ، واشبيلية ، وطرطوشة ، وبلنسية ، وغرناطة ، وشاطبة ، وسرقسطة ، ودانية ، وغيرها [٥] .

ومن المساجد التي اشتهرت بالدراسة العلمية ، مسجد زقاق الماء بعدوة القرويين ، ومسجد الحوراء ، ومسجد قرطبة ، ومسجد يوسف بن تاشفين في مراكش ، ومسجد القرويين [٦] .

---

(١) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ، ج ١ ، ص ١٧٣ ـ ١٧٤ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ج ٢ ، ص ٥٣٣ .

(٣) الجراري : الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه ، ج ١ ، ص ٩٨ .

(٤) البيان المغرب ، ج ٤ ، ص ٥٧ .

(٥) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٤٣١ ـ ٤٣٢ .

(٦) الحسن السائح : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٦١ ـ ١٦٢ ؛ الجراري : الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه ج ١ ، ص ١٠٥ ـ ١٠٦ .

وكانت كل مدرسة من هذه المدارس تشتهر بلون من ألوان المعرفة أو بها جميعاً . فعلى سبيل المثال ازدهرت مدارس مدينة المرية ازدهاراً شاملاً في جميع مناحي الحياة العلمية من أدبية ، وشرعية ، وطبية وغيرها [١] . واشتهرت مدارس سبتة بتدرس علم الأصول والكلام ، واشتهر مسجد القرويين بتدريس مختلف العلوم [٢] ، وبذت قرطبة إشبيلية في العلوم ، إلا أن الثانية بذت الأولى بالموسيقى والغناء ، وهذا ما أشار إليه ابن رشد حين قال : « إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع فيها ، وان مات بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية » [٣] .

ومن المدن المشهورة التي لعبت دوراً ثقافياً هاماً في غربي أفريقية في عهد علي بن يوسف مدينة تنبكت التي انشئت في أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي على ضفاف النيجر . وقد ساعد ذلك على ازدهارها تجارياً فكان يقصدها التجار عن طريق النهر وتصل إليها القوافل التجارية عن طريق مراكش . وما لبثت ان طارت شهرة هذه المدينة في الآفاق فهرع اليها العلماء من المغرب الأقصى والأندلس ومصر ، ومن نواحٍ أخرى مختلفة ، وبني بها المسجد الجامع والمساكن والأسواق . وفي عهد علي بن يوسف أيضاً تألق نجم مدينة جنى من الناحية الثقافية بعد أن أسلم أهلها في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي فأمها العلماء والفقهاء حتى غدا فيها أربعة آلاف ممن يشتغلون بالعلم [٤] .

أما عن طريقة التعليم في هذا العصر فقد وجه إليها القاضي ابن العربي النقد وذلك في مقدمة كتابه « قانون التأويل » . ذلك ان طلب العلم كان يمر بمرحلتين : الأولى حفظ القرآن ، والثانية مرحلة تلقي العلوم الأولية . وفي

---

(١) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية الإسلامية ، ص ١٨٥ - ١٨٦ .

(٢) الجراري : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

(٣) بروفنسال : حضارة العرب في الأندلس ، ص ٦٢ .

(٤) حسن أحمد محمود : المرحلة الأفريقية في تاريخ دولة المرابطين ، المجلة التاريخة المصرية ، مج ١٢ ، سنة ١٩٦٤ - ١٩٦٥م ص ١١٦ - ١١٧ .

ذلك يقول ابن العربي « ويا غفلة أهل بلادنا في أن يؤخذ الصبي بكتاب الله في أول عمره يقرأ ما لا يفهم وينصب في أمر غيره أهم عليه منه » . وكان المنهج الذي طالب به يقتضي أن يبدأ الطالب بتعلم العربية والاشعار ، وينتقل الى الحساب ، ثم ينتقل بعد ذلك الى دراسة القرآن وحفظه ، وبعد ذلك يحصل الطالب على التوالي أصول الفقه ثم الحديث مقتصراً فيه على الصحيح ، ثم علوم الحديث ، ثم تطبيق هذه العلوم جميعاً على آيات القرآن .

وقد عرض ابن خلدون الى مذهب ابن العربي هذا ثم قال : « وهو لعمري مذهب حسن إلا ان العوائد لا تساعد عليه . . . من تقديم دراسة القرآن إيثاراً للتبرك والثواب ، وخشية ما يعرض للولد في جنون الصبا من الآفات والقواطع عن العلم فيفوته القرآن » [1] . كذلك نصح ابن العربي بعدم تعليم الجواري والغلمان بشكل مختلط لأن ذلك مفسده [2] .

وترتب على الاهتمام بالحياة العلمية في عهد علي بن يوسف بن تاشفين زيادة العناية بالمكتبات الخاصة فاشتهرت مكتبة أمير المسلمين علي بن يوسف في مراكش وطارت سمعتها في الآفاق . وتتضح هذه الشهرة من خلال بعض مخلفاتها في العصر الحاضر ، فهناك نسخة من موطأ مالك في عدة أجزاء في رق الغزال ثبت في جزئها الحادي عشر العبارة التالية : « مما كتبه لخزانة أمير المسلمين وناصر الدين علي بن يوسف أدام الله تأييده ونصره » ، وكان نسخها في شهر شعبان عام ٥٠٢هـ ، وسيرة ابن اسحاق المنسوخة عام ٥٠٦هـ / ١١١٢م [3] .

ومن المكتبات المشهورة أيضاً مكتبة ابن الصقر في مراكش ، وهي من

---

(١) رضا عبد الجليل الطيار : الدراسات اللغوية في الأندلس منذ مطلع القرن السادس الهجري حتى منتصف القرن السابع الهجري ، ص ٣٠ .

(٢) أحمد أمين : ظهر الإسلام ، ج ٣ ، ص ٨ ـ ٩ ؛ الحسن السائح : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٥٥ ـ ١٥٩ .

(٣) عبد الهادي التازي : جامع القرويين ، ج ١ ، ص ١٢٤ .

انشاء الحافظ أبي العباس أحمد بن عبد الرحمن بن محمد الانصاري الخزرجي الغرناطي (٥٠٢ ـ ٥٦٩ / ١١٠٨ ـ ١١٧٣م)، وكانت مكتبة كبيرة مملوءة بالذخائر قال عنها صاحب الديباج المذهب: «انه اقتنى من الكتب جملة وافرة سوى ما نسخ بخطه الرائق، وكان معه عند توجهه لمراكش خمسة أحمال كتب، وجمع منها بمراكش شيئاً عظيماً». وقد نهبت هذه الكتب عندما دخل عبد المؤمن بن علي مراكش [١]. وليس ثمة شك انه كانت هناك عشرات المكتبات الخاصة في المغرب والأندلس لكبار العلماء أمثال ابن العربي، وابن رشد، وابن باجة، وابن زهر وغيرهم.

ومما زاد ايضاً في اذكاء شعلة العلم في عهد أمير المسلمين علي بن يوسف ما كانت تتمتع به البلاد في بداية حكمه من استقرار سياسي ورخاء اقتصادي، فشجع ذلك على تنشيط الرحلة من أجل طلب العلم، والتنقل للأخذ عن مشاهير العلماء سواء في داخل نطاق دولة المرابطين او في أي صقع من أصقاع العالم الإسلامي. وتحفل كتب التراجم بأسماء عشرات المغاربة والأندلسيين ممن رحلوا الى بلاد المشرق للقاء العلماء والاطلاع على الكتب الجديدة في مختلف فنون المعرفة ونقلها الى المغرب والأندلس، فضلاً عن الهدف الأساسي للرحلات وهو الحج والتجارة. كما شهد هذا العهد ايضاً نشاط رحلات المشارقة الى بلاد المغرب والأندلس إما للاتجار، وإما لطلب العلم [٢].

ومن الذين رحلوا الى المشرق ابراهيم بن أحمد السلمي المعروف بابن صدقة من أهل غرناطة. الذي سمع في مصر من أبي بكر الطرطوشي في عام ٥١٥هـ / ١١٢١م. كما رحل أبو الطاهر السلفي الى مكة المكرمة عام ٥١٦هـ / ١١٢٢م وسمع من جلة علمائها ثم عاد الى بلاده [٣]، ورحل

---

(١) محمد المنوني: العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦.

(٢) لطفي عبد البديع: الإسلام في اسبانيا، ص ٣٩.

(٣) ابن الآبار: المعجم، ص ٦٦.

حسن بن ابراهيم بن محمد بن تقي المالقي الى الاسكندرية عام ٥١٥هـ / ١١٢١م (١) . ورحل الفيلسوف الطبيب ابو الصلت أمية بن أبي الصلت الأشبيلي الى مصر وحبس نفسه في خزائن كتبها عشر سنوات ، وقد توفي في عام ٥٤٦هـ / ١١٥١م (٢) .

وممن رحل الى مصر ايضاً الحسن بن عمر الحسن الأشبيلي الذي توفي عام ٥١٢هـ / ١١١٨م (٣) . وكذلك رحل ابو هارون موسى بن عبد الله بن ابراهيم من مدينة أغمات الى مصر والحجاز ، والعراق ، وخراسان ، ونيسابور ، وكان قدومه الى المشرق عام ٥١٦هـ / ١١٢٢م (٤) . ورحل كاتب الأمير تميم بن يوسف ، علي بن الإمام الى مصر ايضاً (٥) .

وممن رحل الى بغداد ابو محمد عبد الله بن يحيى بن محمد بن بهلول السرقسطي المتوفي عام ٥١٦هـ / ١١٢١م ، وهو من الفقهاء الفضلاء ، ورد بغداد وأقام فيها مدة في المدرسة النظامية ، ثم خرج الى خراسان ، وسكن مرو الى ان توفي (٦) . وفي عام ٥٠٨هـ / ١١١٤م رحل ابو حامد محمد بن عبد الرحيم المازني القيسي الغرناطي الى مصر ثم عاد الى قرطبة ثم غادرها الى الاسكندرية عام ٥١١هـ / ١١١٧م مرة أخرى ، وفي عام ٥١٦هـ / ١١٢١م نجده في بغداد حيث أمضى فيها أربعة أعوام ، وفي عام ٥٢٤هـ / ١١٣٠م رحل الى ايران ، واستمر في رحلاته الى ان وافته منيته في دمشق عام ٥٦٥هـ / ١١٧٠م (٧) .

وقد نشط المغاربة والأندلسيون في الرحيل الى بلاد الشام أيضاً لزيارة

---

(١) ابن الأبار : المصدر السابق ، ص ٧٢ .

(٢) ابن سعيد : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٦١ - ٢٦٢ .

(٣) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج ١ ، ص ٣٢٩ .

(٤) الاصفهاني : خريدة القصر وجريدة العصر ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٣٨٨ - ٣٨٩ .

(٥) ابن سعيد : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١١٦ .

(٦) الأصفهاني : المصدر السابق ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٣٩٠ .

(٧) كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي ، ج ١ ، ص ٢٩٤ - ٢٩٥ .

بيت المقدس ، وطلب العلم . فكانت المؤلفات الأندلسية والمغربية تصل الى بلاد الشام بسرعة متناهية حتى ان المخطوطة الوحيدة المعروفة لديوان الشاعر الزجال ابن قزمان ، الذي عاش في قرطبة في عهد أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين والمسماة : « إصابة الأغراض في وصف الأعراض » قد كتبت في مدينة صفد الفلسطينية في منتصف القرن السادس الهجري [(1)] .

ويبدو ان عدد المغاربة الذين وفدوا الى المشرق خاصة الى فلسطين واستقروا في بيت المقدس ودمشق قد تزايد في عهد علي بن يوسف حتى أصبحوا يشكلون تجمعاً ضخماً مما اضطر نور الدين محمود فيما بعد الى تعيين أوقاف للمغاربة في دمشق منها طاحونتان وسبعة بساتين وحمام ودكانان ، وكانت هذه الأوقاف تغل ما يقرب من خمسمائة دينار في العام [(2)] .

وفضلاً عن ذلك فان ما وصلت اليه الدولة المرابطية من تقدم حضاري وثقافي قد جلب اليها طلبة العلم من مناطق مختلفة من الشرق ، وهذا ما أكده ابراهام بن داود أحد المعاصرين ليهودا هاليفي (٤٧٨ ـ ٥٣٦هـ / ١٠٨٥ ـ ١١٤١م) حين ذكر انه رأى في الأندلس بعضاً من أبناء الخزر [(3)] يطلبون العلم ، وقد جرى العرف على اعتبار هؤلاء أمراء خزريين [(4)] .

وكذلك لم تحل العلاقات العدائية بين الممالك النصرانية الأسبانية والدولة المرابطية دون استفادة هذه الممالك من هذه النهضة العلمية الميمونة فأنشئت مدرسة للترجمة في مدينة طليطلة برئاسة الأسقف رايموند بعد ان استولى الفونسو السادس عليها ، وكانت تضم عدداً كبيراً من المترجمين الذين نقلوا المؤلفات العربية في مختلف العلوم . وقد توالى على هذه المدرسة

---

(١) بروفنسال : المرجع السابق ، ص ٥٧ ؛ احسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥ .

(٢) سعيد عاشور : بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ، ص ٢٦ .

(٣) شعب من أصل تركي نشط في القرن السابع حتى الحادي عشر الميلادي ، وامتد نفوذهم فيما بين البحر الأسود وبحر قزوين ومن القوقاز حتى الفولجا انظر ارثر كوستلر : امبراطورية الخزر وميراثها ، ص ١١ .

(٤) المرجع السابق نفسه ، ص ٩٧ ـ ٩٨ .

المترجمون من مختلف أنحاء أوروبا يطلبون علوم العرب والمسلمين وينقلونها الى اللاتينية [1] .

لقد ساعدت العوامل السابقة على تنشيط حركة التأليف وازدهار الحياة الثقافية ، هذا ويعتبر عهد علي بن يوسف بحق عهد كبار الحفاظ أمثال : ابن العربي ، وابي علي الصدفي ، والقاضي عياض ، وعهد كبار رجال البلاغة كابن أبي الخصال ، وابن القصيرة ، وعصر الدواوين الشعرية ، والموشحات والأزجال ، والتآليف الفقهية ، والنحوية ، واللغوية ، والكلامية ، والتاريخية ، والعبقرية الطبية الممثلة بابن باجة وآل زهر أساتذة العالم في هذه العلوم في ذلك الوقت وحتى فترة قريبة من هذا العصر لما قدموه من اكتشافات باهرة سواء عن طريق اكتشاف أمراض جديدة او طرق علاج مبتكرة ، او عمليات جراحية معقدة كشف عنها العلم حديثاً ، كما تألقت العلوم الفلسفية لتبلغ القمة في هذا العهد .

وحتى نقف على مدى التطور العلمي في عهد علي بن يوسف بن تاشفين سنتحدث بشيء من الايجاز عن أهم معالم هذا التطور في المجالات التالية :

١ - الدراسات الشرعية : (الحديث - القراءات والتفسير - الفقه والأصول - احراق كتاب احياء علوم الدين للغزالي) .

٢ - الدراسات الأدبية : (الشعر - النثر - النحو) .

٣ - الدراسات الطبيعية التجريبية (الطب - الصيدلة والكيمياء) .

الدراسات الشرعية

من المعلوم ان دولة المرابطين قامت على أساس ديني ، لذا عمل

---

(١) الجراري : اثر الأندلس على أوروبا في مجال النغم والايقاع ، مجلة عالم الفكر ، مج ١٢ ابريل - مايو - يونيو ١٩٨١م ، ص ١٩ ؛ عبد الرحمن الحجي : اندلسيات ، ص ١٦٤ .

حكامها على تشجيع دراسة العلوم الشرعية بكل وسيلة ، فقربوا الفقهاء واغدقوا الأموال عليهم وأخذوا بمشورتهم في الأمور الجليلة والضئيلة [١] . وبذلك كان الفقهاء في دولة المرابطين يوجهون سياستها ، ويتحملون مسؤولية حماية كيانها والاشراف على تنفيذ تعاليمها ، وان مجرد القاء نظرة شاملة على تراجمهم في كتب التراجم تكفي لمعرفة كثرة اعدادهم . وهذا طبعاً يعكس المكانة السياسية والاجتماعية الرفيعة التي حصل عليها الفقهاء في هذه الدولة ، وهي مكانة لم يصل اليها الفقهاء في أي دولة إسلامية سابقة خلال الصدر الأول من التاريخ الإسلامي حتى غدا لقب الفقيه في هذه الحقبة لا يعدله لقب . وكان المرابطون يسمون الأمير العظيم منهم الذي يريدون التنويه به بالفقيه [٢] ، مما جعل الفقهاء في مركز يحسدون عليه من قبل بعض أفراد الرعية وبشكل خاص من قبل الأدباء .

لقد كانت تجربة المرابطين مع الفقهاء تجربة فريدة في التاريخ الإسلامي وهي مفخرة لهم ، وتدل على حكمة وبعد نظر ، لأن المرابطين باعتمادهم على الفقه كانوا يرفضون العفوية واللاعقلانية ، وينظرون للحكم والدولة من خلال تصور علمي ، وتمثل واع يتجليان عندهم في التعاليم الإسلامية [٣] .

أجل لقد نهضت الدراسات الشرعية نهضة مباركة في عهد هذه الدولة خاصة في عهد علي بن يوسف ، فألفت عشرات الكتب في الحديث والقراءات ، والتفسير ، والفقه والأصول .

الحديث :

ومن ائمة علماء الحديث في عهد علي بن يوسف ، الحسين بن محمد بن فيرة بن حيون ابو علي الصدفي المعروف بابن سكرة السرقسطي

---

(١) حسن محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ٤٢٨ - ٤٢٩ .

(٢) الجراري : الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه ، ج ١ ، ص ٨٩ - ٩١ .

(٣) المرجع السابق نفسه ، ج ١ ، ص ٩٠ .

المتوفى عام ٥١٤هـ / ١١٢٠م الذي كان حافظاً للحديث عارفاً بأسماء رجاله وخبيراً بعلله . وبعد ان استقر في مدرسة مرسية للتدريس شد طلاب العلم اليه الرحال ، وتحت ضغط الرعية تولى قضاء مرسية الا انه ما لبث ان عزل نفسه واختفى فلم يعثر عليه عندها أعفاه علي بن يوسف من منصبه [1] .

ومن مشاهير المحدثين ايضاً أحمد بن طاهر بن عيسى بن رصيص الداني (٤٦٧ ـ ٥٣٢ هـ / ١٠٧٤ ـ ١١٣٧م) الذي ألف على الموطأ تصنيفاً سماه « الايماء » ، وله ايضاً مجموع في رجال مسلم بن الحجاج [2] . وصنف محمد بن علي المازري المتوفى عام ٥٣٦هـ / ١١٤١م مصنفاً سماه « المعلم في شرح مسلم » [3] . وألف القاضي عياض عدة مؤلفات منها : شرح صحيح مسلم ، والالماع في ضبط الرواية ، وتنبيه الانام في مشكل الحديث [4] ، أما عبد الله بن محمد بن السيد (ت ٥٢١هـ / ١١٢٧م) فألف كتاباً في شرح الموطأ [5] . كما ألف عبد الله بن أحمد بن سعيد بن يربوع بن سليمان (ت ٥٢٢هـ / ١١٢٨م) كتاباً سماه (تاج الحلية وسراج البغية في معرفة أسانيد الموطأ » ، وألف ايضاً كتاباً آخر سماه « المنهاج في رجال مسلم بن الحجاج » [6] .

وممن اشتهر ايضاً بالاشتغال بالحديث عبد الجليل بن عبد العزيز بن محمد الأموي المعروف بابن الملون (ت ٥٢٦هـ / ١١٣١م) وهو من أهل قرطبة [7] ، ومحمد بن أحمد بن طاهر القيسي (ت ٥٤٢هـ /

---

(١) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج ١ ، ص ٣٣٠ ـ ٣٣٢ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ج ١ ، ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ .

(٣) وهو لا يزال مخطوطاً في الخزانة الملكية في الرباط تحت رقم ٣٢٠ .

(٤) ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ، ج ١ ، ص ٢٤٦ .

(٥) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٢٨٢ .

(٦) المصدر السابق نفسه ، ج ١ ، ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣ .

(٧) ابن الآبار : المعجم ، ص ٢٦٤ .

١١٤٧م) [١] ، ومحمد بن حسين بن أحمد الأنصاري (ت ٥٣٢هـ / ١١٣٧م) ، وهو من أهل المرية [٢] . وعبد الله بن عيسى الشيباني (ت ٥٣٠ هـ / ١١٣٥ م) الذي كان يحفظ صحيح مسلم [٣] . وزياد بن محمد بن أحمد بن سليمان التجيبي (ت ٥٢٦هـ / ١١٣١م) ، الذي كان متفنناً بالحديث وروايته [٤] ، وميمون بن ياسين أحد أمراء المرابطين ، الذي رحل الى بلاد المشرق يطلب الحديث ، وسمع هناك صحيح مسلم ، وصحيح البخاري على اعلام ذلك العصر ، ثم عاد الى بلاده وأخذ يحدث في إشبيلية [٥] . ومحمد بن الحسين بن أحمد بن يحيى الأنصاري الخزرجي الميورقي الذي كان محدثاً عالي الرواية ، عارفاً بالحديث مشهوراً بالاتقان والضبط[٦] ، وأحمد بن محمد بن عبد العزيز اللخمي المعروف بابن المؤخي (ت ٥٣٣هـ / ١١٣٨م) ، وكان ينفرد في عصره بالحديث ، كتب اليه أبو علي الصدفي وحدّث عنه بالاجازة[٧] ، وأحمد بن عمر بن يوسف بن ادريس بن عبد الله بن ورد التميمي (ت ٥٤٠هـ / ١١٤٥م) الذي كان له مجلس يتكلم فيه على الصحيحين ، وكان يخصص يوم الخميس للتفسير[٨] . وقد ألف في شرح كتاب البخاري كتاباً كبيراً[٩] .

القراءات والتفسير :

وفي مجال القراءات والتفسير برز عدد كبير من العلماء منهم : ابو

---

(١) ابن الأبار : المعجم / ص ١٥١ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ١٢٣ .

(٣) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٨٥ .

(٤) المصدر السابق نفسه ، ج ١ ، ص ١٨٨ .

(٥) ابراهيم حركات : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٤٦ .

(٦) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ١٩٠ .

(٧) ابن الآبار : المعجم ، ص ١٧ .

(٨) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ١ ، ص ١٧٠ ـ ١٧١ .

(٩) رضا عبد الجليل الطيار : الدراسات اللغوية في الاندلس ، ص ١٦٩ .

بكر بن العربي الذي ألف تفسيراً للقرآن يقع في ثمانين جزءاً سماه « أنوار الفجر في تفسير القرآن » وهو مفقود (١) . وأبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن المحاربي الغرناطي (ت ٥٤١هـ / ١١٤٦م) الذي ألف تفسيراً سماه « المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز » في عشر مجلدات (٢) ، وله أيضاً برنامج رتبه وفق أسماء شيوخه ذاكراً مروياته عنهم (٣) . وعلي بن عبد الله بن محمد بن وهب الجذامي (ت ٥٣٢هـ / ١١٣٧م) من أهل المرية الذي جمع تفسير القرآن في كتاب حسن (٤) ، ومحمد بن ابراهيم بن أحمد بن ابراهيم بن الأسود الغساني (ت ٥٣٦هـ / ١١٤١م) ، والذي كتب تفسيراً للقرآن الكريم (٥) .

واعتنى احمد بن محمد بن العريف (ت ٥٣٦هـ / ١١٤١م) عناية خاصة بالقراءات وبطرائقها المختلفة (٦) . وكان أحمد بن أحمد بن خلف الأنصاري (ت ٥٤٠ هـ / ١١٤٥م) إمام المقرئين في غرناطة متفنناً في علم القراءات ، وألف فيها كتاباً سماه : « الاقناع في القراءات » (٧) .

وممن نبغ في هذا العلم أيضاً ابراهيم بن أحمد بن خلف بن الحسن بن الوليد السلمي من أهل فاس ، وأبو إسحاق المعروف بابن فرتون (ت ٥٣٢هـ / ١١٤٢م) (٨) ، وعبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن اصبغ المشهور بالسهيلي ، ومن مؤلفاته : « الشريف والاعلام بما أبهم في القرآن من أسماء الأعلام » ، وشرح آية الوصية ، والروض الآنف وغيرها (٩) .

---

(١) عبد الرحمن الحجي : جوانب من الحضارة الاسلامية ، ص ٤٧ ، وكذلك لابي بكر تفسير أحكام القرآن المشهور .

(٢) المقري : نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ٢٨٠ ـ ٢٨١ ؛ابن قنفذ : الوفيات ، ص ٢٦٣ ، حاشية رقم ٢ .

(٣) رضا عبد الجليل الطيار : المرجع السابق ، ص ٢٠١ .

(٤) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٠٥ .

(٥) ابن الآبار : المعجم ، ص ١٢٦ ـ ١٢٧ .

(٦) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ، ج ٤ ، ص ٤٤١ ـ ٤٤٢ .

(٧) ابن فرحون : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٩٠ ـ ١٩١ .

(٨) ابن الآبار : المعجم ، ص ٦٢ .

(٩) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ٤٧٧ ـ ٤٧٩ .

الفقه والأصول :

وممن برز في الفقه والأصول محمد بن حكيم بن محمد بن أحمد الجذامي المتوفي عام ٥٣٨هـ / ١١٤٣م ، وهو من أهل سرقسطة ، سكن غرناطة ثم مدينة فاس ، وكان متحققاً في علم أصول الفقه حافظاً له ، ومن مؤلفاته : « شرح كتاب الايضاح للفارسي ، كذلك صنف في الجدل مصنفين [١] .

ووضعت طائفة من علماء الأندلس مؤلفات في شرح كتب الصحاح منها : عارضة الأحوذي في شرح صحيح الترمذي من تأليف أبي بكر بن العربي ، وشرح صحيح البخاري الذي ألفه أحمد بن محمد بن عمر التميمي المتوفي عام (٥٤٠هـ / ١١٤٥م) [٢] .

وممن اشتهر ايضاً بدراسة الفقه والأصول أحمد بن علي بن يحيى بن افلج بن زرقون (ت ٥٤٢هـ / ١١٤٧م) [٣] ، ومحمد بن حسين بن أبي بكر المعروف بالحناط المتوفي عام ٥١٤هـ / ١١٢٠م [٤] ، ومن الثغر الأعلى أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن الصقر الأنصاري ، الذي كان يعد من أصحاب الثقافة الموسوعية ، فقد كان متقدماً في الحديث ، والقراءة ، والفقه ، والأصول وعلم الكلام . ومن مؤلفاته كتاب بدأ به ولم يكمله اسمه « أنوار الفجر فيمن دخل جزيرة الأندلس من الزهاد والأبرار » الا انه توفى قبل اتمامه فكمله ابنه عبد الله [٥] .

أما ابن رشد (ت ٥٢٠هـ / ١١٢٦م) فقد ألف عدة مؤلفات في هذا الحقل منها ، « البيان والتحصيل » وذلك تحت الحاح بعض أصحابه من أهل مدينة جيان ، وبعض الطلبة من أهل مدينة شلب [٦] ، وألف ابراهيم بن جعفر

---

(١) ابن فرحون : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٨٣ .

(٢) رضا عبد الجليل الطيار : الدراسات اللغوية في الأندلس ، ص ١٦٩ .

(٣) ابن الآبار : المعجم ، ص ٣٤ - ٣٥ .

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ١ ، ص ١٨٤ - ١٨٥ .

(٦) ابن رشد : مسائل أبي الوليد بن رشد ، ج ١ ، ص ١٩ ، ٢١ .

اللواتي (ت ٥١٣هـ / ١١١٩م) كتاباً سماه « مختصر الفقه » . على ان أهم كتب وضعت في الفقه في عهد علي بن يوسف هي كتب القاضي عياض المتوفى عام ٥٤٤هـ / ١١٤٩م ، خصوصاً كتاب أجوبة القرطبيين ، وكتاب النوازل القضائية (١) .

وانتهت الرياسة في الحفظ والفتيا الى أبي بكر بن عبد الله بن الجد الفهري المتوفي عام ٥٨٦هـ / ١١٩٠م ، والذي قدم للشورى مع أبي بكر بن العربي في سنة ٥٢١هـ / ١١٢٧م (٢) .

احراق كتاب احياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي :

ونختم الحديث عن هذا الموضوع بالحديث عن قضية اثارت جدلاً علمياً ، وهي قضية احراق كتاب احياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي المتوفي عام ٥٠٥هـ / ١١١١م في عهد علي بن يوسف بن تاشفين ، وفي عهد ابنه تاشفين ، وملخص القضية انه ما ان وصل كتاب إحياء علوم الدين الى المغرب والأندلس ، وقرأه الفقهاء خاصة القاضي ابن حمدين قاضي قرطبة حتى ثارت ثائرتهم ، وتنادوا لدفع الأمر الى أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين ، فاجتمعوا به وأخبروه بوجوب حرق الكتاب ، واعدامه ، لما يحمل من بدع المتكلمين وضلالاتهم ، وأفتوا بأنه لا تجوز قراءته بحال من الأحوال ، فأمر علي بن يوسف بالبحث عن كتاب الإحياء بحثاً أكيداً ، وكتب بذلك الى سائر الأمصار التابعة له ، وأمر بتفتيش مكاتب الخاصة والعامة ، وان يحلفوا بالايمان المغلظة (الطلاق / والعتاق) بأنهم لا يملكون كتاب الإحياء . كما أمر أمير المسلمين علي بمنع دخول جميع كتب الغزالي الى المغرب والأندلس ، وانزل أشد العقوبات بمن وجد عنده منها شيئاً (٣) .

---

(١) ابراهيم حركات : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦ .

(٢) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ، ج ١ ، ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ .

(٣) مؤلف مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٠٤ ـ ١٠٥ ؛ محمد المنتصر الكتاني : الغزالي والمغرب ، ص ٧٠٧ ـ ٧٠٨ .

ونفذ أمر علي بن يوسف على أكمل وجه ، واحتفل الفقهاء في مدينة قرطبة بحرق نسخ كتاب احياء علوم الدين بعد ان أشبعت بالزيت على الباب الغربي لرحبة المسجد (١) .

وقد حاول بعض المؤرخين المحدثين تفسير هذا العمل ، فعلل حسن ابراهيم حسن (٢) الحرق بسببين : الأول منها ان الاتجاه الفقهي في هذا الكتاب يسير على مذهب الإمام الشافعي ، والثاني ان الكتاب صوفي بروحه يسير على الفلسفة الكلامية التي كان يحرمها المالكية ويخشون منها على مذهبهم لذلك أفتوا بإحراقه .

ويرى عبده بدوي (٣) ان سبب الإحراق يعود لجمود الفكر في تلك الحقبة . ويعزو السيد عبد العزيز سالم (٤) سبب الاحراق الى ما حواه الكتاب من فضح لنزعات الفقهاء في دراساتهم الفقهية ، وحرصهم على الدنيا ، وطمعهم في الحصول على المناصب الرفيعة ، وحسدهم للعلماء والزهاد . فالعلم عند الغزالي ليس حرفة أو مهنة دنيوية تعود على صاحبها بالربح العاجل وانما هو « عبادة القلب وصلاة السر وقربة الباطن الى الله » .

أما أحمد أمين (٥) فقد أدلى بدلوه في هذه القضية وقال : « ان يوسف بن تاشفين ذو نزعة دينية تخالف نزعة الغزالي ، وكره فيه افراطه في الدعوة الى محاسبة النفس ، فأصدر قاضي قرطبة مع عدد من الفقهاء فتوى

---

(١) ابن عذاری : البيان المغرب ، ج ٤ ، ص ٥٩ ـ هذا وقد اختلف في تاريخ هذا الاحراق فيذكر محمد عبد الله عنان (عصر المرابطين والموحدين ، ص ٧٨ ـ ٧٩) انه تم عام ٥٠٣هـ / ١١٠٩م ـ ويرى محيي الدين عزوز (التطور المذهبي بالمغرب ، ص ٧٥) ان الاحراق كان عام ٥٠٠هـ / ١١٠٦م ، اما الجراري (الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه ، ج ١ ، ص ٩٤ ـ ٩٦) فيرى انه حدث في أواخر عهد المرابطين .

(٢) تاريخ الإسلام السياسي ، ج ٤ ، ص ٤٥٦ .

(٣) مع حركة الاسلام في أفريقية ، ص ٥٤ .

(٤) المغرب الكبير ، ج ٢ ، ص ٧٤٤ ـ ٧٤٥ .

(٥) ظهر الإسلام ، ج ٣ ، ص ٣٧ .

تعتبر الغزالي مبتدعاً زنديقاً ، وعلى ذلك احرقوا كتابه احياء علوم الدين) .

الا انني لم أعثر على مصدر ذكر فيه ان الإحراق قد تم في عهد يوسف بن تاشفين بل ان الذي تمدنا به المصادر هو الحديث عن علاقات طيبة كانت تربط الغزالي بيوسف بن تاشفين وهذا ما اتضح من خلال طلب يوسف فتواه في اسقاط ملوك الطوائف ومحاولة الغزالي مقابلة يوسف ، حيث ذكر انه شد الرحال قاصداً يوسف الا انه لما وصل الى مصر جاءه نعي يوسف فعاد من حيث أتى وهذا ما أوضحناه في الباب الأول .

ويرى محمد عبد الله عنان [1] أن أهم عوامل الاحراق هي : ما حواه الكتاب من حملة لاذعة على علماء الفروع ، والتنويه بجهلهم وسخف مجادلاتهم السطحية ووصف الغزالي لهم بأنهم مجانين ، وكونهم يجهلون علم الأصول الذي ينوه الغزالي بأهميته وعظم قدره .

هذا ويشك فريق في القضية من الأساس ولا يستبعدون ان الاحراق قد يكون قصة مفتعلة من وضع بعض المتزلفين من اتباع المهدي بن تومرت [2] .

ويرجح ان أهم عوامل احراق كتاب علوم الدين هي :

أولاً : ان الكتاب تضمن تعريضاً بهؤلاء الفقهاء الذين أقبلوا على الدنيا ، ومما ورد في هذا الكتاب مجموعة نقول منها : قال سعيد بن المسيب رحمه الله : اذا رأيتم العالم يغشى الامراء فهو لص . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إذا رأيتم العالم محباً للدنيا فاتهموه على دينكم الى غير ذلك من الآثار التي لم تعجب الفقهاء ، ويظهر لنهم رأوا فيها تحريضاً للعامة عليهم ، لا سيما اذا علمنا ان الفقهاء كانوا يتمتعون بسلطات واسعة في هذا العهد فامتلكوا المال والسلطة ، مما أغاظ المنافسين لهم من العلماء والأدباء الذين لم يدخروا

---

(١) عصر المرابطين والموحدين ، ص ٧٨ ـ ٨٠ .

(٢) ابن أبي دينار : المؤنس ، ص ١١١ ، حاشية رقم ١ .

وسعاً ، ولم يتركوا مناسبة ليشهروا بهم [١] . كما ان الغزالي أفرد الباب السادس من كتابه إحياء علوم الدين لعلماء السوء [٢] .

ثانياً : يبدو أن الاحراق يعود الى اشتداد الصراع بين المتصوفة والفقهاء ، وبما أن كتاب الأحياء قد جمع بين أحكام الورع وآداب المتصوفة ، فقد كان خطراً على الفقهاء لأنه سيرجح كفة المتصوفة ، ولذلك أفتى الفقهاء باحراقه [٣] .

هذا ولم يمر احراق كتاب إحياء علوم الدين دون معارضة بعض الفقهاء ، والعامة ، وعلى رأس هؤلاء علي بن محمد بن عبد الله الجذامي ، وابو الحسن المقري من أهل المرية ، والمعروف بالبرجي ، وأبو القاسم بن ورد ، وهو من فقهاء المرية أيضاً ، وأبو الفضل النحوي أحد فقهاء قلعة حماد [٤] .

ويذكر ان البرجي (ت ٥٠٩هـ / ١١١٥م) أفتى بتأديب من يحرق كتاب الاحياء وتضمينه قيمته لأنه مال مسلم . وكان البرجي مشاوراً في الأحكام في مدينة المرية فلما علم ابن حمدين بفتواه عزله [٥] .

كما انتصر ابو الفضل النحوي (ت ٥١٣هـ / ١١١٩م) لأبي حامد الغزالي وكتب لأمير المسلمين علي بن يوسف بذلك ، وأفتى بأن الأيمان التي فرضت في عملية التفتيش أيمان لا تلزم ، وقال : « وددت أنني لم أنظر في عمري سوى كتاب الإحياء » وكان قد انتسخ كتاب الاحياء في ثلاثين جزءاً فاذا دخل رمضان قرأ كل يوم جزءاً [٦] . وذكر ايضاً ان سيد علي بن حرزهم

---

(١) ابراهيم حركات : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٩٤ ـ ١٩٥ .

(٢) ابو حامد الغزالي : احياء علوم الدين ، ج ١ ، ص ٥٨ ـ ٦١ .

(٣) ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ، ج ١ ، ص ١٩٤ ـ ١٩٥ .

(٤) المرجع السابق نفسه ، ج ١ ، ص ١٩٤ ـ ١٩٦ .

(٥) ابن الأبار : المعجم ، ص ٢٧١ ـ ٢٧٢ .

(٦) السلاوي : الاستقصا ، ج ٢ ، ص ٧٤ .

اعتكف على قراءة الاحياء في بيته مدة سنة (١) .

على أي حال استمرت مطاردة كتاب احياء علوم الدين حتى بعد وفاة علي بن يوسف عام ٥٣٧هـ / ١١٤٢م ، وهذا ما أكدته احدى الرسائل الصادرة عن تاشفين بن علي والمؤرخة في جمادى الأولى عام ٥٣٨هـ / ١١٤٣م والموجهة الى أهل بلنسية نص فيها على احراق كتاب احياء علوم الدين ومما جاء فيها :

« ... ومتى عثرتم على كتاب بدعة ، وخاصة وفقكم الله كتب أبي حامد الغزالي فليتتبع أثرها وليقطع بالحريق المتتابع خبرها ، ويبحث عنها ، وتغليظ الايمان على من يتهم بكتمانها » (٢) .

الدراسات الأدبية

يصر بعض الباحثين المحدثين على ان الحركة الأدبية لم يكتب لها التشجيع في هذا العهد ، فعاش اكثر الأدباء والحالة هذه قابعين يترقبون الفرصة في العهد الموحدي ، الذي امتاز بنهضة أدبية شاملة (٣) . فالعهد المرابطي على حد زعمهم عهد تراجعت فيه منزلة الشعراء ، وكسدت بضاعة الشعر ، وخلت الساحة لرجال السيف والفقهاء (٤) ، ويستشهدون على تراجع مكانة الشاعر وتدهور الحياة الأدبية بصرخة بعض الشعراء من ذلك الوضع خاصة ما قاله الأعمى التطيلي من قصيدة من بعض أبياتها :

يا دولة الضيم اجملي او تجاملي ۔۔۔ فقد أصبحت تلك العرى والعرائك

(١) ابن الآبار : المعجم ، ص ٢٧٣ ، حاشية رقم ١ .

(٢) حسين مؤنس : نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين الى الموحدين ص ١١٣ ، انظر نص الرسالة كاملة في نفس المقال ، ص ١١٠ ـ ١١٣ .

(٣) ابراهيم حركات : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠ ، الجراري : الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه ، ج ١ ، ص ٨٤ ـ ٨٥ .

(٤) احسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) ، ص ٩٠ .

ويا « قام زيد » اعرضي او تعـارضي فقد حال من دون المنى قال مالك [1]

ولكن ما هي المنطلقات التي اتخذت لوصف العصر المرابطي بالتخلف الأدبي وانحطاط مكانة الأديب؟ أجل اذا كان الحكم ينسحب على عهد يوسف بن تاشفين فقط فنحن نسلم بأن تلك الفترة قد شهدت كساداً لسوق الشعر ، لأن المرابطين شغلتهم في أول الأمر أمور الجهاد فلم يحفلوا بالشعر والأدب [2] ، الا ان هذا الحال لم يستمر اذ أقبل أمراء المرابطين في عهد علي بن يوسف على تشجيع الشعراء والأدباء ، وأصبحت مجالسهم تغص بمادحيهم فعادت سيرة الشعر الأولى ، وبدأت الحياة الأدبية في عهد علي بن يوسف زاهية براقة ، وأخذ بعض الأمراء يقلدون ملوك الطوائف في عهودهم الزاهرة ، فاتخذوا السمار والندماء ، واستمعوا للشعر والموسيقى [3] ، وركنوا لحياة الدعة والترف مما كان سبباً في اندثار عقد دولتهم وهي ما تزال في ريعان شبابها .

واذا كان اختفاء شعر الخمريات، والغزل المبتذل هو المقياس في الحكم على تقدم أو انحطاط الأدب فنحن نسلم بأن الأدب قد انحط من هذه الناحية لاختفاء هذا اللون المبتذل من الأدب لأن دولة المرابطين دولة قامت على تعاليم الإسلام النقية واختفاء شعر الخمريات والغزل دليل على أصالتها لأنها قلبت الموازين لتعيد للأدب قيمته وتصحح مسيرته التي يجب ان يسير وفقها فوضع الأديب في هذا الاطار يساعد على بروز أدب يمتاز بصدق العاطفة وقلة المبالغة يلقى له صدى في النفوس محدثاً بها تأثراً واعجاباً ، فالأدب في هذا الطور صورة من حياة المرابطين المحتشمة وتلك هي على الأقل الصبغة العامة له [4] .

---

(١) ديوان الأعمى التطيلي ص ف ، ص ق .

(٢) الحسن السائح : الحضارة المغربية عبر التاريخ ، ج ١ ، ص ١٥٢ ؛ حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٤٤٤ - ٤٤٥ .

(٣) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٤٤٤ - ٤٤٥ .

(٤) ابراهيم حركات : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

واذا سلمنا جدلاً ان دولة الأدب قد أصابها الوهن في عهد الدولة المرابطية فلا بد ان نسلم بأن هذا الوهن يعود الى أواخر عهد ملوك الطوائف، وهذا ما أكده عبد الله بن الحجاري حين قال: « ... اجتمعت بهم (أي ملوك الطوائف) وأمرهم قد هرم وساءت بتغير الأحوال ظنونهم وملوا من الشكر وضجروا من المردة ... فلم يبق فيهم فضل للأفضال ... »[1].

على أي حال لقد شهد عهد علي بن يوسف تطوراً كبيراً في مجال الأدب، ويمكن اعتبار هذا العهد عهد اكتمال ونضوج للأدب الذي تمتد جذوره في أعماق تاريخ المغرب والأندلس، والذي بدأ ازدهاره بشكل واسع في عهد ملوك الطوائف ومما ساعد على نضوج الأدب في هذه الفترة اضافة للعوامل التي أشرت اليها في الصفحات السابقة من نشاط الرحلة الى المشرق، وما كانت تتمتع به الدولة من أمن واستقرار ورخاء اقتصادي، وتشجيع منقطع النظير للعلماء والأدباء من قبل حكام هذه الدولة، انه كان لتعدد مراكز الاشعاع الحضاري في عهد علي بن يوسف دور كبير في ابراز أدب ناضج ومشع. فقد أسهمت مدينة مراكش، وفاس، والمرية، وقرطبة، وإشبيلية، وسرقسطة، وغيرها مساهمة فعالة في دفع عجلة الحركة الفكرية في هذا العهد. كما أسهم اتساع رقعة الدولة المرابطية، وما ترتب على ذلك من تطور للنواحي الإدارية، وتشعب علاقاتها الخارجية في نضج الثقافة لأن هذا الوضع حتم على الدولة استخدام أعداد كبيرة من الكتاب والوزراء والإداريين في مختلف النواحي لتسيير دفة الحكم، وهذا الوضع أدى الى اذكاء روح المنافسة بين الكتّاب على تلك المناصب عن طريق التبريز في مناحي العلم وخاصة الأدب، وتجويد الكتابة ليرقوا الى مناصب مرموقة في البلاط المرابطي او ديوان الانشاء. وفعلاً تطالعنا كتب التراجم في هذه الفترة بأسماء عشرات الكتّاب الذين تولوا الكتابة في بلاط علي بن يوسف أمثال: ابن أبي الخصال، وابن القصيرة، وعبد الرحمن بن محمد المعافري، وأبو محمد

---

(١) احسان عباس: تاريخ الادب الأندلسي، ص ٩١.

عبد الغفور ، هذا علاوة عن الكتاب الذين اختصوا بأمراء المرابطين في الحواضر المختلفة ممن سنتناولهم بالحديث فيما بعد .

ومن نتائج المنافسة بين العلماء في هذا العصر ظهور كتب الردود ، فقد ألف عدد منهم كتباً ورسائل في الرد على غيرهم . ومن أمثلة ذلك ما كان بين ابن السيد البطليوسي ، أبي محمد عبد الله بن محمد (ت ٥٢١هـ / ١١٢٧م) وبين ابن خلصة ، ابي عبد الله محمد بن عبد الرحمن (ت ٥١٩هـ أو ٥٢١هـ / ١١٢٥ أو ١١٢٧م) من منازعات علمية ، فألف كل واحد منهما رداً على صاحبه ، وقد وصفت رسالة ابن خلصة التي رد فيها على ابن السيد بأنها من أجود الرسائل . ويبدو انه كان من بين الاتهامات المتبادلة بين الرجلين ، ان ابن خلصة ذهب الى أن كتاب ابن السيد المعروف بشرح أدب الكتّاب لابن قتيبة والموسوم بالاقتضاب ليس له ، وان ابن السيد قد أغار عليه وانتحله وان مؤلفه الحقيقي هو العالم اللغوي أبو العباس بن بلال أحمد بن محمد المرسي (ت ٤٦٠هـ / ١٠٦٧م) كما كانت هناك ايضا منازعات بين ابن العربي والبطليوسي حول بعض القضايا العلمية [1] . لقد أسهمت هذه المنافسات اسهاماً فعالاً في اثراء المكتبة الاسلامية بمؤلفات تمتاز بالجودة والرصانة ، وحتى نقف على مدى ازدهار الحياة الأدبية في هذا العصر سنتحدث عن الشعر والنثر وما يتفرع منهما بشيء من الايجاز :

ـ الشـــعـــر :

لقد عاشت الأمة الإسلامية في المشرق والمغرب والأندلس منذ النصف الأول من القرن الخامس الهجري سلسلة من المآسي والنكبات ، ففي هذا القرن سقطت الخلافة في الأندلس ، وفيه عاثت قبائل بني هلال في المغرب ، وفيه سقط بيت المقدس بيد الصليبيين . فالمأساة هي مأساة لمعالم وطنية تنحدر ببطء الى الضياع والنهاية ، ومأساة لمعالم دينية تتلاشى يوماً بعد

(١) رضا عبد الجليل الطيار : المرجع السابق ، ص ٤٠ .

يوم ، ومأساة للانسان الذي يشاهد كل يوم جانباً من جوانب حضارته يتحطم وينهار ، وصرحاً من صروح المجد يتحول الى خراب ودمار .

والنكبة تبتدىء في تراث الأدب الأندلسي والمغربي منذ ان أخذت بعض مدائن الأندلس تسقط في يد الأسبان النصارى ، مثل مدينة بربشتر ، وطليطلة وسرقسطة ، وبلنسية . لقد تأثر الشاعر بهذه الأوضاع فتتبع بشعره هذه المحن والنكبات ، مسجلاً مراحلها مخلداً شعور الرغبة فيها معبراً بالدمع والدم عن تلك الاحساسات العميقة الصادقة التي كان يشعر بها الانسان تجاه الأرض والدين في تجربة انسانية قل نظيرها في أدبنا العربي .

وواجه الشعراء الأندلسيون هذه النكبات والمحن بروح من الصمود والنضال والمقاومة ، فنشروا الوعي وبثوا الحماس في النفوس وكشفوا عن أسباب الهزيمة فتحملوا مسؤوليتهم في غير ضعف أو تخاذل [1] ونظموا القصائد الرائعة في مدح قادة المرابطين الذين تصدوا لهجمات الممالك النصرانية الأسبانية .

ومن هؤلاء الشعراء ابن الزقاق الذي وصف في بعض قصائده بعض المعارك التي دارت بين النصارى والمرابطين ، وقد صور فيها هلع الأعداء وخوفهم ، فهم يخشون قائد المرابطين حتى في المنام ، ثم انهم لرهبتهم من أسنة المسلمين ورعبهم من سيوفهم غدو يفرون من لمعان الكواكب وينفرون من الغدران توهماً واشتباهاً ، ومن أبيات هذه القصيدة .

حتى إذا مـا النقـعُ أظـلمَ أجفـلوا	خـوف انتقـامـك فيـه كـالظُّلمـان
فـرقـوا لـطيفـك في المنـام ففـرّقـوا	بين الكـرى المعهـودِ والأجفـان
ولقـد تـروعهـم الكـواكبُ هيبـةً	لـمـا حكـيـن أسـنـةَ المـرّان
ولربما عـطشوا فخـلا هـمْ عن الغُدُر	اشـتـبـاهُ الـبـيضِ بـالـغـدران

(١) الطرابلسي احمد اعراب : الأصوات النضالية والانهزامية في الشعر الأندلسي ، مجلة عالم الفكر ، مج ١٢ - ابريل - مايو - يونيو ١٩٨١ ، ص ١٣١ - ١٣٣ .

الى ان يقول :

رايـاتُـهُ والـنصـرُ مـعـقـود بـهـا   كقلوبِ أهلِ الشركِ في الخفقانِ [1]

والى جانب أولئك الشعراء المناضلين الملتزمين نجد جماعة أخرى من الانهزاميين ، وهي جماعة آثرت أسلوب الخضوع والخنوع واليأس على أسلوب المقاومة والنضال وفضلت العيش في أحضان الهزيمة ولم تستطع ان تسمو فوق جروحها ، لقد انكمش هؤلاء الشعراء على انفسهم ، وأخذوا يبكُون ويشكون ، ويلقون تبعات ما حدث وما يحدث من ملمات وكوارث على الدهر ، حاثين الناس على الفرار والهروب ومن هؤلاء الشعراء ابن العسال [2] .

ومن الموضوعات التي ازدهرت في هذا العهد شعر الطبيعية ، الذي استمد موضوعاته من طبيعة الأندلس والمغرب الغناء . فالأندلس تمتاز بطبيعتها الأخاذة ، ومياه أنهارها الغزيرة ، والتفاف غاباتها ، وكثرة حدائقها ، وبيئاتها المتباينة في جمالها . فالجنوب يمتاز باعتدال الجو وانتشار أشجار اللوز المزهرة الممزوجة بأزهار الأشجار المختلفة الضاحكة لتغريد الطيور الفرحة ، واذا سرنا الى الشمال شاهدنا الثلوج المتراكمة على قمم الجبال . كل هذه المناظر الخلابة كان يراها كل انسان عاش على أرض فردوسنا المفقود ولكن بمنظار غير المنظار الذي رآها به شاعر الطبيعة والجمال ابراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله خفاجة (٤٥٠ - ٥٣٣هـ / ١٠٥٨ - ١١٣٧م) الذي بقي صامتاً حتى نطق في هذا العهد [3] .

---

(١) ابن الزقاق: ديوان ابن الزقاق ، ص ٢٦٦ - ٢٦٨ ؛ محمد مجيد السعيد : الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس ، ص ١٠٥ - ١٠٧ .

(٢) الطرابيسي احمد اعراب : المقال السابق ، ص ١٥٦ - ١٥٧ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٥٧ .

وابن خفاجة من أعيان مدينة شقر ذات الطبيعة الخلابة [1] والتي كان مفتوناً بحبها ، والتي كان يرى فيها كل ما يدور في خلجان نفسه المرهفة فاستلهم منها عيون قصائده .

لقد كان ناظماً مطبوعاً يشهد بتقدمه الجميع ، مالكاً لناصية البديع [2] ، فأثنى عليه ابن خاقان [3] فقال عنه : « مالك أعنه المحاسن وناهج طريقها العارف بترصيعها وتنميقها الناظم لعقودها الراقم لبرودها . . . » .

ويعتبر ان خفاجة بحق شاعر الطبيعة الأول في هذا العهد لما امتاز به شعره من رقة وأنيق ألفاظ ، وتعمده الاستعارات ، والكنايات ، والتورية ، والجناس ، وغيرها من المحسنات المعنوية . وقد تفرد بالوصف والتصرف فيه لا سيما وصف الطبيعة الضاحكة بما تحويه من أنهار وبساتين وأزهار ، ورياض ، حتى لقبه أهل الأندلس بالجنان ، ولقبه الشقندي بصنوبري الأندلس . كيف لا والطبيعة عنده كل شيء ، فقد شغف بها ومزج روحه بروحها وبادلها الشعور والاحساس ، وتحدث اليها كما يتحدث الى شخص حي [4] .

ولم يقتصر ابن خفاجة في اشعاره على الطبيعة الصامتة بأشجارها وأنهارها ، وسمائها ، وجبالها ، بل وصف الطبيعة المتحركة كالفرس ، والذئب وبعض الطيور [5] .

واستطاع ابن خفاجة بأشعاره التي تمثل بشر ومرح الطبيعة ان يكون استاذاً لهذا اللون من الشعر حتى أواخر مملكة غرناطة [6] .

---

(١) ابن دحية : المطرب من أشعار أهل المغرب ، ص ١١١ .

(٢) ابن سعيد : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٦٧ - ٣٦٩ .

(٣) قلائد العقيان: ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

(٤) ديوان ابن خفاجة ، ص ٥ .

(٥) جودت الركابي : في الأدب الأندلسي ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

(٦) غومث : الشعر الأندلسي ، ص ٥٨ - ٥٩ .

ولم تشغل الطبيعة ابن خفاجة عن مدح رجالات الدولة المرابطية أمثال : الامير تميم ، وابراهيم ، وابن الحاج وغيرهم [1] . ومن حسن الحظ ان ابن خفاجة خلف لنا ديوان شعر يحوي نماذج ممتازة من أشعاره ومدائحه لأمراء المرابطين .

وكان ابن خفاجة اضافة لنبوغه الشعري عالماً من أئمة البلغاء نزيه النفس لا يتكسب بالشعر ، ولا يمتدح رجاء الرفد [2] ، ولم يتصل بأحداث السياسة وقد سافر خلال حياته الى بلاد العدوة الا ان شوقه الى بلاده شده فعاد اليها حيث عاش حياة هادئة . وفي أخريات أيامه اعترته الوحشة فبكى صباه ، واعتزل الناس حتى وافته منيته [3] ، لأربع بقين من شوال في يوم الأحد عام ٥٣٣هـ [4] . ومن نماذج شعره :

يـا أهـلَ أنـدلُس لـلّهِ دَرُّكُـمُ مـاءٌ وظـلٌ وأنـهـارٌ وأشـجـارُ
مـا جَنّـةُ الخُـلدِ إلاّ في ديـاركُـمُ ولـو تخيـرت هـذا كـنتُ اختـارُ
لا تختشوا ، بعد ذا أن تـدخلو سقراً فليسَ تُـدخَلُ ، بعـد الجنّةِ النـارُ [5]

ومن الأغراض الشعرية التي ازدهرت في عهد علي بن يوسف ايضاً شعر الحكمة ، وشعر التندر بالمرابطين ، والأراجيز الشعرية التاريخية .

أما شعر الحكمة فيمثله خير تمثيل الشاعر عبد الرحمن السهيلي (٥٠٧ ـ ٥٨١هـ / ١١١٣ ـ ١١٨٥م) ، ومن نماذج شعره في هذا الحقل :

تـواضـع اذا كنت تبـتـغي الـعـلا وكنت راسيـاً عنـد صفـو الغضب
فـخـفض الـفتـى نـفـسـه رفـعـة لـه واعتبـر بـرسـوب الـذّهب [6]

---

(١) ابن خفاجة : ديوان ابن خفاجة ، ص ١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٦٩ ، ١٨٥ .
(٢) ابن سعيد : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٦٧ ـ ٣٦٩ .
(٣) جودت الركابي : المرجع السابق ، ص ١٠٥ ـ ١٠٦ .
(٤) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٧ .
(٥) ديوان ابن خفاجة ، ص ١١٧ .
(٦) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ٤٨٠ ـ ٤٨١ .

ومن أعلام شعر التندر بالمرابطين الشاعر أبو بكر بن محمد بن أحمد الأنصاري المشهور بالأبيض (ت ٥٢٥هـ / ١١٣٠م) الذي كان مولعاً بهجاء والي قرطبة المسمى الزبير [١] .

وشارك الشاعر الأبيض في هجاء المرابطين والفقهاء كلٌ من ابن خفاجة والشاعر اليكي الذي قال في هجاء المرابطين :

ان المرابط باخلٌ بنواله لكنه بعياله يتكرمٌ
الوجهُ منه مخلّق لقبيح ما يأتيه فهو من أجله يتلثم [٢]

ونبغ ابو طالب عبد الجبار من أهل جزيرة شقر ، والذي كان يلقب بالمتنبي بنظم الأراجيز الشعرية التاريخية ، فله أرجوزة في التاريخ تتبع فيها الأحداث من البعثة حتى وقته ، وأول أرجوزته :

أبدأ باسم الله التُرجيز رب الأنام الملك
ثم بذكر المصطفى محمد صلى عليه الله طول الأبد

وقد ختم ارجوزته بذكر دولة المرابطين التي كان يعيش في كنفها [٣] .

ومن الأغراض الشعرية التي ازدهرت في هذا العهد ايضاً ازدهار رثاء ومدح النساء ذوات السلطان ، ومن الذين اشتهروا بهذا اللون الأعمى التطيلي [٤] الذي مدح الحرة حواء ، ورثى عدداً غير قليل من النساء [٥] .

كما ازدهرت الأغراض التقليدية في الشعر وهي : الفخر الذي يمثله ابن سعيد العنبسي (٤٨٣ - ٥٣٩هـ / ١٠٩٠ - ١١٤٤م) . أما شعر الخمريات والغزل ، والوصف فيمثله خير تمثيل ابن اخت الشاعر المشهور ابن خفاجة ،

---

(١) ابن سعيد : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٢٧ .

(٢) احسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ، ص ١٤٣ - ١٤٤ .

(٣) ابن بسام : الذخيرة ، ق ١ ، ج ٢ ، ص ٩١٦ ، ٩١٩ - ٩٢٠ ، ٩٤٤ .

(٤) احسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .

(٥) ديوان الأعمى التطيلي ، ص ف ، ص ، ق .

ابو الحسن علي بن عطية بن مطرف بن سلمة المعروف بان الزقاق ، المولود في مدينة بلنسية ، والذي توفي سنة ٥٢٨هـ أو سنة ٥٣٠هـ / ١١٣٣ أو ١١٣٥م والذي اشتهر بسعة ثقافته . وقد قام بجمع شعره غرسيه غومث ونشره بمدريد [١] .

أما شعر النسيب ، والشعر المعبر عن اللوعة واليأس من الحياة التي يحياها الأديب فيمثله ابن بقي (ت ٥٤٠ هـ / ١١٤٥م) [٢] . كما ازدهر شعر الوقائع الحربية ، ويمثل هذا اللون من الشعر عدد من الأدباء أشهرهم ابن ابي الخصال [٣] ، وابن الصيرفي [٤] ، والفقيه أبو بكر يحيى بن محمد بن يوسف [٥] .

ومن الذين اشتهروا بشعر المديح جعفر بن محمد بن أبي سعيد بن شرف القيرواني (٤٤٤ ـ ٥٣٤هـ / ١٠٥٢ ـ ١١٣٩م) [٦] ، وابو الحسن علي بن مهلهل الجلياني [٧] ، وابن السراج (ت ٥٠٨هـ / ١١١٤م) [٨] ومحمد بن عيسى المعروف بابن اللبانة (ت ٥٠٧هـ / ١١١٣م) [٩] ، وأبو إسحاق ابراهيم بن عبيد الله المعروف بابن النوالة [١٠] ، وأبو بكر بن افتتاح

---

(١) ابن سعيد : المغرب في حلي المغرب ، ج ٢ ، ص ٣٢٣ ـ ٣٢٤ ؛ ابن دحية : المصدر السابق ، ص ١٠٠ ـ ١٠١ ؛ ابن الأبار : الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ١٩ ـ ٢٠ ، حاشية رقم ١ ؛ غومث : شعراء الأندلس والمتنبي ، ص ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٨١ ، ١٨٥ ـ غومث : الشعر الأندلسي ص ٥٩ ـ ٦٠ (توجد نسخة مخطوطة لديوان ابن الزقاق محفوظة في مكتبة برلين ، ورقمها في فهرس أهلوارد ٧٦٨١ ، وتوجد أخرى في المكتبة الظاهرية بدمشق انظر غومث : شعراء الأندلس والمتنبي ، ص ١٦٨ .

(٢) غومث : الشعر الأندلسي ، ص ٦٠ ـ ٦٢ .

(٣) ابن سعيد : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٩٣ .

(٤) مؤلف مجهول : الحلل الموشية ، ص ١٢٤ ـ ١٢٩ .

(٥) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٩٥ .

(٦) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ١٢٩ ـ ١٣٠ .

(٧) ابن سعيد : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٥٠ .

(٨) المصدر السابق نفسه ، ج ١ ، ص ١١٦ ـ ١١٧ .

(٩) ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ، ورقة ١٥٢ ؛ ابن خاقان : المصدر السابق ، ص ٢٨٢ .

(١٠) ابن سعيد : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٧١ .

الذي اشتهر بمدح علي بن يوسف . وأبو بكر محمد بن رواح الذي كان نديماً لابراهيم بن يوسف [1] ، وعبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن مالك المعافري الذي توفي عام ٥١٨هـ / ١١٢٤م في مدينة يابرة ، وقد أثنى عليه الفتح بن خاقان ، ورثاه ابن أبي الخصال بقصيدة باكية ، ومحمد بن عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي الجراوي من أهل وادي آش ، والذي امتاز اضافة لنبوغه في الشعر بثقافة موسوعية في مختلف العلوم المعروفة في عصره [2] .

وشارك اليهود في الحركة الأدبية في عهد علي بن يوسف بن تاشفين ، وبرز منهم عدد لا بأس به في مختلف مناحي الحياة العلمية وبشكل خاص في الشعر ، ومن أشهر شعرائهم موسى بن عزرا المتوفى عام ٥٣٢هـ / ١١٣٨م ، والذي ألف عدة مؤلفات بالعربية أشهرها كتاب « المجاز والمذاكرة » ، وهو رسالة في فن الكتابة وتاريخ الشعراء اليهود من أهل الأندلس وآثارهم ، ويضم أطرافاً من الشعر العربي . وقد ضاع الأصل العربي لهذا الكتاب ، ولم تبق الا ترجمته العبرية ، وله كتاب آخر قيم هو « الحديقة في معنى المجاز والحقيقة » ، ولم يبق منه الا فقرات من ترجمته العبرية المعروف باسم « أرحاب هابوشم » ، وهو كتاب يغلب عليه الطابع الفلسفي ، ويحوي طائفة من الأمثال والحكم [3] .

فن الزجل والتوشيح :

ومن معالم النهضة الأدبية في عهد علي بن يوسف والدولة المرابطية ككل ازدهار فن الزجل والتوشيح . أما الزجل فقد فرض وجوده في ميادين الشعر في هذا العهد ، الا ان الدارسين على خلاف حول تقييم هذا الفن . فالبعض وعلى رأسهم المستشرق الأسباني جارثيا غومث . يرون في الزجل

(١) ابن سعيد : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٤٦ - ٣٨٦ .

(٢) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٢ ، ص ٤٧٦ - ٤٧٧ - ج ٣ ، ص ٥٢٥ - ٥٢٧ .

(٣) بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٤٩٨ - ٤٩٩ .

مظهراً من مظاهر هبوط الذوق هبوطاً بالغاً ، ويرى بعض الباحثين ان الزجل مظهر من مظاهر ازدهار الأدب ، لأن الزجال كان يملك ناصية العربية الفصحى والعامية [1] .

ويظهر أن جارثيا غومث في حكمه السابق على الأزجال كان متأثراً بما قراه في مخطوط المكتبة الأهلية بمدريد، والمكتوب على رق الغزال عام ٤٣٨هـ / ١٠٤٦م ، أي قبل ان يقفز الزجل في الأندلس قفزته الكبرى على يد ابن قزمان بنحو قرن كامل من الزمن ، والمخطوط المشار اليه هو جمع نواميس الكنيسة والقانون المقدس ، وقد جاء فيه « لا يجوز للقلارقين [2] ان يحضروا الملاهي والزجل في العرائس ، والمشارب ، بل يجب عليهم الانقلاب قبل دخول تلك الاطراب والأزجال والتنحي عنهم » [3] .

كما ان كتب التراجم العربي أعرضت عن ايراد تراجم للزجالين [4] ، ويبدو أنها أيضاً اعتبرت هذا اللون انحرافاً وانحطاطاً في الأدب لاستخدامه العامية لغة له .

وبصرف النظر عن القيمة الأدبية للزجل فله في نظر المؤرخ قيمة كبيرة لأنه يعتبر المرآة الصادقة للأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية فالزجال يستمد أزجاله من أحداث الحياة اليومية ، والشعور العام للرعية ، ويعبر عن معاناة الناس بكل حرية لأنه يطلق لنفسه العنان غير آبه بمراقبة أحد ، ويؤكد المستشرق خوليان ريبيرا على ان الأزجال ما هي الا أغاني او قصائد نظمت لتغنى بصوت مرتفع أمام العامة ، في حين يرى المستشرق نيكل ان الأزجال لم تكتب للعامة وانما للخاصة في اجتماعاتهم ومسامراتهم [5] .

---

(١) عباس الجراري : الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه ، ج ١ ، ص ٩٨ - ٩٩ .

(٢) لم أعثر على وصف للمقصود .

(٣) عبد العزيز الأهواني : الزجل في الأندلس ، ص ٥٩ .

(٤) المرجع السابق نفسه ، ص ٧ .

(٥) غومث : شعراء الأندلس ، ص ٢٠٣ - ٢٠٥ ، ٢٠٨ - ٢٠٩ .

على أي حال يعتبر محمد بن عيسى بن عبد الملك بن عيسى المكنى بأبي بكر بن قزمان (٤٨٠ ـ ٥٥٥ هـ / ١٠٨٧ ـ ١١٦٠ م)[١] رائداً لهذا اللون من الفن ، فعلى يديه وصل الى قمة الازدهار وارتبط الزجل باسمه . وكان ابن قزمان قبل ذلك مشتغلاً بالنظم المعرب فلما وجد أنه لا يستطيع أن ينافس أعلام الشعر أمثال ابن خفاجة وغيره اتجه الى الزجل فصار إماماً فيه[٢] .

وكان ابن قزمان ينتسب الى عائلة شريفة ، وخبيراً بشعراء العرب أمثال : أبي تمام ، والمتنبي وغيرهم ، ويعرف الفلسفة ، والفقه والبلاغة [٣] .

وأهمية أزجال ابن قزمان في تاريخ دولة المرابطين تعود الى انه يعكس وجهة نظر العامة حين يعلق على الأحداث السياسية والاجتماعية والعسكرية ، فنجده يتحدث عن انتصار الزلاقة ، وعن موقعة افراغة ، ونجد الغبطة تغمره لاختيار أحد أصدقائه لمنصب قاضي الجماعة كما قام بمدح الأسر القرطبية الكبيرة مثل أسرة بني زهر وبني حمدين ، وبني رشد وغيرهم . وتعليقاته على الأحداث التاريخية تعليقات صادقة وعفوية ، وتعتبر لوناً من الصحافة الشعرية المفهومة لعامة أهل الأندلس [٤] الذين كانوا يتذوقونه ويشعرون بروعته لأنهم يستطيعون استيعابه بسهولة [٥] .

وكان لهذا الزجال ديوانان احدهما صغير سماه « اصابة الأغراض في وصف الأعراض » وهو الذي وصل الينا ، والثاني ديوان كبير . وقد نسخ الديوان الأول في مدينة صفد الفلسطينية في منتصف القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، واعتنى بنشره عدد من المستشرقين [٦] .

---

(١) احسان عباس : المرجع السابق ، ص ٢٦٧ ـ ٢٦٩ .

(٢) ابن سعيد : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٠٠ ـ ١٠١ .

(٣) غومث : شعراء الأندلس ، ص ١٩٧ ـ ١٩٨ .

(٤) المرجع السابق نفسه ، ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩ .

(٥) مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي ، ٤٤٧ ـ ٤٤٩ .

(٦) نشره دافيد جنزبرج سنة ١٨٩٦م ، ثم نشره المستشرق التشيكي نكل باللاتينية ، ثم أعاد نشره ج. س. كولان بحروف لاتينية ايضاً ، ثم قام بنشره المستشرق الأسباني غومث انظر : احسان عباس : المرجع السابق ، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥ .

أما فن التوشيح فيعتبر مظهراً من مظاهر الترف الفني (١) ، وثورة على طبيعة القصيدة ، وهو حركة تطور وتجديد وعودة الى الغنائية ، أو هو محصلة للترف الحضاري ينطوي على كل مقومات السطحية الجذابة (٢) .

وأهم موضوع في الموشحات هو المديح أولاً ، والغزل والمجون ثانياً (٣) . ويرى جودت الركابي (٤) ان هناك تشابهاً بين أغراض الموشحات وأغراض الشعر القديم الذي كان ينشده شعراء جنوبي فرنسا المعروفون بشعراء التروبادور (Troubadours) ، الذين كانوا ينشدونه في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، الا ان العلاقة بين الفنين ما زالت موضع الجدل العلمي .

لقد ازدهر هذا الفن على يد وشاحين كبار تألقوا في عهد علي بن يوسف أمثال ابن اللبانة ، والأعمى التطيلي ، وابن بقي ، وابن باجة ، وابن الصيرفي (٥) . على ان أشهر هؤلاء الوشاحين على الاطلاق هو ابو جعفر أحمد بن عبد الله بن هريرة القيس الأعمى التطيلي الذي توفى في ريعان شبابه عام ٥٢٠هـ / ١١٢٦م ، وقد أثنى عليه ابن بسام في ذخيرته (٦) ، ويروى عنه انه عندما افتتح موشحه بقوله :

ضاحك عن جمان   سافر عن بدر
ضاق عنه الزمان   وحواه صدري

---

(١) عبد البصير عبد الله حسين : رأى في ألقاب الموشحة ونشأة فن التوشيح ، مجلة كلية الشريعة والدراسات الاسلامية ، مكة المكرمة ، السنة الأولى ، ع ١ ١٣٩٣هـ / ١٣٩٤هـ ، ص ٢٨٥ ـ ٢٨٨ ، ٢٩٦ وعن أجزاء الموشح وخصائصه ولغته وأسلوبه انظر : محمد مجيد السعيد : الشعر في عهد المرابطين والموحدين ، ص ٣٩٥ ـ ٤٢٢ .

(٢) احسان عباس : المرجع السابق ، ص ٢١٧ ـ ٢١٩ .

(٣) المرجع السابق نفسه ، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٥ .

(٤) في الأدب الأندلسي ، ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦ ؛ اثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية ، ص ٣٦ ـ ٦٦ .

(٥) ابن سعيد : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

(٦) ق ٢ ، ص ٧٢٨ ؛ مصطفى الشكعة : المرجع السابق ، ص ٣٧٢ ـ ٣٧٣ .

خرق الوشاحون موشحاتهم ، وصار توشيحه مثلاً سائراً في الناس . وقد وصفت بعض موشحاته بأنها مذهبة [1] .

ويذكر انه كان لأبي بكر بن بقي ثلاثة آلاف موشح [2] . ولشهرة هذا الفن ألف علي بن ابراهيم بن محمد بن عيسى بن سعيد الخير البلنسي (ت ٥٢٥هـ / ١١٣٠م) كتاباً سماه « مشاهير الوشاحين في الأندلس » أو « نزهة الأنفس ورقة التأنس في توشيح أهل الأندلس » وهم عشرون [3] .

ووفدت مجموعة من الوشاحين الى المغرب وساعدوا على تعريف المغاربة بهذا الفن الجديد ، ومن الذين أسهموا في هذا التعريف ابن باجه ، وابن اللبانة [4] .

ومن الذين نظموا موشحات في مدح بعض أمراء المرابطين ، وبعض القضاة ، الأعمى التطيلي [5] ، وابن بقي (ت ٥٤٠هـ / ١١٤٥م) . وابن باجة الذي نظم موشحه في مدح ابن تيفلويت والي علي بن يوسف على سرقسطة .

أما ما يمتاز به الموشح فهو اعتماده على أكثر من وزن وأكثر من قافية ، كما يعتمد الوشاح على ضرب من التوزيع العروضي هو أقرب الى التوزيع الموسيقي . وأما اجزاء الموشح فهي : المطلع ، والدور ، والسمط ، والقفل ، والبيت ، والغصن والخرجة [6] .

---

(١) ديوان الأعمى التطيلي ، ص ش .

(٢) احسان عباس : المرجع السابق ، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٥ .

(٣) المرجع السابق نفسه ، ص ٢١٧ ـ ٢١٩ .

(٤) الجراري : الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه ، ج ١ ، ص ٩٨ ـ ٩٩ .

(٥) عن الأعمى التطيلي انظر ابن سعيد : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٥١ ـ ٤٥٦ ؛ ديوان الأعمى ، ص أ ـ ب .

(٦) مصطفى الشكعة : المرجع السابق ، ص ٣٧٢ ـ ٣٧٤ ؛ وعن أجزاء الموشح انظر : عبد البصير ، المقال السابق ، ص ٢٨٥ ـ ٢٨٨ ، ٢٩٦ .

وقد أثرت الأزجال والموشحات في الأدب النصراني في شمال أسبانيا ، فنشأ مثلاً في قشتالة من الموشح والزجل الشعر العامي المعروف بـ (بيليا نتكو) (Villancico) [١] .

ـ النثـر :

لقد تميز عهد علي بن يوسف بن تاشفين بنبوغ عدد كبير من أصحاب الثقافة الموسوعية الذين أغنوا المكتبة الإسلامية بمؤلفاتهم المتنوعة ، التي أخذوا فيها ينافسون علماء المشرق ، فقد ألف ابن بسام كتاب « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » ، ليثبت فيه تفوق شعراء بلاده ، ونظر وهو يؤلفه الى كتاب « يتيمة الدهر » للثعالبي .

وألف الفتح بن خاقان كتاب (قلائد العقيان) ، والذي تحدث فيه عن المعاصرين له من الوزراء والكتّاب ، والشعراء ، ثم ألف كتاب (المطمح) الذي خصصه أيضاً لمشاهير الأندلس[٢] .

وألف أبو عبد الله محمد بن أبي الخصال عدة مؤلفات منها : كتاب « طه الغمامة »[٣] ، وكتاب « طوق الحمامة في مناقب من خصه رسول الله ﷺ من الصحابة رضي الله عنهم بالكرامة وأحلهم بشهادته الصادقة دار المقامة » ، وكتاب منهاج الحسب الثاقب في نسب رسول الله ﷺ وما انتظم به من مناقب صحابته الأبرار [٤] .

وكان ابن أبي الخصال من أكثر الكتاب ملازمة لأمير المسلمين علي بن يوسف ، لسعة ثقافته ، واجادته لفن الكتابة [٥] . وروى عنه الناس سيرة

---

(١) فيليب حتي : تاريخ العرب مطول ، ج ٢ ، ص ٦٧٧ .

(٢) لطفي عبد البديع : الاسلام في اسبانيا ، ص ٧٦ .

(٣) توجد نسخة منه في الخزانة الملكية بالرباط تحت رقم ١/١٠٩٠٤ .

(٤) ابن دحية : المصدر السابق ، ص ١٨٧ ـ ١٨٨ .

(٥) المراكشي : المصدر السابق ، ص ٢٣٧ .

الرسول عليه السلام لابن اسحاق ، والشمائل للترمذي ، وعرف بروايته للحديث حتى حدث عنه خمسون شيخاً [1] . وله ديوان رسائل اتخذ مثالاً يحتذى من قبل أدباء ذلك العصر [2] .

وقد أثنى عليه كثير من أعلام عصره واصفين اياه بما يتمتع به من سعة علم ورصانة اسلوب وانتقاء كلمات ، وطريف عبارة [3] . وقال عنه الفتح بن خاقان [4] بأنه حامل لواء النباهة .

أما ابو مروان بن أبي الخصال (ت ٥٤٠هـ / ١١٤٥م) شقيق عبد الله فكان ايضاً من الكتاب المقربين الى أمير المسلمين علي بن يوسف ، وقد أثنى عليه العماد الأصفهاني ، وأورد نماذج من رسائله التي كتبها عن أمير المسلمين علي [5] .

ومن الكتّاب الذين خدموا في بلاط علي بن يوسف ايضاً أبو محمد عبد الغفور (ت ٥٣١هـ / ١١٣٦م) [6] . الا ان الفتح بن خاقان ذمه وقال فيه :

---

(١) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٣٦٠ ، حاشية رقم ١ .

(٢) المراكشي : المعجب ، ص ٢٤٠ .

(٣) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٢ ، ص ٣٨٩ .

(٤) قلائد العقيان ، ص ١٩٩ - ٢٠٠ ؛ ابن الخطيب: الاحاطة ، ج ٢ ، ص ٣٨٩ - ٣٩٠ ؛ ابن سعيد : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٦ - ٦٧ ، وكان ابن أبي الخصال قد عزل من منصبه بعدما كتب رسالته المشهورة والتي نال فيها من كرامة المرابطين عندما طلب منه علي بن يوسف ان يكتب رسالة الى جند بلنسية حين تواكلوا حتى هزمهم ابن رذمير هزيمة نكراء ، والرسالة تكشف عن مشاعر حقد وحنق ابن أبي الخصال وأهل الأندلس بشكل عام على المرابطين ، وربما وجدها فرصة مناسبة للتنفيس عما يعتمل في نفسه من مرارة الفشل الذي مني به هو وصديقه ابن الحاج عندما فشلا في ثورتهما ضد أمير المسلمين علي بن يوسف في بداية حكمه - انظر ابن سعيد : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٨ ؛ حسين مؤنس : نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين الى الموحدين ، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ، مج ١ ، ع ٣ ، ١٩٥٥ ، ص ١١٩ ؛ المراكشي : المصدر السابق ، ص ٢٤٠ - ٢٤١ ؛ ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٢ ، ص ٤١٥ - ٤١٦ ؛ ابن الأبار : المعجم ، ص ١٤٤ - ١٤٧ - انظر الباب الأول من الرسالة - ثورة ابن الحاج .

(٥) خريدة القصر ، ق ٤ ، ج ٢ ، ص ٦٤٣ - ٦٤٦ .

(٦) ابن سعيد : المغرب في حلي المغرب ، ج ١ ، ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

« كنت نويت الا اثبت له ذكراً ولا أعمل فيه فكراً وأدعه مطروحاً »[1] .

ومنهم أيضاً أبو جعفر أحمد بن جعفر بن عطية القضاعي المراكشي الذي كتب لأمير المسلمين في أواخر أيامه . كما كان أبو بكر محمد بن سليمان بن القصيرة من الذين تضلعوا في الكتابة ، وذكر له ابن بسام رسالة طويلة تحدث فيها عن موقعة الزلاقة [2] ، كما نقل له ابن بسام ، وابن خاقان جملة من آثاره الأدبية [3] .

ومن مشاهير الكتّاب في هذا العصر ايضاً محمد بن عبد الله بن الجد الفهري الذي استدعاه علي بن يوسف لتولي الكتابة في ديوان رسائله ، ويبدو انه بقي في هذا المنصب حتى وافته منيته عام ٥١٥هـ / ١١٢١م [4] . وقد نقل عنه ابن خاقان [5] مجموعة من رسائله كتب بها عن أمير المسلمين علي بن يوسف ، والتي تلقي ضوءاً على تاريخ الأندلس في عهد دولة المرابطين . ومن هذه الرسائل رسالة موجهة الى أهل غرناطة تنعي عليهم اختلافهم وتنازعهم ومشاغبتهم على واليهم ، ويأمرهم فيها أمير المسلمين بالانقياد له والطاعة ، وهي مؤرخة في يوم الجمعة ١٩ رمضان عام ٥٠٧هـ . وهناك رسالة أخرى تتعلق بتولية يحيى بن أبي بكر المعروف بابن الصحراوية على سبتة وفاس ، ورسالة ثالثة الى القائد عبد الله بن فاطمة عامله على مدينة إشبيلية [6] .

---

(١) قلائد العقيان ، ص ١٨٢ ـ ١٨٣ .

(٢) ابن الأبار : الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ١٩٤ ؛ ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ١ ، ص ٢٦٣ ، ٣٧١ ؛ المراكشي : المعجب ، ص ٢٦٧ .

(٣) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٢ ، ص ٥١٧ ، ٥٢١ ؛ المراكشي : المصدر السابق ، ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٤ ، ص ٦٠ ؛ ابن خاقان : المصدر السابق ، ص ٥ ، ١١٧ ـ ١١٨ ؛ ابن بسام : المصدر السابق ، ق ٢ ، ج ١ ، ص ٢٣٩ ـ ٢٤١ .
ـ امثلة من نثره انظر ابن سعيد : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٥٠ ـ ٣٣١ .

(٤) ابن خاقان : المصدر السابق ، ص ١٢٣ ـ ١٢٤ ؛ محمود علي مكي : وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، ج ٧ ـ ٨ ، ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠م ، ص ١١٦ .

(٥) قلائد العقيان ، ص ١٢٨ .

(٦) محمود علي مكي : وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، مج ٧ ـ ٨ ، ص ١١٦ .

ومنهم أيضاً ابو نصر الفتح بن عبد الله بن خاقان الذي قال عنه العماد الاصفهاني (١) « كأنما يغرف من بحر زاخر الا انه كان يضع نفسه بشلة تبذله وكثرة تنقله ، وغضه من ذوي الرتب ، واساءة الأدب على الأدب ... وهو متوسع في النثر قليل البضاعة في النظم ... » ، ومن مؤلفاته بداية المحاسن وغاية المحاسن وقلائد العقيان ، ومطمح الأنفس (٢) .

وقد تعرض الفتح بن خاقان في كتاب « قلائد العقيان ومحاسن الأعيان » لمحاسن الرؤوساء وأبنائهم مع ذكر من استعذب أقوالهم . أما « مطمح الأنفس ومسرح التأنس » فذكر فيه أعيان الأندلس ، ومن اشتهر بالكرم والظرف ، وكان الفتح بن خاقان في مؤلفاته تلك يمدح ويذم على ضوء العطاء المقدم اليه ، وهذا ما فعله مع ابن باجة فقد مدحه ثم ذمه (٣) .

كما ألف محمد بن يوسف بن عبد الله أبو طاهر السرقسطي (ت جمادى الأولى عام ٥٣٨هـ) عدة مؤلفات قيمة منها : المقامات اللزومية التي تسمى أيضاً المقامات التميمية السرقسطية نسبة الى مؤلفها ، وهي خمسون مقامة عارض فيها الحريري في مقاماته ، وقد بناها على لزوم ما لا يلزم ، واهتم فيها بالسجع اهتمامه باللغة (٤) ، ومن مؤلفاته أيضاً المسلسل في غريب اللغة ، وهو كتاب يحتوي على خمسين باباً ليس لها عناوين خاصة . وقد تعمد السرقسطي ان يفتح كل باب ويختمه بشاهد شعري يأخذ من الشاهد الأول الكلمة التي يجعلها أساساً للتسلسل ، ويكون الشاهد الأخير استشهاداً على معنى الكلمة الأخيرة في الباب (٥) .

---

(١) خريدة القصر ، ق ٤ ، ج ٢ ، ص ٦١٠ .

(٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ، ج ٤ ، ص ٥١٣ .

(٣) أحمد امين : ظهر الاسلام ، ج ٣ ، ص ٢٨٢ ـ ٢٨٤ .

(٤) رضا عبد الجليل الطيار : المرجع السابق ، ص ٦٩ ـ ٧٠ ؛ ابن الأبار : المعجم ، ص ١٤٠ ـ ١٤١ .

(٥) السرقسطي : المسلسل في غريب اللغة ، ص ٥ ؛ رضا عبد الجليل الطيار : المرجع السابق ، ص ٧١ ـ ٧٦ ـ عبد العلي الودغيري : المعجم العربي في الأندلس ، مجلة عالم الفكر ، مج ١٢ ، ابريل ، مايو ، يونيو ١٩٨١م ، ص ١١٧ ـ ١١٨ .

ومن الكتّاب المشهورين الذين لازموا الأمير ابراهيم بن يوسف ، أبو عامر بن عقيد من جهات مرسية [1] ، ومحمد بن محمد بن الهبارية البغدادي المتوفى عام ٥٠٤هـ / ١١٠٠م ، والذي ألف منظومة على أسلوب كليلة ودمنة [2] .

ومن أدباء اليهود المعاصرين أبراهام بن عذرا بن مير الذي يسمى في الكتابات العربية بأبي إسحاق ابراهيم (٤٨٤ - ٥٦٢هـ / ١٠٩٢ - ١١٦٧م) وكان من المجيدين لأساليب الترسل العربية [3] .

وقد امتاز النثر في عهد علي بن يوسف بأنه يغلب على بعضه الصناعة والتكلف لابراز براعة الكاتب الفنية ، ويتمثل ذلك بشكل جلي في مؤلفات الفتح بن خاقان خير تمثيل .

أما بالنسبة للرسائل الصادرة من ديوان رسائل أمير المسلمين علي بن يوسف فاسلوبها موجز مركز ، ومسجوع ، وقصير الفقرات يأخذ من المحسنات اللفظية بقدر ، وبعيد عن التعقيد والتكلف ، باستثناء بعض الرسائل التي كتبها الفتح بن خاقان والتي كان يغلب عليها طابع التكلف . وربما يكون أفضل الكتّاب في هذا العهد من الذين سلروا على منهج أهل المشرق ابن القصيرة [4] .

النحو :

وممن برز في النحو في هذا العصر عبد الله بن محمد البطليوسي (ت ٥٢١هـ / ١١٢٧م) الذي قام بشرح جمل الزجاجي في كتاب الحلل في شرح أبيات الجمل ، وألف أيضاً عدة مؤلفات أخرى أهمها : كتاب « المثلث » في مجلدين وهو دليل دامغ على سعة اطلاعه ، وكتاب « الاقتضاب في شرح أدب

---

(١) ابن سعيد : المغرب في حلي المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٥٣ .

(٢) ما زالت مخطوطة في الخزانة الملكية في الرباط تحت رقم ٢٠٥٤ .

(٣) بالنثيا : المرجع السابق ، ص ٥٠٠ - ٥٠١ .

(٤) محمود علي مكي : وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، ص ١٢٠ - ١٢١ .

الكتاب »، وكتاب « شرح سقط الزند لأبي العلاء المعري » ، شرحاً استوفى فيه المقاصد وله كتاب في الحروف الخمسة وهي (السين ، والصاد ، والضاد ، والطاء ، والذال) جمع فيه كل غريب . وله كتاب « الخلل في أغاليط الجمل »[1] .

وألف أبو الحسن بن الطراوة المالقي المتوفي عام ٥٢٨هـ / ١١٣٣م عدة مصنفات أهمها : كتاب المقدمات على كتاب سيبويه ، وكتاب الترشيح في النحو ، ومقالة في الاسم والمسمى[2] ، ولطول باعه في النحو والأدب لقب بالأستاذ ، وهو لقب رفيع في المغرب ، وفضلاً عن ذلك فقد كان يعتبر من الشعراء المجيدين[3] ، وقد مدح أمير المسلمين علي بن يوسف ببعض قصائده[4] .

ومن النحويين الذين اشتهروا في هذا العهد أيضاً محمد بن حكم بن باقي الجذامي ، وأحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن خطاب بن زاهر الباجي الأندلسي[5] .

الدراسات الانسانية

ـ الجغرافيا :

لقد نهضت العلوم الجغرافية نهضة عظيمة في عهد علي بن يوسف ، وبرزت مجموعة من العلماء دفعت عجلة هذه العلوم دفعات كبيرة الى الأمام

---

(١) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٩٦ ـ ٩٨ ؛ الحسن السائح : الحضارة المغربية عبر التاريخ ، ج ١ ، ص ١٦١ ـ ١٦٢ ـ وله مؤلفات أخرى في غير النحو منها : التنبيه على الأسباب الموجبة لاختلاف الأمة ، وكتاب شرح الموطأ ، وشرح ديوان المتنبي .

(٢) العماد الأصفهاني : المصدر السابق ، ق ٤ ، ج ٢ ، ص ٦٥٦ ، حاشية رقم ١ .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ق ٤ ، ج ٢ ، ص ٦٥٦ ـ ٦٥٧ .

(٤) ابن سعيد : المغرب في حلي المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٠٨ .

(٥) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٤٣٥ .

عندما اعتمدوا على الرحلة والمشاهدة العينية ، والتحقق من كل مسألة قبل الأخذ بها .

ولم يبخل العلماء المسلمون بنتائج أبحاثهم القيمة حتى على أعدائهم ، وخير مثال على ذلك ما قدمه أشهر جغرافي القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ابو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الأدريسي السبتي ٤٩٤ ـ ٥٦٢هـ / ١١٠٠ ـ ١١٩٦م لملك صقلية ، فبعد ان تلقى هذا العالم علوّمه الأولية في مدينة قرطبة ، بدأ رحلاته العلمية وهو ما يزال يافعاً لم يتجاوز عمره السادسة عشر ، فزار مناطق لم تكن مألوفة في ذلك العصر ، وعرف جغرافية اسبانيا والمغرب معرفة جيدة ، وزار لشبونة ، وسواحل فرنسا وانجلترا ، وآسيا الصغرى .

وفي عام ٥٣٣هـ / ١١٣٨م قصد صقلية والتحق ببلاط روجر الثاني بالرمو ، وقد رغب روجر من الأدريسي ان يرسم له خريطة للعالم يبين فيها مواقع البلدان والبحار والأنهار والجبال الى غير ذلك فرسمها له ، ثم رغب منه ثانياً ان تحفر هذه الخريطة على لوح من الفضة ، فأحضر روجر الصناع المهرة الذين اتقنوا هذا العمل تحت رعاية الادريسي ورقابته ، وبعد ان جعل الملك مقدار ٤٠٠ ألف درهم من الفضة تحت تصرف الادريسي لهذا الغرض .

ونقش الادريسي على لوح الفضة الذي كان يزن ١٤٠ كيلو كل ما عرفه من البلدان المختلفة بأحرف عربية (١) .

وكشرح للخريطتين وتعليف عليهما ألف الادريسي كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، الذي أمضى في تأليفه خمسة عشر عاماً وفرغ منه عام ٥٤٨هـ / ١١٥٣م (٢) . والكتاب وصف للأرض اعتمد فيه على مشاهداته

---

(١) محمد المنوني : العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين ، ص ٧٨ ـ ٧٩ ؛ ويذكر المستشرق كراتشكوفسكي (تاريخ الأدب الجغرافي ، ج ١ ، ص ٢٨٩) ان الادريسي توفي في وطنه عام ٥٥٥هـ / ١١٦٠م .

(٢) محمد المنوني : المرجع السابق ، ص ٧٨ ـ ٧٩ ؛ ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ، ج ١ ، ص ٢٤٧ ـ ٢٤٩ .

الخاصة ، وعلى تقارير بعض من أوفدهم روجر الثاني الى شتى البقاع في صحبة رسامين . وفي كتابه هذا يقسم العالم الى سبعة أقاليم مناخية ثم يقسم كلا منها الى عشرة أقسام من المغرب الى المشرق ، ويلحق بكل قسم منها خريطة بالاضافة الى الخريطة العامة [1] . وعند كلامه على كل قسم منها يحدده ويبين موقعه ويتكلم عن مدنه وجباله وبحاره ، وأنهاره ، وعن كل ما يحويه من ماء ويابس ، وما ينبت فيه من نبات الى غير ذلك . ومما يذكر للإدريسي بالاعجاب انه حاول اثبات درجات العرض وتحديدها بعد قياسات صحيحة مطابقة للواقع . اما خطوط الطول فقد أهملها عن قصد لشكه في القياسات التي وصلت اليه .

وخريطة الادريسي تمثل القسم المعموز وهو القسم الشمالي من الكرة الأرضية مضافاً اليه جزء بسيط من القسم الجنوبي الى درجة ١٦ جنوب خط الاستواء . وهذا الجزء الجنوبي هو الذي تقع فيه منابع النيل حيث بيّن عليه منابع النيل بشكل واضح في موقع يقارب موقع بحيرتي فكتوريا وألبرت [2] .

ومن هذه الخرائط وضع أحد المستشرقين الألمان خريطة كاملة أخرجها ملونة باللاتينية سنة ١٩٣١م ، ثم أخرج المجمع العلمي العراقي هذه الخريطة بالعربية سنة ١٩٥١م [3] .

على أي حال تعتبر الخريطة الإدريسية أقدم خريطة عالمية يعرفها التاريخ ، وقد امتازت مع شرحها بالمميزات التالية : ان الإدريسي تجنب فيها ذكر الخرافات التي كانت شائعة في العصر الوسيط ، والتي تورط في ذكرها غيره من المؤلفين ، كما انفردت بأنها الخريطة الوحيدة التي تعطينا صورة

---

(١) محمد شفيق غربال : الموسوعة العربي الميسرة ، ص ٩٩ ؛ محمد المنوني : المرجع السابق ، ص ٧٩ - ٨٠ .

(٢) ابراهيم حركات : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٤٧ - ٢٤٩ ؛ محمد المنوني : المرجع السابق ، ص ٨٠ .

(٣) ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ، ج ١ ، ص ٢٤٨ - ٢٤٩ .

صحيحة عن البلاد الواقعة حول بحر قزوين في مدة من الزمن تبلغ نحو قرن [١] .

ومن مؤلفات الإدريسي أيضاً « روض الانس ونزهة النفس » الذي ألفه الادريسي لولد روجر غليوم الأول (٥٤٩ ـ ٥٦٢هـ / ١١٥٤ ـ ١١٦٦م) ، وتوجد شذرات من هذا المؤلف في كتاب تقويم البلدان لأبي الفدا [٢] . وله كتاب آخر اسمه « انس المهج وروض الفرج » ، وهو مختصر لروض الانس ، وهو لا يزال مخطوطا في مكتبة حكيم اوغلو علي باشا باسطنبول تحت رقم ٦٨٨ [٣] .

وفي هذا العهد الذي كان فيه علماء الدولة المرابطية خاصة يؤكدون على ان الأرض كروية [٤] ، كانت الكنيسة الأوروبية تحرق وتقتل كل من يسعى للسير على المنهج العلمي . وما انعتق الأوروبيون من دياجر جهلهم الا بعد اتصالهم بالعالم الاسلامي ودراستهم في جامعاته لذا وجدنا علماء أوروبا يهتمون اهتماماً فائقاً بالمؤلفات العربية ، فحاولوا جمع أكبر قدر ممكن منها ، واخضعوها للنقد والتحليل والدراسة . وقد تلقفوا كتب الادريسي ، خاصة كتاب نزهة المشتاق الذي يقول عنه المستشرق أماري « انه أفضل رسالة وصلتنا عن العصور الوسطى سواء من الشرق او الغرب » . وممن اعتنى بمؤلفات الادريسي أيضاً دي سلان ، وميلر ، وهارتمان ، ودوزي ، ودي خويه وغيرهم [٥] ، ويعتبره ميلر صاحب مدرسة جغرافية خاصة هي المدرسة العربية النورماندية [٦] .

---

(١) محمد المنوني : المرجع السابق ، ص ٨٤ .

(٢) ابو الفداء : تقويم البلدان ، ص ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٩٣ (في هذه الصفحات فيها اقتباسات من الأدريسي) ؛ كراتشكوفسكي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٩٠ ـ ٢٩١ .

(٣) محمد المنوني : المرجع السابق ، ص ٨٧ ؛ ابراهيم حركات : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٤٩ .

(٤) فيليب حتي : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٧٢٢ .

(٥) كراتشكوفسكي : المرجع السابق ، ج ١، ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤ ؛ محمد المنوني: المرجع السابق ، ص ٨١ ـ ٨٣ .

(٦) احمد علي الملا : اثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية ص ١٧٣ ـ لمزيد من التفاصيل عن =

ـ التاريخ والانساب :

اما بالنسبة للدراسات التاريخية فللأسف الشديد لم يصلنا منها الا النذر اليسير . ويتضح من خلال تأمل بعض الكتب التي ألفت في فترة متأخرة عن الدولة المرابطية ان الاقتباسات تكثر فيها من مؤلفات ألفها عدد كبير من المؤرخين في العصر المرابطي . ومن أشهر هؤلاء المؤرخين في عهد علي بن يوسف المؤرخ الغرناطي ابن الصيرفي المتوفي عام ٥٥٧هـ / ١١٦١م ، والذي يعتبر من مشاهير علماء غرناطة في النصف الأول من القرن السادس الهجري . وقد ألف ابن الصيرفي كتاباً في تاريخ الدولة المرابطية سماه (الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية) الذي يقتبس منه ابن الخطيب كثيراً [١] وكان ابن الصيرفي اضافة لاهتمامه بالكتابة التاريخية شاعراً ووشاحاً مشهوراً ، قائماً على خدمة أمراء المرابطين [٢] .

ومن المؤرخين الذين ظهروا في هذه الفترة عبد الرحمن بن محمد بن الصقر الأنصاري ، الذي ولد في مدينة بلنسية ، ونشأ في مدينة المرية . ومن أشهر مؤلفاته « مختصر السيرة » و « المغازي من سيرة ابن اسحق » وقد توفي هذا العالم الكبير في مدينة مراكش عام ٥٢٣هـ / ١١٢٨م [٣] .

وألف مالك بن وهيب أحد علماء المغرب المشهورين لعلي بن يوسف كتاباً سماه « قراضة الذهب في ذكر أيام العرب في الجاهلية والاسلام » وضم الى ذلك ما يتعلق به من الآداب فجاء الكتاب فريداً في فنه [٤] . كما ألف ابو عمرو حمزة بن علي الغرناطي كتاباً في تاريخ الفتنة التي انقرضت بها دولة

= الادريسي ومعاصريه انظر : حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون في الأندلس ، صحيفة معهد الدراسات الألاسلامية في مدريد ، مج ٩ ـ ١٠ ، ١٩٦١ ـ ١٩٦٢م ، ص ٢٥٧ ـ ٣٧٢ .

(١) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٢ ، ص ١٠٨ ، حاشية رقم ١ .

(٢) ابن سعيد : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١١٨ ، وانظر الحاشية .

(٣) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ، ج ٢ ، ص ٤٠٨ ـ ٤٠٩ .

(٤) حسين محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ٤٣٦ ـ ٤٣٧ .

المرابطين [1] .

واشتهر أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال المولود في قرطبة عام ٤٩٤هـ / ١١٠١م بالثقافة الموسوعية . ويذكر انه ألف نحواً من خمسين مؤلفاً من بينها كتاب في التاريخ الا انه لم يبق من كتبه الا كتاب « الصلة في تاريخ أئمة الأندلس » ، والذي يعتبر مؤشراً على ثقاته الموسوعية [2] . وقد انتهى من تأليف كتابه المذكور في عام ٥٣٤هـ / ١١٣٩م ، وقد توفي في مدينة قرطبة عام ٥٧٩هـ / ١١٨٣م [3] . وألف المؤرخ عبد الجبار بن عبد الله بن أحمد بن أصبغ (٤٥٠ - ٥١٦هـ / ١٠٥٨ - ١١٢٢م) كتاباً سماه « عيون الإمامة ونواظر السياسة » [4] .

كما تقدم علم الانساب في هذا العهد فتذكر لنا كتب التراجم أسماء نسابين ألفوا مؤلفات في هذا المجال منهم : عبد الله بن علي بن عبد الله اللخمي الرشاطي الذي ألف كتاباً سماه « اقتباس الأنوار والتماس الأزهار في أنساب الصحابة ورواة الآثار » ، وهو كتاب غريب في فنه ، كثير الفوائد جامع كما وصفه ابن بشكوال . وتوفي هذا العالم في عام ٥٤٠هـ / ١١٤٥م ، وكان مولده عام ٤٦٦هـ / ١٠٧٣م [5] ، وممن كان له أيضاً اشتغال بعلم الأنساب محمد بن سليمان بن مروان بن يحيى القيسي المعروف بالبوني (ت ٥٣٦هـ / ١١٤١م) [6] .

---

(١) ابن سعيد : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

(٢) احمد أمين : ظهر الاسلام ، ج ٣ ، ص ٢٧٩ .

(٣) فيليب حتي : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٦٧٣ - وهناك من يذكر ان له من المؤلفات نحو الخمسين منها : التاريخ الصغير في أحوال الأندلس انظر حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون في الأندلس ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، مج ١١ - ١٢ ، ١٩٦٣ - ١٩٧٤) ، ص ٩ - ١٠ .

(٤) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٣٦١ .

(٥) المصدر السابق نفسه ، ج ١ ، ص ٢٨٥ - ٢٨٦ (ويذكر الحميدي : بغية المتمس ، ص ٣٣٦) انه ولد عام ٤٦٦هـ ، وتوفي عام ٥٤٢هـ .

(٦) ابن الأبار : المعجم ، ص ١٢٥ .

ـ الفلسفة :

ومن بين العلوم التي أتيح لها الازدهار في هذا العهد العلوم الفلسفية التي اهتمت بها فئة من العلماء ، فاستهل هذا العهد بظهور ابن باجة التجيبي المعروف بابن الصائغ المتوفي عام ٥٣٣هـ / ١١٣٠م في مدينة فاس [١] .

ويعتبر ابن باجة من أكبر شراح فلسفة أرسطو [٢] وقد طارت شهرة هذا الفيلسوف الى أرجاء اوروبا فعرفوه باسم (Avenpace) [٣] .

وأخذ الأمير المرابطي ابو بكر بن ابراهيم حاكم سرقسطة يشجع ابن باجة الذي انكب على دراسة الكتب الفلسفية المشرقية التي كانت ذائعة في المغرب منذ فترة طويلة فعرف ابن باجة كيف ينتفع بها ولذلك يعتبر أول من استطاع استغلال الفلسفة الشرقية [٤] .

ومن أشهر مؤلفات ابن باجة : كتاب في الاخلاق سماه « تدبير المتوحد » ، وقد حفظ لنا مختصراً بالعبرية [٥] ، وكتاب « النفس » ، وكتاب « شرح كتاب السماع الطبيعي لارسطوطاليس » ، « وقول على بعض المقالات الأخيرة من كتاب الحيوان لارسطوطاليس » ، وكتاب « التشوق الطبيعي وماهيته » [٦] . وله رسالة تسمى الوداع ، وقد ترجمت الى العبرية في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ، وتسمى هذه الرسالة برسالة الوداع لأن المؤلف كان على وشك سفر طويل ، فكتبها لصديق من أصدقائه ليترك له آراءه اذا قدر لهما ألا يلتقيان ، ومن كتب ابن باجة التي لم يتمها كتاب

---

(١) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤٢٩ ـ ٤٣١ .

(٢) عبد المنعم ماجد : العلاقات ما بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، ص ٢٥١ .

(٣) حسن محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ٤٣٦ ـ ٤٣٧ .

(٤) ابن سعيد : المغرب في حلي المغرب ، ج ٢ ، ص ١١٩ ؛ ج . دي بور : تاريخ الفلسفة الاسلامية ، ص ٢٤٢ ؛ محي الدين عزوز : التطور المذهبي بالمغرب ، ص ١٦ ـ ١٧ .

(٥) فيليب حتي : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٦٩٠ ، ٧١٠ ـ ٧١١ .

(٦) لطفي عبد البديع : المرجع السابق ، ص ٤٨ ـ ٤٩ .

في المنطق ، وهو مخطوط في مكتبة الاسكوريال [1] .

ومن فلاسفة عهد علي بن يوسف أيضاً مالك بن وهيب الذي كان وزيراً له [2] والذي أخذ بحظ وافر من علم الفلسفة ، فدرس كتاب الثمرة في الأحكام لبطليوس ، وكتاب المجسطي في علم الهيئة [3] . كما كانت له دراية في علم الفلك [4] .

أما محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل القيسي المولود عام ٤٩٤هـ / ١٠٠١م فقد بدأ نشاطه العلمي في عهد علي بن يوسف بن تاشفين وألف عدة مؤلفات قيمة منها رسالة سماها « حي بن يقظان » غرضه منها بيان مبدأ النوع الانساني . وله رسالة في النفس ، وأخرى في الفلك ، وثالثة في الطب ، واستمر ابن طفيل في دراساته تلك حتى توفي عام ٥٨١هـ / ١١٨٥م [5] .

ولم يغب اليهود عن هذا الحقل من الدراسات ، فقد حاول ابراهام بن داود الطليطلي (٥٠٣ ـ ٥٧٥هـ / ١١١٠ ـ ١١٨٠م) التوفيق بين كتب اليهود المقدسة وفلسفة لرسطو ، وألف عدة مؤلفات باللغة العربية الا انها فقدت ولم يبق لنا منها الا الترجمات العبرية لقسم منها ومن أهمها كتاب « ايموناه راماة » أي العقيدة السامية ، وكتاب « سفرها قبّالة » أي كتاب المأثور [6] .

وألف ديّان أبو عمر يوسف بن صديق المتوفي عام ٥٤٣هـ / ١١٤٩م ،

---

(١) ج . دي بور : المرجع االسابق ، ص ٢٤٢ ، ٣٣٩ ـ لمزيد من التفاصيل عن ابن باجة انظر : عبد الرحمن بدوي : رسائل جديدة لابن باجة ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، مج ١٥ ، ١٩٧٠م ، ص ٧ ـ ٢٤ .

(٢) عباس الجراري : الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه ، ج ١ ، ص ٩٠ .

(٣) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٤٣٦ ـ ٤٣٧ .

(٤) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ، ج ٤ ، ص ٥٢٩ .

(٥) محي الدين عزوز : المرجع السابق ، ص ٥٦ ـ ٦٠ .

(٦) بالنثيا : المرجع السابق ، ص ٥٠٠ .

كتاباً في المنطق ، وآخر في الفلسفة سماه « الكون الأصغر » باللغة العربية [1] .

الدراسات الطبيعية

ـ الـطــب :

وخطا الطب خطوات واسعة في عهد علي بن يوسف ، فهو عهد تشخيص الأمراض على ضوء الفحوصات الطبية الدقيقة ، من جس للنبض ، واجراء تحاليل طبية مخبرية . وهو عهد اجراء أعقد العمليات الجراحية ، فقد أجرى الأطباء عمليات استخراج الحصوة من المثانة وعملية فتح القصبة . كما هو عهد الاكتشافات الطبية الباهرة ، ففي هذا العهد وصفت صؤابة التجرب . وقام أطباء هذا العهد باجراء بحوث في احساس العظام ، وهي من الموضوعات المعقدة حتى في العصر الحاضر على الرغم من توفر كل الوسائل والامكانيات ، ويعتبر الخوض فيها من الأمور المشرفة علمياً .

ويكفي علماء هذا العهد فخراً أن مؤلفاتهم ما زالت تدرس حتى الوقت الحاضر في أعرق جامعات أوروبا ، وأنها كانت في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ، وحتى القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي من المواد الرئيسية في كليات الطب .

ومن أشهر أطباء هذا العهد ، بل العصور الوسطى على الاطلاق ، أبو العلاء زهر بن أبي مروان عبد الملك بن محمد بن مروان (ت ٥٢٥هـ / ١١٣٠م) ، الذي كان يعتمد على الطرق المخبرية ، وجس النبض في تشخيص أمراض مرضاه [2] .

---

(١) بالنثيا : المرجع السابق ، ص ٤٩٨ .

(٢) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ج ٢ ، ص ٦٤ ـ ٦٥ ؛ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ج ٤ . ص ٧٤ ـ ٧٥ .

وهو أول من وصل دراسة الطب بالجراحة والصيدلة . وتشتمل آثاره الجراحية على أول فكرة عن عملية فتح القصبة ، وعلى بيان قاطع عن الكسر والانخلاع وقد اعتمد في معالجته على الطبيعة الى حد كبير ، فهو يرى ان الجسم لديه قوة كامنة كافية لشفاء بعض الأمراء [1] .

ومن مؤلفات أبي العلاء زهر الطبية : المدخل الى الطب ، وكتاب النكت الطبية ، ومجربات والتي أمر بجمعها بعد وفاته أمير المسلمين علي بن يوسف فجمعت بمراكش وسائر بلاد العدوة والأندلس ، وانتسخت في جمادى الآخر عام ٥٢٦هـ / ١١٣١م [2] . وهي عبارة عن ملاحظات طبية أسفرت عنها تجاربه المخبرية وسجلها في تقارير سماها المجربات ، وتوجد منها نسخة مخطوطة في مكتبة الاسكوريال تحت رقم ٨٤٤ ، كما قام أبو العلاء زهر بتأليف كتاب « التذكرة » ، وهو عبارة عن مجموعة من الملاحظات سجلها لولده لتعريفه بالأدواء الغالبة في مراكش ، والأدوية المناسبة لها . وله رسالة في أمراض الكلى كتبها لأمير المسلمين علي بن يوسف ، ولا توجد منها اليوم سوى ترجمتها اللاتينية المنشورة عام ١٤٩٧م . وله أيضاً كتاب آخر حول الخواص ، وهو موجود بمكتبة باريس ، ومن هذا الكتاب استقى ابن البيطار خواص لحوم الحيوانات ، وله كذلك « جامع أسرار الطب » ، وهو لحسن الحظ موجود في الخزانة العامة في الرباط ويقع في ١٨٥ ورقة . وقد أدت بعض بحوثه المخبرية الى الوصية باستعمال بطيخ فلسطين في علاج أمراض الكبد [3] .

وعرف الاوروبيون هذا الطبيب الفذ معرفة جيدة وحرفوا كنيته (ابو العلاء) في العصور الوسطى فصار أبو الي (Aboal) ثم أضيف الى زهر فقيل ابو الميذرو (Abuielizor) [4] .

---

(١) حيدر بامّات : مجالي الإسلام ، ص ١٤٩ :

(٢) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٦ .

(٣) عبد العزيز بنعبد الله : الفكر العلمي ومنهجية البحث عند علماء المغرب ، مجلة الدارة ، ع ٣ ، ربيع ثانية ١٤٠٠هـ / مارس ١٩٨٠م ، ص ٥٥ ـ ٥٧ .

(٤) ابو الفتوح التوانسي : من اعلام الطب الغربي ، ص ١٤١ ـ ١٤٢ .

وبعد وفاة ابي العلاء زهر تسلم الراية بعد أبيه أبو مروان عبد الملك بن زهر (٤٨٤ أو ٤٨٧ ـ ٥٥٧هـ / ١٠٩١ أو ١٠٩٤ ـ ١١٦١م) الذي قلم بمتابعة خطى والده حتى أصبح من أشهر أطباء عصره . وقد قام بتأليف عدة مؤلفات تضمنت طرق علاج مبتكرة ، كما استطاع ان يقدم لنا أوصافاً لعديد من الأمراض . كما وصف وصفاً دقيقاً الأورام الحيزومية . واهتم في بيان فضل التغذية الصناعية ، وشرح طريقتها بدقة سواء بطريقة الحلقوم او بطريقة الشرج [1] .

ويذكر الاستاد بوشو احد أساتذة كلية الطب بباريس [(أن ابن زهر «أبو مروان عبد الملك » هو أول من اهتم بدرس العظام لمداواة الوثأة ، وهو عبارة عن وهن يصيب اللحم ولا يصل الى العظم ، وانه عرف التشريح معرفة دقيقة لانه ما تركه من وصف لدمامل الصدر والمعدة يدل دلالة صريحة على معرفة قائمة على التجربة)] . كما تحدث الاستاذ كياز استاذ الطب بكلية ليون الطبية عن ابن زهر قائلاً : [(أما ما يتعلق بالداء المعروف بالجرب فان أطباء العرب كانوا أول من دل على مكانه ، وكان أول من وصفه وصفاً دقيقاً لا غبار عليه ابن زهر (أبو مروان عبد الملك) حكيم الأندلس وسماه الصواب)][2] .

ومن أشهر مؤلفات ابو مروان عبد الملك بن زهر : « الاقتصاد في اصلاح الأجسام » الذي ألفه الى الأمير المرابطي ابراهيم بن يوسف اعترافاً بفضله وتخليداً لذكره [3] ، وقد فرغ من تأليفه عام ٥١٥هـ / ١١٢١م [4] ؛ ولخص فيه التجارب الطبية ، وتحدث عن الجذام ، والبهق ، كما شرح أبعاد العدوى انطلاقاً من تجارب ميدانية . وقد أفرد لهذه الأمراض رسالة لم تصلنا .

---

(١) أبو الفتوح التوانسي : المرجع السابق : ص ١٤٢ ـ ١٤٤ ؛ ابن سعيد : المصدر السابق ، ج ١ ؛ ص ٢٧٠ ، حاشية .

(٢) عبد العزيز بنعبد الله : المقال السابق ، ص ٥٥ ـ ٥٨ ؛ أبو الفتوح التوانسي : المرجع السابق ، ص ١٤٤ .

(٣) ابن سعيد : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٧٠ ؛ حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٤٣٩ ـ ٤٤٠ ؛ أبو الفتوح التوانسي : المرجع السابق ، ص ١٤٢ ـ ١٤٤ .

(٤) احسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ، ص ٧٠ .

وكان يعتمد في تجاربه على الضبط والتحليل ، والتدرج من الخاص الى العلم مع استعراض نماذج من القضايا التي تلقي الأضواء على جوانب دقيقة . وتوجد نسخة من كتاب الاقتصاد محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٢٩٥٩ وأخرى في مكتبة الاسكوريال [١] .

أما الكتاب الآخر فهو « التيسير في المداواة والتدبير » ، وهو موسوعة طبية يظهر فيها تضلع ابو مروان عبد الملك بن زهر من الطب ، وقد نهج في كتابه هذا اسلوباً جديداً في الحكمة القياسية مستخدماً التمحيص العقلي للوصول الى أحسن النتائج فكان طبيب التمحيص العلمي ، يحضر الأدوية بنفسه غير مستعمل الخمر في تركيبها ، وكان يسند الأعمال اليدوية الى أعوانه مثل الفصد ، والكلي ، وختم الشرايين في حين كان هو يشرف بنفسه على التحليلات الهادفة الى تقرير نظام الأكل عند المريض ، ووصف الأدوية ، وتوصل بمنهجه هذا الى الكشف عن أمراض جديدة لم تدرس قبله ، فاهتم بالأمراض الرئوية ، واجرى عملية القصبة المؤدية الى الرئة وتمكن حن تشريحها في مرض الذبحة ، وقام بتجارب في أمراض الجهاز الهضمي ، كما وتوجد نسخة من هذا الكتاب في المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم ٢٩٦٠ [٢] ، كما وتوجد نسخة أخرى في الخزانة الملكية بالرباط تحت رقم ٢/١٥٣٨ .

وله ايضاً كتاب الزينة ، وكتاب التذكرة الى ولده ابي بكر في أمر الدواء المسهل وكيفية أخذه ، وله مقالة في علل الكلى ، ورسالة كتب بها الى بعض الأطباء في مدينة إشبيلية في علتي البرص والبهق [٣] .

ومن أطباء آل زهر أيضاً أبو بكر محمد بن عبد الملك بن زهر (٥٠٤ ـ ٥٩٥هـ / ١١١٠ ـ ١١٩٨م) الذي كان منصرفاً كل الانصراف الى الناحية

(١) عبد العزيز بنعبد الله : المقال السابق ، ص ٥٥ ـ ٥٧ .

(٢) نفس المقال السابق والصفحات ؛ زيغريد هونكة : شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٢٨٩ .

(٣) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٦ ـ ٦٧ .

العلمية والمداواة والعلاج ، والفحص ، ولم يشغل نفسه بالتأليف الا قليلاً . وقد طارت سمعته العلمية في أرجاء المعمورة ، ويروى انه وضع رسالة في طب العيون ، وهي المؤلف الوحيد الذي ينسب اليه . وكانت له ابنة أخت تعتبر من أشهر الطبيبات في ذلك العصر في أمراض النساء وفنون الولادة [(١)] .

ومن اشتهر من أطباء ذلك العصر ابو القاسم خلف بن عباس (ت ٥٠١هـ / ١١٠٧م) الذي اشتغل بالجراحة ، وهو الذي يقول عنه العالم الفسيولوجي الشهير هالر : [(وترانا مدينين لأبي القاسم بكثير من الآلات الجراحة)] وقد وصف هذا الجراح المسلم عملية سحق الحصاة في المثانة التي عدت على غير حق من مخترعات عصرنا الحالي ، فأشار لعملية الشق الى عين المكان الذي يشير اليه جراحونا في الوقت الحاضر [(٢)] .

وألف أبو الحسن سفيان الأندلسي (ت ٥٣٧هـ / ١١٤٢م) ، الذي كان طبيباً لأمير المسلمين علي بن يوسف كتاباً في الطب يسمى « التجربتين » وهو عبارة عن محاضرات شيخه ابن باجة في الطب مضافاً اليها ما توصل اليه هو من نتائج علمية نتيجة لأبحاثه . كما ألف ابو الوليد بن رشد كتاب الكليات ثم دفعة الى ابن زهر ليلحق به دراسة عن الجزئيات لتكون جملة الكتابين كتاباً في صناعة الطب [(٣)] . ويعتبر اشتراك عالمين في تصنيف كتاب واحد أو القيام بتجربة علمية مشتركة ظاهرة طيبة لروح التعاون العلمي عند علماء العصر المرابطي .

ومن أطباء هذا العهد ايضاً محمد بن يحيى بن الصائغ المعروف بابن باجة الذي ألف عدة مؤلفات في حقل الطب والصيدلة على درجة كبيرة من الأهمية منها : كلام على شيء من كتاب الأدوية المفردة لجالينوس ، وكتاب عن النفس النزوعية وكيف هي ولما تنزع ، وله اختصار الحاوي للرازي ،

---

(١) ابو الفتوح التوانسي : المرجع السابق ، ص ١٤٤ ـ ١٤٥ .

(٢) حيدر بامّات : المرجع السابق ، ص ١٤٨ .

(٣) عبد العزيز بنعبد الله : المقال السابق ، ص ٦٠ .

وكلام في المزاج بما هو طبي [1] .

ومن أطباء هذا العهد ايضاً أبو بكر يحيى بن محمد بن عبد الرحمن بن بقي السلوى (ت ٥٦٣هـ / ١١٦٧م) ، وسعيد الغماري (٤٩٤ ـ ٥٩٥هـ / ١١٠٠ ـ ١١٩٨م) ، وابو العباس أحمد بن عبد الله بن موسى القيسي الاشبيلي (ت ٥٧١هـ / ١١٧٥م) [2] ، وعلي بن عبد الرحمن بن سعيد بن جودي السعدي (ت ٥٣٠هـ / ١١٣٥م) وغيرهم [3] .

الصيدلة والكيمياء :

لقد تقدم علم الصيدلة في عهد علي بن يوسف تقدماً كبيراً ، وبرز عدد لا بأس به من العلماء الذين اهتموا بدراسة النباتات ، والتعرف على انواعها ، واستخلاص بعض العقاقير منها . ومن أشهر من نبغ في الصيدلة : ابو عبد الله محمد بن معمر المتوفي عام ٥٢٤هـ / ١١٢٩م ، من أهل مالقة ، والذي كان يمتاز بثقافة موسوعية ، ومن تآليفه : شرح كتاب النبات لأبي حنيفة في ستين مجلداً [4] .

وألف الأدريسي الجغرافي المعروف رسالة في تحضير الأدوية ، وصف فيها ثلاثمائة وستين نباتاً ، وكان حريصاً على ايراد أسماء النباتات في مختلف اللغات ، بل كان يميز بين التسميات البيزنطية واليونانية القديمة [5] . ومن مؤلفاته أيضاً كتاب الجامع لصفات اشتات النبات وهو أحد الكتب التي اعتمد عليها ابن البيطار في كتابه كتاب النبات [6] .

---

(١) ابن أبي اصيبعة : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٢ ـ ٦٤ .

(٢) محمد المنوني : العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين ، ص ١٢٣ ـ ١٢٥ .

(٣) ابن الأبار : المعجم ، ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩ ؛ ابن سعيد : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٣٦ .

(٤) المقري : نفح الطيب ، ج ٤ ، ص ٣٦٧ .

(٥) كراتشكوفسكي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٩١ ؛ أثر العرب والاسلام في النهضة الأوروبية ، ص ٢٤٤ .

(٦) محمد المنوني : المرجع السابق ، ص ١٢٤ ؛ أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية ، ص ٢٥٠ .

أما ابو جعفر بن محمد القرطبي (ت ٥٦١هـ / ١١٦٥م) فقام بجمع نباتات اسبانية ، وافريقية ، وسمي كلا منها بأسمائها العربية ، واللاتينية ، والبربرية ووصف هذه النباتات وصفاً دقيقاً ، وساعدته معرفته الدقيقة تلك على تأليف كتاب الأدوية المفردة (١) .

وقام ابو العلاء زهر (ت ٥٢٥هـ / ١١٣٠م) (٢) بكتابة مقالة شرح فيها رسالة يعقوب بن اسحاق الكندي حول تركيب الأدوية ، اضافة الى ما كان يقوم به من تجارب على تركيب الأدوية (٣) .

وكان أبو الحجاج يوسف بن فتوح القرشي المري المتوفي عام ٥٦١هـ / ١١٦٥م على معرفة جيدة بالنبات ، وكان يجلبه ويتجر فيه (٤) .

هذا علاوة عن الكتب التي ألفت في كيفية العناية بالنباتات وزراعتها مثل كتاب « زهرة البستان ونزهة الأذهان » الذي رفعه مؤلفه الطغري الى أمير غرناطة المرابطي أبي الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين (٥) .

ولم تكن الكيمياء أقل تقدماً من الصيدلية في هذا العهد ، فقد ظهر عدد لا بأس به من المشتغلين بهذا العلم اثبتوا جدارة وتفوقاً فيه . ومن اشهر هؤلاء علي بن موسى بن علي الأنصاري السالمي الجياني المعروف بابن النقرات والمولود في عام ٥١٥هـ / ١١٢١م . وقد نسب لهذا الكيميائي كتاب « شذور الذهب في الاكسير » ، وهو كتاب جليل علماً وأسلوباً لم ينظم أحد في الكيمياء مثل نظمه في السابق وممن اشتغل بالكيمياء أيضاً في هذا العصر ابن تاتلي من أبناء المرابطين ، وقد ذكر اسم هذا العالم في طبقات الأطباء عرضاً أثناء ترجمة موفق الدين عبد اللطيف البغدادي الذي اجتمع بالمذكور

---

(١) فيليب حتي : المرجع السابق ، ص ج ٢ ، ص ٦٨٣ .

(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٨٥ .

(٣) عبد العزيز بنعبد الله : المقال السابق ، ص ٥٥ ـ ٥٧ .

(٤) محمد المنوني : المرجع السابق ، ص ١٢٤ .

(٥) عبد الله بن العباس الجراري : تقدم العرب في العلوم والصناعات واستاذيتهم لاوروبا ، ص ٩٦ ـ ٩٧ .

في بغداد ، وقد وصفه بالتمكن في كتب الكيمياء والطلسمات وما يجري مجراها[1] .

وهكذا رأينا كيف كان الازدهار العلمي الكبير في مختلف المجالات العلمية في عهد علي بن يوسف بن تاشفين ، وبذلك نكون قد قدمنا الدليل الدافع لدحض الرأي القائل بأن عصر المرابطين كان عصر تخلف وانحطاط للثقافة ، وتقهقر للأدب والعلم ، بل هو بحق كما قال المستشرق الروسي كراتشكوفسكي عصر نور وحضارة[2] .

---

(١) محمد المنوني : المرجع السابق ، ص ١٢١ - ١٢٢ .

(٢) محمد مجيد السعيد : الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس ص ٦١ .

الفصل الرابع

العمارة والفنون الاسلامية

لقد تعانقت أرض العدوة بطاقاتها الشابة الفتية الممثلة في دولة المرابطين مع أرض الأندلس الغناء بخيراتها العريقة لتنتج لنا في ظل دولة المرابطين نهضة معمارية وفنية رائعة ذات سمات خاصة ، امتزجت فيها المؤثرات الاسلامية المغربية والأندلسية والمشرقية ، والأسبانية النصرانية .

وساعدت في تحقيق هذه النهضة المعمارية والفنية وفرة المواد الخام والرخاء الاقتصادي الذي كانت تتمتع به الرعية والدولة على حد سواء ، اضافة لتشجيع أمير المسلمين علي بن يوسف لأهل الفن بصلاته السخية لهم [١] وساعد كل ذلك على اذكاء حركة البناء والفن في دولة المرابطين ، التي أصبحت مدنها وقصورها ومرافقها بعد فترة قصيرة تنافس المدن المشرقية ، وأصبحت محل إعجاب القاصدين اليها .

وتحكمت في توجيه هذه النهضة الميمونة عدة عوامل تنبع من طبيعة الأسس التي قامت عليها دولة المرابطين . فالعامل الأول من هذه العوامل ينبع من الركيزة الأولى التي قامت عليها الدعوة المرابطية وهي العقيدة الإسلامية ، فقد فرض عليهم هذا العامل العناية الفائقة بالعمارة الدينية من مساجد وما

---

(١) حسن محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ٤٤٩ ـ ٤٥٠ .

يتصل بها من مرافق ، كما فرضت عليهم العقيدة الحد من الاسراف في زخرفة القصور والمباني الخاصة[1] .

اما العامل الثاني فعلى اتصال وثيق بالعامل الأول وهو الجهاد الذي كان عماد الدعوة المرابطية ، فقد كان المرابطون رجال سيف وحرب يعملون على رفع راية الاسلام عالية ، وفرضت عليهم طبيعتهم العسكرية تلك الاهتمام بالمباني العسكرية فشيدوا عشرات الحصون والاسوار ، والتي كان يغلب عليها طابع الخشونة والضخامة ، الا ان الأيدي الأندلسية الرقيقة عملت جاهدة من أجل كسر حدة هذه الخشونة وحاولت ان تصبغها بصبغتها .

على ان الاهتمام الفائق بالعمارة الدينية والعسكرية لا يعني اهمال جوانب العمارة الأخرى ، فقد بنيت عشرات القناطر ، والحمامات ، والأرحاء الخاصة بطحن الحبوب ، والخطاطير ، والقصور وغيرها من المرافق التي تحتاج لها المدن في ذلك العصر .

وبناء على ما تقدم سنقسم حديثنا عن هذا الموضوع إلى ثلاثة أقسام :

الأول منها : يختص بالعمارة المدنية ، وتشمل عمارة المدن ، والمرافق العامة ، والحمامات ، والقصور .

والثاني : يختص بالعمارة الدينية وتشمل المساجد وما يتعلق بها من مرافق .

والثالث : يختص بالعمارة العسكرية من قلاع ، وأسوار . ثم نختم هذا الفصل بالحديث عن الفنون الزخرفية .

أ ـ العمارة المدنية

لقد تحكمت العوامل العسكرية في موقع وشكل المدنية المرابطية التي

---

(١) آرنست كونل : الفن الاسلامي ، ص ١٢١ .

كانت لا تختلف كثيراً في أسلوب بنائها عن المدنية المغربية الإسلامية او الإسلامية بشكل عام ، فكان المسجد والقصبة يمثلان مركز المدنية التي تتفرع منه المباني والأسواق [1] .

ولقد شهد عهد علي بن يوسف نهضة معمارية زاهرة ، فبنيت القصور من قبل الامراء والعامة على حد سواء [2] ، وجلبت اليها المياه ، وانشئت بها الحمامات ، والخانات ، والمصانع [3] .

وأخذت هذه المدن تجتذب سكان الصحراء والأرياف اليها ، فاصبحت تكتظ بالسكان وساعد ذلك على دفع عجلة ازدهارها عمرانياً واقتصادياً [4] .

ومن المدن التي أنشأها المرابطون وازدهرت في عهد علي بن يوسف العاصمة مراكش [5] ، التي اختطت على يد أبيه يوسف عام ٤٦٢هـ / ١٠٧٠م [6] ، بالقرب من المدينة الرومانية القديمة المندرسة « بوكاتوم

(١) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ١٢٤ .

(٢) الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص ٨ ؛ السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ج ١ ، ص ٢٤١ .

(٣) الإدريسي : نزهة المشتاق ، ص ٦٠ ـ ٦٥ ؛ الزركشي : المصدر السابق ، ص ٨ ؛ الحسن السائح : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٦٦ ـ ١٦٧ ؛ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ، ج ٤ ، ص ٥٥٩ .

(٤) الحسن السائح : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٦٦ ـ ١٦٧ .

(٥) لقد اختلف في معنى اسمها فقسم ذهب الى ان مراكش معناها أمش مسرعاً بلغة المصامدة ، لأن هذا المكان كان مكمناً للصوص فعندما كان يمر به الناس كانوا يقولون هذه الكلمة .
وهناك من يقول ان مراكش اسم لعبد اسود كان يسكن هذه المنطقة . ومنهم من يذكر ان الاسم لفظ بربري قديم قد يكون مشتقاً من أوركش يعني كوش التي تعني الأسود ، انظر المراكشي : المصدر السابق ، ص ١٥٦ ـ ١٥٧ ؛ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ١٢٤ ؛ احمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٣٢٠ ، حاشية رقم ٢ .

(٦) واختلف ايضاً في تاريخ بناء مدينة مراكش ففريق يؤكد انها بنيت في عام ٤٦٢هـ وعلى رأسهم صاحب الحلل الموشية ، ص ١٦ ، وابن عذارى : (البيان المغرب ، ج ٤ ، ص ١٩) الذي يجعلها عام ٤٦١هـ ، والمراكشي : (المعجب ، ص ١٥٧) يجعلها عام ٤٦٣هـ . ويبدو ان عام ٤٦٢هـ هو أرجح الأقوال لأن البكري الذي توفي عام ٤٦٠هـ لم يذكر مراكش في كتابه دلالة انه توفي قبل بنائها . ويذهب ابن خلدون (تاريخ ابن خلدون : ج ٦ ، ص ٣٧٨) ورزق الله الصدفي (تاريخ دول الإسلام ، ج ٢ ،

هيوميروم » [1] الواقعة بين بلاد هيلانة وبلاد هزمرة [2] ، فحال ذلك دون تعقيدات التنافس بين القبيلتين [3] . كما ان اختيار موقع مدينة مراكش كان موفقاً لما تمتاز به تلك المنطقة من جمال وحسن مناخ ، وخصوبة تربة ، ومجاورتها لقمم الأطلس المكسوة بالثلوج [4] .

ويظهر أن اختيار هذا الموقع خضع لاعتبارات سياسية واقتصادية واستراتيجية ، فالمدينة تحتل موقعاً متوسطاً ، فهي قريبة من صحراء لمتونة ، وقريبة من جبال المصامدة ، وقريبة أيضاً من مناطق الشمال المتحضرة . كما ان اختيار هذا الموقع كان حلاً وسطاً بين القبائل المتنازعة التي كانت ترغب كل منها في أن تكون العاصمة في بلادها لتنسب اليها [5] .

وأتاح لها موقعها القريب من جبل درن مراقبة تحركات المصامدة منافسي لمتونة اذا حدثتهم أنفسهم بالثورة فعندها يكون من السهل القضاء على حركتهم في مهدها [6] .

وكان هذا الاختيار موفقاً ايضاً لوقوعه على طريق القوافل التجارية المقبلة من الصحراء والذاهبة اليها مما أسهم في ازدهار المدينة اقتصادياً [7] .

ومنحها موقعها القريب من المدينة الرومانية المندرسة « بوكاتوم

= ص ٤٩) انها بنيت عام ٤٥٤هـ . ويجعلها ياقوت (معجم البلدان ، عام ٤٧٠هـ ، هذا ويذكر السيد عبد العزيز سالم : (المغرب الكبير ، ج ٢ ، ص ٧٠٢ - ٧٠٣) ان صاحب الحلل يجعل تاريخها عام ٤٠٢هـ ولكن عند الرجوع الى الحلل الموشية وجدناه عام ٤٦٢هـ . ويذهب شيخ الربوة (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، ص ٣٦) ، انها بنيت عام ٤٩٠هـ ، ويذكر ابن الأثير (الكامل ، ج ١٠ ، ص ٤١٧) ان يوسف بن تاشفين هو الذي اختط مراكش دون تحديد تاريخ .

(١) الحسن السائح : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٦٦ - ١٦٧ .

(٢) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٩ .

(٣) عبد الحق حموش : ابن تاشفين ، ص ٤٣ .

(٤) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ق ٣ ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ ، حاشية رقم ١ .

(٥) المراكشي : المصدر السابق ، ص ٤٤٤ ؛ ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٩ .

(٦) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٤٦٤ .

(٧) ابراهيم حركات : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٤١ .

هيوميروم » فرصة طيبة للاستفادة من انقاضها في تعمير بيوتها ومرافقها المختلفة .

وسكن يوسف بن تاشفين هذا الموقع في أول الأمر بخيام من الشعر ، وبني فيها مسجداً للصلاة وقصبة صغيرة لخزن أمواله وأسلحته ، ولم يبن على ذلك سوراً [١] ولكن ابن خلدون [٢] يذكر انه أدار سورها على المسجد والقصبة . ثم ما لبث المدينة ان تطورت بعض الشيء في عهد يوسف فبنيت بها بعض المساكن [٣] ، الا انها بقيت مدينة بسيطة يغلب عليها الطابع البدوي ، وتفتقر الى المرافق العامة ، والمباني الضخمة . ثم تغيرت الصورة عندما تولى علي بن يوسف الحكم عام ٥٠٠هـ / ١١٠٦م ، فقد انتقلت المدينة من دور البساطة الى دور التقدم والازدهار في مختلف المجالات العمرانية والاقتصادية [٤] ، فتزايد عدد سكانها ، واتسع عمرانها ، وامتد على سبعة أميال ، وأخذ الأمراء والعامة يتنافسون في بناء القصور الفخمة [٥] ، ونظمت شوارعها وأزقتها وساحاتها التي كانت تمتاز بالسعة والرحابة [٦] .

ولم يدخر علي بن يوسف وسعاً في دفع عجلة تطوير عاصمته ، فأنفق على منشآتها ومرافقها سبعين ألف دينار [٧] ، وحرص على توفير المياه لها عن طريق الخطاطير التي قام بحفرها المهندس عبيد الله بن يونس ، وهي عبارة

---

(١) ابن القاضي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٤٦ .

(٢) تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٣٧٨ .

(٣) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ١٢٤ ـ يذكر ان أول بيت بني في مراكش بيت تورزجين بن الحسن وكان من الطوب ثم بني قصر الحجر (انظر ابن عذارى : المصدر السابق ج ٤ ، ص ١٩ ـ ٢٠) .

(٤) المقري : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ١١٠ ؛ ابن القاضي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٥٩ ـ ٤٦٠ ؛ ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص ١٠٩ .

(٥) الزركشي : المصدر السابق ، ص ٨ ؛ باليلس : الفن المرابطي والموحدي ، ص ٣٠ ـ ٣١ ؛ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ، ج ٤ ، ص ٥٩٩ .

(٦) ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ، ج ١ ، ص ٢٤١ .

(٧) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٤٥١ .

عن آبار متقاربة تتصل مع بعضها ، فوصلت المياه الى مختلف أحياء المدينة ، واكتنفت المدينة الخضرة والحدائق بفضل هذه الشبكة الواسعة من القنوات الجوفية . وقد أعجب الأمير علي بن يوسف بهذا الابتكار وأغدق على مهندسها العطايا والصلات [١] .

وأقيمت قنطرة على نهر تانسيفت باشراف خبراء استقدموا من الأندلس خصيصاً لهذه الغاية [٢] ، وقد بلغ طول هذه القنطرة أربعين متراً وأقيمت على واحد وعشرين قوساً مبنية من الآجر والجير [٣] . كما بنيت أيضاً بالمدينة عشرات الحمامات ومخازن الحبوب ، والبيمارستانات [٤] .

وجذبت العاصمة الجديدة مراكش رؤوس الأموال اليها من مختلف الجهات ، فوفد عليها المستثمرون والتجار والصنّاع من مختلف الأصقاع ، فازدهرت التجارة والصناعة فيها ، وزخرت أسواقها بالسلع المختلفة [٥] .

ويبدو ان الدولة حرصاً منها على المحافظة على النظام ، ومعاقبة كل من تسول له نفسه افساد الأمن والاعتداء على الآخرين قامت ببناء بعض السجون [٦] .

لقد غدت مراكش بفضل جهود أمير المسلمين علي بن يوسف من أجمل المدن المغربية وأكبرها لكثرة مبانيها وبساتينها ، وازدهار صناعاتها ، فأصبحت

---

(١) الزركشي : المصدر السابق ، ص ٨؛ ابراهيم حركات : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٤١؛ أحمد مختار العبادي : الحياة الاقتصادية في المدينة الاسلامية ، مجلة عالم الفكر ، مج ١١ ، ع ١ ، ابرايل ـ مايو ـ يونيو ١٩٨٠م ، ص ١٤٨ ـ ١٥٠ .

(٢) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٤٥٣ ؛ السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ج ٢ ، ص ٤٤٨ .

(٣) ابراهيم حركات : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٤٤ .

(٤) الحسن السائح : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٦٥ ـ ١٦٧ .

(٥) المرجع السابق نفسه ، ج ١ ، ص ١٦٥ ـ ١٦٧ ؛ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ، ج ٤ ، ص ٥٩٩ .

(٦) الحسن السائح : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٦٦ ـ ١٦٧ .

محط أنظار الأندلسيين والمغاربة .

وأظهرت الحفريات التي جرت بالقرب من جامع الكتبية بمراكش بقايا لجناح عائلي في قصر شرع علي بن يوسف في بنائه عام ٥٢٦هـ / ١١٣٢م . كذلك أمكن التعرف على أساس لصحنين صغيرين ، أحدهما يشتمل على ممرين متقاطعين ، ويحدان أربع رقاع مربعة ، وفي الجانب الشمالي من هذا الصحن توجد بركة صغيرة مطلية باللون الأحمر تتفرع منها أنابيب صغيرة من الطين تحمل الماء الى الرقاع لتروي ما قد يكون بها من زرع . وأما الصحن الآخر فعثر فيه على قواعد أعمدة مربعة (١) .

ومن المدن التي اهتم بها المرابطون اهتماماً فائقاً مدينة فاس التي تقدمت تقدماً كبيراً في هذا العهد ، فازدحمت بالسكان وراجت تجارتها ، وعلت مبانيها ، وكثرت صناعاتها ، وحظيت المساجد فيها برعاية خاصة ، وتنافس أهل الخير في بنائها (٢) .

ويعود الاهتمام بهذه الحاضرة الى فترة مبكرة من عهد يوسف بن تاشفين ، الذي اعتنى بها عناية فائقة ، فيذكر انه استقدم اليها جملة من صناع الارحاء من الأندلس ، فبنوا جملة من الارحاء فيها (٣) . وقد استمرت المدينة في النمو والازدهار في عهد علي بن يوسف حتى غدت بمثابة العاصمة الثانية للمغرب (٤) .

---

(١) بالباس : المرجع السابق ، ص ٣٠ ـ ٣١ ـ ومن الجدير بالذكر ان الموحدين بعد دخولهم مراكش عام ٥٤١هـ اهتموا بها أيضاً اهتماماً لا بأس به ، وقاموا بانشاء بعض المنشآت المعمارية خاصة المساجد ويبدو انها استمرت مزدهرة فترة من الوقت وهذا ما أكده ليون الافريقي حين وصفها بأنها أعظم مدن العالم في عصره (انظر : ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ق ٣ ، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥ ، حاشية رقم ١ ؛ الحسن السائح : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٦٦ ـ ١٦٧) .

(٢) الجزنائي : جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، ص ٦٧ ؛ ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ٥٩ ؛ السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ج ٢ ، ص ٥١٨ ، ٧٥٨ .

(٣) الجزنائي : المصدر السابق ، ص ٤٢ .

(٤) السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير : ج ٢ ، ص ٥١٨ .

واذا انتقلنا الى الأندلس وجدنا نهضة معمارية رائعة لا تقل في مستواها عن النهضة التي شاهدناها في بلاد العدوة ان لم تكن تبذها ، فنظرة لعدد بيوت احدى المدن الأندلسية في هذا العهد يثبت ما ذهبنا ، فيقدر ليوبولدوريس بالباس[١] عدد بيوت المرية في الفترة الواقعة ما بين أواخر القرن الخامس والنصف الأول من القرن السادس الهجري بنحو (٤٦٠٤) داراً يسكنها اكثر من ٢٧ ألف نسمة ، وهو أقل تقدير لسكان المدينة في ذلك الوقت ، لأن هناك من يقدر عدد دورها بـ ١٧٦٠٠ داراً للخاصة والعامة في العصر المرابطي والموحدي[٢] .

وتغنى الشعراء ببعض قصور المرابطين في الأندلس ، فهذا الشاعر أبو بكر بن بقي يمتدح منية الزبير بن عمر أحد ولاة قرطبة في عهد علي بن يوسف ، ومما قال فيها :

سقى الله بستــان الــزبيــر ودام في	ذراه مسيــل النهـر مـا غنت الـورق
هو الموضع الزاهي على كل موضـع	أمـا ظله ضـاف امـا مـاؤه دفـق
أهيم بـه في حـالـة القـرب والنـوى	وحق لـه مني التـذكـر والعشق[٣]

كما اهتم ولاة الدولة المرابطية في الأندلس في عهد علي بن يوسف ببناء الحمامات والمرافق العامة[٤] ، والفنادق التي بلغ عددها في مدينة المرية وحدها في العصر المرابطي ٩٧٠ فندقاً[٥] . هذا وقد كشفت الحفريات في السنوات الماضية في مدينة إشبيلية عن مقر حكم المرابطين فيها[٦] .

---

(١) الفن المرابطي والموحدي ، ص ٤٥ - ٤٦ .
(٢) السيد عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، ج ١ ، ص ١٨٤ .
(٣) المرجع السابق نفسه ، ج ١ ، ص ٢٢٨ .
(٤) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ٥٢٤ ؛ المقري : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢١٦ .
(٥) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية الاسلامية ، ص ١٦٩ .
(٦) ارنست كونل : الفن الاسلامي ، ص ١٢٦ .

ب ـ العمارة الدينية

لقد اعتنى المرابطون بالمساجد عناية فائقة منذ اللحظات الأولى لقيام دولتهم ، وعندما بدأت قواتهم تتقدم نحو المغرب أخذوا يشجعون على بناء المساجد في المدن المفتوحة ، ووصل الأمر في بعض الأحيان الى معاقبة أهل المدينة التي لم تشجع على بناء المساجد فيها . وهذا ما حدث في مدينة فاس عندما دخلها المرابطون عام ٤٦٢هـ / ١٠٧٠م فقد فرضوا على أهلها بناء المساجد في أحوازها وأزقتها ، وشوارعها ، وأي زقاق لم يوجد فيه مسجد عوقب أهله وأمروا ببناء مسجد فيه (١) .

وأنفق علي بن يوسف بن تاشفين وقواده أموالاً طائلة في بناء المساجد وترميمها . ولم تكن النساء المرابطيات ايضاً أقلّ حماساً من الرجال في تشجيع حركة بناء المساجد ، فرخصن أموالهن في سبيل بناء بيوت يذكر فيها اسم الله ، فتبرعت حرم أمير المسلمين علي الحرة بمبلغ من المال لتوسعة بعض المساجد وترميمها (٢) .

وتنافس أهل الخير في تقليد قادتهم في بناء المساجد فانتشرت هذه الروح الدينية في طول البلاد وعرضها . وهذا الاهتمام بالمسجد يتناسب مع رسالة دولة المرابطين التي كانت تسعى لرفع لواء الإسلام عالياً ، ولذلك طغت العمارة الدينية على العمارة المدنية في عهد المرابطين حتى ان مؤرخي الفن دهشوا لقلة القصور بالنسبة للمساجد (٣) .

وامتازت المساجد المرابطية بشكل عام بضخامتها ، وارتكاز سقوفها المسنمة الشكل على دعائم قاعدتها مستطيلة او مصلبة ، ثم بعقود حذوة الفرس دون أوتار تربطها (٤) .

---

(١) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٤١ ـ ١٤٢ ؛ ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٣٨٠ .

(٢) ابن رشد : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٦٦٠ .

(٣) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٤٤٩ ـ ٤٥٢ .

(٤) مورينو : الفن الاسلامي في اسبانيا ، ص ٣٣٨ .

ومن المساجد الرائعة التي قام بانشائها المرابطون في المغرب مسجد علي بن يوسف بن تاشفين في مدينة مراكش ، والذي انفق في بنائه ستون ألف دينار مرابطية [١] . وقد كشفت الحفريات منذ عهد قريب في مدينة مراكش عن أساس لصومعة هذا المسجد الذي شرع في بنائه عام ٥٢٦هـ / ١١٣٢م ، وكانت الأجزاء السفلى من هذه الصومعة من الحجر تحدها اضلاع أربع كل واحد منها ١٠م ، ومزودة من الداخل بدرجين متماثلين [٢] .

وفي وسط مدينة مراكش تقوم قبة آية في الفن والروعة تسمى قبة الباروديين [٣] التي يحدد تاريخ انشائها ما بين عامي ٥١٤هـ و٥٢٥هـ / ١١٢٠ و ١١٣٠م [٤] ، وهي عبارة عن مبنى مستطيل الشكل مبني من الحجر تتوج جدرانه من الخارج شرافات مدرجة ، ويغطي الجزء الأوسط قبة صغيرة مبنية بالآجر ، ومقواه من الخارج بعروق تقوم على قاعدة مربعة ضلعها ٣٨٠م ، وتبرز بداخلها ثمانية عقود متقاطعة راسمة بتقاطعها حلقة مثمنة تعلوها قبة صغيرة مفصصة [٥] .

ويذكر بالباس [٦] ان هذه القبة ربما انها بنيت من أجل ان تكون مدفناً لاحدى الشخصيات المهمة في الدولة المرابطية . ويبدو أن بالباس بحكمه هذا كان متأثراً بالفن الاسلامي المشرقي في العصر العباسي والسلجوقي والعصور الاسلامية المتأخرة التي كانت تعج بعشرات القباب والمباني الضخمة التي اقيمت على مدافن بعض الشخصيات المهمة ، ولكن بالباس غفل عندما أصدر حكمه هذا عن الأساس الروحي الذي قامت عليه دولة المرابطين ، والذي يتنافى مع كل ضلالة وبدعة ، فهم يرفضون البناء على القبور ، حتى أن

---

(١) السلاوي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٥ ؛ ابراهيم حركات : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٤٢ .

(٢) السلاوي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٥ ؛ بالباس : المرجع السابق ، ص ٢٤ .

(٣) السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ج ٢ ، ص ٧٥٢ .

(٤) بالباس : المرجع السابق ، ص ٤٦ .

(٥) المرجع السابق نفسه ، ص ٤٦ ـ ٤٧ . انظر اللوحة رقم ١ ، ٢ ، ٣ .

(٦) الفن المرابطي والموحدي ، ص ٤٦ ـ ٤٧ .

علياً بن يوسف بن تاشفين أوصى بأن يدفن في مقبرة عامة الناس من المسلمين [١] .

ومن المساجد التي بناها المرابطون في المغرب ايضاً مسجد تلمسان ، وهو المسجد الوحيد الذي بقي على شكله الأصلي بوجه عام من آثار الدولة المرابطية [٢] وتشير الكتابة الموجودة في محرابه الى الفراغ من انشائه عام ٥٣٠هـ / ١١٣٥م ، والانشاء المقصود هنا هو الاضافات التي قام بها علي بن يوسف على المسجد الأصلي الذي أقامه والده عام ٤٧٥هـ / ١٠٨٢م [٣] .

والمسجد بناء مستطيل طول ضلعه من الشمال الى الجنوب ٥٥م ، ومن الغرب الى الشرق ٥٠ متراً [٤] . ويتألف من بيت للصلاة مستطيل الشكل يشتمل على ١٣ بلاطة عمودية على جدار القبلة ، وتستند عقود الجامع على ١٢ دعامة ، وسقف المسجد خشبي مسطح يعلوه سطح منشوري الشكل مسنم ، ويتوسط بيت الصلاة قبة تقابلها أخرى أمام المحراب ، وقبة المحراب هذه من أجمل القباب في المساجد الإسلامية ، وهي تعتمد على ١٢ عقداً متقاطعاً [٥] .

ويعتبر مسجد الكتبية في مراكش ، والذي بني عام ٥٣٤ - ٥٣٧هـ / ١١٣٩ - ١١٤٢م من المساجد التي اشتهرت في تلك الفترة واعتبر منبره من أجمل المنابر الإسلامية [٦] .

---

(١) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٠١ .

(٢) ابراهيم حركات : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

(٣) السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ج ٢ ، ص ٧٤٩ - ٧٥٠ - ويذكر حسن محمود (قيام دولة المرابطين ، ص ٤٥٣) وابراهيم حركات : (المغرب غبر التاريخ ، ج ١ ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣) انه بني عام ٥٢٠هـ .

(٤) السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ج ٢ ، ص ٧٤٩ - ٧٥٠ أي ان المساحة الكلية ٢٧٥٠م^2 بينما ذكر ابراهيم حركات (المغرب عبر التاريخ ، ج ١ ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣) ان المساحة ٣٠٠م^2 .

(٥) نفس المرجعين السابقين والصفحات . انظر لوحة رقم ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ .

(٦) مورينو : المرجع السابق ، ص ٣٤٩ - ٣٥٠ ، انظر لوحة رقم ١١ ، ١٢ ، ١٤ .

وتوج علي بن يوسف أعماله العمرانية بتوسعة مسجد القرويين [1] ، والتي أنفق فيها ٨٠ ألف دينار مرابطية [2] ، وذلك باضافة ١٨٥٠م² للمسجد القديم فأصبحت مساحته بعد ذلك ٥٨٤٦م² . وكان تاريخ الشروع في هذه الزيادة عام ٥٣١هـ / ١١٣٧م [3] ، وقد انجزت في عام ٥٣٨هـ / ١١٤٣م [4] .

وكانت هذه الزيادة ضرورية لاكتظاظ مدينة فاس بالسكان وازدحام المسجد خاصة يوم الجمعة والأعياد بالمصلين ، فكان الناس يصلون في الشوارع ، فاتفق رأي وجهاء المدينة على ندب أحدهم لعرض الأمر على أمير المسلمين في مراكش ، وإخباره بأن نفقات التوسعة ستغطى عن طريق محاسبة وكلاء الاحباس الذين كانوا يستغلونها لصالحهم ظلماً وبهتاناً ، فوافق أمير المسلمين على ذلك وشجعهم عليه ، فتعاقب على توسعته ثلاثة من القضاة ،

---

(١) قامت بانشاء هذا المسجد فتاة تسمى فاطمة وتكنى أم البنين ، وهي بنت الفقيه ابو عبد الله محمد الفهري القيرواني ، التي توفي زوجها واختها فورثت منهما مالاً عظيماً بنت به مسجد القرويين عام ٢٤٥هـ / ٨٥٩م . وكان تصميم المسجد مربعاً الا ان تربيعه لم يكن منتظماً تماماً ، فكان عرضه أكبر من طوله ، وكانت له أربعة أبواب ، وبعد قرن من تأسيسه أخذ يضيق بالمصلين فقام الأمير أحمد بن أبي بكر الزناتي عام ٣٢٢هـ / ٩٣٤م الذي كان تابعاً للأمويين في الأندلس ، باستشارة الخليفة عبد الرحمن الناصر في توسعته ، فرحب بالاقتراح ، وقدم له المساعدات من أجل ذلك ، فزاد فيه من الجهات الثلاث الغربية والشرقة والشمالية ، مع مراعاته للخطوط الكبرى للمسجد الأولى ، وقام بنصب الصومعة وسط الجناح الغربي للصحن وقد بلغت مساحته بعد هذه الزيادة أربعة آلاف متر مربع ، واكتسب أربعة أبواب أخرى ، والمنارة لا تزال شاخصة الى الآن ، وتعد أقدم منارة في المغرب الاسلامي ، وهي نموذج للصومعة المربعة ، ويبلغ ارتفاعها ٢٦,٧٥م ، وقد فرغ من بنائها في ربيع الثاني ٣٤٥هـ / يوليو ٩٥٦م . انظر ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ٥٤ ؛ ابن القاضي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٢ ؛ عبد الهادي التازي : جامع القرويين ، ج ١ ، ص ٤٦ ـ ٤٧ ، ٥٦ ـ ٥٧ ، ١٥٢ .

(٢) الجزنائي : المصدر السابق ، ص ٦٨ ؛ ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ٧٩ ؛ حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٤٥٢ .

(٣) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ق ٣ ، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧ ـ ويذكر الجزنائي : (جني زهرة الآس ، ص ٦٧) ، ان الشروع في الزيادة كان عام ٥٢٩هـ / ١١٣٥م .

(٤) عبد الهادي التازي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٧٥ ـ ٧٦ .

فزود المسجد بحجرات إضافية ، ومسجد للجنائز ، ومظلة للصحن الخارجي .

وكان أبو عبد الله محمد بن عيسى السبتي قاضي مدينة فاس ، قد قام ببعض الاصلاحات في المسجد في عام ٥٠٥هـ / ١١١١م، كان من بينها بناء الباب الغربي للمسجد (١) . الا ان الزيادة المهمة هي التي قام بها قاضي فاس عبد الحق بن معيشة الغرناطي الذي خطط لمشروع توسعة ضخم ، ووفر نفقات هذه التوسعة بمحاسبة وكلاء الأوقاف ، حيث أبرزت المحاسبة ثمانين ألفاً من الدنانير المرابطية ، ثم شرع في شراء البيوت المجاورة للمسجد والتي تدخل ضمن التوسعة ، وكان معظمها لليهود ، فاشتراها منهم بأثمانها دون بخس ، وتجمع له من بيع أنقاضها مبلغ ضخم عوضه عن ثمن شرائها (٢) .

وكان مشروعه يقوم على العمل على توسعة الصحن وتخصيص مقدم القبلة لعدة مرافق ، والتخطيط لبناء مسجد للجنائز ، وبناء مقصورة للإمام ، ومنبر ، وأبواب جميلة للمسجد (٣) .

وقام ابن معيشة بزيادة عشر بلاطات من صحنه الى القبلة ، وعمل قبتين واحدة بأعلى المحراب والأخرى تحاذيها من وسط البلاطين المتصلين بها ، وعمل ذلك من الجص المقربص الفاخر (٤) .

وأمر علي بن يوسف بعمل منبر فاخر للمسجد ، فتعهد الشيخ الأديب أبو يحيى العتاد إمام اللغة والشعر بصنعه ، فصنعه من عود الصندل ، والابنوس ، والنارنج ، والعناب ، وعظم العاج ، فخرج آية في الفن والروعة ، بعد ان أنفق عليه ثلاثة آلاف وثمانمائة دينار ، وسبعة أعشار دينار فضة ، وخصص

---

(١) الجزنائي : المصدر السابق ، ص ٦٥ - ٦٦ .

(٢) ابن القاضي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٦٨ - ٦٩ .

(٣) عبد الهادي التازي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٧٤ - ٧٥ .

(٤) ابن القاضي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٦ .

لهذا المنبر من أجل المحافظة عليه غشاءان أحدهما من الجلد والآخر من الكتان يزالان في كل يوم جمعة (١) .

ويعد هذا المنبر من التحف الجميلة في العالم الإسلامي ، وكان يصعد اليه الخطيب على تسع درجات بين ساريتين من عود ثمين أدكن ، وتم الفراغ من هذه التحفة الفنية في عام ٥٣٨ هـ / ١١٤٣ م(٢) ، في عهد الشيخ أبي مروان عبد الملك بن بيضاء القيسي لأن القاضي بن معيشة عزل من منصبه في عام ٥٣٣ هـ / ١١٣٨ م(٣) .

وكذلك اكتسب المسجد مصلى للجنائز مثلما خطط له ابن معيشة ، وهو أقدم جامع من نوعه في كل بلاد المغرب ، وقد شيد على شكل مثلث متصل بالشارع العام عن طريق باب الخلفاء وباب المصلى ، وفي غرب هذا المثلث قبة مقربصة يحميها رواق سقف بالقرميد وتحت هذه القبة يوضع النعش . أما مقصورة الإمام فمساحتها تتعدى الخمسة أمتار تعلوها قبة في أعلاها شماسات (٤) .

وزود الصحن بمظلات من الكتان تنشر عليه يوم الجمعة في فصل الصيف لتحجب الشمس عن المصلين ، حيث جعل في أطنابها حبالاً تجري في بكرات موثوقة بالرفوف الدائرة على جوانب الصحن ترفع بها المظلات عند الحاجة اليها ، وترك في بعض المواضع من المظلات فرج يدخل منها الهواء ، وبقيت هذه المظلات حتى العهد الموحدي حيث مزقت لقلة العناية بها (٥) .

---

(١) ابن القاضي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٦ ؛ ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ٦٢ ـ ٦٣ ؛ الجزنائي : المصدر السابق ، ص ٦٨ .

(٢) عبد الهادي التازي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٧٥ ـ ٧٦ .

(٣) ابن القاضي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٦٨ ـ ٦٩ ؛ الجزنائي : المصدر السابق ، ص ٦٨ .

(٤) عبد الهادي التازي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٧٤ ـ ٧٥ ـ الشماسة : يقصد بها النافذة وهي كلمة مشتقة من كلمة الشمس (انظر عبد العال عبد المنعم الشامي جغرافية المدن عند العرب ، مجلة عالم الفكر ، مج ٩ ، ع ١ ، نيسان ـ مارس ـ حزيران ١٩٧٨م ، ص ١٤٦) وانظر لوحة رقم ١٣ .

(٥) عبد الهادي التازي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٧٤ .

وفرشت أرضية المسجد كلها ، وحفرت فيها بالوعات تستوعب ماء الغسل عند الحاجة ، وبلغ مجموع سواري المسجد بعد هذه الزيادة ما بين ٣٠٠ و ٢٧٢ سارية متنوعة الشكل والمادة ، فبعضها كان من قطع الآجر مربعة القاعدة في معظم الأحوال وبعضها من قطع قديم ركبت من اسطوانات صخرية ، ومنها المفصص والمضلع ، وهناك قسم من السواري الرخامية جلبت من الأندلس [١] .

وغدت أبواب المسجد بعد الزيادة ١٧ أو ١٨ باباً [٢] ، وغشيت الأبواب بالنحاس الأصفر ، وعمل أمام كل باب قبة [٣] ، وأول ما بني من هذه الأبواب باب الفخارين عام ٥٢٨هـ / ١١٣٣م الذي عرف فيما بعد باسم باب الشماعين وركب عليه باب عظيم [٤] ، وعمل بأعلاه قبتان احداهما من جص بداخله ، والثاني من خشب الأرز بخارجه [٥] .

وهكذا أصبح مسجد القرويين يتسع لاثني عشر ألف مصل في بعض الروايات ، ولاثنين وعشرين ألفا ومئة واحدى وأربعين نسمة في روايات أخرى [٦] .

كما قام عمال وأعيان المرابطين في الأندلس بتقليد أميرهم علي بن يوسف بن تاشفين في ترميم وتوسيع وانشاء المساجد في هذه الرقعة . وقد أسفرت أعمال التنقيب في مدينة المرية عن الكشف عن لوحة تنص على ان هناك زيادة في منارة المسجد الجامع في المدينة على يد قاضي الجماعة بحضرة قرطبة وصاحب الصلاة في مسجد المرية ومما جاء في هذه اللوحة ان

---

(١) عبد الهادي التازي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٦٦ - ٦٧ .

(٢) المرجع السابق نفسه ، ج ١ ، ص ٨٩ - ٩١ .

(٣) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ٦٢ - ٦٣ ؛ الجزنائي : المصدر السابق ، ص ٦٨ .

(٤) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ٦٠ .

(٥) الجزنائي : المصدر السابق ، ص ٦٥ - ٦٦ .

(٦) عبد الهادي التازي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٦٧ .

الذي أمر بهذه الزيادة الفقيه أبو محمد عبد الحق بن عطية فزيد في طولها عشرة أذرع وكمل ذلك في سنة ٥٣١هـ / ١١٣٦م [١] .

وزاد أيضاً أبو محمد عبد الرحمن بن مالك المعافري المتوفى عام ٥١٨هـ / ١١٣٤م في سقف جامع قرطبة [٢] كما قام ببناء حمام فيه في عام ٥٠٩هـ / ١١١٥م وأقام حماماً آخر في غرناطة [٣] .

جـ ـ العمارة العسكرية

لقد كان ترامي أطراف دولة المرابطين يحتم على حكامها البحث عن طريق يستطيعون بواسطتها تثبيت سيادتهم عليها خاصة في المغرب حيث يكثير المنافسون لهم من قبل قبائل المصامدة وغيرها ممن يتحفزون للثورة عليهم ، فلم يجدوا أفضل من بناء القلاع بالقرب من المناطق التي يتوجسون منها ، فأقاموا صفاً من الحصون حول جبال الأطلس لاخضاع المصامدة والسيطرة عليهم [٤] .

ولم يغفلوا كذلك عن تحصين مدنهم في المغرب لصد غارات الموحدين ، وفي الأندلس لرد عادية الأسبان النصارى الذين كانوا يخرجون بين الفينة والفينة الى الأراضي الاسلامية فيعيثـون فيها ، فاضطروا الى بناء عشرات الأسوا حول المدن الأندلسية والمغربية على خد سواء .

وقد غلب الطابع المغربي على بناء الحصون والأسوار والقلاع [٥] ، التي امتازت بالضخامة والمبالغة في التحصين ، فكانت جدران القلاع سميكة

---

(١) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية الإسلامية ، ص ١٤٩ .

(٢) المقري : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢١٦ ـ ٢١٧ .

(٣) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج ٣ ، ص ٥٢٤ ؛ المقري : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢١٦ .

(٤) حسن محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ٤٩٣ .

(٥) ابراهيم جركات : المغرب عبر التاريخ ، ج ١ ، ص ٢٣٩ .

تتخللها ابراج على هيئة نصف دائرة وتحيط بها الخنادق الواسعة (١) .

وكانت مادة البناء المستعملة في تلك العمائر الحجر او الطوب او هما معاً (٢) ، وزودت تلك القلاع بكل شيء تحتاج اليه من ماء ، وغذاء ، وسلاح ورجال (٣) .

ومن أهم القلاع التي أقامها المرابطون في المغرب قلعة آمرجو والتي يرجح انها بنيت في عهد علي بن يوسف ، وتعتبر هذه القلعة من أبرز النماذج التي تمثل العمارة الحربية في عصر المرابطين . وتقع هذه القلعة على مرتفع مطل على وادي ورغة المتفرع من وادي سبو جنوبي قلعة بني تاودا ، والقلعة على شكل متعدد الأضلاع المائل الى الاستطالة ، ودعم سورها الخارجي باثني عشر برجاً نصف دائرية تقوم في زوايا السور ، وفي جانب السور الشمالي الشرقي من القلعة يقوم برجان يمتد بينهما سور أمامي ، كما ان القلعة كانت مزودة بقصبة صغيرة على شكل مستطيل ، محصنة في أركانها بأبراج نصف دائرية ، ويخترق سورها بابان . أما سور القلعة ككل فيخترقة ثلاثة أبواب .

وفي هذه القلعة تفاعلت المؤثرات المحلية مع المؤثرات الأندلسية والاسبانية النصرانية ، وأهم المؤثرات الاسبانية النصرانية فيها الأبراج المستديرة والسور الأمامي(٤) ويبدو أن أهم القنوات التي انتقلت عبرها المؤثرات الاسبانية النصرانية الى الحضارة المرابطية كانت عن طريق المستعمر بين وهم النصارى الذين كانوا يعيشون في الأندلس ، وكانوا يتنقلون بين الأقاليم الاسلامية والمسيحية ، فكانوا حلقة وصل بين الحضارة الاسلامية في الأندلس والممالك النصرانية الاسبانية الشمالية والدول الأوروبية(٥) .

---

(١) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٤٥٣ .

(٢) ابراهيم حركات : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٤٤ .

(٣) السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ج ٢ ، ص ٧٦٥ - ٧٦٦ .

(٤) المرجع السابق نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٦٣ - ٧٦٥ .

(٥) عباس الجراري : أثر الأندلس على أوروبا في مجال النغم والايقاع ، مجلة عالم الفكر ، مج ١٢ ، ابريل - مايو - يونيو ١٩٨١م ص ١٧ .

وعبرت المؤثرات الأوروبية والاسبانية الشمالية الى الدولة المرابطية ايضا عن طريق الحروب حيث اقتبس كل طرف من الآخر بعض المميزات التي رآها جديرة بالاقتباس فأخذ المرابطون من النصارى بعض الأدوات الحربية من تروس ودروع .

وكان الجند المرتزقة من الممالك النصرانية الاسبانية في جيش علي بن يوسف يشكلون حلقة وصل بين ثقافتين متباينتين ، فنقلوا الى المغرب والأندلس اضافة لفنون الحرب بعض المؤثرات في العمارة الحربية التي تجلت في استعمال المرابطين للقلعة التي على شكل متعددة الاضلاع [١] .

اما القناة الأخيرة التي عبرت عن طريقها المؤثرات الأجنبية الى الدولة المرابطية ومن الدولة المرابطية الى تلك الدول فهي التجارة. فكانت السفن الأوروبية تصل الى موانيء الأندلس والمغرب للمتاجرة ، وكان التجار الأوروبيون خلال اقامتهم في الموانىء المرابطية يؤثرون ويتأثرون [٢] .

أما حصن تاسغيموت الذي أقيم عند الاطلس الكبير [٣] عام ٥١٩هـ / ١١٢٥م تحت اشراف مهندس اندلسي هاجر الى مراكش [٤] ، فهو حصن أشبه بالمحلة المسورة منه بالقلعة الحقيقية [٥] . وقد بني هذا الحصن ليكون نقطة مراقبة متقدمة لمدينة مراكش على بعد ٣ كم الى الجنوب الشرقي منها على هضبة وعرة تحيط بها أودية سحيقة شديدة الانحدار يصعب على المهاجمين ارتقاؤها ، وتحدق أسوار هذا الحصن بالهضبة ، وللحصن باب رئيسي واحد من الجهة الشمالية اسمه باب الموحدين ، وهناك باب صغير للطوارىء في نفسه الجهة .

---

(١) السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ج ٢ ، ص ٤٦٤ - ٤٦٥ .

(٢) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية الاسلامية ، ص ١٦٨ ؛ بالباس : المرجعالسابق ، ص ٦٢ - ٦٣ .

(٣) ابراهيم حركات : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٤٤ .

(٤) السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ج ٢ ، ص ٧٤٨ (يسميه البيذق ميمون بن ياسين) .

(٥) بالباس : المرجع السابق ، ص ٣٦ .

وزود هذا الحصن بكل المرافق الضرورية لمقاومة أي حصار طويل ، فهو من الداخل عبارة عن معسكر فسيح مزود بخزان ماء ضخم تصل اليه المياه من نبع في الهضبة (١) ، وشحن ايضا بحامية قوية قوامها سبعمائة رجل ، مائتي فارس وخمسمائة من المشاة (٢) .

وكانت مادة بناء هذا الحصن الذي شارك في بنائه اسارى النصارى من الحجر والطوب (٣) ، ولكن على الرغم من حصانته الا انه سقط بيد الموحدين في فترة مبكرة فقاموا بخلع ابوابه وركبوها على باب الفخارين في مدينة تينملل (٤) .

وبنى المرابطون ايضا حصن تاكرارت بمكناس (تاكرارت تقابل لفظ معسكر) ، وحصن تاكرارت تلمسان ، وقصبة النصراني عند جبل رزهون ، وحصنا قرب أودوغشت وكان يخندق حول هذه القلاع وتشحن بالاسلحة والذخائر (٥) .

ومن القلاع الهامة التي بنيت في الاندلس في عهد علي بن يوسف قلعة منتقوط Monteagado) التي تشرف على بساتين مرسية ، وتسمى اليوم بالقصير ، واهميتها الكبرى تنحصر في انها تعطينا صورة عن مقر ريفي بما يحويه من حدائق ، ونافورات وبرك ، وزخارف متنوعة مكونة من تشبيكات سداسية وثمانية ، وزخارف كتابية عمادها الخط الكوفي والنسخي (٦) .

أما الأسوار فقد اعتنى بها المرابطون عناية فائقة خاصة عندما اشتدت ضربات الموحدين لهم في المغرب ، وضربات النصارى في الاندلس فقد

---

(١) (١) السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ج٢ ، ص ٧٦٥ ـ ٧٦٦ .

(٢) ابراهيم حركات : المرجع السابق ، ج١ ، ص ٢٤٤ .

(٣) نفس المرجع السابق والصفحة .

(٤) السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ج٢ ، ص ٧٦٥ ـ ٧٦٦ .

(٥) ابراهيم حركات : المرجع السابق ، ج١ ، ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤ .

(٦) مورينو : المرجع السابق ، ص ٣٣٣ ـ ٣٣٧ انظر لوحة رقم ١٥ ، ١٦ .

كشفت هذه الغارات ضعف تحصينات المدن المغربية والاندلسية على حد سواء .

ونشطت عملية انشاء الاسوار وترميمها في المدن المغربية والاندلسية منذ عام ٥١٩ هـ/ ١١٢٥ م عندما اخترق الفونسو المحارب بجيوشه الاندلس وحاصر مدينة غرناطة وعاث في عدد من المدن الاندلسية لعدم مناعة اسوارها . وفي نفس الوقت كان الموحدون يشنون غاراتهم على المعاقل المرابطية في المغرب ، ووصلوا في بعض الاحيان الى العاصمة مراكش . عندها جاز ابو الوليد بن رشد الى امير المسلمين علي في مراكش واخبره بضرورة ترميم اسوار المدن الاندلسية ، وانشاء سور حول المدن التي تفتقر اليها ، كما افتى امير المسلمين مع مجموعة من علماء المغرب بضرورة تسوير العاصمة مراكش التي كانت بدون سورة (١) .

واستقدم أمير المسلمين علي بن يوسف عدداً كبيراً من الصناع والمهندسين الاندلسيين الى المغرب للاشراف على بناء اسوار المدن المغربية (٢) ، وبدأ بسور مراكش عام ٥١٩ هـ/ ١١٢٥ م (٣) في الوقت الذي ورد فيه كتاب أمير المسلمين علي بن يوسف الى الاندلس حاثاً فيه على النظر في جميع اسوار المدن الاندلسية . وقد انجز بناء سور مراكش خلال ثمانية أشهر (٤) ، وفتح فيه سبعة عشر باباً (٥) ، اشهرها باب ايلان (٦) ، وأغمات ،

---

(١) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٩٠ ـ عبد الله علام : المرجع السابق ، ص ١٠٨ ، حاشية رقم ٣ .

(٢) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٩٠ .

(٣) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٧٣ ـ وهناك من يجعل تاريخ بنائه عام ٥٢٦ هـ انظر ابن القاضي : المصدر السابق : ج٢ ، ص ٥٤٦ ؛ ابن أبي زرع : المصدر السابق : ص ١٣٩ ؛ السلاوي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٠٧ ؛ ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٣٧٨ .

(٤) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٩٠ ؛ السلاوي : المصدر السابق ج١ ، ص ١٠٧ ؛ ابن ابي زرع : المصدر السابق ، ص ١٣٩ ؛ ابن القاضي : المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٥٤٦ .

(٥) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ، ج٤ ، ص ٥٩٩ .

(٦) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج٦ ، ص ٤٧١ .

ودكاله ، والدباغين ، والشريعة والمخزن [1] ، وكانت كلفة هذا السور الضخم سبعين ألف دينار ذهبية [2] .

كما أوعز أمير المسلمين علي بن يوسف الى قاضية على مدينة فاس عبد الحق ابن معيشة بالاعتناء بأسوار المدينة ، فقام ببناء سور القوارجة ، وهو سور يتفرع من السور الأصلي للمدينة وينتهي عادة ببرج خارجي يقام في أصعب المواقع الدفاعية في المدينة [3] .

وقام والي مدينة وهران من قبل أمير المسلمين علي بن يوسف ببناء سور حول المدينة مستجيباً لنداء أمير المسلمين القاضي بضرورة العناية بالتحصين وتسوير المدن [4] .

أما في الاندلس فقد فرض المرابطون على السكان ضريبة خاصة تسمى ضريبة التعتيب من اجل ترميم الاسوار وبنائها [5] ، فتولى اهل قرطبة ترميم اسوار مدينتهم على سالف عادتهم ، وحذا اهل اشبيلية حذوهم [6] ، وتولى اهل المرية مساعدة رجل منهم يعرف بابن العجمي على بناء سور للمدينة وتحصينها بأقل قدر من التكلفة [7] . كما بنيت اسوار حول لبلة [8] ، وشريش وغيرها من المدن الاندلسية [9] .

وكانت الأسوار المرابطية تعزز بالابراج المستطيلة القليلة البروز ، كما كانت تزود بأبواب يحد طرف كل منهما بابان متواجهان امعانا في التحصين ،

---

(١) السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ج٢ ، ص ٧٠٤ .

(٢) مؤلف مجهول : المصدر السابق ، ص ٩٠ ؛ السلاوي : الاستقصا ج ١ ، ص ١٠٧ .

(٣) الجزنائي : المصدر السابق ، ص٤٢ ؛ السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ج٢ ، ص ٥١٨ .

(٤) ابراهيم حركات : المرجع السابق ، ج١ ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

(٥) بالباس : المرجع السابق ، ص ٣٦ .

(٦) ابن عذارى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٧٤ .

(٧) نفس المصدر السابق والصفحة .

(٨) تقع في غرب الاندلس وهي مدينة قديمة : انظر الحميري : المصدر السابق ، ص ٥٠٧ .

(٩) بالباس : المرجع السابق ، ص ٣٦ .

واضافة لكل ذلك كانت تحاط الاسوار بخنادق[1] .

وهكذا برزت مدرسة معمارية جديدة في بناء المساجد والعمائر الحربية في المغرب والاندلس نتيجة لامتزاج المؤثرات المحلية مع المؤثرات الاندلسية والنصرانية فظهر لاول مرة في المغرب ما يعرف بمسجد الجنائز وظهرت القباب المتقابلة على ابواب المساجد ، وبرزت صناعة المنابر المتميزة بالدقة والجمال الرائع ، والمصنوعة من نفيس الخشب الموشى بثمين الأحجار الكريمة والجواهر ، وكذلك برزت الى حيز الوجود القباب المقربصة ، ولاول مرة استخدمت المظلات المتحركة لتظليل المصلين في صحن المسجد في ايام الصيف .

ورأينا كيف كانت العمارة العسكرية متميزة بالضخامة والمبالغة في التحصين ولم يعهد ان قامت دولة من الدول الاسلامية في المشرق أو المغرب بانشاء هذا العدد الضخم من القلاع لنفس الغرض الذي من أجله انشأها المرابطون .

أجل ان المنجزات المعمارية الضخمة التي قام بانجازها المرابطون خلال فترة حكمهم تستحق التقدير والاعجاب خاصة اذا علمنا ان احوال الدولة بدأت تضطرب منذ عام ٥١٤ هـ/ ١١٢٠ م عندما ظهر محمد بن تومرت ، كما اشتدت ضربات النصارى في الاندلس . وعلى الرغم من كل هذه الصعوبات كانت الحركة العمرانية على اشدها ولم تتوقف لحظة واحدة ، فكما رأينا كانت بعض الاعمال المعمارية في مدينة فاس تسير على قدم وساق حتى عام ٥٣٨ هـ/ ١١٤٣ م . حقاً كان المرابطون بناة حضارة ودعاة تقدم ، فيد تحمل السلاح وتقارع الاعداء في الداخل والخارج ، والأخرى تحمل المعول لتعمر وتبني وتشيد المدن والمساجد والمرافق العامة .

---

(١) بالباس : المرجع السابق ، ص ٣٦ ؛ ابراهيم حركات : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤

د ـ الفنون الزخرفية :

لقد كان لثراء الدولة وسخائها في الانفاق على الفنانين دور في ابراز اعمال ـ فنية رائعة تبرز ما كانت تتمتع به من غنىً وازدهار ، الا اننا يجب الا ننكر ما كان لوحدة الاندلس والمغرب تحت سلطان المرابطين من دور في دفع عجلة الحركة الفنية تلك دفعات الى الامام ، فقد استطاعت الايدي الاندلسية الفنية ان تخفف من خشونة العمائر المرابطية في المغرب وتطبعها بطابعها ، مسخرة كل ما لديها من خبرة ومهارة .

كما اتاحت سعة رقعة الدولة المرابطية ببيئاتها المتباينة فرصة طيبة للفنان لاستلهام موضوعات لرسوماته وزخارفه ، وساعدت هذه السعة ايضا على توفير المواد الخام من ثمين الاخشاب ، والعاج ، والجوهر ، وغيرها مما يحتاج اليها الفنان وتساعده على الاجادة والابداع .

وكان لمتاخمة الدولة المرابطية للممالك الاسبانية النصرانية دور في تسرب بعض التأثيرات الفنية النصرانية الى الفنون الزخرفية المرابطية ، وكان ايضا لصلات المرابطين بالمشرق عن طريق التجارة ، وعن طريق الرحلات والحج ، دور في تسرب بعض المؤثرات الشرقية اليها .

في هذا المجال الرحب كان الفنان يقوم بعمل زخارفه غير مبال بالوقت من أجل التجويد والدقة ، ولكنه فنان يعرف حدود عمله على ضوء معتقده الاسلامي فابتعد كل البعد عن كل ما هو محاك للطبيعة من انسان أو حيوان الا ما ندر ، ووجد في النباتات ، والعناصر الهندسية ، والخط العربي مجالاً رحباً لابراز مواهبه وعبقريته الفنية ، كما كان الجص ، والنحاس ، والخشب والعاج مجالاً مناسباً لاعماله . ولم يجد ضيرا في بعض الاحيان في تزويق اعماله بنقوش الذهب ، واللازورد ، كما يجب ان لا يفوتنا ان جميع الزخارف المرابطية كانت زخارف حائطية ، وكان معظمها في المساجد .

ولنتحدث بشيء من الايجاز عن بعض الاعمال التي ابدعها الفنانون في

العصر المرابطي في عهد علي بن يوسف بن تاشفين ، ولنتناول عنصراً عنصراً من عناصر الزخرفة .

ـ الزخارف النباتية

لقد ظهرت هذه الزخارف بأشكال زخرفية متنوعة فنشاهد في مسجد القرويين في البلاطات الوسطى ، وجوف المحراب من اعلاه مجموعة من المراوح النخيلية [١] . ونجدها في قبة جامع تلمسان عبارة عن جرائد مقسمة الى وريقات تتوالى فيها وريقة في هيئة حلقة تتلوها وريقتان منحنيتان انحناء خفيفاً ، وهو طراز ليس له في المغرب نموذج سابق [٢] . على ان مقصورة محراب مسجد تلمسان تعتبر نموذجاً لروعة الزخارف النباتية وتنوعها فنطالع توريقات نفيسة تحاكي في بعض الأحيان وريقات شوكة اليهود مع ايثار لتفريغ السيقان المنحنية التي تنبت منها الأوراق ذات الحلقات وكيزان الصونبر ؛ والوريدات المستقرة في توازن للمجموعات وتبلغ روعة هذه الزخرفة عندما تتراكب على التوريقات المتكررة لتكوين اخر من اوراق كبيرة ونقوش كتابية الى جانب زخارف من اوراق مخططة شبيهة بورقة شوكة اليهود في مجموعات [٣] .

وفي قبة القرويين المحاذية للمحراب نشاهد الزهور المتعانقة في لوحات فنية أخاذه ، كما استخدمت النباتات التي تحاكي في اشكالها شجر النخيل لملء الفراغات بين الحروف مما زاد في روعة الزخارف الكتابية ، كما نشاهد حقولاً جذابة من الزهور ، والنبتات المتنوعة بأسلوب زخرفي جميل [٤] .

---

(١) السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ج٢ ، ص ٧٥٨ ـ ٧٦٠ .

(٢) بالباس : المرجع السابق ، ص ٤٥ ـ ٤٦ .

(٣) مورنيو : المرجع السابق ، ص ٣٤٢ ـ ٣٤٥ .

(٤) عبد الهادي التازي : المرجع السابق ، ج١ ، ص ٦٩ ـ ٧٠ .

ـ الخط العربي :

واذا انتقلنا الى العنصر الاسلامي الاصيل في الزخرفة الاسلامية ، وهو الخط وجدنا يد الفنان في العهد المرابطي قد سخرته لغاياتها الزخرفية افضل تسخير فأخرجت لنا لوحات فنية في منتهى الروعة لادراكها لمميزات هذا الخط ـ ومناسبته للزخرفة لما يتمتع به من انبساط وتقويس وما يمكن ان يضاف اليه من عناصر زخرفية .

ومن الموضوعات التي تناولتها الزخرفة الكتابية في العمائر المرابطية . الايات القرآنية الدعائية . وقد استخدمت بعض الكلمات القرآنية على شكل لوحات فنية ، فهناك لوحات تحمل الكلمات ، الحمد لله ، الشكر لله ، العزة لله ، الله اكبر وغيرها [١] .

واستخدمت الزخرفة الكتابية ايضا لتخليد اسماء بعض من قاموا بأعمال معمارية عن طريق ذكر اسم وتاريخ هذا العمل . ومن امثلة ذلك ما نقش داخل قبة باب الفخارين ما نصه ان هذا الباب والقبة قد كلف ببنائهما في شهر ذي الحجة عام ٥٢٨ هـ [٢] . وفي قبة محراب مسجد تلمسان نطالع اسم امير المسلمين علي ابن يوسف وتاريخ بنائه للمسجد عام ٥٣٠ هـ/ ١١٣٥ م [٣] .

ونقش على اقواس قبة مسجد الجنائز الملحق بجامع القرويين بعض أيات من سورة يس التي جرت العادة بالتبرك بتلاوتها على الاموات [٤] . وكان الفنان يعمد الى ملء الفراغ الذي بين الحروف بأشكال نباتية لتزيد الزخرفة الكتابية أبهة وجمال [٥] .

وكذلك استخدم الخط في زخرفة العملة المرابطية ، فكان يكتب على

---

(١) عبد الهادي التازي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٧١ .

(٢) السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ج٢ ، ص ٧٥٨ ـ ٧٦٠ .

(٣) المرجع السابق نفسه ، ج٢ ، ص ٧٤٩ .

(٤) عبد الهادي التازي : المرجع السابق ، ج١ ، ص ٧٤ ـ ٧٥ .

(٥) المرجع السابق نفسه ، ج١ ، ص ٦٩ ـ ٧١ .

وجهها بخط جميل مكان وتاريخ سكها ، واسم امير المسلمين وولي عهده ، واسم امير المؤمنين العباسي عليها ، فكان الخط العربي الجميل يعطيها مظهراً رائعاً [١] .

وعلى الرغم من عدم شرعية البناء على القبور الا اننا نجد بعض الأضرحة قد ارتفع بناؤها ، وازدانت شواهدها بنقوش تمثل اشكال محاريب عقودها متجاورة ـ منكسرة تحملها عمد على مناكب ويدور بالعقود طرر مستطيلة الشكل تعلوها افاريز وتحف بهذه الافاريز والطرر نقوش كتابية ، ويغطي المحاريب المنقوشة كتابات جنائزية في ذكر المتوفي وتاريخ وفاته ، وبعض الآيات القرآنية . وكانت شواهد هذه القبور تصنع في بعض الاحيان من الرخام الابيض كما في مدينة المرية فيزيد ذلك من روعة اللوحة الفنية [٢] .

واذا انتقلنا الى الزخارف الكتابية على الخشب وجدنا نماذج جذابة اشهرها منبر جامع الكتبية الذي يحدد تاريخه المستشرق سوفاجيه ما بين عامي ٥٣٤ و ٥٣٧ هـ/ ١١٣٩ و ١١٤٢ م [٣] . على ان منبر جامع القرويين الذي صنع من ثمين الخشب والعاج يعتبر من اعظم الأعمال الخشبية على الاطلاق في المغرب الاسلامي ، حيث كان مدخله مطرزاً بكتابات نسخية من الصدف بينما نقش على جانبيه كتابات بالخط الكوفي من العاج [٤] ، اما محراب المسجد فقد رقش بورق الذهب واللازورد ، واصناف الاصبغة [٥] .

ومن الموضوعات الزخرفية الجديدة في عهد علي بن يوسف الزخرفة

---

(١) عبد رب النبي : المرجع السابق ، ص ٧٠ ـ وكان من اثر الاهتمام بالخط العربي ان برز خطاطون بارعون نذكر منهم : ابا حفص عمر بن عبد الله السلمي الاغماتي نزيل فاس ت ٥٣٠ هـ ، وعبد الله بن محمد بن عيسى الفاسي انظر محمد المنوني : المرجع السابق ، ص ٢٧٢ .

(٢) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية ، ص ١٦٣ ـ ١٦٤ .

(٣) مورينو : المرجع السابق ، ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠ .

(٤) السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ج٢ ، ص ٧٦١ ، حاشية رقم ٣ ؛ عبد الهادي التازي : المرجع السابق ، ج١ ، ص ٧٥ ـ ٧٦ .

(٥) ابن ابي زرع : المصدر السابق ، ص ٦١ ؛ حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٤٥٢ ؛ السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ج٢ ، ص ٧٥٨ ـ ٧٦٠ .

الثعبانية عند منابت العقود ، ويظهر هذا بشكل جلي في ابواب مسجد الجنائز [١] . وظهرت ايضاً لاول مرة صور الحيوانات في الزخرفة في عهد المرابطين في بعض المنسوجات التي صنعت في مدينة المرية ، والتي تميزت بالزخرفة القائمة على دوائر متماسة بداخلها صور لحيوانات [٢] .

كما كانت المنسوجات الحريرية المسماة الستور المكللة والمصنوعة من الحرير الخفيف تزدان بزخارف نباتية وازهار تشبه الاكاليل ، واخرى تزدان بترابيع صغيرة على شكل معينات . ودخلت الخيوط الذهبية في بعض المنسوجات المرابطية امعانا في التأنق في الزخرفة ، ومن اشهر هذه الانواع . الحلل الموشية ، والديباج وهو من المنسوجات الحريرية السميكة ، والسقلاطون وغيرها [٣] .

ومن العناصر الزخرفية في هذا العهد المقرنصات (Estalactitas) وهي عبارة عن تكوين هندسي على احجام تكون على جوانب عقود مختلطة شديدة التعقيد ويظهر هذا النموذج بشكل جلي في مسجد تلمسان في الجزء الاوسط المؤلف من اثني عشر ضلعاً ، وفي الطاقات المقوسة بأركان قبته ايضا [٤] . وتظهر ايضا بشكل واضح في اربع قبات اقيمت عند توسعة جامع القرويين بفاس ومصلى الجنائز [٥] .

ويذكر ارنست كونل [٦] انه في عصر الدولة المرابطية نشأت قبة المحراب فوق قبوات مضلعة من المقرنصات وفي رأسها مصباح ، وان اول نموذج ظهر للمقرنصات ظهر في مسجد تلمسان ، علما بأن المقرنصات اول

---

(١) السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ج٢ ، ص ٧٥٨ ـ ٧٦٠ .

(٢) بالياس : المرجع السابق ، ص ٦٢ ـ ٦٣ .

(٣) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية ، ص ١٥٦ ـ ١٥٨ .

(٤) مورينو : المرجع السابق ، ص ٣٤٧ .

(٥) بالباس المرجع السابق ، ص ٤٥ ـ ٤٦ . انظر لوحة رقم ١٧ ، ١٨ .

(٦) الفن الاسلامي ، ص ١٢٣ .

ما استخدمت في الشرق[1] .

واستخدمت الشماسات والزجاج كعناصر زخرفية في المساجد خاصة الكبيرة منها مثل جامع القرويين [2] . واستخدم الجص بشكل كبير في الزخرفة فزين جامع تلمسان ، ومسجد القرويين خاصة القباب بزخارف من الجص [3] .

أجل لقد استطاع المرابطون اذكاء حركة عمرانية فنية كبيرة في دولتهم ، وان يأخذوا بيدها حتى اصبحت عمائرهم نماذج تحتذى ، فظهرت نماذج معمارية ـ وزخرفية لم يعهدها المغرب والاندلس من قبل دولة المرابطين . وهذه النهضة التي قامت في عهد علي بن يوسف بن تاشفين في مجال العلم ، والفنون المعمارية والزخرفية اضافة الى ما قام به من اعمال جهاد ضد الممالك الاسبانية النصرانية لهي أوسمة شرف توضع على صدره وصدور رجال دولته ، وتدحض عنهم كل قول يفترى عليهم بأنهم قوم اجلاف لا صلة لهم بالحضارة .

---

(١) كان أول نموذج للمقرنصات في قابوس قنبادي عام ١٠٠٧ م ، ثم في امام زاده عبد الله في ما زندران عام ١٠٢٢ م ، ثم في قنبادي علي في أبرقوه عام ١٠٥٦ م ، ثم في قبة المسجد الجامع في أرض ستان عام ١٠٥٥ م ، ثم في المسجد الجامع في أصفهان عام ١٠٨٨ م ، وفي قلعة بني حمال عام ١١٠٠ م ، وبعده في جلبايا كان عام ١١٠٤ م ، وفي قبة محمد الجعفري في القاهرة عام ١١٢٠ م ، وقبة السيدة عاتكة في القاهرة في عام ١١٢٥م ، وأخيراً في واجهة الجامع الأقمر عام ١١٢٥م في حين يذكر أبراهيم حركات (المغرب عبر التاريخ ، ج ١ ، ص ٢٤٢ ـ ٢٣٤) أن أول نموذج للمقرنصات كاف في الجامع الأقمر في مصر .

(٢) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٤٥٢ .

(٣) ابن القاضي : المصدر السابق ، ج١ ، ص ٦٨ ـ ٦٩ ـ بالباس : المرجع السابق ، ص ٤٥ .

الخاتمة

يمثل عهد علي بن يوسف بن تاشفين قمة الازدهار الحضاري لدولة المرابطين وفي نفس الوقت شهد هذا العهد بداية الانحدار والسقوط لتلك الدولة . فقد كان عهده قمة للتطور الاقتصادي والعمراني ، والعلمي والعسكري ، ولكن بذور الضعف ما لبثت ان دبت في رأس الدولة وجسمها فأقبل الراعي والرعية على الدنيا يطلبون متعها وزينتها وركنوا الى الراحة ففقدوا بداوتهم وصلابتهم شيئاً فشيئاً وفسدت طبائعهم بعض الشيء فخبت عندهم روح الجهاد ولذا توالت هزائمهم في أواخر عهد علي بن يوسف على يد النصارى الأسبان واتباع المهدي بن تومرت مما زعزع ثقة الرعية فيهم وشجعها على الثورة عليهم . وقد اصاب ابن خلدون عين الحقيقية عندما ذكر في مقدمته [1] « ان من عوائق الملك حصول الترف وانغماس القبيل في النعيم وسبب ذلك ان القبيل اذا غلبت بعصبيتها بعض الغلب استولت على النعمة بمقداره وشاركت أهل النعم والخصب في نعمتهم وخصبهم وضربت معهم في ذلك بسهم وحصة بمقدار غلبها واستظهار الدولة بها فان كانت الدولة من القوة بحيث لا يطمع أحد في انتزاع أمرها ولا مشاركتها فيه اذعن ذلك القبيل لولايتها والقنوع بما يسوغون من نعمتها ويشركون فيه من جبايتها ولم تسم آمالهم الى

(١) ص ١٤٠ ـ ١٤١ .

شيء من منازع الملك ولا أسبابه انما همتهم النعيم والكسب وخصب العيش والسكون في ظل الدولة الى الدعة والراحة والأخذ بمذاهب الملك في المباني والملابس والاستكثار من ذلك والتأنق فيه بمقدار ما حصل من الرياش والترف وما يدعو اليه من توابع ذلك فتذهب خشونة البداوة وتضعف العصبية والبسالة ويتنعمون فيما أتاهم الله من البسطة وتنشأ بنوهم وأعقابهم في مثل ذلك من الترفع عن خدمة أنفسهم وولاية حاجاتهم ويستنكفون عن سائر الأمور الضرورية في العصبية حتى يصير ذلك خلقاً لهم وسجية فتنقص عصبيتهم وبسالتهم في الأجيال بتعاقبها الى ان تنقرض العصبية فيأذنون بالانقراض وعلى قدر ترفهم ونعمتهم يكون اشرافهم على الفناء فضلاً عن الملك فان عوارض الترف والغرق في النعيم كاسر من سورة العصبية التي بها التغلب واذا انقرضت العصبية قصر القبيل عن المدافعة والحماية فضلاً عن المطالبةوالتهمتهم الأمم سواهم فقد تبين ان الترف من عوائق الملك والله يؤتي ملكه من يشاء » .

ان نظرية ابن خلدون هذه تنطبق تماماً على دولة المرابطين اذ اننا نجد هذه الدولة في عهدها الأول صلبة قوية طوال فترة وجودها في المغرب لتمسكهم بالعصبية وبعدهم عن حياة الترف والدعة ولكن عندما دخلوا الى الأندلس جذبتهم حياتها الناعمة اللاهية مما عجل في سقوط دولتهم خلال فترة قصيرة ، وبذلك تكون دولة المرابطين قد سارت على سنة الممالك والدول التي قبلها (فترة شباب يزخر بالحيوية والنشاط الحربي والحضاري يتلوه تكاسل وفوضى يؤديان الى التضعضع فالسقوط) .

ومن خلال معالجتي لهذا العهد تبين لي في الباب الأول الذي أفردته للأحوال الداخلية في دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين والذي تطرقت فيه الى الحديث عن ولاية علي بن يوسف بن تاشفين ، والثورات والفتن في المغرب والأندلس من عام (٥٠٠ ـ ٥٣٧هـ / ١١٠٦ ـ ١١٤٢م) ان التحرك ضد الدولة المرابطية بدأ في فترة مبكرة تعود الى أواخر عهد يوسف بن تاشفين ، وهذا ما أكدته أحدى الوثائق الجديدة التي عثرت عليها والتي نصت على ان احمد بن زيفل قد ثار في حصن شقورة في عام

٤٩٢هـ / ١٠٩٩م . ومن الجدير بالذكر ان خبر هذا الثائر لم يرد في أي مصدر او مرجع تاريخي من التي بين أيدينا وانما ورد بشكل عرضي في كتاب خاص بالمسائل الفقهية لابن رشد .

وأوضحت هذه الدراسة ان أمير المسلمين علي بن يوسف اتبع سياسية حكيمة مع الذين ثاروا ضد حكمه فلم يحاول القضاء عليهم بطريقة قمعية تعسفية بل كان يتبع معهم اسلوب الصفح لاحتوائهم ، وكان يميل الى تحقيق رغباتهم بتوليتهم على ولايات مهمة ثم يقذف بهم الى الجبهات الساخنة مع النصارى الأسبان ليستغل طاقاتهم لصالح الاسلام والمسلمين .

وتوصلت في بحثي لثورة محمد بن تومرت الى ان دعوته قامت على الزيف والخداع ، فقد وصفه كثير من المؤرخين بأنته منتحل ومبتدع كما ألف شيخ الاسلام ابن تيمية كتاباً خاصاً في الرد على كتاب المرشدة لابن تومرت .

وليس أدل على زيف عقيدته من ان اتباعه قد تخلوا عن عقيدته بعد فترة وجيزة من وفاته وأسقطوا اسمه من الخطبة والسكة . كما أثبت البحث ان هذه الثورة ما هي الا مظهر من مظاهر الصراع القبلي في المغرب وان المهدية ما هي الا قناع تقنع به محمد بن تومرت ليحقق آمال قبيلته الام مصمودة في التغلب على قبيلة لمتونة .

واتضح من خلال دراسة سيرة المهدي بن تومرت ان تومرت ليس اسماً لوالد المهدي وانما هو لقب اطلقته عليه امه . كما تبين ان هذه الثورة كانت من الأسباب المباشرة في سقوط دولة المرابطين ومن العوامل الهامة في سقوط كثير من المدن الأندلسية في يد النصارى لانشغال المرابطين في اخمادها . ولهذه الاعتبارات المتعددة لا يمكننا ان نسمي هذه الثورة بحركة تجديد كما وصفها بعض الباحثين المحدثين .

أما فيما يتعلق بلقاء المهدي بن تومرت بالامام الغزالي فقد رجحت عدم لقائهما مع ترجيحي لتأثره بكتاب إحياء علوم الدين .

وفي الباب الثاني الذي خصصته للعلاقات السياسية للمرابطين مع

العالم الاسلامي فقد وفقت في بحثه بالعثور على وثيقتين غاية في الأهمية اولاهما : رسالة موجهة من أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين الى الأفضل بن بدر الجمالي يوصيه فيها باحدى الشخصيات المرابطية الفاطمية الرسمية في عهد علي بن يوسف ، في حين أشار الباحثون المحدثون الى علاقات عدائية بين الدولتين .

أما الوثيقة الثانية فهي ايضا رسالة موجهة من علي بن يوسف الى الخليفة العباسي المستظهر ، وتعود أهمية هذه الوثيقة الى انها الوحيدة التي حفظت لنا من مراسلات علي بن يوسف للخلافة العباسية ، والتي يمكن اعتبارها نموذجاً لبقية المراسلات في حين اعتمد الباحثون المحدثون في دراساتهم على الردود العباسية .

ومن أهم النتائج التي توصلت اليها في الباب الثالث الذي تضمن الحديث عن جهاد علي بن يوسف بن تاشفين ضد الممالك النصرانية أن الجيوش المرابطية بانتصاراتها الرائعة على الممالك النصرانية الاسبانية خاصة في اقليش ، وأفراغة ، وفحص البكار ، وقرب الزلاقة قد أحبطت محاولات الممالك النصرانية الاسبانية الرامية الى التهام الأندلس الاسلامي في فترة مبكرة وأخرت سقوطه عدة قرون أخرى، كذلك احبط الاسطول المرابطي في هذا العهد محاولات الجمهوريات الايطالية السيطرة على مياه البحر الأبيض المتوسط باستيلائه على الجزائر الشرقية .

وتبين من خلال هذا الباب ان الحرب التي كانت تدور رحاها بين جيوش علي بن يوسف والجيوش النصرانية الاسبانية ما هي الا حرب صليبية خالصة . وليس أدل على ذلك من كثرة نداءات بابوات اوروبا لرعاياهم للانضمام الى الممالك الاسبانية الشمالية لمقارعة الجيوش المرابطية وطرد المسلمين من الأندلس . وقد اتضحت صليبية هذه الحرب بشكل واضح في حصار سرقسطة عندما شارك فيه الرهبان والقساوسة والمتطوعة من أوروبا ، وكان من بينهم من شارك في حصار بيت المقدس .

اما عن الأسباب المباشرة لرجحان كفة النصارى على المرابطين في أواخر عهد علي بن يوسف فقد عزوتها الى كثرة من سقط من مشاهير قادة علي بن يوسف في ساحة الجهاد وعجز الدولة عن تعويض هذه الخسائر لانشغالها في مواجهة المهدي بن تومرت مما دفع علي بن يوسف الى تعيين قادة للجيوش المرابطية في الأندلس يفتقرون الى الخبرة العسكرية الكافية ، وكان لذلك أسوأ الأثر على حركة الجهاد هناك . في حين كان النصارى يعوضون خسائرهم البشرية عن طريق السيل المتدفق من المتطوعة عليهم من اوروبا .

ومما استخلصته من الباب الرابع الذي أفرد لأهم مظاهر التطور الحضاري في دولة المرابطين ان علي بن يوسف هو أول من استخدم الروم في الجيش في المغرب الاقصى ، وانه حذا حذو والده في عدم مراعاة حق الابن الأكبر عند انتخاب ولي عهد له ، وكذلك استمر على سياسة والده في حكر ولاية الولايات وقيادة الجيوش على أبنائه وأقاربه . وهذه المحاباة يضع لها الطرطوشي وزناً كبيراً في سقوط الدول فقد قال : « وقالت الحكماء أسرع الخصال في هدم السلطان واعظمها في افساده وتفريق الجمع عنه اظهاره المحاباة لقوم دون قوم ، والميل الى قبيلة دون قبيلة فمتى أعلن بحب قبيلة فقد بريء منه قبائل وقيديما قيل المحاباة مفسدة »[١] . وتبين ايضاً ان علي بن يوسف اتخذ لقباً آخر غير ناصر الدين وامير المسلمين وهو لقب ولي الله وهذا ما وجد منقوشاً على بعض عملته .

وحاولت هذه الدراسة ان تقدم صورة عن النظام القضائي في هذا العهد ، واتضح ان علي بن يوسف قد أدخل تعديلات هامة على هذا النظام اذ اننا لأول مرة نسمع انه ترك للرعية حرية اختيار قضاتها وبعد ان كان يتم الاختيار كان يباركه أمير المسلمين ، ولذلك كان القضاة يتمتعون بسلطات واسعة لم يتمتعوا بمثلها في أي عصر من العصور .

---

(١) سراج الملوك ، ص ٩٤ .

ومن النتائج التي توصلت اليها في هذا الباب أيضاً ان عهد علي بن يوسف عهد ازدهرت فيه الزراعة والتجارة والصناعة ازدهاراً عظيماً كما ان هذا العهد شهد نهضة فكرية وعمرانية رائعة . وقد تركت هذه النهضة الحضارية بصماتها على حياة المجتمع المرابطي بشكل واضح فاثرت على ماكلهم ومشربهم وسلوكهم ، وحظيت المرأة بمكانة مرموقة وشاركت في مختلف أنشطة الحياة ، كما تمتع اليهود والنصارى بكامل حقوقهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية حتى ان بعض اليهود وصل الى رتبة وزير عند أحد ولاة غرناطة في عهد علي بن يوسف ، ولم تفرض عليهم أي قيود تمنعهم من ممارسة عباداتهم وطقوسهم الدينية ، وكذلك منحوا حق الانضمام للجيش وتولي بعض الوظائف الادارية . وهذا كله يدحض مقولة كارل بروكلمان القائلة بان دولة المرابطين اضطهدت اليهود والنصارى . كما أشرت الى ان الضرائب الاضافية التي فرضت في أواخر عهد علي بن يوسف عندما أحدقت الأخطار بالدولة لم تكن ضرباً من التعسف والظلم كما ذهب معظم الباحثين المحدثين بل كانت اجراءاً يقوم على دليل شرعي .

أما فيما يتعلق بالحركة الفكرية في هذا العهد فقد أكدت على ازدهارها في مختلف المجالات (في العلوم الشرعية ، والأدبية ، والانسانية ، والطبية) ، فهو عهد ابن رشد ، وابن العربي ، والقاضي عياض ، وابي علي الصدفي ، عهد بلغت فيه العلوم الطبية ذروتها ، فقد توصل أطباء هذا العهد الى طريقة لسحق الحصاة من الكلية ، وقاموا بدراسة احساس العظام وهو من الموضوعات الطبية المعقدة حتى في العصر الحاضر ويعد الخوض فيها في عصر المرابطين من الأمور المشرفة علمياً ، وكذلك كتب أطباء هذا العهد رسائل متخصصة في كثير من الأمراض كانت احداها في أمراض الكبد كتبت لأمير المسلمين علي بن يوسف ، كما اعتمد أطباء هذا العهد على التحاليل المخبرية ومن خلال ذلك توصلوا الى وصف صوأبة الجرب فكان لهم السبق في هذا الاكتشاف .

وقد خلصت هذه الدراسة الى ان أسباب احراق كتاب إحياء علوم الدين

تعود الى ان الكتاب حوى تعريضاً بالفقهاء الذين أقبلوا على الدنيا ، ولأن الغزالي أفرد الباب السادس من كتابه « احياء علوم الدين » لعلماء السوء ، وفضلاً عن ذلك فالكتاب جمع بين أحكام الورع وآداب المتصوفة وهو بذلك يرجح كفة المتصوفة على الفقهاء . كما رددت على بعض الباحثين الذين ذهبوا الى ان الاحراق تم في عهد يوسف بن تاشفين ، وأكدت خطأ هذا الرأي .

ولم تكن النهضة المعمارية في هذا العهد أقل تقدماً من سابقاتها ، اذ شهد هذا العهد نهضة معمارية رائعة تجلت من خلال عشرات المساجد والأسوار والقلاع والمرافق العامة التي أنفق أمير المسلمين علي بن يوسف على بنائها وترميمها آلاف الدنانير . وقد كان لتشجيع أمير المسلمين علي وحاشيته للحركة المعمارية اثر كبير في ظهور مدرسة معمارية مرابطية لها سماتها المحددة في مجالي العمارة والزخرفة فلأول مرة في تاريخ المغرب يظهر في هذا العهد ما يعرف بمسجد الجنائز ، وتستخدم المظلات المتحركة لتظليل المصلين في أيام الصيف ، كذلك برزت الى حيز الوجود في المغرب القباب المقربصة ، والقباب المتقابلة على بوابات المساجد ، كما ظهرت صناعة المنابر المتميزة بالدقة المتناهية . ومما هو جدير بالذكر أنه لم يعهد أن قامت دولة من الدول الاسلامية في المشرق أو المغرب بانشاء هذا العدد الضخم من القلاع لنفس الغرض الذي من أجله أنشأها المرابطون .

وفي مجال الزخرفة ظهرت في عهد علي بن يوسف موضوعات جديدة كان من أهمها الزخرفة الثعبانية ، كما ظهرت لأول مرة في عهد هذه الدولة صور لحيوانات لغرض الزخرفة على بعض المنسوجات .

ومن النتائج العامة التي قدمتها هذه الدراسة التأكيد على أن شخصية علي بن يوسف بن تاشفين شخصية فريدة في التاريخ الاسلامي في تلك الحقبة لما امتاز به من علم ودين وعدل وحسن خلق ، وان عهده من العهود النادرة في التاريخ الاسلامي الذي تمتع فيها الفقهاء بمثل هذه السلطة الواسعة ، فقد كان يأخذ بمشورتهم في كل صغيرة وكبيرة حتى في بناء الأسوار

وترميمها ، وعزل الولاة وايقاع العقوبات ، كما ان هذه الدراسة تعزو بداية سقوط دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بشكل عام الى ثلاثة عوامل رئيسية هي : الثورات والفتن الداخلية وخاصة حركة المهدي بن تومرت ، وكثرة غارات النصارى على المدن الأندلسية ، وافتتان المرابطين بحياة الترف واللهو ، ونتيجة لهذه العوامل مجتمعة لم تلبث دولة المرابطين بعد وفاة علي بن يوسف بن تاشفين عام ٥٣٧هـ / ١١٤٢ م سوى أربع سنين .

على أي حال تعتبر هذه الدراسة عن عهد علي بن يوسف بن تاشفين دليلاً دامغاً على تقدم وازدهار دولة المرابطين في مختلف المجالات ، وبالتالي تدحض عنهم كل فرية تفترى عليهم من قبل المستشرقين ومن حذا حذوهم من أنهم قوم أجلاف لا علم لهم بالحضارة .

الملاحق

وثائق لم تنشر عن عصر المرابطين

ملحق رقم (١)

عقد لاثبات ثورة ابن زيفل

بسم الله الرحمن الرحيم : يشهد من تسمى في هذا الكتاب من الشهداء انهم يعرفون سعيد بن احمد بن زيفل بعينه واسمه ويعلمونه ايام حياته قد ثار بحصن شقورة ، ورأس فيه واستولى عليه وعلى جميع جهاته اعواماً كثيرة يجبي فوائد ذلك البلد ويضرب الضرائب على الرعايا ويضم الى نفسه جميع ما كان في تلك الجهات ، لبيت مال المسلمين الى ان اظهر ذلك المال ، ونما وكسب منه بجيان وغيرها أصولاً ورباعاً واموالاً ولا يعلمون له قبل قيامه في الحصن المذكور مالاً ولا حالاً يفي بما كتسبه ولا ببعضه . شهد بذلك كله من علمه حسب نصه ، واوقع شهادته بذلك في هذا الكتاب اذ سئلها في المحرم سنة أثنتين وتسعين واربع مائة [١] .

---

(١) مسائل أبي الوليد بن رشد ، ج٢ ، ص ٩٩ .

ملحق رقم (٢)

رسالة علي بن يوسف الى الأفضل بن بدر الجمالي [١]

وكتب ابو القاسم بن الجد الى الافضل صاحب مصر كتاب كتب الله لحضرة الامير السيد المعظم ابي القاسم الافضل زكي ذخائر الاعمال وغمر ارجاء ساحتها بوفود الامال ونصر على نفاستها غرر المعالي ومحاسن الاقوال والافعال من حضرة المغرب مقر سلطاننا ، ومحل شيطاننا ، ومركز بلادنا ، ومحتفل اجنادنا اثر قفولنا من الغزوة الصافية ، وقد حسنت لنا اثار ورفعت لقدومنا ابصار ، واجتمعت بعون الله بلاد واقطار ، وتأتت لنا في اعداء الله امال واوطار ، وما صدرنا حتى رويت سيوفنا من دمائهم ، واستباحت منيع ادراعهم ، واناخت جيوشنا بمدينة برجلونة ، اعز بلادهم دارا واجلها مقدارا فاضرمناها نارا ، وهبت على ريح اهلها اعصارا ، واوسعتهم قتلا واسارا ، ولما كان بيننا وبين حضرته الكريمة وصل الله جلالها وبسط ظلالها نيرا مشرقا مغربا مورقا وجب أن تهدى اليها متى امكننا رسول ، وتأتي لنا في مطالعتها جملاً من اخبارنا ولمعاً مـن آثارنا كما انا نتشرف لما يطلع علينا من مسار ابنائها ، وبشائر ظهورها ، واعتلائها ، ويتأدى كتابنا غدا الى حضرته العزيزة عمر الله بالخيرات جنابها ومد في ساحات المسرات اطنابها من يد فلان معظم شأنها ومؤهل احسانها ، واحد كبراء اسرتنا ، واعيانها وهو ممن برقت له في الخير بوارق ، وسبقت منه سوابق في الغزو وتابع طويلاً بمرط غباره وخُبٌ ، واوضع في مضماره ثم راى ان ينتقل من حسن الى حسن وأن يجمع بين الغزو والحج في قرن ، ويؤدي ما يلزمه اداؤه من فرض واجب متعين فمضى لوجهته قاصداً بيت الله الحرام لتأدية حجة الاسلام وزيارة قبر نبينا محمد عليه السلام مواطن

---

(١) انظر نص هذه الوثيقة في ريحان الالباب وريعان الشباب ، ورقة ٣٦ أ .

تنزيل كتاب الله تعالى ، وموضع ميلاد نبيه المصطفى ومطافه بين المروة والصفا ، ومهاجر طيبة حيث طاب العقد وصفا ، ولا بد له في وجهة من قضاء فروض الحضرة الممجدة وشكر آلائها والانتهاء الى ما ينفذ اليه من جهل مذاهبها وارائها جريا على عادته الكريمة مع كل من الم من اصحابنا برحب فنائها ولم يغب عن حضرته الكريمة ما يحرزه من الاجر الموفور والثواب المدخور لحسن عون الحجاج المترامين من اقاصي الفجاج شعثا غبرا بين شعب اكوارهم يستقبلون بوجوههم حرور ليلهم وسموم نهارهم ويعرجون ظهور المسالك ، ومتون المهالك الى تلك المشاعر المقدسة والمناسك .

ملحق رقم (٣)

رسالة علي بن يوسف الى الخليفة العباسي المستظهر [١]

كتب ابو القاسم بن الجد الى المستظهر بالله العباسي عن علي بن يوسف خص الله حضرة الامام المستظهر بالله ابي العباس امير المؤمنين بأفكار الحسنات وانوار المساعي الصالحات ، وحشد اليها وفود الخيرات ، وطرق دونها عيون الحادثات كتب ولي الدولة العباسية المقتدي بسيرتها الفاضلة المرضية وهو يحمد الله جلت اسماؤه حمدا موصول الاسباب محدود الاطناب ونسأله الصلاة على محمد رسوله المنتخب اللباب من اكرم الانساب ، وان يختص حضرة امير المؤمنين سليل الخلائف بصفايا العوارف والموالف اللصائف ، ويجمع على الاقدار بحقها والاعتراف بفضلها كلمة المخالف والمحالف وعقيدة المتجانف [٢] والموالف عن اوفى عهد واقوى عقد في التمسك بعلائق

---

(١) انظر نص هذه الوثيقة في ريحان الالباب وريعان الشباب ورقة ٣٥ ب ، ٣٦ أ .

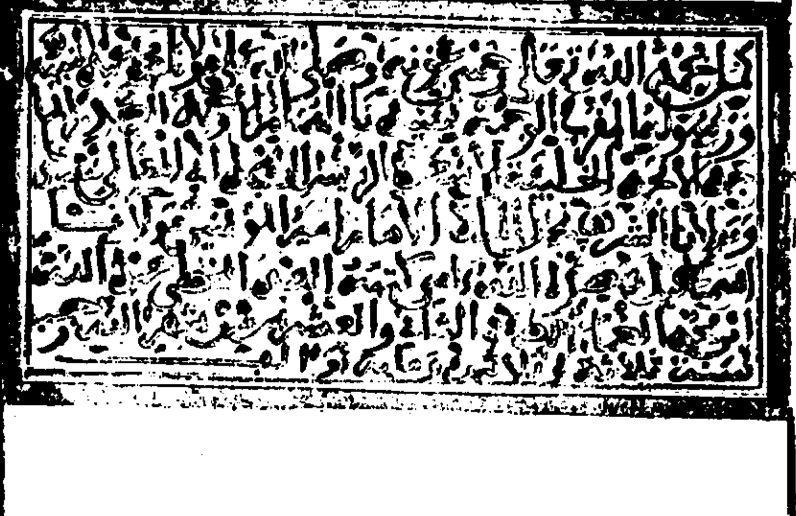
(٢) يقال رجل اجنف اذا كان في خلقه ميل ويقال تجانف عن كذا اذا مال انظر : معجم مقاييس اللغة ج١ ، ص ٤٨٦ مادة (جنف) .

طاعتها ، والتقلد لقلائد امامتها بعد ان وصل اليه كتابها العزيز من مراسمها العالية ، ومواهبها الزاكية عهود الزموها رسوما وحدودا ، واقامها في عضد امره جنودا ، ونشر منها الوية الفخر بنـوداً على انه ما زال يحمل مشايعتها ومبايعتها معتصماً وبعلامة امامتها وخلافتها معلما والاحكام لسنتها العادلة متقلداً ملتزماً ، وفي مجاهدة اعداء الدين وحماية ارجاء المسلمين مجتهداً معتزماً يشيد بالدعاء لها على منابر بلاده ويعظم امرها وفخم قدرها وذكرها في اوقات انفراده ، واحتشاده ، ويجعل تقوى الله تعالى نصب اعتقاده وعرض اعتماده ، ويتخذ من كتابه المبين وسنة رسوله الأمين دليل هدايته ، وارشاده ويستفرغ في قطع المظالم ومنع المحارم وسع قدرته واجتهاده وعلى هذه البصيرة والوتيرة درج من درج من آبائه ، واجداده ، والاحوال بحمد الله بجنابته مستقيمة ، والاعمال في جميع جهاته سليمة ، والاحكام بمراعاته على مركز الحق ومقر العدل مقيمة ، والاجناد موفورة في سبيل الجهاد معمورة واحزاب الكفر فيما جاور اقطاره موطرة ، وثغور المسلمين محوطة مضبوطة ، وامور الدين مشدودة مربوطة وايدي الجور والخوف في جميع عمله مقبوضة محظوطة ، وبسط العدل والأمن ممدودة مبسوطة ، وولي الدولة الممجدة وصل الله علوها وكبت عدوها ، سيرى ان انتظام اموره ودوام ظهوره مما يعتقده ويتقلده من القيام بدعوتها ، والاعتصام بعصمتها ، والانتظام في سلك طاعتها ، والله يكتبه في الرعيل الاول من جملة أولها وحملة آلائها المستظلين بظل رايتها ولوائها ولا يعدمه التشرف بما يرد عليه من عهودها السامية وانحائها بعزته وسلام الله الموصول على حضرة الامام ومحل الكرامة ورحمة الله وبركاته .



بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

الصفحة الاولى من مخطوط ريحان الألباب





الصفحة الأخيرة

[illegible]

وسالة علي بن يوسف بن تاشفين الى الخليفة العباسي

[illegible]

ان وصل اليه كتابنا الكريم [illegible]

[illegible]

وكتب ايضا الى الافضل [illegible]

[illegible]

وكتب ابو بكر بن القبطرنة يعرف احد الولاة عن هزيمة جرت عليه

[illegible]

وكتب ايضا [illegible]

...ب علي بن يوسف ... الأفضل بن بدر الجمالي

ملحق رقم (٤)

اللوحات



لوحة رقم (١)

مراكش - قبة الباروديين - منظر خارجي

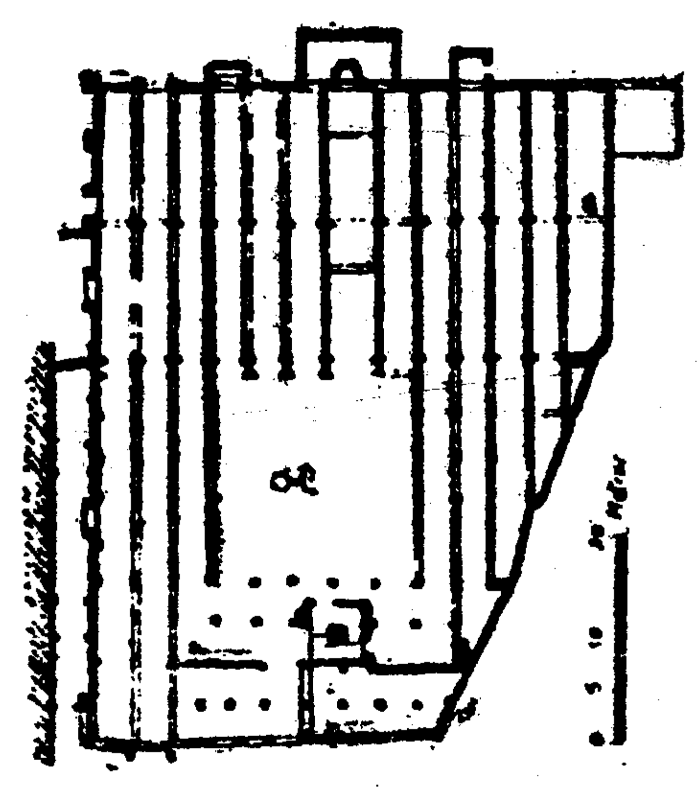


لوحة رقم (٢)

مراكش - قبة الباروديين - جانب مفصل من القبة



لوحة رقم (٣)
مراكش - قبة الباروديين - القبة



لوحة رقم (٤)
تخطيط جامع تلمسان



لوحة رقم (٥)

تلمسان ـ المسجد الجامع ـ وجه المحراب



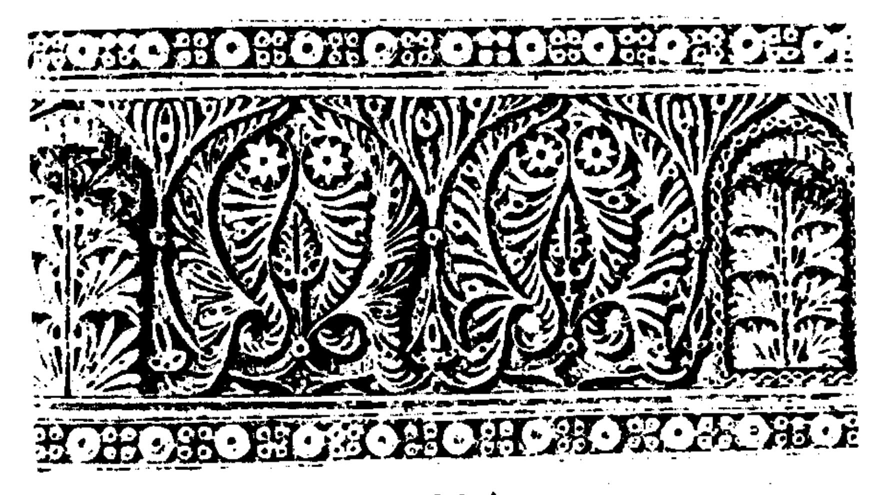
لوحة رقم (٦)

تلمسان ـ المسجد الجامع ـ البلاط الأوسط وفي نهايته المحراب



لوحة رقم (٧)

تلمسان ـ المسجد الجامع ـ قبة الحيز المواجة للمحراب



لوحة رقم (٨)

تلمسان ـ المسجد الجامع ـ زخارف الأكنش



لوحة رقم (٩)

تلمسان ـ المسجد الجامع ـ منظر من داخل القبة

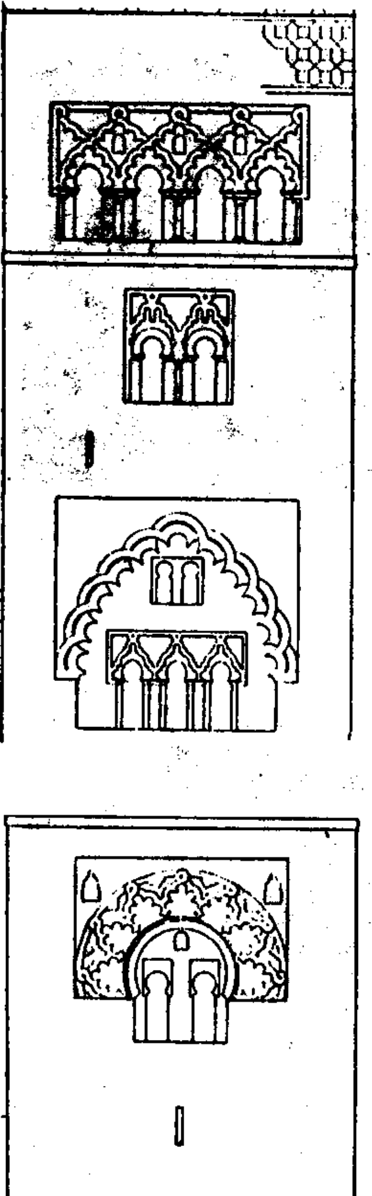


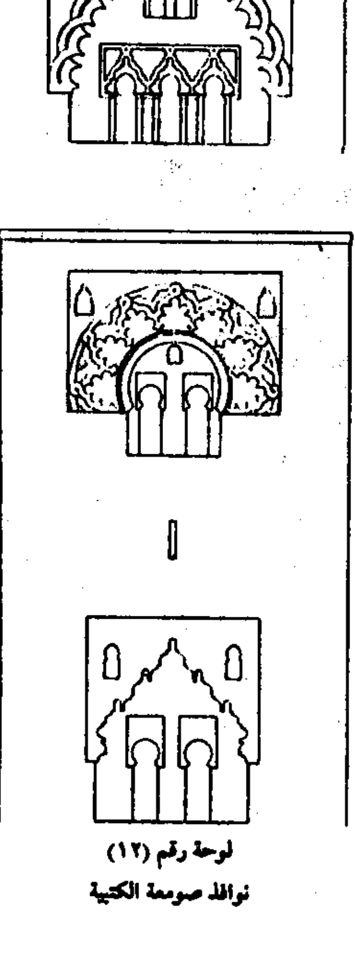
لوحة رقم (١٠)

تلمسان ـ المسجد الجامع ـ زخرفة جدارية

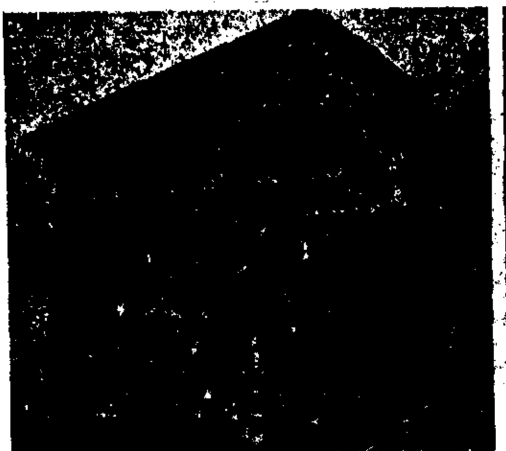


لوحة رقم (١١)
زخارف ـ منبر الكتبية بمراكش





لوحة رقم (١٢)
نوافذ صومعة الكتبية





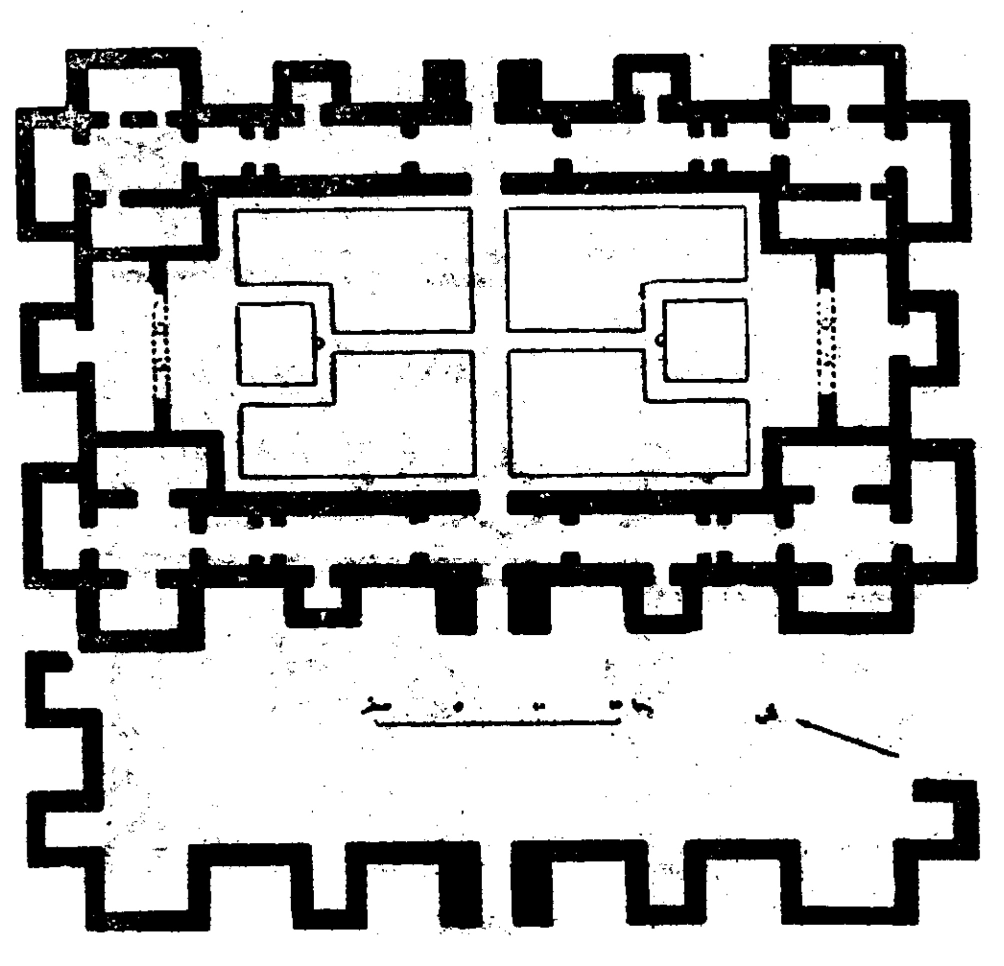
لوحة رقم (١٣)

مصلى الجنائز في جامع القرويين بفاس

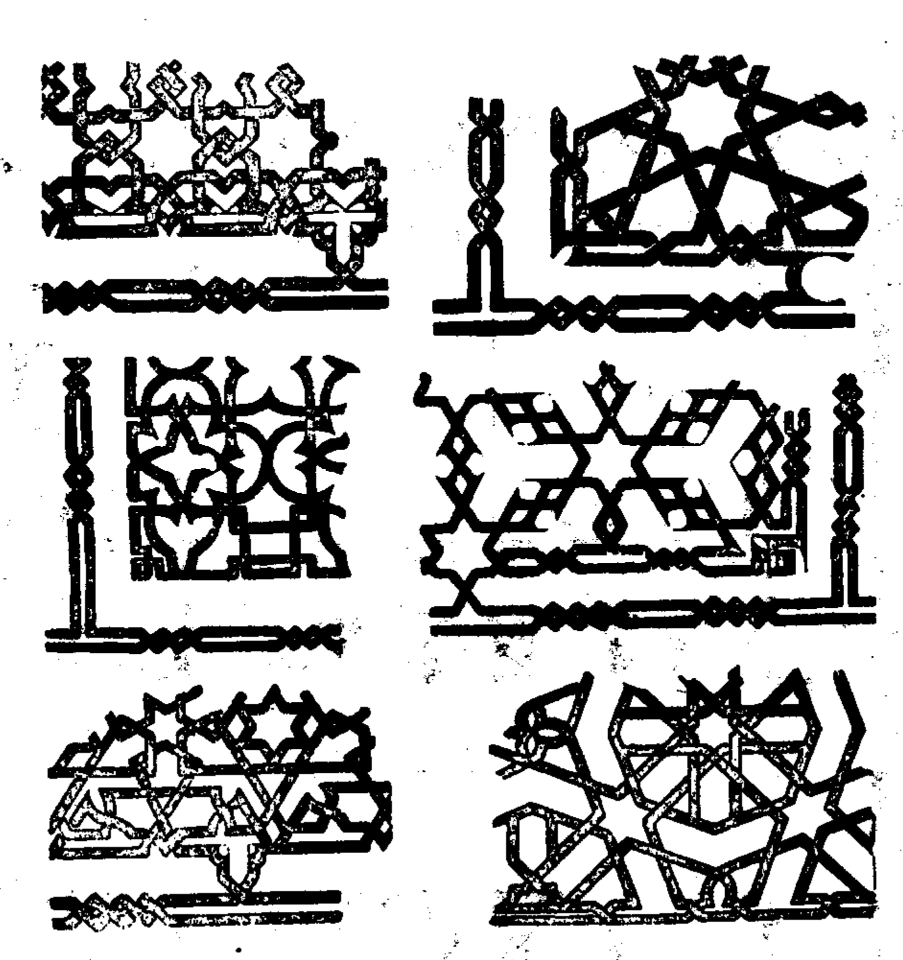


لوحة رقم (١٤)

تاج عمود بجامع الكتبية بمراكش

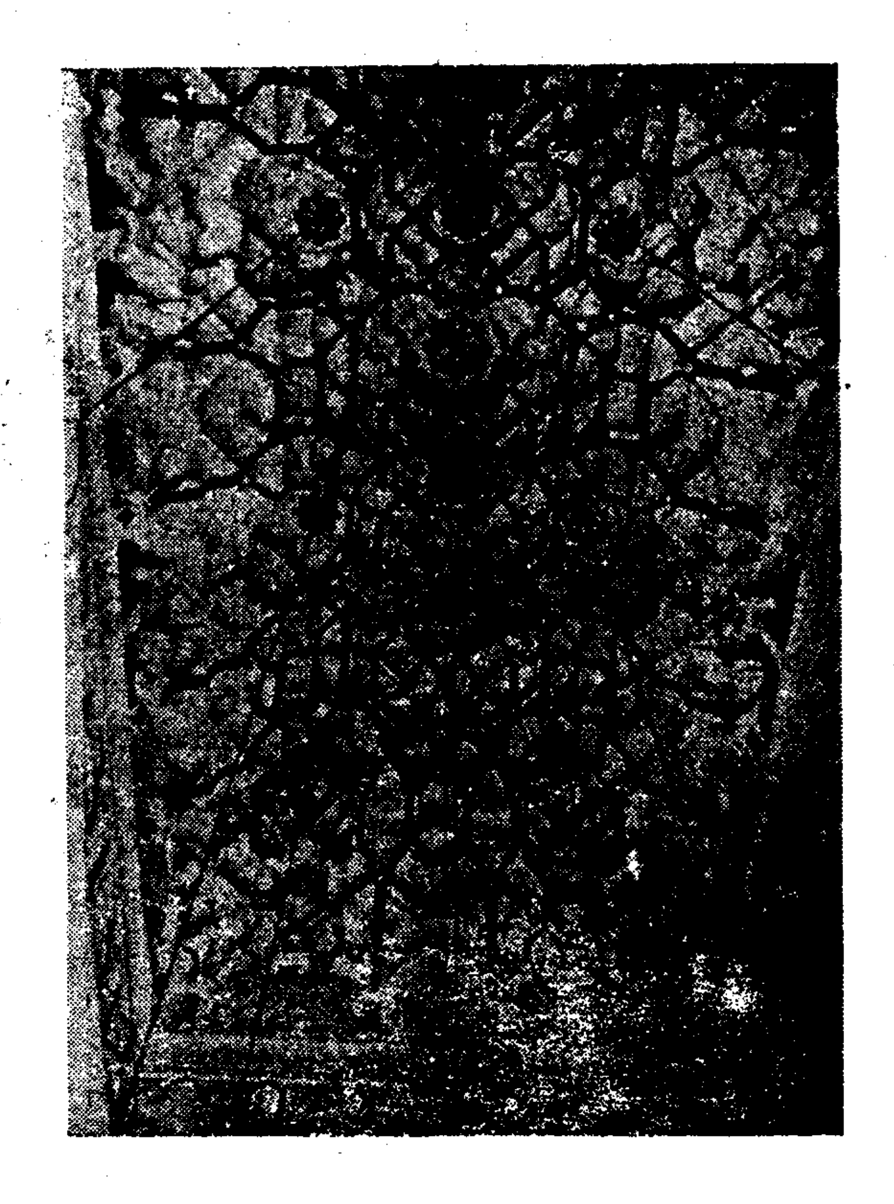


لوحة رقم (١٥)
تخطيط لحوض مقطوط بمرسية



لوحة رقم (١٦)

وزرات مدهونة بالزخارف الملونة في حصن منتقوط



لوحة رقم (١٧)
فاس - جامع القرويين - قبة من المقربصات في البلاط الأوسط



لوحة رقم (١٨)

فاس ـ جامع القرويين ـ قبة من المقربصات في البلاط الأوسط

ملاحظة : جميع هذه اللوحات مأخوذة من ليوبولد وتوريس بالباس : الفن المرابطي والموحدي ، ومن مانويل جومث مورينو : الفن الإسلامي في إسبانيا ، ومن محمد عبد العزيز مرزوق : الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس .

قائمة المصادر والمراجع

١ ـ المخطوطات :

البزيوي ،أبو عبيد الله محيد بن محمد بن احمد بن عبد الله :
١ ـ تاريخ دول الاسلام بالمغرب الاقصى (فرغ من تأليفه ١٩٣٨) ، الخزانة الملكية بالرباط رقم ٤١٣ .

الحموي ، ابن ابي الدم .
٢ ـ التاريخ المظفري ، ميكروفلم مصور من معهد احياء المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية رقم ٩٦٦/ ١ التاريخ المظفري .

ابن خيره المواعيني الاشبيلي ، محمد بن ابراهيم (ت ٥٦٤ هـ/ ١١٦٨ م)
٣ ـ ريحان الالباب وريعان الشباب في مراتب الاداب ، الخزانة الملكية بالرباط رقم ٢٦٤٧ .

الذهبي : (ت ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٧ م) :
٤ ـ الجزء الرابع من تاريخ دول الاسلام ، ميكروفلم مصور من معهد احياء المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية رقم ٥٩٦ .

ابن زهر ، ابو العلاء زهر بن عبد الملك بن محمد بن مروان(ت ٥٢٥ هـ/ ١١٣١ م)

٥ ـ التيسير في المداواة والتدبير ، مخطوط الخزانة الملكية بالرباط رقم ٢/١٥٣٨ .

السرقسطي ، ابو الطاهر محمد بن يوسف التميمي (ت ٥٣٨ هـ/ ١١٤٣ م) :
٦ ـ المقامات اللزومية ، ميكروفلم مصور من معهد احياء المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية رقم ٧٩٤ ادب .

ابن شاكر الكتبي ، محمد بن احمد (ت ٧٦٤ هـ/ ١٣٦٢ م) .
٧ ـ عيون التواريخ الجزء الثالث عشر ميكروفلم مصور من معهد احياء المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية رقم ١٤٩٧ تاريخ
الملز وزين ، عبد العزيز بن عبد الواحد :
٨ ـ نظم السلوك في تاريخ الانبياء والخلفاء والملوك ، الخزانة الملكية بالرباط رقم ٤٠٩ .

٢ ـ المصادر المطبوعة :

٩ ـ القرآن الكريم .

ابن الأبار (ت ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م) .
١٠ ـ الحلة السيراء ، ج٢ تحقيق حسين مؤنس ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٦٣ م .
١١ ـ المعجم في اصحاب القاضي الامام ابي علي الصدفي ، مدريد ١٨٨٥ م .

ابن الاثير (ت ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٢ م) .
١٢ ـ الكامل في التاريخ ، بيروت ١٩٦٦ م .

الادريسي (ت ٥٦٢ هـ/ ١١٦٦ م) .
١٣ ـ نزهة المشتاق ، ليدن ١٨٦٤ م .

الازهري (ت ٣٧٠ هـ/ ١٩٨٠ م) .
١٤ ـ تهذيب اللغة ، ج٨ ، تحقيق عبد العظيم محمود ، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، د . ت .

الاصفهاني العماد الكاتب (ت ٥٩٧ هـ/ ١٢٠٠ م) :
١٥ ـ خريدة القصر وجريدة العصر ، ق٤ ، ج٢ ، تحقيق عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ـ الفجالة ـ مصر ـ ١٩٦٤ م .

ابن ابي اصيبعه (ت ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م :
١٦ ـ عيون الانباء في طبقات الاطباء ، المطبعة الوهبية ، ١٨٨٢ م .

ابن بسام (ت ٥٤٢ هـ/ ١١٤٧ م) :
١٧ ـ الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة . حقق منه احسان عباس ، ق١ ، ج٢ ، بيروت ١٩٧٥ م .
ق٢ ، ج١ ، ج٢ ، بيروت ١٩٧٨ م .
ق٣ ، ج١ ، ، بيروت ١٩٧٩ م .
ق٤ ، ج١ ، ، بيروت ١٩٧٩ م .

ابن بشكوال (ت ٥٧٨ هـ/ ١١٨٢ م) :
١٨ ـ الصلة في تاريخ ائمة الاندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وادبائهم ، القاهرة ١٩٥٥م .

ابن بلقين (ت ٤٨٣ هـ/ ١٠٩٠ م) :
١٩ ـ التبيان ، تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة ١٩٥٥ م .

البكرى (ت ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م) :
٢٠ ـ جغرافية الاندلس واوروبا ، منتخبه من كتاب المسالك والممالك تحقيق عبد الرحمن الحجي ، بيروت ١٩٦٨ م .

البغدادي (ت ٤٦٣ هـ/ ١٠٧٠ م) :
٢١ ـ تاريخ مدينة بغداد ، تحقيق وطبع اوفست كونرو غرافير ، بيروت ، د . ت .

البيذق (ت القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي) :
٢٢ ـ المقتبس من كتاب الانساب في معرفة الاصحاب ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ، الرباط ، ١٩٧١ م .
٢٣ ـ اخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين ، الرباط ، ١٩٧١ م .

التطيلي (ت ٥٢٥ هـ/ ١١٣٠ م) :
٢٤ ـ ديوان الاعمى التطيلي ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٣ م .

ابن تغري بردى (ت ٨٧٤ هـ/ ١٤٦٩ م) :
٢٥ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج٥ ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر ، ١٩٦٣ م .

ابن تومرت (ت ٥٢٤ هـ/ ١١٢٩ م) :
٢٦ ـ كتاب محمد بن تومرت مهدي الموحدين ، الجزائر ١٩٥٩ م .

ابن تيمية (٧٢٨ هـ/ ١٣٢٧ م) :
٢٧ ـ مجموع فتاوى شيخ الاسلام احمد بن تيمية ، الرياض ، ط١ ، ١٣٨١ هـ .

الجزنائي (ت القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي) :
٢٨ ـ جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، الرباط ١٩٦٧ م .

ابن حزم (ت ٤٥٦ هـ/ ١٠٨٣ م) :
٢٩ ـ الفصل في الملل والاهواء والنحل ، طبعة في مجلدين الاول يحوي جزئين ، والثاني ثلاثة اجزاء ـ يطلب من مكتبة المثني بغداد .

الحميري (ت ٩٠٠ هـ/ ١٥٠٧ م) :
٣٠ - الروض المعطار في خبر الاقطار تحقيق احسان عباس ، بيروت ١٩٧٥ م .

ابن حيان (ت ٤٦٩ هـ/ ١٠٧٦ م) :
٣١ - المقتبس من انباء اهل الاندلس ، تحقيق محمود علي مكي ، بيروت ١٩٧٣ م .

ابن خاقان (ت ٥٢٩ هـ/ ١١٣٤ م) :
٣٢ - قلائد العقيان في محاسن الاعيان ، تونس ١٩٦٦ م (مصورة عن طبعة باريس) .

ابن خفاجة (ت ٥٣٣ هـ/ ١١٣٧ م) :
٣٣ - ديوان ابن خفاجة ، دار صادر بيروت ١٩٦١ م .

ابن الخطيب (ت ٧٧٩ هـ/ ١٣٧٧ م) :
٣٤ - معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار ، تحقيق محمد كمال شبانة - مطبعة فضالة - المحمدية (المغرب) ١٩٧٦ م .
٣٥ - الاحاطة في اخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، القاهرة (١٩٧٣ - ١٩٧٥ م) .
٣٦ - تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط (وهو القسم الثالث من كتاب اعمال الاعلام) ، تحقيق احمد مختار العبادي ، ومحمد ابراهيم الكتاني ، الدار البيضاء ١٩٦٤ م .

ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥ م) :
٣٧ - مقدمة ابن خلدون ، المكتبة التجارية الكبرى د . ت .
٣٨ - تاريخ ابن خلدون ، ج٦ ، بيروت ١٩٥٩ م .

ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢ م) :
٣٩ - وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، تحقيق احسان عباس ، ج١ - ٣ ، دار الثقافة بيروت ١٩٦٨ م .

ج٤ ـ ٧ ، دار الصادر بيروت ١٩٧١ م .

ابن دحيه (ت ٦٣٣ هـ/ ١٢٣٥ م) :

٤٠ ـ المطرب من اشعار اهل المغرب ، تحقيق ابراهيم الايباري وآخرون ، المطبعة الاميرية ١٩٥٥ م .

ابن أبي دينار :

٤١ ـ المؤنس في أخبار افريقية وتونس ، تحقيق محمد شمام ، تونس ، ط ٢ ، ١٩٦٧م .

ابن رشد (ت ما بين عامي ٥٢٠ و ٥٣٠ هـ/ ١١٢٦ و ١١٣٥ م) :

٤٢ ـ مسائل ابي الوليد بن رشد ، تحقيق ودراسة قام بها محمد بن الحبيب التجكاني لنيل درجة الماجستير في الفقه الاسلامي من جامعة القرويين (دار الحديث الحسنية ، الرباط ، وهي مطبوعة على آلة كاتبة ١٩٧٧ م) .

ابن أبي زرع (كان حيا قبل ٧٢٦ هـ / ١٣٢٥ م) :

٤٣ ـ الانيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، الرباط ، ١٩٧٣ م .

الزركشي (ت حوالي ٨٩٤ هـ/ ١٤٨٨ م) :

٤٤ ـ تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق محمد ماضور ، تونس ، ط ٢ ١٩٦٦ م .

ابن زكريا (ت ٣٩٥ هـ/ ١٠٠٤ م) :

٤٥ ـ معجم مقاييس اللغة ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٧٣ م .

السرقسطي (ت ٥٣٨ هـ/ ١١٤٣ م) :

٤٦ ـ المسلسل في غريب اللغة تحقيق محمد عبد الجواد ، القاهرة ١٩٥٧ م .

ابن سعيد (ت ٦٨٥ هـ/ ١٢٨٦ م) :
٤٧ ـ المغرب في حلي المغرب ، تحقيق شوقي ضيف ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٦٤ م .

السلاوي (ت ١٣١٥ هـ/ ١٨٩٠ م) :
٤٨ ـ الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى ، ج٢ ، الدار البيضاء ١٩٥٤م .

السيوطي (ت ٩١١ هـ/ ١٥٠٥ م) :
٤٩ ـ تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٧٥ م .

الامام الشافعي (ت ٢٠٤ هـ/ ٨١٩ م) :
٥٠ ـ الرسالة ، تحقيق احمد محمد شاكر ١٩٣٩ م .

ابو شامة (ت ٦٦٥ / ١٢٥٨ م) :
٥١ ـ مجموعة الرسائل ، مطبعة كردستان العلمية ـ مصر ١٣٢٨ هـ .

شيخ الربوة ابو عبد الله محمد بن ابي طالب الانصاري الصوفي الدمشقي .
٥٢ ـ نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، طبع في مدينة بطر بورع في مطبعة الاكاديمية الامبراطورية ١٨٦٥ م .

الضبي (ت ٥٩٩ هـ/ ١٢٠٢ م) :
٥٣ ـ بغية الملتمس في تاريخ رجال اهل الاندلس ، مدريد ١٨٨٤ م .

الطرطوشي (ت ٥٢٠ هـ/ ١١٢٦ م) :
٥٤ ـ سراج الملوك ، طبعة انطون غندور ـ القاهرة ١٨٩٢ م .

ابن عذارى (ت ٦٩٥ هـ/ ١٢٩٥ م) :
٥٥ ـ البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب .
ج٢ ، ج٣ ، تحقيق كولان وبروفنسال ١٩٥١ م .
ج٤ تحقيق احسان عباس بيروت ١٩٧٧ م .

ابن العربي (ت ٥٤٣ هـ/ ١١٤٨ م) :
٥٦ ـ احكام القرآن ، تحقيق محمد علي البجاوي ، القاهرة ، ١٩٧٢ .
٥٧ ـ العواصم من القواصم ، تحقيق محب الدين الخطيب ، بيروت ١٩٧٩ م .

ابن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩ هـ/ ١٦٧٨ م) :
٥٨ ـ شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، بيروت طبعة دار الآفاق الجديدة د . ت .

ابن عياض (ت ٥٧٥ هـ/ ١١٦٧٩ م) :
٥٩ ـ التعريف بالقاضي عياض، تحقيق محمد بن شريفة، منشورات وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية والثقافية في المملكة المغربية ، مطبعة فضالة ـ المغرب .

الغزالي (ت ٥٠٥ هـ/ ١١١١ م) :
٦٠ ـ احياء علوم الدين ، بيروت دار المعرفة للطباعة والنشر ، د . ت .
٦١ ـ فضائح الباطنية ، تحقيق عبد الرحمن بدوي ، القاهرة ١٩٦٤ م .

أبو الفدا (ت ٧٣٢ هـ/ ١٣٣١ م) :
٦٢ ـ تقويم البلدان ، دار الطباعة السلطانية باريس ١٨٤٠ م .
٦٣ ـ تاريخ الملك المؤيد اسماعيل ابي الفدا .

ابن فرحون (ت ٧٩٩ هـ/ ١٣٩٦ م) :
٦٤ ـ الديباج المذهب ، تحقيق محمد الاحمدي ابو النور ، القاهرة ١٩٧٤ م .

ابن القاضي (ت ١٠٢٥ هـ/ ١٦١٦ م) :
٦٥ ـ جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الاعلام مدينة فاس ، ج١ الرباط ١٩٧٣ م ، ج٢ ، الرباط ١٩٧٤ م .

القرماني ، ابي العباس احمد بن يوسف بن احمد الدمشقي :
٦٦ ـ اخبار الدول واثار الاول في التاريخ ، طبعة عالم الكتب ، بيروت ، د . ت .

القزويني (ت ٦٨٢ هـ/ ١٢٨٣ م) :
٦٧ ـ آثار البلاد واخبار العباد ، بيروت ـ دار صادر ١٩٦٠ م .

القلقشندي (ت ٨٢١ هـ/ ١٤١٨ م) :
٦٨ ـ صبح الاعشي في صناعة الانشا ، نسخة مصور عن الطبعة الاميرية ، المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة .
٦٩ ـ مآثر الانافة في معالم الخلافة ، تحقيق عبد الستار احمد فراج ، الكويت ١٩٦٤ م .

ابن قنفذ (ت ٨٠٩ هـ/ ١٤٠٦ م) :
٧٠ ـ الوفيات ، تحقيق عادل نويهض ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٨ م .

ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ/ ١٣٧٢ م) :
٧١ ـ البداية والنهاية ، بيروت ، ط ٢ . ١٩٧٧ م .

ابن الكردبوس (من علماء القرن السادس الهجري) :
٧٢ ـ تاريخ الاندلس ، تحقيق احمد مختار العبادي ، نشر في صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد في المجلد الثالث عشر ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦ م .

المراكشي (ت ٦٤٧ هـ/ ١٢٤٩ م) :

٧٣ ـ المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ١٩٦٣ م .

المقري (ت ١٠٤١ هـ/ ١٦٣١ م) :
٧٤ ـ نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٩ م .

المقريزي (ت ٨٤٥ هـ/ ١٤٤١ م) :
٧٥ ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار ، مطبعة الساحل الجنوبي ـ الشياح ـ لبنان ١٩٥٩ م .

مؤلف مجهول اندلسي (من اهل القرن الثامن الهجري) :
٧٦ ـ الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية ، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامه ، الدار البيضاء ، ط١ ، ١٩٧٩ م .

النباهي (ت ٧١٣ هـ/ ١٣١٣ م) :
٧٧ ـ المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، المكتبة التجارية للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت .

ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٨ م) :
٧٨ ـ معجم البلدان ، دار احياء التراث العربي (١٩٥٦ ـ ١٩٥٧) ، وطبعة دار صادر ، ١٩٧٧ .

٣ ـ المراجع الحديثة :

ابراهيم حركات :
٧٩ ـ المغرب عبر التاريخ ، الدار البيضاء ، ط١ ، ١٩٦٥ م .

احسان عباس :
٨٠ ـ تاريخ الادب الاندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) بيروت ، ط٥ ، ١٩٧٨ م .

احمد امين :
٨١ ـ ظهر الاسلام ، ج١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، القاهرة ١٩٤٥ ـ ١٩٦١ م .

احمد الياس :
٨٢ ـ الطرق التجارية عبر الصحراء الكبرى حتى مستهل القرن السادس عشر كما عرفها الجغرافيون العرب ، رسالة ماجستير مقدمة لجامعة القاهرة ، ١٩٧٧ م . لم تطبع .

احمد السباعي :
٨٣ ـ تاريخ مكة ، دار مكة للطباعة والنشر والتوزيع ، ط٤ ، ١٩٧٩ م .

احمد السعيد سليمان :
٨٤ ـ تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الاسر الحاكمة ، القاهرة ، ١٩٦٩ م .

احمد علي الملا :
٨٥ ـ اثر العلماء المسلمين في الحضارة الاوروبية ، دار الفكر ، د .ت .

احمد مختار العبادي :
٨٦ ـ في تاريخ المغرب والاندلس ، مؤسسة الثقافة الجامعية الاسكندرية .

ادورد زامباور :
٨٧ ـ معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ، ترجمة زكي محمد حسن بك ، وحسن احمد محمود ، القاهرة ١٩٥١ م .

اثر كوستلر :
٨٨ ـ امبراطورية الخزر وميراثها ، ترجمة حمدي متولي ، دمشق ،

١٩٧٨ م .

ارنست كونل :

٨٩ ـ الفن الاسلامي ، ترجمة احمد موسى ، بيروت ، ١٩٦٦ م .

اسماعيل بن محمد الانصاري :

٩٠ ـ حكم بناء الكنائس والمعابد الشركية في بلاد المسلمين ، ط١ ، ١٤٠١ هـ .

اميل فيلكس غوتيه :

٩١ ـ ماضي شمال افريقيا ، ترجمة هاشم الحسيني ، طرابلس ، ليبيا ، ١٩٧٠ م .

اميلو غرسيه غومس :

٩٢ ـ الشعر الاندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٦٩ م .

٩٣ ـ شعراء الاندلس والمتنبي ، ترجمة الطاهر احمد مكي ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٧٤ م .

آنخل جنثالث بالنثيا :

٩٤ ـ تاريخ الفكر الاندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥٥ م .

بادال دافدسن :

٩٥ ـ افريقيا تحت اضواء جديدة ، ترجمة جمال محمد احمد ، بيروت ١٩٦١ م .

ج . دي ، بور :

٩٦ ـ تاريخ الفلسفة في الاسلام ، ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريدة ، القاهرة ، ١٩٣٨ م .

جودت الركابي :
٩٧ ـ في الادب الاندلسي ، القاهرة ، ط٤ ، ١٩٧٥ م .

الجيب الجنحاني :
٩٨ ـ المغرب الاسلامي ، الدار التونسية للنشر ، ١٩٧٧ م .

حسن ابراهيم حسن :
٩٩ ـ تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٦٧ م .

حسن احمد محمود :
١٠٠ ـ قيام دولة المرابطين ، القاهرة ، ١٩٥٧ م .

الحسن السائح :
١٠١ ـ الحضارة المغربية عبر التاريخ ، الدار البيضاء ، ط١ ، ١٩٧٥ م .

حسين مؤنس :
١٠٢ ـ فجر الاندلس ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٥٩ م .

حيدر بامّات :
١٠٣ ـ مجالي الاسلام ، ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة ، ١٩٥٦ م .

خليل ابراهيم صالح البشير :
١٠٤ ـ علاقات المرابطين بالممالك النصرانية بالاندلس ـ والدول الاسلامية ، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراة في التاريخ الاسلامي ـ جامعة القاهرة ، ١٩٧٩ م . (لم تطبع) .

خودا بخش :
١٠٥ ـ الحضارة الاسلامية ، ترجمة علي حسني الخربوطلي ، دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ١٩٦٠ م .

دانييل ماك كوك :
١٠٦ ـ الروايات التاريخية عن تأسيس سجلماسة وغانة ترجمة محمد الحمداوي ، الدار البيضاء ، ١٣٩٥ هـ .

رزق الله منقريوس الصدفي :
١٠٧ تاريخ دول الاسلام ، مطبعة الهلال ، مصر ١٩٠٧ م .

رضا عبد الجليل الطيار :
١٠٨ ـ الدراسات اللغوية في الاندلس منذ مطلع القرن السادس الهجري حتى منتصف القرن السابع الهجري ، دار الرشيد للنشر ـ العراق ، ١٩٨٠ م .

رولاند اوليفر :
١٠٩ ـ موجز تاريخ افريقية ، ترجمة دولت احمد صادق ، الدار المصرية للتأليف والترجمة .

رينهارت دوزي :
١١٠ ـ ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الاسلام ، ترجمة كامل كيلاني ، القاهرة ، ١٩٣٣ م .

زكي النقاش :
١١١ ـ العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العلاب والافرنج خلال الحروب الصليبية ، بيروت ، ١٩٥٧ م .

زيغرد هونكة :
١١٢ ـ شمس العرب تسطع على الغرب ، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي ، بيروت ، ط٤ ، ١٩٨٠ م .

ستيفن رنسيمان :

١١٣ ـ تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة الباز العريني ، بيـروت ، ط١ ، ١٩٦٧ م .

سعد زغلول عبد الحميد :
١١٤ ـ محمد بن تومرت وحركة التجديد في المغرب والانـدلس بيروت ، ١٩٧٣ م .

سعيد عاشور :
١١٥ ـ بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ، بيروت ، ١٩٧٧ .

سيد امير علي :
١١٦ ـ تاريخ العرب والتمدن الاسلامي ، ترجمـة رياض رأفت ، مـطبعة التأليف والنشر ، ١٩٣٨ م .

السيد عبد العزيز سالم :
١١٧ ـ قرطبة حاضرة الخلافة في الاندلس ، بيروت ، ١٩٧١ م .
١١٨ ـ تاريخ مدينة المرية الاسلامية قاعدة اسـطول الاندلس ، بيـروت ، ط ١ ، ١٩٦٩ م .
١١٩ ـ المغرب الكبير ، الاسكندرية ، ١٩٦٦ م .
١٢٠ ـ تـاريـخ المسلمين وآثـارهم في الانـدلس ، دار المعـارف مصـر ١٩٦٢ م .

شاخت وبوزرث :
١٢١ ـ تراث الاسلام ، ترجمة حسين مؤنس واحسان صدقي العمد (نشر ضمن سلسلة عالم المعرفة ذو القعدة/ ذو الحجة ١٣٩٨ هـ) .

شكيب ارسلان :
١٢٢ ـ الحلل السنـدسيـة في الاخبـار والآثـار الانـدلسيـة ، بيـروت ، ١٣٥٨ هـ .

شوقي ضيف :
١٢٣ ـ الفن ومذاهبه في النثر العربي ، القاهرة ،ط ٨ ، ١٩٧٧ م .

الطاهر احمد مِكي :
١٢٤ ـ دراسات اندلسية في الادب والتاريـخ والفلسفة ، دار المعـارف ، ط١ ، ١٩٨٠ م .

ظافر القاسمي :
١٢٥ ـ نظام الحكم في الشريعة والتاريخ ، بيروت ط١ ، ١٩٧٤ م .

عبد الله بن العباس الجراري :
١٢٦ ـ تقدم العرب في العلوم والصناعات واستاذيتهم لاوروبا ، دار الفكر العربي ، ط١ ، ١٩٦١ م .
١٢٧ الادب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه ، ج١ ، ط١ ، ١٩٧٩ م .
١٢٨ ـ وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ ، الدار البيضاء ، ١٣٩٥ م .

عبد الله علام :
١٢٩ ـ الدعوة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي ، القاهرة ، ١٩٦٨ م .

عبد الله كنون : ـ
١٣٠ ـ عبد الله بن ياسين ، بيروت ، ١٩٧١ م .

عبد الحميد العبادي :
١٣١ ـ المجمل في تاريخ الاندلس ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٦٤ م .

عبد الحق حموش :
١٣٢ ـ ابن تاشفين ، نشر دار الكتاب ـ الدار البيضاء ، د . ت .

عبد رب النبي محمد :
١٣٣ ـ مسكوكات المرابطين والموحدين في شمال افريقيا والاندلس رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الحضارة والنظم الاسلامية ـ كلية الشريعة والدراسات الاسلامية ـ جامعة الملك عبد العزيز ـ مكة المكرمة ، ١٩٧٩ م ، (لم تطبع) .

عبد الرحمن الحجي :
١٣٤ ـ جوانب من الحضارة الاسلامية ، دمشق ، ط١ ، ١٩٧٩ م .
١٣٥ ـ اندلسيات ، دار الارشاد للطباعة والنشر ، ١٩٦٩ م .
١٣٦ ـ التاريخ الاندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٧٦ م .

عبد الرحمن فهمي :
١٣٧ ـ موسوعة النقود العربية ، القاهرة ، ١٩٦٥ م .

عبد العزيز الاهواني :
١٣٨ ـ الزجل في الاندلس ، القاهرة ، ١٩٥٧ م .

عبد العليم عبد العظيم :
١٣٩ ـ الاحاديث الواردة في المهدي في ميزان الجرح والتعديل ، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير من قسم الكتاب والسنة بكلية الشريعة والدراسات الاسلامية بجامعة الملك عبد العزيز مكة المكرمة ، ١٩٧٨م . (لم تطبع) .

عبد المنعم ماجد :
١٤٠ ـ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، بيروت ، ١٩٦٦ م .

عبد الكريم التواتي :

١٤١ ـ مأساة انهيار الوجود العربي في الاندلس ، الدار البيضاء ، ط١ ، ١٩٦٧ م .

عبد الهادي التازي :
١٤٢ ـ جامع القرويين ، بيروت ، ط١ ، ١٩٧٢ م .

عبده بدوي :
١٤٣ ـ مع حركة الاسلام في افريقية ، القاهرة ١٩٧٠ م .

فالترهنتس :
١٤٨ ـ المكاييل والاوزان الاسلامية وما يعادلها في النظام المتري ، ترجمة كامل العسلي ، عمان ، ١٩٧٠ م .

ابو الفتوح التوانسي :
١٤٩ ـ من اعلام الطب العربي ، الدار القومية للطباعة والنشر .

فيليب حتي :
١٥٠ ـ تاريخ العرب مطول ، مطابع الغندور ، ط٤ ، ١٩٦٥ م .

كارل بروكلمان :
١٥١ ـ تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكي ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٥٤ م .

لطفي عبد البديع :
١٥٢ ـ الاسلام في اسبانيا ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٥٨ م .

ليفي بروفنسال :
١٥٣ ـ حضارة العرب في الاندلس ، ترجمة ذوقان قرقوط ، بيروت ، دار مكتبة الحياة .

ليوبولد وتوريس بالباس :
١٥٤ ـ الفن المرابطي والموحدي ، ترجمة سيد غازي ، القاهرة ، ١٩٧١ م .

لين بول :
١٥٥ ـ قصة العرب في الاندلس ، ترجمة علي الجارم ، دار المعارف ، ١٩٦٠ .

مانويل جوميث مورينو :
١٥٦ ـ الفن الاسلامي في اسبانيا ، ترجمة لطفي عبد البديع وعبد العزيز سالم ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، د . ت .

محسن حامد العبادي :
١٥٧ ـ ابن سعيد الاندلسي حياته وتراثه الفكري والادبي القاهرة ، ١٩٧٤ م .

مصطفى الشكعة :
١٥٨ ـ الادب الاندلسي موضوعاته وفنونه ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٧٥ م .

محمد خليل هراس :
١٥٩ ـ شرح العقيدة الواسطية لشيخ الاسلام ابن تيمية ، الناشر المكتبة السلفية بالمدينة المنورة ، ط٣ ،

محمد كامل حسين :
١٦٠ ـ طائفة الاسماعيلية ـ تاريخها ـ نظمها ـ عقائدها القاهرة ، ط١ ، ١٩٥٩ م .

محمد عبد الله عنان :
١٦١ ـ دولة الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٦٠ م .

١٦٢ ـ عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس ـ العصر الثالث ، القسم الاول ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٦٤ م .
١٦٣ ـ دول الاسلام في الاندلس ، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٦٠ م .
١٦٤ ـ مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ، القاهرة ، ١٩٥٢ م .
١٦٥ ـ نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٦٦ م .
١٦٦ ـ الآثار الاندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٦١ م .

محمد عبد العزيز مرزوق :
١٦٧ ـ الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس ، دار الثقافة بيروت .

محمد مجيد السعيد :
١٦٨ ـ الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالاندلس ، دار الرشيد ، ١٩٨٠ م .

محمد المنوني :
١٦٩ ـ العلوم والاداب والفنون على عهد الموحدين ، الرباط ، ١٩٧٧ م .

محمد ولد داداه :
١٧٠ ـ مفهوم الملك في المغرب من انتصاف القرن الاول الى انتصاف القرن السابع ـ دراسة في التاريخ السياسي ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٧٧ م .
١٧١ ـ محمود اسماعيل :
١٧٢ ـ دراسات مغربية جديدة ، فاس ، ١٩٧٧ م .

الميرالاي اسماعيل سرهنك :

١٧٣ ـ حقائق الاخبار عن دول البحار ، بولاق ، ط١ ، ١٣١٢ هـ .

هشام سليم عبد الرحمن ابو رميلة :
١٧٤ ـ نظم الحكم في الاندلس في عصر الخلافة ، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الاداب ـ قسم التاريخ ـ جامعة القاهرة ١٩٧٥ م . (لم تطبع)

يوسف اشباخ :
١٧٥ ـ تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، ١٩٥٨ م .
١٧٦ ـ اثر العرب والاسلام في النهضة الاوروبية ، اعدت هذه الدراسة باشراف مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع منظمة الامم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (يونسكو) ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧٠ م .
١٧٧ ـ بحوث في التاريخ الاقتصادي ، ترجمة توفيق اسكندر ، القاهرة ١٩٦١ م .
١٩٧٨ ـ مهرجان الغزالي في دمشق (ابو حامد الغزالي في الذكرى المئوية التاسعة لميلاده) مجموعة بحوث تناولت حياة الغزالي وفكرة ، صدرت على شكل كتاب ، دمشق ، ١٩٦١ م .
١٧٩ Abdurrahman Ali El— Hajji, Andulusian diplomatic rilations With Western Europe during the Umayyad period (A. H. 138 — 366 / A. D. 755 — 976) Dar Al — Irshad, Beirut 1970.

٤ ـ الدوريات :

احمد مختار العبادي :
١٧٨ ـ دراسة حول كتاب الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية واهميته

في تاريخ المرابطين والموحدين ، مجلة تطوان ، العدد الخامس ، ١٩٦٠ م .
١٧٩ ـ الحياة الاقتصادية في المدنية الاسلامية ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الحادي عشر ، العدد الاول ـ ابريل ـ مايو ـ يونيو ـ ١٩٨٠ م .

اسماعيل الشطي :
١٨٠ ـ حقيقة قضية المهدي ، مجلة المجتمع الكويتية ، العدد ٤٦٢ ديسمبر ، ١٩٧٩ م .

امبرو سيوهويسي ميراندة :
١٨١ ـ وقعة اقليش ومصرع الامير ضون شانجة ، مجلة تطوان العدد الثاني
١٨٢ ـ علي بن يوسف واعماله في الاندلس ، مجلة تطوان العدد الثالث والرابع ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩ م .

امين توفيق الطيبي :
١٨٣ ـ النقود العربية غزت اوروبا القرون الوسطى ، مجلة العربي العدد ٤٧٦ محرم ١٤٠٢ هـ/ نوفمبر ١٩٨١ م .

الحبيب الجنحاني :
١٨٤ ـ الحياة الاقتصادية والاجتماعية في سجلماسة بني مدرار مجلة المؤرخ العربـي ، العدد الخامس .

حسين مؤنس :
١٨٦ ـ الثغر الأعلى الاندلسي في عصر المرابطين ، مجلة كلية الاداب بجامعة القاهرة ، المجلد الحادي عشر الجزء الثاني ١٩٤٩ م .
١٩٠ ـ السيد الكمبيطور ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الثالث العدد الأول مايو ١٩٥٠ م .

١٩١ ـ نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين الى الموحدين ، مجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية في مدريد ، المجلد الاول العدد الثالث ١٩٥٥ م .
١٩٢ ـ سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وايامهم في الاندلس ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية في مدريد ، المجلد الثاني العدد الاول والثاني ، ١٩٥٤ م .
١٩٣ ـ الجغرافية والجغرافيون في الاندلس ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، المجلد التاسع والعاشر ١٩٦١ ـ ١٩٦٢ م . والمجد الحادي عشر والثاني عشر ١٩٦٣ ـ ١٩٦٤ م .

خليل السامرائي :
١٩٤ ـ الجزائر الشرقية في ايام الطوائف ، مجلة التربية والعلم ، كلية التربية ، جامعة الموصل ، ١٩٧٩ م .

الطرايسي احمد اعراب :
١٩٥ ـ الاصوات النضالية والانهزامية في الشعر الاندلسي ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الثاني عشر ـ ابريل ـ مايو ـ يونيو ، ١٩٨١ م .

عباس حلمي :
١٩٦ ـ المدارس الاسلامية ودور العلم وعمارتها الاثرية وتاريخها وتخطيط عمائرها ، مجلة كلية الشريعة والدراسات الاسلامية ـ مكة المكرمة ، العدد الثالث ١٣٩٧ / ١٣٩٨ هـ .

عباس الجراري :
١٩٧ ـ اثر الاندلس على اوروبا في مجال النغم والايقاع ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الثاني عشر ابريل ـ مايو ـ يونية ١٩٨١ م .

عبد البصير حسين :
١٩٨ ـ رأى في القاب الموشحة ونشأة فن التوشيح ، مجلة كلية الشريعة

والدراسات الاسلامية ـ مكة المكرمة ـ السنة الأولى العدد الاول ١٣٩٣/ ١٣٩٤ هـ .

عبد الرحمن بدوي :

١٩٩ ـ رسائل جديدة لابن باجة ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، المجلد الخامس عشر ١٩٧٠ م .

عبد الله كنون :

٢٠٠ ـ رسالة الكاتب ابن ابي الخصال التي نال فيها من كرامة المرابطين ، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، المجلد الخامس والثلاثون الجزء الرابع ربيع الاخر ١٣٨٠ هـ .

عبد الحليم عويس :

٢٠١ ـ رحلة الى بلاد الملثمين ، مجلة الفيصل العدد ٣٦ مايو ـ ابريل ١٩٨٠ م .

عبد العال عبد المنعم الشامي :

٢٠٢ ـ جغرافية المدن عند العرب ، مجلة عالم الفكر ، المجلد التاسع العدد الاول ١٩٧٨ م .

عبد العزيز بن عبد الله :

٢٠٣ ـ الفكر العلمي ومنهجية البحث عند علماء المغرب ، مجلة الدارة العدد الثالث ، مارس ١٩٨٠ م .

عبد العلي الودغيري :

٢٠٤ ـ المعجم العربي في الاندلس ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الثاني عشر ابريل ـ مايو ـ يونيو ١٩٨١ م .

محمد ادريس العلمي :

٢٠٥ ـ الحركة الدينية في عهد المرابطين ، مجلة دعوة الحق ، العدد

الثالث ديسمبر ، ١٩٦٢ م .

محمد باقر الحسيني :
٢٠٦ ـ الكنى والالقاب على نقود المرابطين والموحدين في شمال افريقيا والاندلس ، مجلة سومر ، المجلد الثلاثون ١٩٧٤ م .

محمد مفتاح :
٢٠٧ ـ مفهوم الجهاد والاتحاد في الادب الاندلسي ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الثاني عشر ، ابريل مايو ـ يونيو ١٩٨١ م .

محمود علي مكي :
٢٠٨ ـ وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، المجلد السابع والثامن ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠ م .

The Encyclopaedia of Islam.



محتويات الكتاب

الموضـوع ... الصفحة

الباب الثاني
العلاقات السياسية للمرابطين مع العالم الاسلامي

الباب الثالث
جهاد علي بن يوسف بن تاشفين
ضد الممالك والامارات الاسبانية النصرانية

الفصل الأول :

الفصل الثاني : جهاده ضد مملكة أرغونة وإمارة برشلونة
وخضوع الجزائر الشرقية لسلطان المرابطين

الباب الرابع
أهم مظاهر التطور الحضاري في دولة المرابطين
في عهد علي بن يوسف بن تاشفين

الملاحق

طبع وتنفيذ

دار الندوة الجديدة

ص.ب : ١٤/٥١٧٤

بيروت - لبنان